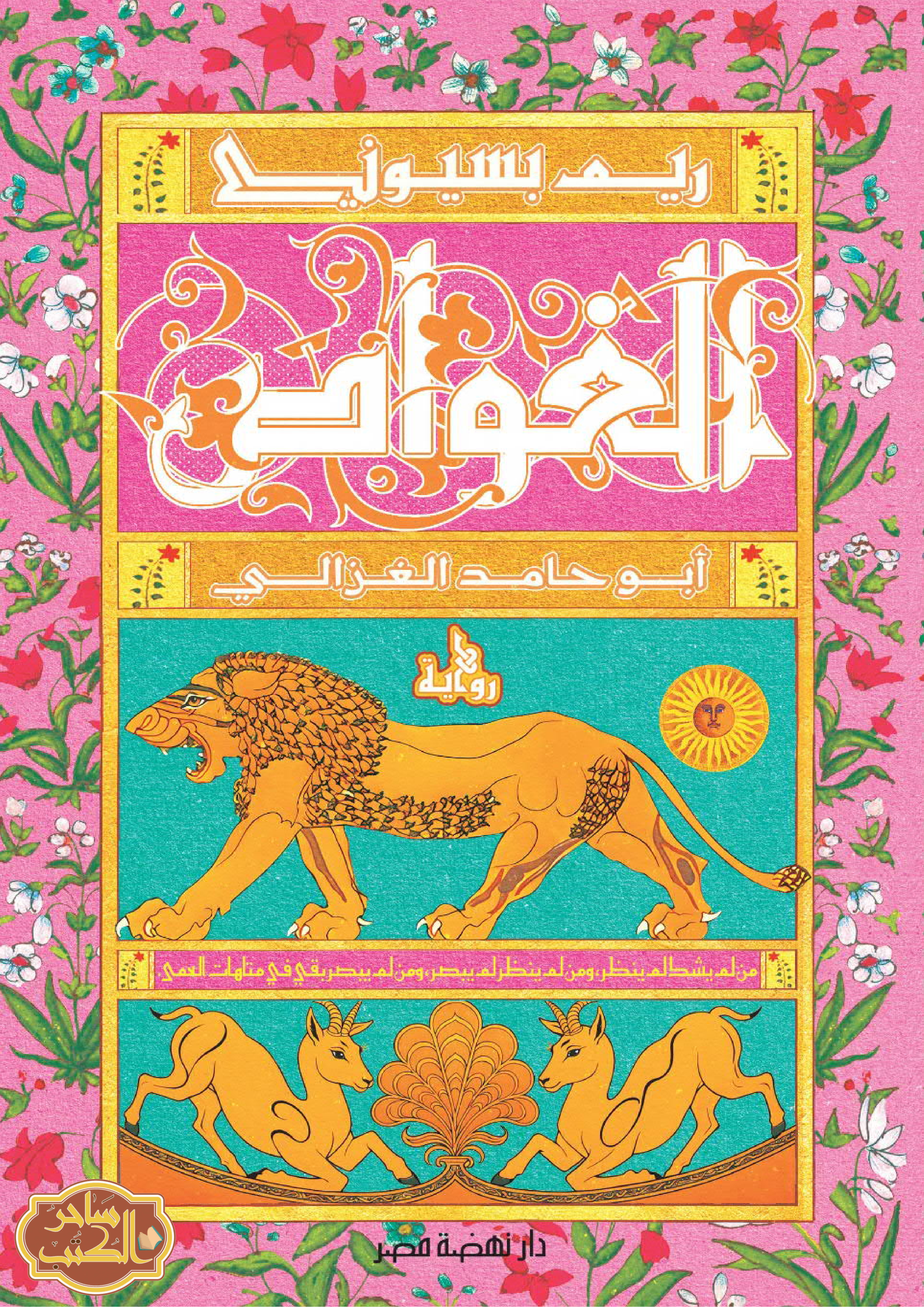


ريم بسيوني
الغواص
أبو حامد الغزالي
رواية
من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في متاهات العمى
دار نهضة مصر

«الناس أعداء ما جهلوا»

الغزالي

قصة حقيقية

في عام 1977 تم تداول مخطوطة مصورة من مكتبة بلدية الإسكندرية عنوانها «الأسد والغواص». المخطوطة ترجع إلى أوائل القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي. في البداية ظن البعض أنها نسخة مقلدة من كليلة ودمنة؛ فهي تحكي قصة أسد غابة يستعين بثعلب حكيم ليرشده كيف يحكم بالعدل ويقضي على أعدائه، ولكن قصة «الأسد والغواص» ليست تقليدًا لكليلة ودمنة، فالأسلوب مختلف، واللغة الأصلية للمخطوطة هي العربية. وقد لاحظ المتخصصون فن الحكي في المخطوطة والأسلوب الحواري والقصص المتشابكة؛ فتارة يشبهونها بألف ليلة وليلة، وتارة بكليلة ودمنة، ولكن بعد أعوام حدث شيء لافت.

كتب عالم أجنبي كتابًا عن فلسفة أبي حامد الغزالي، وفي طيات الكتاب قال: إن بطل مخطوطة الأسد والغواص يحاكي الغزالي في شخصيته ومصيره. الثعلب أو الغواص الذي يساعد الملك الأسد في مخطوط الأسد والغواص يشبه أبا حامد الغزالي إلى درجة غريبة، ولكن ليس للمخطوطة كاتب. النسخ التي وجدها المتخصصون في أماكن مختلفة تغفل اسم الكاتب.

من هو كاتب مخطوطة الأسد والغواص؟ وهل يمكننا اعتبار الأسد والغواص أول رواية عربية؟ بالنسبة لي نعم. ويرجع ذلك لأسباب كثيرة، ولكن ما جعلني أبحث أعوامًا كان شيئين: تشابه حياة الثعلب أو الغواص مع حياة الغزالي، وكون كاتب المخطوطة مجهولًا.

لأنني أكتب، أدركت بعد مدة ليست بقصيرة أن كاتب المخطوطة

مجهول، ليس لأنه خائف من الحاكم، فالرواية رمزية أصلًا، ولكن الكاتب مجهول؛ لأنه ربما يكون امرأة، بل أرجح بأن كاتب مخطوطة الأسد والغواص امرأة قريبة من الغزالي، تعرف عنه ما يجعل القارئ يربط بين البطل الغواص والغزالي. ولو كانت الكاتبة امرأة فهذا ربما يفسر التعمد في إخفاء الاسم.

ولكن السؤال: لمَ لم يلاحظ المتخصصون أن الغواص هو أبو حامد الغزالي؟ ومن هي المرأة؟ ولمَ كتبت؟

الباب الأول

الرحيل

«المنازل الرفيعة لا تُنال إلا باقتحام الأخطار».

الغزالي

الفصل الأول

الطريق من طوس إلى نيسابور 461 هـ - 1071 م

علت الصرخات من الرجال قبل النساء: لصوص...اتركوا كل أمتعتكم، واهربوا...قاطعو الطريق لا يأبهون بالأرواح، يقتلون بلا رحمة.

قبل أن يلتفت الفتى إلى أخيه كان السيف يكاد يخترق رقبته، جاء الأمر في صوت رتيب: اترك أمتعتك لتعيش.

ارتجف الأخ الصغير وهمس: محمد، سيقتلوننا. اترك حقيبتك.

ولكن محمد بدا في مكان بعيد. عيناه تبحثان في الصحراء أو تطوفان في السماء.

نغزه اللص بعصًا غليظة أفاقته، ثم انتزع اللص الحقيبة قبل أن يرتد إليه طرفه. حاول أحد الرجال المقاومة، فأصابه سيف في صدره أسكته إلى الأبد. حينها لفظت الرجال الذهب دفعة واحدة وهم يتضرعون للصوص.

مكث محمد وأخوه الصغير أحمد صامتين بلا حراك. شاهد محمد القتل لأول مرة مع أنه عاصر الموت مرتين؛ مرة عند موت والده وهو في العاشرة، ومرة أخرى منذ شهور عند موت والدته وهي نائمة بلا وداع أو ألم. هذه المرة الدماء طازجة، والقلب ينتفض قبل أن يخمد كما يتسعر اللهب.

ما إن ابتعد اللصوص حتى هوى كل أفراد القافلة يلملمون أشلاء

قلوب ترتجف رعبًا من موت جاء بغتة، ثم اختفى.

ضغط محمد على يد أخيه الصغير الذي لم يستطع أن يسيطر على دموعه، ثم قال: اثبت يا أحمد. رحلوا وانتهى الأمر.

-أريد العودة إلى بيتنا في طوس.

أحاط محمد كتف أخيه كما يحيط كل أيامه. كان الأب والأم له اليوم. مع أن الفارق بينهما سنتان، ولكن منذ البدء كان محمد هو من يحتوي ويحيط، هو من يثبت ويتماسك. لو افتقد أمه يخفي الجوى في الحشا، ولو نكأت الغربة الجراح يضمدها بالماء البارد ويستمر.

هذه المرة غير كل مرة. وجسارة الشاب لا تدرك حجم الخطر، وما فقده صعب أن يعوضه. قال فجأة وهو يبتعد بعض الشيء: أحمد... سرقوا حقيبتي.

نظر إليه أحمد في فزع، ثم قال:

إياك يا محمد..

-بها كل أوراقي وكراساتي، كل ما تعلمت طوال عمري.

-سنتعلم من جديد.

أمسك بيده راجيًا وهو يحاول أن يشده إلى اتجاه القافلة، ولكن محمد أزاح يده.

-كيف أقف أمام إمام الحرمين الجويني في المدرسة، وأنا لا أعرف شيئًا؟

فتح أحمد فمه وهو يتوقع ما سيفعله محمد، وقال في استغاثة:

تعال نرحل مع القافلة.

-ارحل أنت...أعدك أني سألحق بك. لم أخلف وعدي لك من قبل. اثبت، وإياك أن تترك القافلة.

نادى المنادي وانطلقت القافلة صوب الغرب، وانطلق محمد صوب الجنوب، ضغط على فرسه، وذهنه شارد، ووجهته اللصوص وليس نيسابور، أغمض عينيه، وفتحهما، فربما ينتهي الحلم، فقد أدرك حتى وهو في الرابعة عشرة أن لكل شيء نهاية، وأن السراط الذي يفصل بين الخيال والحقيقة ذائب كقلوب القافلة المرتعدة. تمتم لنفسه: نحن في أضغاث أحلام وكفى.

لم تنتظره القافلة، ولكن أخاه كان يصيح ويستغيث، والفزع يأكل قلبه.

اخترق الصحراء وهو ينادي على كبيرهم. يسمع عن لص شهير يدعى «المعصري»، ادّعَوا أنه يملك ثلاثًا من الأيادي وعينًا في رأسه كالغول، وأنه يقتل قبل أن يسأل، ويبتر قبل أن يرحم. حكت أمهم عن المعصري قاطع الطريق، الذي يتحكم في كل صحراء الأمة، الذي يسرق حتى الحجاج. ترى هل يكون من سرقهم اليوم أحد رجاله؟ ابتلع غفلة الصبا الممتزجة بخيال الطفولة فأصبح لديه ترياق للشجاعة. قال في غرور: محمد الغزالي سيواجه المعصري.

***

أوقف الفرس ليستعير الأنفاس التائهة، وعيناه تبحثان عمن سرق حقيبته، ولا تتبدى مع الرمال أي حياة. لو كانت الحياة تكمن داخل الأرض فلا بد أن تفضي عن مكنونها الآن أو بعد غد. غاص في

الرمال، وانتشى روائح جديدة عليه من فوز ونجوم ومغامرة وموت. لا خوف اليوم بل جسارة. ها هي رحلته تبدأ بلصوص يأخذون أمتعته عنوة، ولكنه يأبى أن تنتهي إلا وهو يضع الفرقدين بين ساعديه.

وإذا السيف نفسه الذي قتل الرجل بدم بارد منذ ساعة يستقر بحافته على رقبته، ولكنه ليس اللص نفسه. التقت عيناه بعيني الملثم، فقال في ثبات: جئت أطلب منك أن ترد لي حقيبتي.

نظر الملثم إلى الرفقاء في بعض الاستمتاع، ثم قال: كم تبلغ من العمر؟

-أربعة عشر عامًا.

-وجئت لتنضم إلينا؟

-بل لأسترد حقيبتي.

-ألا تخاف الموت على يدي؟

بقي صامتًا. أعاد الملثم عليه السؤال، فلم ينطق.

نزع الوشاح من على رأسه. بدا رجلًا في الثلاثين، لحيته ممتزجة بغبار، وعيناه ممتزجتان بقيظ ولهيب. عرف محمد لحظتها فقط من عينيه أنه عربي، فبدأ محمد يتذكر كل شعر المتنبي الذي حفظه عن ظهر قلب. لابد أن الشعر يبدد جمود القلوب وقسوتها، فمن أخرجوا كل هذه الحكمة لهم منها نصيب. أغمض عينيه، ثم قال:

«إذا غامرت في شرف مروم

فلا تقنع بما دون النجوم».

ابتسم كبير اللصوص، ثم أكمل الأبيات:

«فطعم الموت في أمر صغير

كطعم الموت في أمر عظيم

وكل شجاعة في المرء تغني.».

توقف لحظة فأكمل محمد: «ولا مثل الشجاعة في الحكيم».

- الفتى الفارسي ينشد الشعر العربي بفصاحة. أنت طوسي، أليس كذلك؟ ما اسمك؟

-محمد..

-ابن من في طوس؟

-محمد بن محمد بن محمد..

-اسم جدك؟

-الغزالي.

-والدك سيأتي ليسأل عنك، ويطلب الدية؟

-لا.

-مات؟

-نعم.

ثم قال محمد وهو يحاول ألا يفكر في يده التي بدأت ترتجف وهو

يتذكر صدر المسافر الغارق في دمائه: كنت في طريقي إلى المدرسة النظامية في نيسابور مع أخي الصغير أحمد لنتعلم على يد الإمام الجويني؛ إمام الحرمين، ولكنك سرقت حقيبتي، لا نفع لك بها.

هز اللص رأسه في تهكم، ثم قال: المعصري. هذا اسمي، وأنوي قتلك؛ لأنك تجرأت عليّ، وعلى رجالي. تطارد المعصري يا فتى؟ هل تجرؤ؟ لن يشفع لك عمرك؛ فقد بلغت، وأصبحت عاقلًا.

قال في هول: أنت المعصري؟! هو نفسه؟!

نظر اللص حوله، ثم قال: الفتى الطوسي يعرفني.

فقال محمد في بعض الرجاء: اطلب مني أي شيء، وأعد إليّ حقيبتي.

-أي شيء؟! ولو أعدتها لك وقتلتك فماذا ستفعل؟ وماذا يوجد بداخل الحقيبة لتفديها بنفسك؟

بقي ساكتًا.

ضحك المعصري، وكأنه وجد غايته بعد عمر، ثم رفع سيفه، وحف به كتف محمد، فتأوه، وتساقطت الدماء، فالتفت إلى رجاله وقال: الفتى يريد أن يبارزني بلا سيف. أهل طوس أذكياء، خرج منهم الوزير الأعظم حسن أبو علي، «نظام الملك». تجرأ أهل طوس على المعصري يا رجال، فما جزاء الفتى؟

أمسك محمد بكتفه والدماء تشغله عن الحقيبة وعن المستقبل. عبس وجهه، وكأنه يحبس دموعًا تحرق الجوف.

-هذا جرح طفيف يا محمد، لا تشغل بالك به. من يعبر الصحراء لا

بد أن يكون مستعدًا لمواجهة الأسود. سأعرض عليك لعبة..

قال محمد في حدة وهو يخفي الألم: أنا لست طفلًا، ولا ألعب.

-ولكنها لعبة للكبار.

فقال وهو ينظر ليده التي غرقت بالدماء: أي شيء في مقابل حقيبتي.

نادى المعصري على أحد رجاله، وطلب منه أن يربط الجرح، ثم قال: هذا السيف سأغرسه في قلبك اليوم. هذا أكيد. هل تريد أن تلحق بالقافلة الآن؟ أعطيك فرصة واحدة للهرب.

قال بلا تفكير: أريد حقيبتي، قلت إنك ربما تعطيها لي لو لعبنا لعبة.

-لطالما أدهشني أمثالك، يتكلمون العربية أفضل مني مع أنهم لا زاروا بغداد ولا الشام. هل تريد أن تزور بغداد؟

تأوه محمد لحظة، والرجل يضغط على الجرح في كتفه، ثم قال محمد: حلمي أن أرى نهر دجلة ورياض بغداد.

-وحلمي أنا أيضًا أن أعود إليها بأموال وسلطة. في بغداد يا فتى لا يوجد مكان للفقراء؛ إما أن ترحل إليها وأنت ملك، وإما أن تحرم من جنتها إلى الأبد. ولا يوجد سوى خليفة واحد وملك واحد. ماذا تبقى للمعصري غير حقيبتك يا فتى؟ لا خلافة لي، ولا سلطنة، ولا حتى وزارة.

أربكه تباسط اللص وكلامه في أمور الدنيا، وهو يشق اللحم بسيفه، كأن الموت فعل ضروري، لا رهبة فيه، ولا ذنب.

وكأن المعصري فهم ما يجول بخاطره، قال: نتسامر ساعة، ثم أقتلك. أفعل هذا دومًا، ويومًا سيفعله غيري بي. هذه هي الدنيا، ستعرفها. إليك اللعبة. سأسألك ثلاثة أسئلة، وعليك أن تجيب بكلمة أو اثنتين لا أكثر، ولو كانت إجابتك صحيحة على الأسئلة الثلاث، أعطيتك الحقيبة، أما لو تعثرت، أو ترددت، أو زدت عن كلمتين، قتلتك هنا، واختفى أثرك.

قال محمد بلا تفكير: اتفقنا.

جلس على الرمال، فهَمّ محمد بالجلوس ولكنه منعه وقال: أنت تقف حتى لا تهدأ وتفكر. أريدك أن تتلعثم وتتردد لأقتلك.

قال في ثبات: لن يحدث.

نظر المعصري إلى رجاله، ثم قال: هذا فتى يظن نفسه إمام بغداد. حسنًا حسنًا. لنبدأ، أخبرني يا محمد يا غزالي يا طوسي ما هو العضو الذي يُهلك الإنسان دومًا؛ اليد أم العقل أم الفرج؟

قال محمد في ثبات: اللسان.

-وما هو العضو الذي لا يستريح، ولا ينام، ومنه يخرج كل العذاب؛ العقل أم النفس؟

-القلب.

التقت أعينهما، فقال المعصري في حدة: وما أشد الأمور ألمًا على الإنسان؛ الفقد أم الفقر؟

-مخالفة الهوى.

نظر إليه المعصري في غضب. عاد الهدوء للفتى، كأن اللعبة هي كل ما يحتاج إليه في هذه اللحظة، وكأن انطلاقة اللسان هي ما يتقن. عبس وجه المعصري، ثم قال: تريد أن تدرس الفقه، وتدعو الناس لترك الدنيا، وأنت تلهث لتمتلكها. مثلك مثل كل الفقهاء، أعرفهم عن ظهر قلب. تعلمت على أيديهم مثلك.

قال محمد: هذا ليس سؤالًا يا أخي.

-أنا لست أخاك.

-كلنا إخوة.

-أنت غريب. تتكلم كأنك تبلغ ألف عام، وتثبت أمامي بلا خوف، لسانك لا يتلجلج، ولا يخرس مع أنني أستطيع ذبحك وأنت تعرف. هذه ليست كلمات فتى في الرابعة عشرة. كأنك ملك أو جان. لماذا لم تختر من الإجابات التي أعطيتها لك؟ كنت أعطيك الاختيار، فتشذ عنه، وتختار إجابة غير مألوفة.

- لا توجد إجابات عن الأسئلة في المألوف يا سيدي، ولا يجدي التقليد مع طالب الحقيقة.

- ماذا يوجد في حقيبتك؟

-كل علمي، كل الأوراق التي جمعتها منذ كنت في السابعة، كل شيء.

-وكيف لكل شيء تملكه، وكل علمك أن يكون في حقيبة يسرقها لصوص؟!

رفع المعصري يده، فجاء له أحد الرجال بالحقيبة، فتحها فوجد بها

أوراقًا وكراسات.

قلّبها بين يديه، فأخرج كل ما بداخلها، فهرول محمد يلملم أوراقه، والمصري يردد: يقول إن كل علمه في الأوراق، ولكنك ستفقدها حتمًا، فلِمَ تضع علمك في حقيبة يا فتى؟

نظر إليه برهة، ولم يجب. ها هو اللص يهزمه حتى وهو يتقن الكلمات.

فقال المصري: خذ حقيبتك، وارحل من أمامي قبل أن أقرر ذبحك. لم أفهم كل كلماتك، ولكن العمر طويل واللقاء محتوم في بغداد، في نيسابور، في الشام، في مصر. نحن معشر اللصوص نرحل بين الأمصار كالصوفيين، نبحث عن الدنيا، ونتعلم عن الآخرة أكثر مما ستتعلم من كتبك يا فتى. مَن علّمك أن تبحث عن الحقيقة؟

رفع محمد كتفيه، ثم قال: أنا علّمت نفسي، عقلي علّمني.

قال المصري في حسم: من يملك عقلك ربما يصل إلى المجد، ولكنه يحيا معذبًا بالمعرفة. ما يساعدك على الوصول هو ما يهلكك أيضًا، الدواء هو الداء؛ عقلك. تذكر هذا. من يملك مثل عقلك لابد أن يحيا بين تهتك الفكر وغيابات الشك. لا نجاة لمثلك من الجنون أو اليأس. لن تجد الحقيقة؛ لأنها داخل بحر مغرق يا فتى، تحف أطرافه شواظ نار.

قال محمد بلا تفكير: لو كانت الحقيقة في البحر فالغوص واجب وتكليف.

قال المصري: لديك إجابة عن كل سؤال. سأتركك تذهب، ولكني

لن أتركك تذهب، فأنت تعرفني ولا أحد يعيش بعد أن يرى وجه المعصري. لا تطمئن في رحلتك.

-ليت الاطمئنان يدخل قلبي يا سيدي، ولكنه لم يفعل بعد.

***

لحق بالقافلة، وعقله شارد، وتهديد المعصري لا يستهان به، ولكن هزيمته التي تبدو انتصارًا هي ما تبدد الذهن الآن. ما إن رآه أخوه حتى احتضنه، وحمد الله على نجاته، ولكنه لم ينج. لم يخبر أخاه بتهديد المعصري، ولا بكلماته التي أصابت القلب. ليلًا بات يقترب من لهيب النار حتى دمعت عيناه، ودمعت عينا أحمد لسبب آخر، قال: محمد، أفتقد أمي.

عبس وجه محمد، لا يستطيع أن يضعف الآن. هدأ من روع أحمد، ثم قال: أتعرف بماذا أحلم؟ بقصر على نهر دجلة في بغداد...لنا أنا وأنت..

قال أحمد وأحلام أخيه المجنونه تلهيه عن الفقد: العراق بعيدة عنا، ولا مال لنا، ولا سند هناك.

قال محمد في حنق: المعصري قاطع الطريق يقول إنني بلا علم. أحمل علمي بين راحتي كحامل الحبوب.

-لا يعرفك. ليتني مثلك يا أخي. لا أحد مثلك يا محمد. تتكلم فيسمع الكبير والصغير. لديك عقل يغلب أعتى الجيوش. هذا كلام كل المعلمين. ثم نحن نرحل للتعلم على يد الشيخ الجويني إمام الحرمين. لا يوجد مثله في كل الأمم.

استمر محمد يحدق في النار حتى اختلطت حوله الألوان، ثم تاه بين النجوم وتسربت الأماني واستقرت.

التقت أعينهما، قرأ الأخ قلب أخيه، ثم استلقيا على الرمال، ووجهاهما في اتجاه النجوم، يحدقان فيها، ثم يغمضان أعينهما، ويمسك الأخ بيد أخيه. كانا وسط الصحراء مثل شعاعين من الشمس، يلتقي الرأسان ويبتعد الجسدان، كنور الشمس المنتشر. حينها يسبح العقل خارج هذه الأرض، ويسبح معه الجسد، يطوفان مع الخيال، ولا يغرقان قط، فهذا بحر بلا أمواج ولا دوامات. قال أحمد بعد حين: محمد، هل التقيت بالسحاب والنجوم؟

فهمس: دومًا أفعل.

تذكرا أول مرة فعلا هذا معًا، كان يوم موت والدهما. أمهما تبكي في صمت، وعويل النساء يصم أذن الطفلين. أحمد في الثامنة، ومحمد في العاشرة. قال أحمد والدموع تربك الرؤية: أريد الذهاب مع أبي. كيف لي أن أذهب معه إلى السماء؟

ثم جرى خارج البيت. فزعت الأم، لم تعرف هل تترك جسد زوجها البارد الذي لم يدفن بعد، أم تلحق بطفلها الذي أفقده الفقد عقله؟ صاحت في محمد: لا تترك أخاك، الحق به.

جرى وراءه إلى حافة النهر، ثم سأل في حدة: ماذا تريد أن تفعل؟

انهمر في البكاء، وهو يهوي إلى الأرض، ثم قال: أريد أن أموت.

ارتبك محمد، يكتم هو الآخر آهات، يكتم معرفة واستيعابًا، صوت والده اختفى، وصورته ربما سوف تتلاشى من الذاكرة لو لم يمسك

بها. أربكه الموت، ولكن إنقاذ أخيه اليوم كان أهم. أمسك محمد بيد أحمد، ثم قال: سأتركك تفعل ما تريد بعد أن نلعب لعبة. تعال نلعب لعبة.

-أي لعبة؟

-نستلقي على الأرض، ووجهنا إلى السماء، ننظر إلى النجوم، ثم نغلق أعيننا ونحاول أن نطوف فوق سطح الأرض، ونسبح مع السحاب والنجوم.

-لا أحد يسبح مع النجوم. الآن أتمنى الغرق لا أكثر.

أمسك بيده، وجره معه بعيدًا عن النهر، ثم قال: تعال معي، بالطبع يمكن أن تسبح مع النجوم. تحتاج فقط إلى أن تسيطر على عقلك. تعرف، عندما نفعل، سوف تطفو عن سطح الأرض، كأنك تطير في الهواء.

حينها فتح الطفل عينيه، ولوهلة نسي أمر فقد والده، ثم استلقى الأخ بجانب أخيه، أمسك محمد بيده، ثم حدقا إلى النجوم ساعة ربما، وأغمضا أعينهما. سبحا حينها الاثنان معًا.

هذا كان في الماضي. اليوم السباحة مع النجوم أخطر على ما يبدو.

***

بعد أيام من الوصول إلى نيسابور كان محمد قد حفظ كل كراساته عن ظهر قلب وزاد عليها أيضًا خمس عشرة ألف ورقة. أثناء الرحلة لا تكلم مع أفراد القافلة، ولا استمع إلى أغاني الراعي وأنغامه. عند

دخول نيسابور أخرج الأوراق من حقيبته، ثم قال لنفسه وللمعصري: محمد الغزالي حفظ الأوراق يا رجل. لا تتحدّ محمد بعد اليوم؛ فهو يفوز دومًا.

وضع الأوراق في مكتبة المدرسة النظامية، وأحلامه تنمو كأشجار الأعناب تتعلق ببعضها، وتتشابك بلا أمل في فراق، ولكن الطمأنينة أصعب من الوصول إلى بغداد، والعقل مشرد كقاطعي الطريق. ليلًا يحلم حلمًا يظنه حقيقة، وعندما ينظر إلى النيران تتماثل أمامه الخيالات. نيسابور غير طوس. هنا جرأة وسفسطة. الطلاب تسأل وتثور. هذا يتساءل عن جدوى المنطق والحساب، وهذا يقفز إلى قدرة العقل على استيعاب كل شيء. ومحمد يفقد يقينه شيئًا فشيئًا. ليست الحواس أهلًا للثقة، ها هي العين تخدع كاللصوص. ترى القمر يتبعها كأنها محور الدنيا، تراه يستقر في الكف كالطفل الرضيع. والشمس لا تخلف الميعاد، ولكنها تتغير كالقلوب. لا ثقة في الحواس، ولا يقين مع من يخدع. العقل لا يخدع.. وعقله يسيطر دومًا. تخرج الكلمات من فمه فتُسكت كل الحضور أو تُنجي من موت محقق. هو العقل الذي يملك اليقين، حتى لو حول الساحر العصا إلى ثعبان فلن يصدق، ولكنه يصدق أن ما في يده هو ثلاثة أقلام، وأن ثلاثة أقلام بالإضافة إلى أربعة تصبح الأقلام سبعة، والسبعة أقل من العشرة. هذه أشياء تُعقل وتُفهم، ولكن العقل يعجز كثيرًا. نحلم فنظن أن الحلم عين الحقيقة. نتألم في حلم، فنفزع طوال اليوم. تُرى أيكون الحلم هو الحقيقة أم تكون الحقيقة هي الحلم؟ وما جدوى الحياة بلا يقين؟

جلس في درسه يستمع إلى الإمام الجويني يجيب عن أسئلته،

ويساعد الطلاب على الفهم. ينطق لسانه باليقين وقلبه بالشك. كل شيء وهم! كل شيء! حتى زبد البحر يخدع العقل فيظنه شاطئًا ونجاةً. لم يعد النوم سهلًا، وأصبح ترديد الدروس التي لم يعد يقتنع بها أصعب من النوم. هناك علم لطلب العزة في الدنيا، وهناك علم لطلب الله. اختلطت عليه العلوم حتى وهو في هذه السن. خرج من درسه ينوي اللعب اليوم. يمتطي الفرس، ويجري في الصحراء يتسابق مع أخيه ويضحك، ويكتم شكه في كل حقيقة، ولكنه ليلًا ينظر إلى السماء طالبًا النجاة. ها هوعقله الذي ينجيه دومًا يغرقه اليوم ويهزمه.

قال أخوه أحمد وهو يفتح عينيه ليلًا: ماذا بك؟

-وسواس يأتي كل حين، لا تشغل بالك.

ربّت أحمد على يده، ثم قال: ادعه، وهو يستجيب.

دعاه مضطرًا ويائسًا، دعاه لأنه يكاد يهوي بلا يقين، يتساءل عن جدوى الحياة والموت والألم والسفر والتعلم، لو كانت الدنيا بلا يقين فلمَ نحياها يا ترى؟

دعاه لأنه خاف من الهاوية، البئر تبتلع كالبحر المحيط بلا أمل في ضوء.

ربما النجاة في النجاح، كلما وطّد قدميه في المدرسة، ثبتت واستراح. ربما النجاة في نظرات الطلاب المستغيثة التي تريد أن ترتوي من عقله الذي لم يعد يثق هو به.

عندما سألوا الإمام الجويني عن طالبه النابغة محمد، قال إنه بحر

مُغدق أو بحر مُغرق، لم يتأكد أحد. هذا طالب غيركل الطلاب، يلتقط الكلمة قبل أن تخرج. حفظ «الكتاب الأم» للشافعي عن ظهر قلب كأنما يملك في صدره مكتبة بغداد كلها.

مر شهر ثم آخر، كلماته هي هي لا تتغير، ولكن الأسئلة تتكاثر بين راحتيه حتى أصبح ينسى السؤال الذي سأله لنفسه صباحًا ولم يجد إجابته. أين الحقيقة؟ وأين تكمن؛ في كتب الفقه أم الكلام، أم في آراء المعتزلة أم الملحدين، أم في كتب الفلاسفة أم الحشوية؟ هل وصل لها الشيعة والباطنية؟ وهل هناك حقيقة نصبو إليها أصلًا؟ ما جدوى الموت؟ وما متعة الحياة؟ ها هو يفقد أبويه، ويرحل ليتعلم مع أخيه، لماذا؟ لأنه لا يملك الخيار؛ إما أن يموت جوعًا، وإما أن يلجأ إلى مدارس النظامية التي أنشأها الوزير الأعظم «نظام المُلك». العلم ينقذه من الضياع في شوارع طوس هو وأحمد. ها هو بيت جديد، وحجرة تؤويهما وطعام على سفرتهما. ماذا يريد؟ يهتم بتفاصيل الأحكام، ويفهم كل خبايا الفقه ولكنه لا يثق في عقله. من يدري هل يحيا في أوهام؟ هل ترك الحقيقة حيث ترك قبر أمه يا ثرى؟

هوت من عقله الأسئلة كالأحجار المتهاوية من الجبل. لِمَ نحيا؟ من نكون؟ أنكون في حلم؟ أين الحقيقة؟ وأين العلم الذي يروي الظمأ ويشفي العروق؟ هل هناك دواء لوسوسة القلب أو سفسطة العقل؟ إذا لم نعد نثق في عقل أو حواس، ففيم نثق؟ وكيف نعرف أننا لسنا في حلم؟ أين العلم اليقيني؟

بعد شهر نظر إليه أحد الطلاب، ثم ابتسم وقال: أنت مثلنا تتساءل دون أن ترتوي.

تردد، ولكن الطالب قال في حسم: ربما تكون الإجابة في كتب الفلسفة، أو ربما لا توجد إجابة. أسئلتك تنم عن عقل ذكي يدرك أن التناقضات بيننا تدل على أن الحقيقة ضائعة. لا حقيقة في هذا العالم يا أخي. تعال معنا الليلة نتكلم معًا.

هذه المرة لم يتردد، كان يريد أن يطفئ الظمأ حتى ولو استمع لأي شخص. لا تخيفه الآراء، ولا الكلمات، ولا حتى زندقة الزنديق وإلحاد الملحد، ولا باطنية الباطني، ولا فلسفة المتفلسف.

جلس واستمع. كلها أسئلته. تناقشوا، وتجادلوا، أصبح لكل سؤال عشر إجابات، وبعد يومين أصبح لكل سؤال مائة إجابة، وبعد ثلاثة أيام أصبح كل سؤال بلا إجابة.

عاد إلى حجرته وهو يمسك رأسه، ويدعو في يأس: يا رب، لا تتركني لضلالتي.

توقف عن الذهاب إلى مجالسهم، واكتفى بالدرس. نظر إلى أخيه أحمد، وهو يحاول أن يحفظ الدرس، يصلي ويصوم، يبكي ويضعف، يحب ويكره. لِمَ لا يكون مثل أخيه؟ لِمَ لا يغلق هذا العقل المتمرد على كل خاطر ووسواس؟

جاءه الطالب نفسه وقال: محمد، لِمَ توقفت عن الحضور؟

-لا جدوى من الأسئلة.

-هل تؤمن بالبعث؟ هل تؤمن بما لا ترى؟ أي يقين في حكايات الأنبياء؟ كيف لرجل أن يحول العصا إلى حية؟ وكيف لآخر أن ينجو من النار؟ هذه قصص لا يقين بها.. وأي..

قاطعه: اتركني لحالي. لست منكم.

هذه الليلة غير كل ليلة. سجد في يأس وهمس: اشرح لي صدري يا رب. تفترسني الشكوك. أعطيتني عقلًا ليهلكني أم لينجيني؟ لا أعرف هذا العقل ولا أثق به مع أنه كل ما أملك.

أغمض عينيه، ونام ليلته، أو لم ينم. قال لنفسه إن الحقيقة مرتبطة باليقين، وكل العلوم لديه اليوم بلا يقين. حتى المنطق والرياضيات لا تكفي لتشرح هذا العالم وكل تغيراته. هو الخيال ما يؤرقه. خداع الحواس لا شيء بالنسبة لخداع العقل. ما هي حقيقة العلم؟ وماذا تعلم؟ «كل علم لا نتيقنه، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، فمقياس اليقين إذن هو الأمان، ومعنى الأمان الثقة». لا ثقة لديه ولا أمان.

***

الأمان لم يتسرب من عقل محمد فقط، بل من أبواب المدينة وأروقة الطلاب.

نيسابور كانت مدينة بمذاق الذهب. هنا المال ينسكب على الناس كالمطر. تعج المدينة بالفواكه، والبساتين أسسها الأكاسرة كرقعة الشطرنج، في كل ضلع ثمانية مربعات. أصبحت منظمة كمسألة حسابية، هنا دكاكين وهنا منازل، هنا أبواب المدينة، وهنا قنوات المياه، ولكنها الحدائق التي تسبر الأفئدة، تعج بالمشمش، والسفرجل، والعنب، والريباس، كحدائق الجنة في خيال الطلاب.

المدرسة النظامية كانت أجمل من حلقات الدراسة في طوس وأبرح. بنيت على شكل رباعي الأضلاع، وأحاطها الوزير الأعظم «نظام الملك» بأسواق وضياع وقفًا عليها. ولها قباب، وفي وسطها

منبر ومصلّى، أما قاعات التدريس فتحيط بصحن المدرسة، فتدورأعين الطلاب بين الأسقف والقباب وتتوه كل حين. يبيت الطلاب في الأروقة الملحقة بالمبنى، وبداخل كل رواق دورات مياه ومطبخ ومخازن. هنا بيت لمن لا بيت له، وأمان لمن فقد السند. أو هكذا ظن الأخوان في البدء.

فبينما يفيض جمال المدرسة من حولهما كان أحمد لا يشهد سوى الاعتداء والطغيان. لم يكن لديه أصحاب، يجلس وحيدًا معظم اليوم يقرأ، أو ينتظر أخاه في أحد أركان المدرسة. وجد ثلاثة طلاب غايتهم في الهجوم عليه ومضايقته. تحمّل في صمت، لا أخبر أحدًا ولا اشتكى. منصور، كبيرهم كان الطالب المحبب لدى الشيخ المسماري أحد أساتذة المدرسة. لا يعرف أحد لِمَ تعمّد منصور إذلال أحمد. هل كان يذله لأنه مختلف، أم لأنه لا يطمع في شيء، أم لأنه لا يفهم الدروس كأخيه، فيضحك عليه الطلاب كل حين؟ ربما كرهه منصور لأنه أخو محمد قبل كل شيء. ومحمد جاء عليهم ليلتفت إليه كل معلم وكل طالب. يستمع إليه الناس كأنه ساحر أو ملاك، ولكن منصور لا يستطيع المساس بمحمد، ولم يجرؤ. وجد منصور في ثبات أحمد أمام المضايقات ما يستفزه. تطاول بالكلمات فلم ينطق أحمد. وليلًا تتبّعه وهو عائد في الزُّقاق وركله في بطنه بقوة، قام أحمد ليرد له الضربة، فاجتمع عليه أصحاب منصور؛ طرحوه أرضًا، ولم يتركوه إلا والدماء تتساقط من فمه. همس له منصور وهو يضع الخنجر أمام عينيه: إياك أن تنطق. لو عرف أحد أذبحك.

ثم اقترب منه، وهمس في أذنيه: أنت هنا غريب، لا سند لك، يتيم كالفرع بلا جذر. أخوك يطمح إلى ما لا يستحق. الغرباء لا بد لهم من

معرفة قدرهم وهو لا يعرف قدره. أخبره أن الدور سيأتي عليه يومًا.

عندما عاد إلى حجرته كان أخوه خارج الحجرة، مسح الدماء عن وجهه، وغسله، ثم غطى كل جسده ووجهه بالملآة وبكى وآلام الجسد لا شيء بالنسبة لآلام القلب. في الصباح أيقظه أخوه محمد، فقال وهو يداري وجهه: أنا متعب اليوم، اتركني أنام.

قال محمد في إصرار: لا بد أن تذهب إلى الدرس.

فقال في صوت مكتوم وهو يخفي وجهه عن محمد: أنا متعب.

قال محمد في قلق: متعب كيف؟ بمَ تشعر؟

فغطى وجهه بالغطاء وقال: اتركني أنام.

توقف محمد برهة، ثم خرج. لم يكن يريد أحمد إخبار أخيه ليس لأنه خائفًا، ولكن لأنه يستحي أن يبدو أمامه بهذا الضعف. خجل من عدم قدرته على الدفاع عن نفسه، ولكنهم كانوا ثلاثة وكان هو واحدًا.

***

في نيسابور مزقت الذئاب عقل محمد يومًا وراء يوم. كلما أدرك ما لا يدركه غيره شك في عقله، وكلما زاد الإطراء على ذكائه وعبقريته هوى اليقين واستقر في أعماق البحر بلا أمل في نجاة.

«يا رب، أعطني الثقة في عقلي قبل أن أُصاب بالجنون..».

ليلًا ردد: عدم تجلي ذلك الإدراك لا يدل على استحالته وعدم استيعاب العقل لبعض الأمور إدراك في حد ذاته.

قالها بصوت عالٍ، فنظر إليه أحمد في عدم فهم ثم قال: أي إدراك يا أخي؟ عن ماذا تتحدث؟

لم يجب، فربّت أحمد على يده، وقال: أسلم له وكفى.

تمتم: ليتني أستطيع.

فتح أحمد فمه في فزع، ثم قال: محمد.. ماذا حل بك؟! أنت طالب فقه يا أخي وعقيدة، أفقدت إيمانك؟!

لم يُجب. أغمض عينيه ولم ينم.

قام عند الفجر يصلي، خرج ينظر إلى السماء وفتح عينيه. هذا لون السماء يهدئ العين، تعتاده بعد حين. عدم تجلي الإدراك لا يدل على استحالته. هو موجود وكفى.

حرك يده فقال: لكل حدث سبب، أحرك يدي لأن عقلي يعطي الأمر ليدي. هو يعطي الأمر للكون. هو سبب كل الوجود. أعطني من نورك يا رب حتى لا أهلك. هو عقلي كل ما أملك، بدونه أصبح شريدًا في الدنيا.

اجتاحه هدوء حذر. هو موجود لأنه لو لم يكن موجودًا يصبح العقل بلا جدوى، يصبح عضوًا كالإصبع لو تَلِفَ يعيش الإنسان دونه، ولكن العقل غير الإصبع لو تلف فما جدوى الذاكرة والخيال؟! أين السعادة والشقاء؟ هو موجود. هذا يدركه بقصور عقله.

لكل فعل فاعل. هو خلق الموت والحياة. اليد لا تتحرك سوى بأمر من العقل، واللسان لا ينطق إلا بأمر من العقل. لكل حادث مُحدِث، التجربة تثبت أن الله موجود، وهو الفاعل والمسيطر، ولكن أين

الحقيقة؟ ما جدوى العلم لو لم يخلق سوى الضغينة والاختلاف بين البشر؟ ولِمَ لم تقضِ الأديان على القسوة والظلم؟

«من يملك مثل عقلك لا بد أن يحيا بين تهتك الفكر وغيابات الشك. لا نجاة لمثلك من الجنون أو اليأس». هكذا قال المعصري. ربما كان على صواب.

تضرع إلى ربه: أعرف أنك موجود. هذا أشعر به بقلبي ولكنني لا أعرف حقيقة الأشياء، ولا جدوى الاختلافات بين البشر ولا هدف العلم. لم يزل الشك ينخر في إتقان.

***

بعد أن صلى الفجر عاد إلى حجرته في مبنى الطلاب في المدرسة النظامية يصحب أخاه، وما إن دخل حتى سمع صيحة الفزع من أحمد أخيه وهو يمسك بخنجر مغروز في مخدع محمد كالذي غاص في ظهر قتيل اللصوص. قال أحمد بلا تفكير: هو المعصري قاطع الطريق الذي قابلتَه، يهددنا أو ربما يقتلنا. لِمَ فعلت هذا يا محمد؟ لِمَ عدت إليه؟ هنا مكتبة بها كل الكتب التي تريدها، أكان لا بد أن تغامر؟ من يرى وجه المعصري يموت. كل الناس تعرف هذا.

أمسك محمد بالخنجر يتفحصه ثم قال: وربما من يريد تهديدنا هنا بيننا. ربما نظلم المعصري هذه المرة.

-لقد وعد بقتلك.

-ولكنه لم يحدد الموعد. العدو أقرب إلينا من أي لص.

منذ جاء محمد إلى هنا يدرس علوم الدين وهو يسبر غور نفوس

تلهث وراء الطغيان. ساعة يحفظ درسًا، وساعة يشهد على قسوة الشباب ونفورهم من رقة القلوب وصفائها. كان يحمي ويلملم كل النفوس المبعثرة. منذ موت والده وهو يحتوي أمه، ثم أخاه. صرامته وإلحاحه وانطلاقة لسانه جعلته يستعصي على حزمة الظالمين. ولكن القتل لا يفرق بين الشجاع والجبان. هكذا قال المتنبي، أليس كذلك؟

ومن لا يحسد الفتى الطوسي على طلاقة لسانه وحسن وجهه؟!

في المدرسة رأى أستاذًا يُعلّم بضمير، وآخر لا يهتم سوى بأبناء الأغنياء والأمراء. أحدهم يعلمه أن العلم طريق، وآخر يعلمه أن العلم غاية.

لف محمد الخنجر بقميصه ثم وضعه في خزانة وقال في هدوء: هذا مزاح أطفال. لا تشغل بالك به. نفكر فيما هو أهم.

ولكن أحمد كان يفكر في أمر من ظلموه، قال في إمعان: ما الذي يدفع طالبًا أن يظلم آخر؟

فقال محمد بلا تفكير: القدرة يا أخي، الإنسان لم يخلق للخير أو للشر، يتعلم الخير والشر من حوله، بل نفسه تميل أكثر إلى الشر.

-ولكن الشيخ الفارمذي كله خير. الصوفيون يا محمد...يجلون القلب ويعملون بما يعلمون، تذكر ما علمه لنا. تعذبني الغربة هنا.

تجاهله محمد ثم قال: إذا لم تدافع عن نفسك فسيسحقونك سحقًا. هنا أو في طوس أو العراق أو مصر. هي بلاد لا أكثر، يومًا سنصبح أهم منهم جميعًا وأقوى منهم جميعًا.

-الشيخ الفارمذي لا يتكلم عن الغلبة والقوة، بل عن الصفاء والاجتهاد.

نظر إليه محمد برهة ثم قال: الشيخ الفارمذي ليس معنا الآن. اليوم ندافع عن أنفسنا ونحارب من حاربنا.

***

أحمد كان يحارب شياطين أيضًا، ولكنهم ليسوا من الذئاب، بل من زملائه في المدرسة. حمد الله أن محمد لم يلاحظ شيئًا، كان مستغرقًا في محاربة شكه ومواجهة عقله. وكان أحمد مستغرقًا في مواجهة الشر لأول مرة والتعرف على الظلم، ولكنه أبى أن يخبر أخاه، ففي إخباره هزيمة أمامه.

بعد بضعة أيام أوقفه منصور في ساحة المدرسة ثم قال: هل التأمت جروحك؟ تستعد لجروح جديدة يا ترى؟

لم يُجب. سار في طريقه فأمسك منصور بتلابيبه ثم قال: أريد شراء الطعام. معك أموال؟

قال في قوة وهو يدفع به: لا، اتركني.

تركه ثم نظر إليه وقال في حدة: أحتاج إلى درهم.

تردد أحمد برهة ثم قال: لا أملك شيئًا.

فقال منصور في هدوء: بل تملك، أخوك هو الغني الوحيد في هذه المدرسة؛ يعمل ويُدرس بجانب التعلم. أعطني درهمًا أحتاج إليه. حقًا أحتاج إليه.

التبس الأمر على أحمد، نظرة منصور بدت نظرة إنسان مثله، ولوهلة نسي ما حدث أو ربما لم ينس. لا أحد يعرف بالضبط. أخرج درهمًا من جيبه ووضعه في يد منصور وقال: خذه وابتعد عن طريقي.

ابتسم منصور ثم قال: سأبتعد.

هم بالابتعاد ولكن الصوت أوقفه؛ صوت محمد.

قال محمد في حدة: أعد إليه أمواله.

فقال منصور: هو أعطاه لي، أليس كذلك يا أحمد؟

لم يُجب أحمد.

اقترب محمد ثم انتزع الدرهم من يده وقال: هو لم يعطه لك عن طيب نفس.

فأصر منصور: هو أعطاه لي.

التقت العينان. اجتمع أصحاب منصور حوله، التفت محمد لهم بلا خوف ثم قال: ابتعد عن أخي، ولو لم تفعل فستحتاج إلى الدرهم؛ لأنني سألقي بك أنت وأصحابك إلى الشارع وسأطردك من المدرسة، وأنت تعرف أنني أستطيع هذا.

قال منصور في مرارة: لست مدرس المدرسة يا محمد. أنت مثلنا.

قال في إصرار: ابتعد عن أخي.

قال منصور في فخر: هل تعرف من أنا ومن أبي وعائلتي؟ أنت يا يتيم لا أهل لك هنا. نبقيكم معنا شفقة وإحسانًا.

كان يوجه كلماته لأحمد ولكنه يقصد محمد.

قال محمد في حدة ممتزجة بالتهكم: أعرف من تكون ومن أكون. أنا محمد الغزالي الذي يستطيع أن يطردك من المدرسة حتى مع أنك ابن عائلة كبيرة. أشفق على عائلتك لأنها من تراب ولكنها ستخجل لأنها أنجبت مثلك.

-تهددنا لأنك طالب الإمام الجويني يا محمد؟ تهددنا لأنه جعلك تعيد علينا الدروس كأنك أفضل منا مع أنك أخذت مني درهمي غصبًا وهذا ليس من الشرع، هو أعطاني الدرهم.

قال محمد في استهزاء: أنت ستعلمني الشرع؟! كل خوفي أن تصبح قاضيًا يومًا. ولا بد لي من التأكد أن هذا لن يحدث. اتركوا أخي لحاله، لستم في وضع يسمح لكم بمحاربتي، تعرفون.

اقترب منه الطُّلاب، تلاقت الأعين ولم يتزحزح محمد عن مكانه، قال في حدة: آخر مرة أراكم تعتدون عليه. لو حدث مرة أخرى أعاقبكم بنفسي وأستطيع.

تقهقر الثلاثة خوفًا على مكانهم في المدرسة، ومعرفة بمكانة طالب مثلهم استطاع أن يصبح مساعدًا للإمام في غضون عام واحد، ولكن حربهم مع الأخوين لم تنتهِ حتى ولو كانوا قد استسلموا اليوم.

طوال الطريق وأحمد لا ينطق. عندما دخلا حجرتهما دفن رأسه بين راحتيه ثم قال: سأترك الدراسة.

فقال محمد في حسم: إياك أن تنطق بهذا مرة أخرى. هم يتركون

المدرسة وأنت تبقى. لِمَ لم تخبرني من قبل؟

-ولِمَ أبقى لو كنت أعاني هنا؟ لِمَ علينا أن نفعل ما يعذبنا؟

-هو حلم والدك أن ندرس أنا وأنت في المدرسة، لا تنس.

قال أحمد في أسًى ودمعة تجد طريقها إلى خده: أريد العودة إلى طوس.

أمسك بذراعه ثم قال: اثبت.. إياك أن تملك رقة النساء. أعدك أنهم لن يتعرضوا لك بعد اليوم، ولو حدث ذلك فاترك المدرسة.

فقال فجأة: تعرف أنهم على حق، أليس كذلك؟

نظر إليه محمد في فزع، فقال أحمد: أنا أعطيته الدرهم.

-لأنك كنت تتقي شره لا أكثر.

-ولكن لو نظرنا إلى الحكم المجرد في الشرع فالدرهم له.

-لا ننظر إلى الحكم المجرد دون أن ننظر إلى الإطار الذي يحيطه وإلى نية كل واحد.

-ولكن الأحكام لا تتبع النيات يا أخي؛ لذا لا أجد في الشرع وحده غايتي.

-تحتاج إلى أن تفهم وتذاكر أكثر. العقل يساعدك على فهم كل حكم. من يظلم يعاقب بعدل. «العدل سبب النجاة فقط».

قال أحمد: الشرع هو بداية الطريق وليس نهايته. حل المنازعات ليس النهاية. ما يفعله منصور ليس نزاعًا ظاهريًا يا محمد.

-من مثل منصور لا يردعه سوى العقاب، والعقاب ظاهري يا أحمد، لا تكثر التفكير في الأمر.

-الإمام الفارمذي كان يدرس لنا دومًا عن النفس وتهذيبها. أتتذكر؟

قال محمد: اترك لي تأديب منصور واستمتع أنت بالمدينة.

لا استطاع أحمد أن يقتنع بكلمات أخيه، ولا أن يكون في قوته مع الطلاب. ولا استطاع أن يحفظ عن ظهر قلب الأحكام كلها وتفاصيل العقوبات، ولا أتقن الشريعة والفقه مثل محمد. كانت روحه تطوف خارج جسده، لا يحركه الأذى ولا يغضبه التعدي والتجني عليه كما يُغضِب محمد. ما يغضبه هو الشر بداخل القرناء. يُفجعه الظلم ولكنه كان يطمئن وهو في حمى أخيه على كل حال. يتوقف الأذى كلما هدد محمد وأظهر قوته. تُرى أهذا خنجر من رفيق وصديق، أم من لص؟!

كان يود أن يقول لمحمد إن التفاصيل الصغيرة في الخلافات لا تهمه بقدر صحة القلب ونقاء السريرة، ولكنه لم يجرؤ على الإفصاح بهذا أمام محمد. منذ الصغر وهو يهاب أخاه، استقر في ظله بلا حسد ولا مقاومة. يعرف أنه الأذكى والأطلق لسانًا، يعرف أنه ربما يكون الأنجح أيضًا، ولا يبالي.

***

في اليوم التالي اقترب منصور من أحمد، بدأ يلاطفه ويعتذر إليه، قال إنه لم يعرفه حق المعرفة وإنه يريد صداقته ويريده أن يصاحبهم. قبل أحمد اعتذاره ولكنه لم يكن يريد أن يصاحبه. كل يوم تضيق حلقات السجن حوله وتنتشر الغربة. ليلًا قال لمحمد: أريد

العودة إلى طوس.

قال محمد: تتركني وحدي ولم يعد لي غيرك؟!

-أنت لا تحتاج إلى أحد يا محمد.

قال فجأة: تعال نذهب معًا إلى الجبل، نبحث عن مكان سري لا يعرفه غيرنا كما كنا نفعل ونحن أطفال.

فتح أحمد عينيه، فأكمل محمد: تعال نبحث معًا على الجبال عن نبات الريباس. هناك مغارة وسط الجبل اكتشفتها وحدي.

بدا الاهتمام على أحمد ثم قال: متى اكتشفتها؟

-منذ أيام.

هب واقفًا وقال: هيا بنا.

في أيام الطفولة لملما ذكريات المعرفة. بدا كل شيء برونق وسحر. حتى ارتجافة أفرع الأشجار والتفاف الجذور داخل جوف الأرض. يتذكر أحمد الأم تحذره: لا تغض داخل أي بحر أو بحيرة حتى تتعلم السباحة.

فيقول في فخر: ولِمَ أتعلم السباحة ومعي محمد؟

ولكن أحمد أراد أن يغوص، ينتظر حتى يسهو أخوه ثم يتسلل إلى النهر، يدخل في بطء وكلما غمرته المياه استمر في الغوص، حتى تحول لون الدنيا إلى الأبيض وامتلأ جوفه حد الموت. صاح محمد باسمه ولم يجده وسط الأمواج. صاح من جديد بصوت أكثر يأسًا، ثم جرى داخل النهر يضرب بيديه الماء ليخرج أخاه من الأعماق.

سبح وسبح، ضرب الأعماق برجليه ويديه يبحث عن أحمد، حتى اصطدمت قدمه برأس أخيه، أدخل رأسه داخل المياه، وعيناه مفتوحتان، انتشل رأس أخيه، وشده وراءه إلى الشاطئ.

لم يكن يستطيع التحرك، ولا بدا أنه حي. ضغط محمد بكل قوته بلا تفكير على صدر أخيه. خرجت المياه من جوفه بلا توقف، قلّبه يمينًا ويسارًا، ثم قلبه على ظهره فأخرج ماء أكثر، ضرب ظهره، نادى اسمه، فتح أحمد عينيه ثم تقيأ ماء كثيرًا. بعد أن استطاع التنفس، قال في رجاء: لا تخبر أمي.

فقال محمد وهو يداري فزعه: بل سأخبرها وستعاقبك.

عبس وجهه، وبدأ في السعال، فقال محمد: حسنًا لن أخبرها. ولكن..

قاطعه: سيبقى الأمر سرًّا بيننا.

-لو فعلت هذا مرة أخرى فسأخبر أمك أو سأتركك تغرق...النهر ليس لمن لا يعرف السباحة، وحتى من يعرفها يغرق داخله. أُعلمك السباحة والحذر معًا أولًا.

ولكن أحمد لم يكن يريد أن يتعلم السباحة. ما دام محمد حوله سينقذه مرة ومرتين.

***

حمل أحمد اللحم والخبز، وحمل محمد الفراش ليبيتا ليلتهما في عمق الجبل كما كانا يفعلان منذ عدة أعوام. هنا جبل كالذي تركاه، وهنا نبات حامض بطعم مر، ولكنهما يعرفانه، سيقطفان عشرة ثم

يأكلانه على مهل عند العودة. سيقضيان ليلتهما مصاحبين للثلوج والرمال، سينتصران على كل غم وحزن وفقد وشر. سينسيان حينها ما ينتظرهما من عمر طويل بين صحبة منصور وصحبة المعصري. هنا حياة غير الحياة. ...

أشعلا النار ليلًا وبدأ أحمد يحكي الحكايات بلا توقف، ومحمد يستمع ويبتسم ويضحك أحيانًا. عاد الطفل وعادت تلقائيته وندرته وقربه من الملائكة.

لاحظ محمد أولًا أن هناك خطوات تقترب منهما، أصوات وسط الجبال. برقت العينان وسط الظلام وبرزت الأنياب.

صرخ أحمد وقفز من مكانه وهو يمسك بحقيبة اللحم التي أتى بها، اقترب من محمد. أمسك بيده، دارى محمد خوفه، تراجعا خطوات.

أحاطت بهما ذئاب وبدأت تعوي فترج الليل رجًا، كشّرت عن أنياب غير منتظمة كلها حقد، استعدت للوثوب. ظهر منها واحد، أو أربعة، أو خمسة، أو عشرة.

تحجّر الولدان في مكانهما. التفت محمد وراءه، هي خطوة أو اثنتان إلى المغارة وربع خطوة إلى الموت. قال بلا تفكير: ألقِ باللحم بعيدًا، هم لا يريدون غيره.

-كيف ألقي به؟

أمسك محمد بالحقيبة ثم رفعها في ثوانٍ وألقى بها بكل قوته، فجرت الذئاب ناحيتها، شد أخاه وجرى ناحية المغارة بأقصى سرعة. ما إن دخلا بها حتى تنفسًا في بطء وأصوات الذئاب تبتعد أو

تقترب لا يدريان.

قال أحمد: أنا خائف. هل سنبقى هنا طوال الليل؟

-أغمض عينيك وفكر في أي شيء؛ أي شيء.

-هل سترحل في الصباح؟

-قلت لك: فكر في شيء آخر.

-كيف أتحكم في أفكاري؟

-هو عقل بين يديك.

-وأنت؟

-لا أستطيع التحكم في أفكاري.

ابتسم أحمد ثم قال: تخاف مثلي؟! أحيانًا أظنك لست مثلنا.

-يتملك قلبي الرعب الآن. سنفكر معًا في الريباس. ماذا سنفعل به؟ نضعه داخل صحن من السكر أم نشربه؟ صف لي شكله، هيًا..

-الريباس على شكل القلب، لونه أخضر أو أحمر، هل تحب الأحمر؟

استمرا في الهمس حتى الصباح، لا ناما ولا توقف القلق. في الصباح أمسك محمد بيد أخيه في حذر، ثم قام ليخرج من المغارة. بدا كأن شيئًا لم يكن، لا ذئاب ولا نار ولا لحم. تنفسا في ارتياح وهرولا إلى أسفل الجبل.

في طريقهما إلى المدرسة انفجرا في الضحك كأن الفقد لم يحدث ولا الغربة ولا هجوم الذئاب.

الفصل الثاني

«ومهما كان الرجل مجربًا للزمان فإنه ما لم ينظر في الكتب لا يكون كامل العقل».

الغزالي

عندما أعلن إمام الحرمين الجويني لطلابه أن الوزير الأعظم صاحب هذه المدرسة ومنشئها «نظام المُلك» سيزور نيسابور لأنه يريد مقابلة الطلاب، قرر يومها أحمد ألا يذهب إلى المدرسة، أما محمد فكان ينتظر هذا اليوم منذ رحل من بلدته. عامًا كاملًا ينتظر هذه اللحظة. الحاكم الفعلي لكل بلاد المسلمين هو «نظام المُلك». مصر في يد بني عبيد الفاطميين الشيعة، وأجزاء من الشام وكل العراق وخراسان وبلاد ما وراء النهر تتبع الخليفة السني العباسي. والخليفة العباسي يعتمد على جيش السلاجقة الأتراك السنة، والسلاجقة تعتمد على «نظام الملك» الوزير الذي أنقذ السنة والشافعية بالذات. كل ما تبقّى من بلاد للعباسيين بين قبضة الوزير. نظام الملك رجل مختلف، يراوض الحكام، ويكتب عن السياسة، ويدرك أن العلم هو الخلاص والسعادة. منذ أعلن عن مجيئه والمؤامرات تحاك كأن المدرسة في حالة حرب، كل مذهب وكل معلم يدبر الخطة. فلابد لنظام الملك أن يلتفت إليهم، أن يعطيهم منصبًا أو مالًا، أو يتذكر اسمهم فقط حتى يتسنى لهم النوم في أمان.

أدرك أحمد قلق أخيه وطموحه. رآه يناجي النجوم ويتنافس معها. قال في حسم: كل ما أتمناه أن أعبد الله بقلب سليم وأتزوج من امرأة صالحة لا أكثر. وأنت يا أخي...متى تتزوج؟

-الزواج ليس أملًا يا أحمد. هو وسيلة لتهيئة حياة سهلة ولكنه ليس أملًا. لا أمل للرجال سوى القوة، فالقوة تمنع عنك الظلم وعن غيرك، وبلا قوة نكون عرضة للسباع كل لحظة.

-وهذا ما تريد يا أخي؟

بقي صامتًا. يتذكر في خيبة أمل عرضًا جاءه اليوم من أحد مدرسي المدرسة الشيخ المسماري، طلب لقاءه وعرض عليه الصداقة على أن يساعده في نسخ كتبه، وربما تنقيحها وكتابتها، لا يدري بالضبط. أخبره الشيخ المسماري أنه صديق مقرب للوزير نظام الملك، وأنه سيقدمه للوزير كأحد طلابه ثم أكد له الشيخ أنه لو ساعده في الكتابة فسيجد طريقه للمجد والهيبة، فهو حاليًا تلميذ الإمام الجويني، ومادام الإمام على قيد الحياة فلن ولا يستطيع محمد الغزالي الكتابة، حتى لو حبس كل أفكاره داخل هذا العقل المتسع للسماء، لا أمل له في الكتابة إلا بموت أستاذه الجويني، لذا حتى يأتي قضاء الله يمكنه أن يتقرب من الحاكم والشيخ بمساعدته هو في الكتابة.

أكد له المسماري أنه على علاقة وثيقة بالوزير نظام الملك وأنه سيقابله بمفرده وليس مع بقية الطلاب، وستكون المقابلة في قصر الوزير أيضًا، وأنه سيصطحب محمد معه. استمع محمد واستأذن في أدب. لا.. لن يكتب للشيخ المسماري الكتب ولن يكذب وينافق. لم تزل عيناه أسيرة النجوم وقلبه يريد التمكين والوصول إلى قبضة القمر نفسه، ولكنه وصول شريف قبل كل شيء، ووصول له وحده، فطريق المجد دومًا كله وحدة، لا يستطيع اثنان أن ينافسا القمر في السماء.

***

دخل الوزير الأعظم فانحنت الرءوس. لم ينظر الوزير إلى أحد سوى الإمام الجويني، صافحه، ثم جلس كأنه صم أذنيه عن كل هتاف وكل إطراء. اجتمع خمسمائة طالب أو أكثر. جلس يستمع إلى درس الإمام، ذكر الحضور أن نظام الملك هو من أتى بالإمام الجويني من مكة إلى هنا، وأنه هو من أعطى المذهب الشافعي المقام الذي يستحقه بعد أن طارد السلاجقة في الماضي الشافعية، وفضلوا عليهم الحنفية. هو أتى بالإمام المنفي وأجلسه أستاذًا لمدرسة نيسابور.

قال نظام الملك فجأة: ولكن بعض الجهلاء يدّعون أن الشافعي يتوقف في مسائل أو يناقض نفسه في بعض الأحكام، فما رأيكم؟

خرجت كلمات الذم لمنتقدي الشافعي وكلمات الإطراء على نظام الملك الذي أنقذ المذهب الشافعي، وشجع حرية العقيدة والرأي، ولكن طالبًا واحدًا بقي صامتًا لا يتذمر ولا تتدافع من جوفه كلمات الثناء بلا توقف. دارت عينا نظام الملك في الحلقة وتوقفت أمام الغزالي.

التقت أعينهما، فقال نظام الملك: أنت من طوس؟

قال محمد في ثبات: محمد بن محمد الغزالي يا مولاي من طوس. إذا سمحت لي بالكلمة.

هز رأسه موافقًا، فقال محمد بلا تردد: التناقض يا مولاي الوزير هو النفي والإثبات بالإضافة إلى وقت واحد، ولكن لو قلنا «مثلًا لشعر

الإنسان سواد وبياض؛ أي بالإضافة إلى الشباب والشيب، فهذا ليس بتناقض بل حقيقة». كما أن «تغيير الرأي مأثور عند أكابر العلماء».

فتح الشيخ المسماري فمه ليتكلم، فأشار إليه نظام الملك بالسكوت ثم قال وعيناه لا تتركان عيني محمد: قف يا طوسي وتعال هنا أمامي.

تحرك محمد في بطء واقترب من الوزير وهو يخفي رهبته.

فقال الوزير: وكيف تفسر تردد الشافعي في بعض الأحكام؟

أزال السؤال كل الرهبة، فقال محمد في حماس: لو قال الشافعي رحمه الله إن المسألة في قولين فإنه «يحتمل وجهين: النفي محتمل، والإثبات محتمل، وإنما يختار أحدهما بالترجيح إذا ظهر الترجيح».

فقال نظام الملك في تحدٍّ: وكيف للمفتي أن يتردد؟ هل هذا ما تعلمته من إمام الحرمين الجويني أن تتردد في حكمك؟

ساد صمت متوتر ثم قال الشيخ المسماري: لو سمح لي مولاي بالكلام.

فأذن له نظام الملك فقال: المفتى لا يتردد يا مولاي، أنت دومًا على صواب.

ثم التفت نظام الملك إلى الإمام الجويني وقال: ما رأيك يا إمام؟

قال الجويني: كنت تسأل محمد الغزالي يا مولاي. لو لم يكن لديه إجابة أجيب أنا.

قال نظام الملك في تحدٍّ وهو ينظر إلى محمد: لا إجابة لديه؟

ولكن محمد قال في إصرار: إذا سمح لي مولاي فلدي إجابة.

رفع نظام الملك حاجبه ثم قال: تكلم.

فقال محمد: لو اشترط أحد في منصب المفتي أن يكون عالمًا بجميع المسائل غير متردد في شيء، فهو جاهل شدة الجهل ولا يعرف شيئًا عن الأحكام الفقهية الظنية، فكل الصحابة توقفوا في مسائل.

شهق الحضور من كلمات جريئة ربما يسيء الوزير فهمها، ولكن الوزير اقترب من محمد ثم قال: تتهم بالجهل مَنْ؟

سقط قلبه في رجليه من الفزع ولكنه تماسك وهو يقول: الجهلاء يحيطون بالأمة يا مولاي، أما وجود مثلك معنا فهو رزق من الله؛ لأنك تهتم بالعلم والعلماء، وتدرك بفطنتك الفرق بين الجاهل والعالم.

-تجرأت يا محمد!

-الجُرأة في الحق واجب. لا يتجرأ طالب العلم إلا مع الملك الحليم.

ابتسم ثم قال والحديث يستهويه: ولمَ يذكر الشافعي مسألة دون أن يعطي إجابة؟

قال محمد: شرح الشافعي المسائل، وفي شرحها مساعدة للمجتهد ليجد الإجابة. «وضع الصور للمسائل ليس بالأمر الهين». فمن منا يستطيع أن يلخص مسألة بوضوح؟

قال نظام الملك وتحدي الطالب له تأثير على أذنيه كغناء أفضل

مغنية في خراسان: ولكنك أنت تعرف يا طالب الفقه أن تكافؤ أدلة الشريعة مُحال، لا بد من حُكم مُرجح على آخر.

قال محمد: يا مولاي، التكافؤ «لفظ مشترك قد يراد به التناقض، وقد يراد به التعادل من الجانبين، وليس ذلك بتناقض ولا تخير فيحصل به التنبيه للأدلة، ويهون النظر في طلب الترجيح، فإن طلب الترجيح وحده أهون من طلب الدليل أولًا، ثم طلب الترجيح ثانيًا».

قال نظام الملك: أنت تلعب بالألفاظ والمعاني لأنك تجيد اللغة العربية وتعرف أسرارها، ولكنني ما زلت لا أفهم كيف يكون الشيء ونقيضه حقًا. الشيء إما أن يكون حلالًا أو حرامًا أو واجبًا أو غير واجب.

قال محمد في حماس: سأعطيك مثالًا يا مولاي، عندما نقول «من دخل الكعبة واستقبل الجانب الشرقي في صلاته، فصلاته صحيحة وفعله حق، ونقول أيضًا: فإن استدبرها ففعله حق، فكيف كان الاستدبار حقًا وهو نقيض الاستقبال الذي كان حقًا؟!».

الجواب في تعريف الحق و«هو امتثال الأمر، وهو مأمور باستقبال جزء من الكعبة، فإن استقبل الجانب الشرقي فقد امتثل الأمر وهو حق لذلك، وإن استدبر فقد استقبل الجانب الغربي وكان ممتثلًا للأمر وكان حقًا لذلك؛ إذ لا ترجيح للجدار الشرقي على الجدار الغربي».

ساد صمت هيبة وحسد. تكلم الشيخ المسماري بلا استئذان، قال إنه أحد معلمي الفتى الطوسي محمد. لم يلتفت إليه نظام الملك. ابتسم في معرفة ثم قال لمحمد: لطالما أخرجت طوس أعظم رجال

هذه الأمة. تأتي إليّ غدًا في القصر، سأكون في استقبالك.

***

لم ينم. تصور مشهد دخوله على الوزير الأعظم في قصره مرة ومرات، في كل مرة يجهز ما سيقول، ثم تخونه الكلمات، وفي كل مرة لا يلتفت إليه الوزير. انتفض من مكانه، وبدأ يقرأ كتاب الله ثم يصلي. استيقظ أحمد وابتسم له ثم قال: ماذا تطلب من الله يا ترى؟

-ما كانت تدعو به أمنا، هل تتذكر؟ أن يجعل في وجهنا القبول والمحبة.

ثم قال في قوة: لو رأيت الوزير اليوم كنت ستفرح فرحة لا تقابلها فرحة. هو طوسي مثلنا حوله هيبة وقوة تفوق صور العقل. يريدني أنا وحدي ولكنني أتوقع أن يلتصق بي الكثيرون غدًا.

لم ينطق أحمد، راح في نوم عميق، ابتسم محمد، ثم قال: ليتني أستطيع النوم مثلك قبل أن أصل إلى النجوم.

أصيب بتوتر يفوق الوصف، حتى رجلاه كانتا تتمردان عليه وهو في طريقه إلى القصر. لم يبلغ العشرين بعد ولم يدخل قصرًا طوال عمره. بيت والده كان واسعًا ولكنه بلا نافورة، وضيعة والده كبيرة ولكنها لا تمتد لتحيط البلد كلها. أما هذا القصر الذي يقترب فهو في حجم طوس ربما أو أصغر قليلًا. كلما اقترب الهوينى رجّت دقات قلبه الجسد رجًا. تسارعت خطواته وكادت الدماء تتدفق من رأسه من حماس وأحلام وخوف. عند باب القصر توقف في أسًى.

وجد منصور ووجد الشيخ المسماري، ووجد جماعة من الطلاب

والأساتذة تعادل مائة أو أكثر. ليس منهم أستاذه الإمام الجويني. وقفوا جميعًا على باب القصر من الخارج، لم يسمح الحراس بدخولهم حتى لحديقة القصر. وقفوا ساعة أو اثنتين أو ثلاثًا. أدرك هو حينها أن حلمه تفتت وأن الوزير نسي أنه رآه ونسي أنه طلب منه أن يأتي.

قال منصور للحارس في عدم صبر: نحن ننتظر الدخول على الوزير. هو طلب لقاءنا كلنا.

نظر إليه محمد.. أراد أن يعارضه ولم يفعل، فلو فعل يصبح لاهثًا مثلهم، ولو كان يضمر بعض الرغبة في التقرب من الوزير فهو أيضًا يملك من الكرامة ما يمنعه من المجادلة في هذه اللحظة.

مرت ساعة أخرى. ازداد عدد الطالبين وأصبحت الساحة التي تقع أمام سور حديقة القصر ممتلئة بألف أو يزيد، كلهم ينتظرون الوزير، كل واحد منهم لديه حاجة.

وجد خطواته تبتعد والنجوم تستقر عاليًا، ويبقى هو طالب الفقه الذي لم يتعدّ العشرين أحد طلاب الإمام الجويني لا أكثر، حتى لو رأى في نفسه ذكاءً أو طموحًا، فالرؤية غير التحقيق. جر قدميه في خيبة إلى الخلف، لا يدري هل يقرر أن يستمر في محاولة مقابلة الوزير الأعظم أم لا، ولكنه سمع صوتًا من الحراس والباب يُفتح في بطء، فيجري كل المنتظرين إلى داخل الحديقة، يدفع هذا ذاك ويصرخ هذا الرجل في صديقه، كأنه يوم القيامة الذي يفر المرء فيه من أخيه. لم يجرِ، ولكنه توقف أمام باب الحديقة ونظر إلى الحارس ثم قال: لدي موعد مع الوزير الأعظم نظام الملك.

لم يلتفت إليه الحارس، فهو اعتاد هذه الجملة، يسمعها كل يوم ألف مرة أو يزيد. ولم يدخل محمد الحديقة، مكث في مكانه أمام باب الحديقة، ينظر إلى القصر، أغمض عينيه برهة، فأصبح القصر في المخيلة أعظم وأبهى. بدأ الحراس يوبخون الناس، يأمرونهم بالبقاء في أماكنهم. آهٍ لو ملك قصرًا كهذا! حتى الأحلام وحدها مرة وحلوة.

ثم سمع صوت حارس يصيح بأعلى صوته: محمد بن محمد الغزالي.

انفتحت كل أبواب الأرض والسماء أمامه، قال إنه موجود في حماس، بدأ يدفع الحشد في رفق ليدخل الحديقة ويقترب من مبنى القصر. وقف أمام الباب، فدفعه الشيخ المسماري وقال للحارس: أنا أستاذه دعاني الوزير معه.

طبق محمد شفتيه ولم ينطق. قال الحارس دون الالتفات إلى هذا الرجل أو ذاك: محمد الغزالي فقط يدخل.

تحرك الباب في بطء كأن السماء وراءه أو الكواكب، غمر الفرح دنياه في لحظات وعادت النجوم إلى موقعها. دخل في هيبة وهو يحاول أن ينسى وجود منصور أو الشيخ بالخارج. رفع عينيه إلى ألوان السقف ونقوشه المتقنة، سار في بهو طويل لا ينتهي، ثم دخل حجرة تتسع لكل الطلاب معًا، ولكنه لم يجد الوزير. وجد ألفي عسكري يشهرون السيوف، يضعونها أمام أعينهم بالضبط كأنهم ينتظرون العدو هنا في البهو. عساكر بملابس موحدة، ودروع قوية وخوذة مقاتل. نظر حوله برهة والدم لا يجد طريقه لرأسه، ثم يجد

الطريق فيندفع ككل هؤلاء مرة واحدة. أصبح قلبه على مسمع منه. انتظر في ترقب دخول الوزير الأعظم. انتظر ساعتين أو أكثر.

ثم انفتح الباب وانشق القمر أو كاد، ودخل الوزير في زينته، اتجه بنظره إلى الشاب الماكث أمامه، لا يتحرك، ثم ابتسم وقال: خائف؟

بلع محمد ريقه ثم ردد آيات قبل أن ينطق وقال وهو ينظر في ثبات إلى عيني الوزير: «الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل». ومن يكن في حضرة الوزير الأعظم يأمل ولا يخف.

ابتسم وجلس وأشار إليه بالجلوس ثم قال: تجيد المدح كما تجيد الفقه. أصحابك بالخارج يدّعون أنك دعوتهم للحضور معك.

بقي صامتًا.. فقال الوزير: هل دعوتهم؟

-لو لم يدعهم الوزير الأعظم فكيف يدعوهم الطالب الفقير؟!

قال الوزير: كلماتك معسولة كأنك تفكر في كل كلمة ألف عام قبل أن تنطقها. تُرى ماذا تريد مني؟ كل من يأتي على بابي يريد شيئًا.

-الفرح في مقابلة الوزير يا مولاي يكفيني.

-تكذب.

-والأمل دومًا معقود بالله وبمن أعطاه الله المُلك على الأرض.

-لسانك.. معسول قلت لك.

-«جُعل اللسان على الفؤاد دليلًا». الحقيقة فضل يؤتيه الله من يشاء.

-تقصد الصدق أم الحقيقة؟

-الصدق يفضي إلى الحقيقة، لا طريق إليها سوى بالصدق.

-إذن أخبرني كيف حال طوس؟

صمت هنيهة. فأعاد عليه السؤال، فقال في بطء: تبتعد عن دار الخلافة، فلا يصيبها الخير الذي يصيب القريب.

نظر إلى الحراس ثم أشار إليهم بالخروج، فقفز قلب محمد من مكانه من الفرح، ثم قال الوزير: أخبرني لو خيروك بين المال والجاه، فماذا تختار؟

فكر قليلًا ثم قال: المال وسيلة وليس غاية في حد ذاته. أما الجاه فهو تسخير القلوب، وتسخير القلوب غاية.

-صعب على الحكام تسخير القلوب.

-لأن حكم الحاكم يا مولاي يُسعد البعض من جهة ويُتعس البعض من جهة، ولكنه لو عدل لا يأبه بكون فعله يسعد أو يتعس.

-أنت...في صحبتك راحة. تأتي إليّ كل سبعة أيام نتكلم ونتجادل..

-شرف لا أتوقعه ولا أستحقه.

-لو لم أكن وزيرًا لكنت مثلك فقيهًا أو واعظًا أو عالمًا. هي دنيا لا تعطينا كل ما نريد. أنت في سن ابني أو حفيدي، الجلوس مع الصغير يبعث الحياة في البدن المنهك، والقرب من العقل الفذ يساعد الحاكم في البقاء.

***

ربما يجد رجل المتعة في مصاحبة الجمال أو الاستماع إلى العزف، وربما يجدها في مصاحبة الملوك والتقرب منهم، ولكن نظام الملك يملك من النساء ما لا يحصى، ولديه عشرات الأولاد. هو الآمر والناهي في دولته حتى وإن كرهته زوجة السلطان السلجوقي، أو هابه الخليفة العباسي، فسيبقى هو كل شيء في هذا الزمان. لم يعد يرفرف قلب الوزير عند سماع الإطراء أو امتلاك البلاد، أصبح القلب معلقًا بالعلم والعلماء. الاستماع لكلام عالم يشعل الفؤاد، ويكفيه من الدفء والراحة. يسمع أن الرومان قديمًا كانوا يتسلّون بمشاهدة قتال ضارٍ بين رجلين أو بين رجل وأسد. ما الذي يُسلّي النفس من مشاهدة الصراعات، أم أنها رغبة الرجال في اللعب حتى عند الكهولة؟ الوزير أيضًا يحب مشاهدة اللعبة المتقنة؛ رجل يقتل رجلًا بكلمة وحجة ودليل، يجادله فيطرحه أرضًا بمعنًى غاب عنه أو جملة ضاعت من ذاكرته. عند الهزيمة يطأطئ المنهزم رأسه ويدرك أنه قتيل؛ فقد لجم آخر لسانه وهزم عقله. هذا قتلٌ أقسى ولكنه أكثر حنكة ورقيًا. وجد المحارب الذي يبحث عنه. محمد الغزالي يصارع أقوى رجل فيهزمه، الكلمة أمام الكلمة، والأسلحة ليست في يد الجاهل ولا المتردد. لكَمْ شاهده هنا في قصره يجادل المعتزلة مرة، والباطنية مرة، ومرة يجادل الملحد، ومرة يجادل من أجل أن يسري قلب الوزير، ويروي عطش عقله إلى المعرفة! كل مرة وفي كل لعبة ينتصر الغزالي انتصارًا لا يترك لغيره فرصة للعيش. يقتل خصمه بالحجة بلا تردد. يبتسم له الوزير نظام الملك، لم يعد في هذا الكون من يستطيع أن يسري عنه حزن الكهولة وافتراس الأعداء لجسده سوى الغزالي. بعثه الله إليه بجمال كالأشجار العالية التي تمتد لتبلغ النجوم.

اليوم كان الجدال أشد والمصارعة سريعة الإيقاع والنتيجة أمتع وألذ. بعد أن انتهى الغزالي هوى خصمه إلى الأرض وغطى وجهه بيديه، ثم بكى. ابتسم نظام الملك، ولكن الغزالي لم يبتسم. أمسك بكتف الرجل، ثم قال: هي مجادلة يا أخي. لا تستحق منك الحزن.

انهمر الرجل في البكاء ولم يبرح مكانه على الأرض. انحنى الغزالي وقلبه ينقبض ثم ربّت على كتفه، فأزاح الرجل يده ثم قال: لا أسامحك يا محمد. تضرب أنت بلا رحمة يا طوسي. تعرف، أليس كذلك؟ أنت تذبح بالكلمات؛ تتهمني بالجهل والغباء؟

قال مسرعًا: أنا لم أقل هذا؟

-هل ستجادلني من جديد لتثبت أنك الأفضل؟ لا أحد في ذكائك ولا علمك يا فتى، حتى الشيوخ تنهزم أمام شبابك وقوتك.

ربت الغزالي على كتفه فأزاح يده ثم قال: وهل لقسوة القلوب علاج يا غزالي؟

قال الغزالي مرة أخرى: هي مجادلة لا أكثر.. هوِّنْ عليك.

رفع نظام الملك يده يأمر الحراس بإخراج الشيخ المنهزم من القصر.

تتبعت عينا الغزالي إخراج الشيخ. تمثل أمامه خيالًا مختلفًا كأنه كان يحمل سيفًا يبارز به الشيخ المنهزم ثم يغرزه في بطنه. ها هو المنافس يموت، فالموت أنواع وأشكال. لم يزل القلب منقبضًا والنفس شاردة، والدنيا تمر أمامه كالجارية الحسناء تغازل كل رجل إلى حين.

قال نظام الملك: لا تتأثر، من يخاف البحر لا يسبح فيه. هو طلب أن يجادلك وأنت هزمته. تعلّم أن تمرر هذه اللحظات دون اكتراث. بالطبع الانتصار يؤلم المنهزم. أبليت بلاء حسنًا. تستحق عليه جائزة.

ثم أشار إلى عبده فجاء بجارية تغطي وجهها بخمار، أمسك بيدها الوزير وقال: هي لك يا محمد.

بلع ريقه، لم يتوقع هذا النوع من الهدايا، فأكد الوزير: هي ملكك من الآن. اذهب بسلام.. بل انتظر هل كتبت كتابًا بعد؟

-أتردد في الكتابة وشيخي على قيد الحياة.

-الكتابة واجب عليك، لا علاقة لها بأحد، والفقه هو علمك تعرف تفاصيله وتشرحها للطلاب. اكتب ما تشرح وما تعرف، لا تبخل على الناس بعلمك.

-الشيخ الجويني علمني و..

- لن يكون هناك سوى غزالي واحد في كل الأزمنة. عالم أوحد. أنت.

طأطأ رأسه، بلغ الحادية والعشرين، واليوم لا يدري هل هو أسعد يوم في حياته أم أتعس أيامه على الإطلاق!

عاد إلى بيته والجارية تتبعه بلا كلمة، اليوم لديه بيت كبير هو وأخوه. ما إن دخل حتى خلعت الجارية خمارها وجلست تحت قدميه وأمسكت بيده وقالت: مولاي وسيدي...لا تعرف مدى سعادتي.

نظر إليها. عيناها الكبيرتان وشعرها المتدلي على ظهرها، وجهها

الأبيض وشفتاها اللتان تنبضان بالشهوة. أمسكت بيده وقبلتها في بطء ثم قالت: حلم كل حرة في بلادنا أن تكون معك، فما بالك بالجارية؟!

نظر إلى يده التي تقبلها. شهوة النساء خُلقت بداخلنا، نعم، ولكن الإخلاص أعظم رزق. ماذا سيحدث بعد حين؟ ماذا بعد أن تعطي نفسها له؟ تخونه؟ تبلغ الوزير بكل أنفاسه ونبضات قلبه يا ترى؟ لا بد أن يأخذ قراره سريعًا وبلا ضعف أمام رغبة. تمنى امرأة، نعم، ولكنه تعلم أن يصبر ويعبث مع الأيام. من يريد هزيمة الأيام لا بد أن يعبث لها، إنه لا يبالي بالوقت. يريد امرأة يضمن ولاءها له هو؛ هو فقط. نظر إلى الجارية مرة أخرى. هو ابتلاء جديد وامتحان أشد. من أراد المجد يضحي بالذهب.

أحاط وجهها بيديه برهة كأنه يحارب شياطين بداخله، ثم قال في هدوء: أنت حرة من اليوم.

ثم ابتعد عنها واتجه إلى الخزانة وأخرج منها الدراهم وأعطاها لها ثم قال: هذه تكفيك لتأجير بيت ولو احتجت أي شيء فلا تترددي في سؤالي. لا حاجة لي بالجواري، أطلقت سراحك للتو.

فتحت فمها في فزع ثم قالت في ترجٍّ: مولاي شاب وجميل، وجودي معك كجارية أطيب عندي من حريتي بدونك. من تحظى بليلة مع مثلك من أمثالنا تفتح لها أبواب المتعة والسعادة. أنا هنا بين يديك، أريدك قبل أن تحررني، أبقني بين ذراعيك ليلة. اعتبرها صدقة لجارية لم تعاشر سوى الكهل والطامع.

أطرق برهة.. تحاشى النظر إليها والابتلاء يشق عليه ويجهده كلما

نطقت. لو عاشرها فماذا سيحدث؟ سينجب ولدًا من الجارية. ولو أنجب الولد وهو لا يثق بها فماذا سيفعل؟ ولو أبقاها يومًا فسيبقيها شهرًا وعامًا ودهرًا. أمور الشهوة عندما تتحكم تهزم كل الجيوش وكل العقول مجتمعة. يدرس هذا كل يوم ويحفظه عن ظهر قلب. لابد أن يثبت ليصل إلى النجوم. يعاني ويصبر. يومًا سيجد من تستحقه.

فتح باب بيته وقال: أريد أن أعود فأجدك قد رحلت.

اتجه إلى بيت رجل أبكاه اليوم، الشيخ المنهزم. طلب منه الصفح فأعطاه له على مضض وبلا اهتمام، ولكن قلبه أدرك أنه يصفح عنه خوفًا من نظام الملك لا أكثر. ها أنت قد اكتسبت أول عدو يا غزالي، استعد. من يدري ربما يشكو منك لله. هل سيفعل؟ وما الظلم في المجادلة؟ تتكاثر الشياطين في هذه الليلة التي لا تنتهي. عاد إلى بيته، فقال أخوه في ذهول: ترد هدية الوزير الذي تمنيت صحبته؟ وجارية؟

-هدايا الملوك كالعسل ممتلئة بالنحل.

-تشك في ولائها؟ تظن أنه أرادها للتجسس عليك؟

لم يُجب. وقال بعد برهة: شجعني الوزير على كتابة الكتب في الفقه.

-تكتب وشيخك على قيد الحياة؟ أتريد أن تقتله حيًا؟

-أكتب لأنه أجاد تعليمي.

-ألن تتزوج يا محمد؟ إذا لم تكن تريد الجارية فمن تريد؟

-سأتزوج عندما أجد مَنْ أريد. محمد لا يقبل سوى بما يريد، لا يرضى بنصف انتصار ولا نصف سعادة ولا نصف حياة. أريد الإخلاص وكفى.

***

ولكن نظام الملك ومحمد كانا يتمتعان بعلاقة يصعب فهمها. يحب كل منهما الآخر ويحذره، يحتاج إليه ويتقيه. رجل في السبعين وشاب أصبح اليوم في الثامنة والعشرين، أمسك الرجل بيد الشاب وعبر به بحرًا وراء بحر، ولكنه لم يعلمه السباحة، بل شاهده وهو يُغرق كل الأعداء.

فمن ينهزم في جدال يفقد هيبته، والرجل هيبة قبل أي شيء. كان هو محمد الغزالي هذا الفتى القوي الذي يهزم كل الرجال بلسانه وعقله. أتعرف معنى أن تعتمد على لسانك لتحطم الأعداء؟ ومن يناظر الغواص أو يجادله يتناثر من حوله ويُذل أبد الدهر، ويبقى نظام الملك يشهد على روعة الشاب الذي أخذه في كنفه منذ البدء، وشاهد على نجاحه كالأب العطوف. أحيانًا يراوض الغزالي الفكر، هل لو انهزم مرة فسيهجره الوزير يا ترى؟ لن يغازل هذه الفكرة أبدًا، فهو لا ينهزم.

أتقن الوزير الأعظم اللعب. بداخله براءة وعنف وحنكة وصرامة. أتى بالفتى الطوسي في موعد غير موعده. كان الوزير حينها يستمع إلى الغناء ويجلس بين جواريه ويحتسي الخمر. عندما دخل عليه محمد فزع ربما. توقف مكانه ولم يقترب، فأمره بالاقتراب. أجلسه بجانبه ثم قال: أتيت لك بالجارية منذ أعوام فحررتها. اختر أيًا

منهن. من منكن تريد هذا الشاب الجميل؟

بقي محمد صامتًا يستوعب ما تجاهله، ويدرك ما لم يكن يريد إدراكه. ألقت واحدة واثنتان وثلاث أنفسهن أمامه كالطير الذي أصابه الصياد فهوى. ترى بمَ وعدهن الوزير؟ وماذا يبغين؟ أموالًا أم ذهبًا أم جاهًا، أم ليلة في أحضان رجل جميل فقط؟ تجمد مكانه لا يتحرك، فقال نظام الملك وهو يشير إلى حارسه: أدخل الأميرة..

دخلت بنت بخمار يزينه الذهب. خلعت خمارها ونظرت إلى محمد، بدا له أنه في حلم لا يدري لو كان قبيحًا أم جميلًا. أشار الوزير إلى الأميرة بالخروج بعد برهة وبلا كلمة، ثم شرب من كأسه وقال: ماذا بك يا محمد؟ انعقد لسانك؟ هذه الأميرة استغاثت بي. هي إحدى بنات الأمير شاهنمار، أحبتك، بل عشقتك، تريدك زوجًا. كانت تزور إحدى بناتي عندما وقعت عيناها عليك. تكلمت معي. لو لم تكن تريد الجواري فخذ الأميرة، أو خذ الجواري والأميرة.

أطرق محمد ولم يُجب، فقال الوزير: هل ستفكر في الأمر؟

قال بعد حين في بطء: مولاي علمني أن العمل من أجل الأمة هو عين الإخلاص وأن القدوة الحسنة خير معلم. لو سمح لي بالانصراف أكون شاكرًا له طوال عمري.

قال الوزير وهو يضحك: لا أسمح لك.

فتح فمه لينطق ولم يفعل، فقال الوزير: رجل مثلي كل لحظة في عمره خطر وعناء، يحتاج إلى بعض الراحة والطمأنينة. هناك وقت لمصاحبة العلماء، ووقت للترفيه عن النفس يا محمد، ولا شيء يغلق العقل برهة سوى الخمر. أما النساء.. فيُرحن الأجساد والشهوات.

أريدك أن ترى وتفهم. كل واحدة منهن مستعدة أن تبيع نفسها وتصبح جارية من أجل المال والجاه. ما تريده المرأة هو القدرة، ولأنها ضعيفه تحتاج إلى الحيلة. لا تثق في امرأة ولا جارية. ما يفعله السلطان اليوم سيفتت دولته. لديه ثلاث نساء في حياته، لكل واحدة ولد ويومًا سينهش الأخ قبر أخيه بتحريض من أمه. السياسة لا يدخل فيها نساء ولا خمر. الخمر والنساء للمتعة فقط. من تريد؟ أم تريد الثلاث؟

نظر إلى الجواري الثلاث وهن ينمن تحت أقدامه بملابس شفافة، استغفر ربه وأغمض عينيه، فابتسم الوزير وأمرهن بالخروج ثم قال: براءتك تشفع لك. لا يوجد أحد في براءة محمد ولا قوته. تذكّرني بنفسي في شبابي. أرى فيك نفسي يا محمد.

بلع محمد ريقه. دومًا كان الوزير في مخيلته أقوى رجال الأرض، اليوم لم يعد متأكدًا أنه يود أن يصبح مثله.

قال الوزير: لا تتكلم اليوم ولا تجادل ولا تتجرأ عليّ، ولكني أعرف ما يدور بخلَدك. تود أن تقول إن الوزير الأعظم يشرب الخمر ثم يحاسب شاربها، وإنه رجل هَرِمٌ ولم يبق في العمر الكثير.. أليس كذلك؟ وإن مقابلة الله غير كل مواجهة يوم تُبلَى السرائر. أعرف ما يدور بخلدك لأنك ابني أو تكاد.

قال محمد: مولاي يقرأ القلوب ويعرف حرصي على نجاته وسعادته في الآجلة قبل العاجلة. لو سمح لي مولاي بالانصراف.

قال الوزير: أتعرف من أيضًا يتمنى أن يأتي إلى مجلس الخمر ويشربها معي، ولكني لا أسمح له فيشربها وحده بين جواريه

وغلمانه؟ هل تعرف من؟

توقع كلمات الوزير وعرف عمن يتحدث.

قال الوزير: الشيخ المسماري.. ليس كل من يتكلم عن الأحكام والعلم يعلم، ولا كل طبيب يعرف أن دواء مرضه الحمية يقدر على الجوع. تفهمني؟

قال محمد: أفهمك.

-لمَ تندهش؟ الفتى الطوسي يعرف النفس وأسرارها حتى وهو في العشرينيات من عمره. كل مدّى أحبك أكثر.

أمسك بالقدح ثم شرب منه من جديد وقال: اليوم آخر أيام الخمر. إكرامًا للشيخ الغزالي نتوقف عن الخمر.

***

التفت أحمد حوله ثم اقترب من أخيه وقال: هذا الرجل يحوم حولنا منذ أيام. يبدو لي كأنه أحد عساكر السلطان. يتخفى في صورة رجل من العامة، ولكنه تركي أكاد أجزم بهذا.

نظر محمد إلى حيث أشار أخوه، ملأ عينيه بهيئة الرجل ولكنه لم يُجب.

قال أحمد: إياك أن تكون قد قلت شيئًا ضد السلطان أو ضد الوزير الأعظم.

حاول أن يستعيد كلماته كلها، تذكّرها بلا عناء. تذكر أنه غفا ربما مرة ونسي الدعاء للسلطان. دعا للخليفة والوزير الأعظم فقط. تُرى

هل يحاسبون العلماء على كل حرف على حدة؟ قال وهو يدّعي الثبات: لا تشغل بالك.

أحمد كان مشغولًا بعشق لم يعرف مداه بعد، أحب ليلى ابنة أحد الشيوخ في المدرسة. رآها في الخان، تكلم معها كلمة أو اثنتين، سأل عن حال والدها، ابتسمت في خجل وأدارت وجهها واحمرت وجنتاها.

قال وهو غائب مع خياله: أتعرف يا محمد؟ لا عساكر تخيفني ولا ملوك. قلبي يتحكم ويطغى أكثر من كل ملوك الأرض.

نظر إليه محمد في غضب ثم قال: يطغى؟ هل قلت يطغى؟ أغلق فمك حتى نعود إلى بيتنا. لا تقرن الظلم والطغيان بالملوك في كلامك. كل كلامك محسوب عليك.

***

وعندما عادا دق الجندي باب بيتهما وطلب لقاء محمد. خرج له محمد فأمره أن يأتي معه إلى معسكر السلطان. سافر معه إلى أصفهان في صمت. كلما فتح فمه لينطق أغلقه. لا هو يعرف ماذا يريد منه السلطان ولا يوجد أثر للوزير الأعظم. لو كان يريد قتله فلا بد أن يعطيه فرصة لتوديع أخيه والاستغفار لذنبه. بعد ثلاثة أيام قل صبره، فقال للجندي: لِمَ يريدني السلطان؟ هل تعرف؟

-لا.

هز رأسه كأنه يدرك حجم مصيبته ثم صمت. عند ساحة معسكر السلطانملك شاه في أصفهان وقف الرجال مصطفين كأنه يوم

القيامة أيضًا. أمره الحارس أن يذهب إلى خيمة يغير ملابسه ويستعد لمقابلة السلطان. أعطاه الملابس الحريرية الثمينة، فنظر إليها في بعض الأمل وفي بعض الحذر. غيّر ملابسه وخرج من خيمته فوجد في استقباله الوزير الأعظم، للحظة شعر أنه يقابل أباه يستغيث به، صافحه الوزير بحرارة، ثم قال: حمدًا لله على سلامتك يا بني. محمد...اليوم تصبح إمام خراسان.

ثم أخرج خاتمًا من الياقوت الأحمر الحر وضعه في إصبع محمد وقال: هديتي لك يا إمام. يا مدرس مدرسة نيسابور.

ارتجفت كل الأعضاء، سارت النشوى وعربدت بالبدن والنفس. علم حينها سطوة السلطة والجاه على الجسم الضعيف.

همس له الوزير نظام الملك قبل أن يدخل على السلطان: محمد.. هؤلاء السلاطين ليسوا مثلنا، يفهمون اللسان العربي بصعوبة، وتعلموا اللسان الفارسي ليحكموا لا أكثر. لا تستعمل كلماتك الصعبة وتُجرد الحروف وتُحلق بها للسماء كما تفعل معي. تكلم معه كأنك تتكلم مع صبي، اشرح بوضوح وشجعه وامدحه.

نظر إليه، يفهم ما يعني ولكنه لم يجرؤ على الكلام. فلو أثنى على السلطان يكون قد عارض الوزير، ولو أكد كلام الوزير يكون قد ذم السلطان، ولكنه عرف حدّه. بعد مقابلته مع السلطان وحاشيته عاد إلى حجرته في معسكر أصفهان؛ ليجمع أحداث يوم غيّر كل حياته. قال الوزير: «تكلم معه كأنك تتكلم مع صبي». ابتسم لنفسه لأنه أدرك منذ البدء حتى قبل أن يقابل السلطان أن عقله هبة من الله؛ عين سحرية في رأسه يرى بها ما لا يرى غيره. فلو لم يولد الغزالي

سلطانًا أو وزيرًا فقد وُلد أذكى من كل السلاطين والملوك بل من كل البشر. مأزق من يملك مثل عقله هو أنه يرى الحماقة حوله تحاصره ولا يعرف كيف يمحوها أو يتحاشاها. يجلس أمامه إمام أو عالم ثم يسأله عن مسألة بسيطة تحتاج إلى بعض التفكير لا أكثر، يشرح في صبر ولكن صدره يضيق من الكسل والبلاهة. قالها المعصري منذ أعوام، من يملك مثل عقلك يشقى، صدق اللص أم كذب؟ واليوم عقله هو سبب النجاة فقط. هو في الجبل العالي مستقر على عرش من التبر، بينما كل سلاطين الأرض تحت قدميه يتوهون بين الحروف والأرقام، يحتاجون إلى من يمسك بأيديهم، يرشدهم إلى الفهم. هو هناك عند السحاب يمكث، وهم يلملمون الكلمات ليرتبوها في عقول سقيمة بطيئة عاجزة. «كأنك تتكلم مع صبي». يا وزير..كل من حولي صبيان..لم يصل إلى الرجولة غير من غاص في المعاني وفهم!

لامته نفسه برهة، قالت في حدة: وأنت يا محمد..هل فهمت؟

زجرها وأعاد عليها الكلمات: محمد فقط هو من يستطيع أن يفهم. يهجم في الحروب، ويخوض أي معركة. لا علم يستعصي على محمد الغزالي. الرياضة؟ الفلسفة والمنطق؟ الطب؟ النحو واللغة؟ يا نفس، لو أردت أن أتقن الآن علم الطب لأتقنته في غضون عام أو أقل. لا تلومي لأنك لا تعرفين، اتركي محمد يمسك بالنجوم فهو يستحق.

***

محمد الفتى الطوسي أصبح إمام خراسان وهو لم يتعد الثامنة والعشرين. ومنذ أربعة عشر عامًا وهو يستقبل كل عام في نفس

الميعاد خنجرًا على مخدعه بلا كلمة من صاحبه ولا موت. يكاد يتأكد أن قاطع الطريق المعصري هو من يضع الخنجر في مضجعه كل عام في نفس موعد لقائهما الأول. ربما ليذكّره أن الأجل قادم، أو أنه لم ينسه، أو أنه سيقتله عاجلًا أم آجلًا. بدأ يضيق ذرعًا بالخنجر، وفي لحظة مجازفة صاح بصوت عالٍ: يا قاطع الطريق...يا معصري، تعال هنا أمامي، وصارعني، لا تترك الخنجر دون أن تغرزه في القلب.

ثم عدل عن جسارته وقال: ولكنني ممتنٌ لك يا معصري أنك لم تغرزه. ثرى هل ستتذكرني إلى أبد الدهر يا قاطع أحلامي وأيامي؟

ثم قال مخاطبًا المعصري: لنا لقاء في بغداد. لا بد أن أراها، هذه المدينة التي سيطرت على الدنيا، وأغوت كل عابد وناسك. ليس لك حجة عليّ يا بغداد.. فأنا من يصنع المعاني والحجج والدليل والكلمة. أصبحت أنتظر مقدمي إليك كأنه يوم ميلادي.

ولكن يوم ميلاده كان يوم أدرك أن الحكم غير الفقه، وأن الأحكام المفصلة والمعاني الدقيقة لا تنزع الخلاف كل مرة، بل أحيانًا تؤازره وتوقده. بعقله كاد يصل إلى نجم الثريا، وبعقله كاد يهوي إلى الثرى. أخذ نظام الملك بيديه وأدخله إلى عالم السلاطين والخلفاء. وضع على عاتقه مهامّ جليلات، أحبه ولم يشفق عليه. وثق به ولم يحذره. ألقى به في سجن بقضبان حديدي بينما الأسد الجائع يستقر بالداخل. وها هو الغواص يواجه الأسد أو يكاد، والأسد لا أمان معه.

***

مع أن أحمد صاحب أخاه إلى أصفهان، ولكنه لم يصاحبه إلا ببدنه. كان يرحل معه ولا يقابل سلاطين ولا يقترب من وزراء، يقضي

وقته غائبًا عن محيطه، غارقًا في عالمه هو الذي صنعه في طوس، هو عالم كله ضحكات وأطفال تلهو بلا خوف من خطف أو قتل، هو عالم بنهر طويل لا خوف فيه من الغرق مادام محمد حوله. تصفو لهما لحظات فيضحكان كأنهما يجمعان أيامًا مضت، واطمئنانًا ولّى، وماضيًا بصورة بهية، وأشجارًا تصل إلى أول سماء. تصفو لهما لحظات فيفرحان حتى من خوفهما من الذئاب ومن هروبهما من الصحراء، يتذكران نيرانًا أشعلاها يومًا ولم يعرفا كيف إخمادها، وليالي باردة أرادا فيها إشعال النيران فلم يستطيعا. يجمعان لحظات العجز والموت، عندما أمسك الأخ بيد أخيه وطلب منه الثبات، وعندما جره وراءه وأخبره أنهما معًا طوال العمر لن يفرق بينهما شيء.

ينام أحمد على الحرير في بيت أخيه ولكنه لا يشعر بنعومته، تساوى لديه الحرير بالصخر مادام محمد معه. لا طمح إلى مجد ولا جاه ولا مال. عمل واعظًا في أحد المساجد واستمر في كتابة الأشعار، وحبه لليلى ابنة الشيخ يتملك قلبه وعقله، لا يمر يوم لا تسيطر على أيامه. باعدت بينهما الأيام ولكن القلب معلّق بنيسابور حيث تركها.

قال محمد وهو يتناول معه طعام العشاء: أنا أزوّجها لك. اذهب إلى والدها، واطلب الزواج منها وائتِ بها هنا معك.

قال أحمد في يأس: وماذا أملك لأتزوجها؟

فقال محمد: تملك كل شيء. هل تطمح في الزواج من مثلك؟ هذا بيتك وكل أموالي أموالك. هيا يا أخي.

أعطاه الأموال، فرحل الأخ وعاد بليلى تتشبث بيده. بدت كأن أيامه استعادت نورها. في الحب غرقٌ حميد لا يحتاج فيه إلى إنقاذ محمد.

***

حملت ليلى بعد ثلاثة أشهر ولم يستمر الحمل. تهامس الخدم أن ليلى أخذت دواء يسقط جنينها. لم يصدق شائعات الخدم ولكنه صدق قلبه بعد حين.

لم يتوقع في غمرة استغراقه في إعطاء الدروس في المساجد أن الابتلاء قريب، والألم لا يبرح هذا العالم الضيق. أغدق عليها بالحب ولكنها أرادت ما لا يملك. كرهته منذ أول يوم لأنها لم تجد فيه ما تصورته. تزوجت شقيق محمد الغزالي وتوقعت أن تقترب من السلاطين وتلبس الحرير، ففاجأها أحمد بتواضعه وزهده. بعد أسبوع تذمّرت وقالت: اطلب المال من أخيك. أنا لا أستطيع العيش هكذا؟

نظر إليها في فزع ثم قال: أطلب المال منه كيف؟ لدي أجري وهو صاحب البيت الذي نعيش به. دفع لي الكثير، لن أطلب منه أكثر من هذا.

في الليلة نفسها أعطاه محمد بعض المال وطلب منه أن يشتري هدية لزوجته، ولكنه رفض وأذهلته قدرة محمد على قراءة القلوب. عاد إلى حجرته مع زوجته واجمًا، فقالت في إصرار: أنت لا طموح لديك ولا حياة. انظر إلى أخيك ماذا حقق في سنه وماذا أصبح. لِمَ أتزوج أنا من الخائب وتتزوج غيري من أخيك؟

فتح عينيه في فزع من كلمات أصابت القلب، وأدرك أن القلب انشقّ لا محالة. لم يُجب ولم تَرض. تارة تأخذه باللين وتطلب وتأمر، وتارة تلومه وتدهس كل كبريائه. تناثرت كلمات من حوله أن منصور من كان يعتدي عليه منذ أعوامٍ في المدرسة أراد الزواج منها، ولكن والدها أصرّ على زواجها من أحمد معزة لأخيه. تُرى هل أحبت منصور وأرغمها والدها على الزواج من أحمد؟ أم أرادت منصور بعد أن تزوّجت من أحمد؟ لم يحاول أن يعرف ففي المعرفة هوان لا يتحمله. استمر زواجهما شهورًا ثم أعادها إلى بيت أبيها دون أن ينطق بكلمة لمحمد، ولكنها هي تكلمت، قالت إنها تزوجت من رجل يملك طيبة تجعله كالمجاذيب ولكنه لا يملك مالًا ولا جاهًا. قالت إنها كانت تستحق الزواج من أخيه، وإنها لا تريد أن تحيا بالقليل. قالت وقالت.. وأدرك محمد ولم يواجه أحمد حتى وهو يرى الحزن حوله. بعد انتهاء العِدّة تزوّجت ليلى من منصور. مَن أخذ منه الدرهم في الماضي أخذ اليوم زوجته. تُرى يا محمد هل تستطيع أن تُعيد ما تفتت هذه المرة؟ ولكن الانهزام هذه المرة بطعم الحنظل. أصبح يختلي في حجرته ويقرأ القرآن وعندما دخل عليه محمد وقال في إصرار: سيعوضك الله بأفضل منها. تستحق من هي أفضل. أنت مؤمن وتثق في الله. من لا تدرك قيمتك لا تستحق العيش معك.

قال وعيناه تنظران إلى لا شيء: ماذا فعلت زوجتي يا محمد؟

نظر إليه كأنه لا يفهم ثم قال: تريدني أنا أن أخبرك بما فعلت يا أخي؟

-لا، بل أسألك يا فقيه يا مفتي أن تخبرني لو كان هناك عقاب لها على ما فعلت. بل أخبرك أنا؛ هي تركت زوجًا لا تريده وتزوجت

بالشرع زوجًا آخرَ. في حكم الفقه هل أذنبت؟ ولكنها وهي تفعل هذا يا أخي وطئت قلبًا فمزّقت كل عروقه. هل للقلب حكم في الشرع يا أخي؟ أخبرني أنت.

-هي ظلمتك وتحسبه هينًا وهو عند الله عظيم. لم تُحبك يا أحمد. أنت تستحق مَن تحبك لنفسك.

-ولكنها في الظاهر لم تظلمني. لم تفعل ما يخالف الشرع.

-بل ظلمتك بنيتها وقلبها.

-وهل الأحكام تتبع القلب يا أخي؟ هل تكفي أحكامك التي تفكر فيها كل يوم أن تضمن عدم الظلم.

-الشرع واجبه أن يرتِّب حياتنا حتى نحيا معًا في سلام وعدل.

-ولكننا لا نحيا في سلام وعدل.

-هذا ليس خطأ الشرع، بل خطأ من لا يطبّقه.

-ربما، وربما أيضًا لا يحيط الشرع وأحكامه بالقلب ولا يكفي عند الله دون قلب طاهر صافٍ من النيات السيئة. الشرعُ بداية الطريق، وصفاءُ القلب غايته.

-هو يحكم بظاهر الأمور، والله يحكم على القلب، ولا يترك ظلمًا بلا عقابٍ.

نظر إليه برهة ثم قال: محمد.. تُرى لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ ألأنك لم تجد من تحبك لنفسك يا تُرى؟

فقال في تأكيد: نعم.

-وكيف ستعرف أنها تحبك لنفسك يا إمام؟ أنت لم تعد الفتى الطوسي الفقير اليتيم الذي يطلب العلم ليعيش في أمان، لم تعد هذا الفتى. من سوف تجدها ستحب الإمام لا الفتى الطوسي.

قال محمد: اترك أمرَ زواجِي أنا وفكِّر في نفسك. غدًا أخطب لكَ أفضل منها.

قال أحمد: تريدني أن أغيرها كما تغير رداءكَ. كأنك يا إمام لا تعرف تمزُّق القلب.

-نعالجه معًا.

قال أحمد وهو لا ينظر إليه: سأبحثُ عمن يطهِّر قلبي لأن المرارة تشوِّه ملامحه، والكُره بدأ يتسرب كالعَفَن على النبات. منصور، هل تتذكره؟

قال محمدُ: كيف أنساه؟

-ضربني يومًا وطرحني أرضًا، وتساقَطَت الدماء من فَمِي، لم أخبرك حينها.

بقي محمد ساكتًا يلوم نفسه على عدم إحاطته بهذا علمًا. أستغرقَ في الشك والعذاب فلم يلاحظ يا ترى، أم أن أحمد أحكم إخفاءه الضرب؟

قال أحمد كأنه يقرأ أفكاره: لا تلم نفسكَ. أنت لست مسئولًا عن كل البشر. لم تؤلمني الضربة بقدر ما آلمني عجزي عن الدفاع عن نفسي. أصبح العجز مألوفًا لمثلي.

قال محمد في حسم: بل قدرتك هي ما يحسدك عليها منصور.

طيبتك وكرمك هي ما تنغص عليه عيشه. لا تعرف قدر نفسك. أنا أعرفك. أنا معك. لا أتركك تغرق أبدًا. هل تتذكر؟ وعدتك في الماضي. هو ابتلاء، نعم، ولكننا ننتصر معًا ما دمنا نحن معًا.

قال أحمد كأنه لم يسمعه: أخاف على نفسي يا محمد؛ لذا سأترك هذا البيت.

أطرق محمد برهة ثم قال: لن تفرق بيننا امرأة.

-هي الدنيا ما فرقت بيننا يا أخي. كل منا له طريق. أنت تقضي وقتك مع السلاطين والأمراء وأنا مريض القلب أريد دواء.

أعاد عليه الجملة في ثبات: لن تفرق بيننا امرأة، اهدأ أولًا. لا تجعل منصور ينتصر في معركته ضدنا.

-الحياة بالنسبة لك يا محمد نصر أو هزيمة، منافسة ومجادلة طويلة دومًا بها منتصر واحد. والحياة بالنسبة لي مثل زوجتي بلا أمان تهجر في ثوانٍ وتتغير كالريح. كنت دومًا تحمي وتتحمل كأنك الأقوى، من يدري ربما آن لي أن أحمي نفسي، وأنت تحمي نفسك فقط. من يدري ربما الخطر الذي يواجهك أكبر من الخطر الذي يواجهني. يا محمد، من يصاحب السلاطين كراكب الأسد. الكل يهابه ولكن رعبه هو الأشد، فهو في قبضة الأسد يتغير عليه في ثوانٍ فيبطش به. فكر في هذا.

-لا تجعل الغضب يتحكم فيك. فكر أنت بعقلك. كنت دومًا تسامح وتتجاوز.

-لا أغضب منك بل من نفسي، أغضب من سذاجة الطفل. لم أزل

أسامح ولكني أحتاج إلى الانفصال عنك لأعرف من أكون.

-أنت أفضل مني يا أحمد. لديك حب ينسكب ليحيط العالم، تذكر أن قلبك صافٍ كماء المطر. لا تترك بيتنا.

نظر الأخ الى أخيه. توقفت الكلمات برهة ثم قال أحمد: أخاف، أخاف أن ألومك أو أستاء منك. بدأت أخاف من نفسي ولا أعرفها. يقولون: أحمد شقيق الإمام. هكذا يطلقون علي، شقيق الإمام. أنا أنسَب إليك لا أنسب لنفسي. أخاف أن أكرهك.

خرجت الكلمة كالسيف السام، أصابت القلب لا محالة.

لم يبد على محمد شيء حتى والنيران تضطرم بداخله. هذه المرة الصمت كان أخطر وأكثر إيلامًا.

لو ندم أحمد على الكلمة فهو لم يصرح بها. قام في بطء ثم قال: سأرحل عن هنا.

قال محمد في إصرار: أريدك أن تبقى. ولكن منصور انتصر هذه المرة. فرق بيننا كالشيطان.

-ولو رحلت فهل ستغضب مني يا محمد؟ تعاقبني؟

-لا، سأنتظر أن تعود.

لملم أشياءه واتجه إلى الباب ثم قال: تقضي معظم وقتك في معسكر السلطان السلجوقي يا أخي، تريدني أن أعود إلى أين؟

-تعود إليّ أنا. العودة ليست بالمسافة ولا المكان. تفهم ما أعني.

ولكن أحمد لم يعد إلى أصفهان، استقر في نيسابور وأصبح يرسل

الرسائل لأخيه كل حين ويكتم الشوق ونزاع النفس أو يحاربه، لا أحد يعرف. أصبحت رسائله قصيرة كأنه لا يريد الحكي أو لا يتقنه. يرسل محمد لأخيه المال كل شهر، لا يشكره أحمد ولا يرد المال. لا توقف محمد عن إرسال المال ولا اقترب أحمد وانهزم أمام شوقه. تسربت الوحدة وضاع السند.

***

معسكر السلطان السلجوقي الذي أصبح محمد يقضي فيه معظم وقته كان عالمًا جديدًا عليه، أدرك كيف تحاك المؤامرات، وكيف تتغير النفوس، وأيقن أن النفاق يؤدي بصاحبه إلى القرب من الملك. والسلطان السلجوقي لديه ثلاث نساء في حياته، زوجتان وجارية. لكل واحدة ولد أو اثنان، ولكل واحدة جيش تحت تصرفها. أقوى نساء السلطان تركان خاتون تتحكم في الوزراء والدول، بل تتحكم في الخليفة نفسه. فالخليفة في بغداد بلا جيش، لا يعتمد سوى على مجد الأجداد وعلى انتمائه لقريش. منذ زمن والخليفة في بغداد بلا سلطة، لديه متسع من الوقت للصيد والخطبة. في مصر دولة بني عبيد، الفاطميون يحكمون بخليفة آخر وإمام آخر، وفي خراسان أنقذ السلطان السلجوقي القادم من بلاد ما وراء النهر الخليفة العباسي من دولة الفاطميين. جاءت قبائل السلاجقة لتنقذ الخليفة، جاءت سنية حنفية المذهب ولكن من حافظ عليها وأقامها كان الوزير نظام الملك الشافعي الطوسي الفارسي. أصبحت لغة السلطنة الفارسية حتى والسلاجقة يتكلمون التركية. تحكم الوزير نظام الملك، وبينما أتقن العقاب والثواب لمن يستحق كان بداخله يتمنى لو كان عالمًا لا أكثر، يترك كل السياسة والحكم، ويتفرغ للعلم

والمعرفة. لم يحدث، ولكنه وجد في الغزالي ابنًا لم ينجبه، وعقلًا يضاهي عقله. دفعه إلى النجوم؛ لأن رؤيته وهو يطير في الهواء تبعث الراحة إلى القلب.

***

خرج كتاب الغزالي «المنخول من تعليقات الأصول»، فشرح مسائل الأحكام ولخص تفوق المذهب الشافعي. تبادله العلماء في هيبة، هذا شاب يتقن المعاني والكلمات، يعرف كيف يختار الحروف وكيف ينمقها، ولكنه يملك أيضًا جسارة ربما تودي به إلى الهلاك. في الثامنة والعشرين ينتقد الغزالي في كتابه بعض أحكام المذهب المالكي والمذهب الحنفي. يستفيض في انتقاد أصول المذهب الحنفي بلا هوادة. اختلف الناس؛ بعضهم قال: هذا هو العلم الحق، نسأل وننتقد ونفهم، نفتت ونجمع، نهاجم لنتطور. ولكن البعض قال: هذا هو محمد الغزالي الشافعي الأشعري السني ينتصر لمذهب بلدته وأستاذه ومعلمه الإمام الجويني. يتقن المجادلة أكثر من غيره كأنه وكيل في مسألة، يقتنص البراءة لمن يريد، ويلصق الإدانة بمن يريد. يمزق النظريات والبديهيات، فيحير كل العلماء والعامة.

لا أحد عرف حينها أن عقل الغزالي كان يعاني من نهش ذئاب مستمر. ليلًا، نهارًا، وهو يُدرس، وهو يجادل، وهو يكتب، وهو يفكر، كانت المعاني تتملص من بين يديه. انتصر لمذهب الشافعي ومكث يبحث عن اليقين. منذ البدء والشك يقضم من خلجاته القطع المتساوية. لا بأس بكتابة الكتب ونصرة مذهبه، ولكنه لا يعرف أين الحقيقة، ولا لماذا لم يستطع أي مذهب أن ينتصر على الآخر. أحيانًا يفكر في جدوى المجادلة والكتابة. هل أقنع أحدًا بشيء؟ هزم رجالًا،

نعم. كسر علماء، نعم، ولكن هل غيّر رأي أحدهم؟ هل أصبح الحنفي شافعيًا، والشيعي سنيًا، أو المعتزلي أشعريًا؟ لا، كأننا نتصارع في حلقة محدودة للعب والتسلية. وكلما مر الألم كالبرق على قلبه خرج ليكتب أو يجادل أو يصاحب السلطان والوزير. انغمس في مجد يسلي القلب إلى حين. لو كان الغزالي يا ترى ولد في بلاد أخرى فهل كان سيجادل لنصرة مذهب آخر؟ هل كان سيدافع عنه ويجد في الموت لمعتقده شرفًا؟ لا بد أن من بين كل هذه الصراعات والتفاصيل الدقيقة حكمة لا يدركها. ولو لم يدركها، فما المشكلة؟ يحاول أن يوضح ويشرح المسائل، ألا يكفي هذا؟ فلماذا يخور العقل ويطمح في السماء وبين يديه النجوم؟ الطموح عندما يستحكم بلا أمل يكون كالجذام يأكل الأطراف في بطء.

اشترى لنفسه فرسًا أسود شعره يلمع كالحرير، في عينيه شموخ السلاطين وقدرة الأمراء. كان يود أن يشتري فرسًا يجمح كل حين، لا يسيطر عليه الراكب بسهولة. يعجبه ثورة النفوس الحرة، ولكن لا بد للفرس أن يعرف مَن السيد ومَن الملك. آه يا أحمد، لو رأيت هذا الفرس لعرفت معنى الجمال! فيمكنك أن تقول: ليس في الإمكان أجمل مما كان. هو البديع، الله يخلق الجمال دومًا. كل يوم يقضي نصف ساعة ينظر إليه ويصفف شعره بنفسه. ينغمس في العلائق ليبرد نار النفس.

منذ مات والده أدرك أن اللين لا يجدي مع عباد نقش الشر بداخلهم نقشًا. هيًا يا إمام، ساعد من حولك لأنك تستطيع. فلا أحد مثلك في كل العالم، أنت معجزة الزمان. تستحق إمامة بغداد. الغزالي لو تمكن ينقذ كل الأمة.

الباب الثاني

أصفهان

«اعلموا (...) أن اختلاف الخَلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأُمة في المذاهب على كثرة الفِرَق، وتباين الطُّرق، بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجي، وكل حزب بما لديهم فرحون».

الغزالي

الفصل الثالث

أصفهان 1089م

انشغل العامة بأمر إمام خراسان. الرجال تحسده على طلاقة لسانه، وسرعة البديهة، والقوة المصاحبة للحكمة، وعلى الوصول السريع، وخروج النجوم عن المألوف، ووقوعها في شراكه. والنساء كلهن بلا استثناء تطمح إلى زواجه منهن، أو من بنت لهن، أو أخت، أو ابنة أخت. كيف للإمام أن يشارف الثلاثين، ويبقى بلا زوجة أو جارية؟ عم يبحث الطوسي في المرأة؟ اعتاد أن يعرض عليه وزير وأمير وقاض ابنته للزواج، وتعلّم أن يرفض في أدب. يمر العام وراء العام، واليوم وراء اليوم، ولكن عرض الشيخ عبد الله الدمشقي اليوم كان مختلفًا.

الشيخ عبد الله الدمشقي كان فقيه وقاضي دمشق، يغدق عليه الملوك والولاة، ويستمع إليه العامة، حتى بدأ في قراءة كتب الغزالي في الفقه والكلام، أغرم به كأنه كان يبحث عنه منذ ولد. أصبح يتحدث عنه طوال الوقت، يدرس كتبه ويعيد نسخها وقراءتها. بعث إلى الإمام الغزالي أنه يود زيارته، سيعبر الطريق من دمشق إلى نيسابور أو أصفهان. مقابلة هذا العبقري تستحق. دعاه الغزالي للتدريس في المدرسة. بين ليلة وضحاها لملم أشياءه واصطحب زوجته وجاريته وابنتيه معه إلى أصفهان. لم تفهم زوجته سبب هذه الرحلة الشاقة، ولا ماذا يمكن أن يكون داخل الكتب يستحق كل هذه المعاناة. هي لا تعرف ما يدور في عقل زوجها منذ زمن، منذ هجرها من أجل جاريته قبل عدة أعوام، ولكنه قال لها في ثبات: يا امرأة،

هذا رجل من زمن غير زماننا، يستحق الرحلة والتعب، ولو تزوج ثريا ابنتنا نصبح أقارب الخلفاء والسلاطين.

قالت في ريبة: ولو لم يتزوجها؟

-نستفيد من علمه وقربه.

جمع الشيخ عبد الله الدمشقي كل أمواله، وحولها إلى أطواق من الذهب، ووضعها حول خصر زوجته وابنتيه عزيزة وثريا.

فكرت ابنته الكبيرة عزيزة في البقاء في دمشق مع زوجها تاجر الأقمشة، ولكنها أشفقت على نفسها من فراق الأهل، وأقنعت زوجها أن يبحثوا عن رزق في بلد جديد، فللتجار رزق في كل بلد.

استأجر الشيخ عبد الله بيتًا مجاورًا لبيت الإمام الغزالي، وانتظر يوم زيارته كأنه يوم تحقيق كل الأحلام.

***

ارتجف الشيخ عبد الله هيبة من زيارة الإمام محمد الغزالي.

يدور حول نفسه، يجهز الطعام، ويطلب الشراب. يزجر زوجته، ثم يحمل الطعام من الأرض قائلًا: هل جننت؟ هل سيأكل إمام خراسان على الأرض مثلنا يا امرأة؟ هنا في بلاد الفرس يأكلون على سفرة أعلى من الأرض، ويبدأ أكله بالفاكهة ثم اللحم.

ثم اتجه إلى زوج ابنته عزيزة، صالح التاجر، وقال: إياك أن تمد يديك إلا من أمامك، وإياك أن تأخذ من طبق اللحم بالخبز الذي أكلت منه. هنا آداب للطعام، نحن في حضرة الأمراء والسلاطين.

نظر إليه صالح في امتعاض، ولم يُجب، ولكن عزيزة ابنته بتلقائيتها قالت لأمها في عتاب: أبي يتعامل مع زوجي كالخادم، وهو من ضحى بتجارته ليصحبنا. لن أتحمل أن أراه يُهان أمامي.

دق الباب، وكادت تسمع ثريا دقات قلب والدها من الدور الأول في البناية وهي تطل من النافذة. انحنى والدها أمام القادم، وقال: السلام عليكم، أهلًا بالأستاذ والإمام، سيف الدين وإمام الأئمة.

ولكن الصوت الذي أجاب الشيخ عبد الله لم يكن صوت الإمام. كان الواقف أمام الشيخ هو الحارس الخاص للإمام؛ شابًا في ملابس عسكر السلاجقة، قال في حسم: الإمام سيأتي بعد برهة، ولكنني أريد أن أتأكد من كل شيء.

نظر إليه عبد الله في حيرة، وحاول التلاطف معه سائلًا عن اسمه، فلم يجب الحارس. سيطر الوجوم على وجهه، وتفحص البيت بعينيه، ثم طلب من عبد الله أن يتذوق كل الطعام، وأن يتأكد من ملاءمة البيت للزيارة. شاهدت البنتان المشهد في ذهول، وهما في حيرة؛ هل من يزورهما هو شيخ وفقيه، أم أمير وسلطان؟

بعد أن تأكد الحارس من كل الترتيبات، خرج من البيت بلا كلمة، ثم عاد وطرق الباب، وانحنى في رفق، وأزاح بدنه ليدخل إمام خراسان من الباب.

تنهدت عزيزة، وهي تقول بصوت مسموع لأختها: ما أجملَه! شاب بهذا البهاء، كيف يبقى بلا زوجة؟

كان جميلًا حقًا، بقامة مستقيمة، ووجه شامخ، بعينين سوداوين تفيضان جودًا وعطاء، بحاجبين منتظمين ككتاباته، وبأنف كله

كبرياء. توقفت ثريا عند فمه، ثم أغلقت عينيها واستغفرت. هذا ثغر يشي بالمعرفة والسحر. نعم، هو السحر، في هيئته سبب اجتمع الناس حوله، فللجمال ولاية ليست لغيره.

همست عزيزة: هؤلاء الفرس لديهم جمال مختلف مع أنهم من العجم.

ابتسمت ثريا، ثم قالت: يتكلم العربية أفضل منا يا عزيزة، هو الإمام نفسه.

قالت عزيزة وهي تغمزها: بدأنا ندافع من الآن.

شهدت ثريا على ذل والدها لأول مرة، وشغفه بهدف واحد فقط، هو أن تتزوج من الإمام. رأت الخزي في عينيه، فغضبت، يتملق الإمام ويدعو له. يضع أمامه الطعام، ثم ينظر إليه، ويقول: مولاي إمام الأئمة محمد بن محمد الغزالي.. إمام خراسان. كنت أحلم بلقائك منذ قرأت كتبك الفقهية التي توضح المسائل الشافعية، وتبلور الأحكام وتنشر النور. ساعدتني على تأجير بيت، ورحبت بي، ثم شرفتني بقبول دعوتي إلى بيتي المتواضع.

هز إمام خراسان الغزالي رأسه، ولم يجب.

فاستمر عبد الله في الإطراء، واستمر الغزالي في الصمت، ثم قال: نحتاج إلى مثلك هنا يا أخي. من الغد نجد لك مكانًا في مدرسة النظامية في خراسان لتدرس الفقه.

فقال عبد الله مسرعًا: وكيف أدرس في حضرتك؟ ماذا أفقه أنا؟ سأبقى عامًا لا أكثر، ثم أعود إلى وطني.

-هذا تواضع العلماء يا أخي. قرأت كتبك، أعرف علمك. نحتاج إليك معنا.

عرض عبد الله عليه الطعام. نظر إليه برهة، ثم أكل في بطء كما يأكل الملوك، كأن كل أنواع طعام الدنيا والجنة متاحة أمامه. وعبد الله يلاحقه بعينيه كأنه يخاف أن يهرب من بين مقلتيه، ثم قال في بعض التلعثم: كان لنا شأن في بلدتنا. عائلة زوجتي أكبر عائلة في دمشق، ولم نزل نملك من المال ما لا بأس به، ولكنني شيخ كبير مات لي خمسة أولاد، هل تصدق؟

فقال الغزالي: هو تقدم وتأخر يا شيخ، أنت تعرف هذا. سبقوك إلى المقر لا أكثر. تعلم أن الآتي دومًا قريب، والموت يأتي شئنا أم أبينا.

-أنا مؤمن بقضاء الله. لم يتبق لي سوى ابنتي عزيزة وثريا. عزيزة كانت متزوجة من شيخ كبير توفي قبل انقضاء عام على زواجهما، فزوجتها لتاجر أقمشة في دمشق يدعى صالح.. صاحبنا من أجل تجارته والبقاء مع أهله وأطفاله. ولكن ابنتي الصغيرة ثريا غريبة هنا وهي قرة عيني.

قال الغزالي: ليحفظها الله لك. في تربية البنات ثواب أجزل ونفع أسرع.

-كلماتك كالبلسم يا مولاي. ثريا تحفظ كتاب الله وتقرأ وتكتب. نسخت لي بعض كراساتي بنفسها. تعرف الشرع وتتقن الصلاة. ليست ككل النساء. هي أفضل من رأيت وكل ما أملك.

وبلا مقدمات نادى عبد الله على ابنته ثريا وأمها فدخلتا في بطء. جلست ثريا أمام الإمام بالضبط.

فقال عبد الله: يا مولاي...أطمع في كرمك وكفالتك. الدنيا أصبحت كلها ابتلاء؛ فسق وطمع وقتل وظلم.. أنا لا أعني سلطان السلاجقة فهو خير رجال الأرض، أنا أقصد كل من حولنا. عم البلاء، وقل الخير. لو تكرمت عليّ وقبلتها زوجة تكون قد أسعدت قلبي الحزين قبل الموت القريب.

فتح الغزالي عينيه والتفت إلى ثريا ولم ينطق. كانت الكلمات فاجأته ولكن لم يبد عليه أي شيء.

ساد صمت وتوتر، وعبد الله ينتظر ردًا، حتى قال الإمام في هدوء: أهم شيء يا شيخ هو أن أقدمك غدًا إلى الوزير الأعظم نظام الملك، ثم إلى السلطان ملك شاه. أريدك أن تعتبر أصفهان بلادك من اليوم.

ولكن عبد الله لم يستسلم، قال في إصرار ينم عن يأس: هل يبقى إمام خراسان بلا زوجة؟ أعرف أن العلم أهم عندك من كل شيء، ولكن الزواج حصانة للمسلم. أنا لا أهتم لو اتخذت غيرها زوجة معها. كل ما في الأمر أني أريدها بجانبك.

قال في هدوء: يا أخي، هذا شرف لي، ولكن الأهم فالأهم؛ نوطد إقامتك هنا ثم نفكر في أمرنا.

قال عبد الله: أعرف أنك تشجع أن يرى الرجل زوجته قبل الزواج؛ لذا جئت بها هنا، هي لا تخرج دون خمارها، ولكنني أردتك أن ترى وجهها يا مولاي..

ابتسم الإمام ثم قال: لدينا الكثير من الوقت معًا. أنت أخ في بلادك هنا. لو احتجت إلى أي شيء تطلب مني، وإن لم أكن متاحًا فلتطلب

من حارسي. هو يعرف دومًا كيف يجدني.

بدأ عبد الله يردد الأدعية ويشكر الإمام، ولكن الإمام التفت فجأة إلى ثريا، نظر إلى وجهها ثم قال: مرحبًا بك في خراسان.

جفلت واحمرت وجنتاها ولم تنطق. كان ينتظر الرد.

قالت بعد برهة: أشكرك يا مولاي على كرمك.

قال عبد الله والأمل يعاوده كالغريق: ثريا تحب العيش هنا جدًا. غدًا تذهب لتزور نساء قصر زوجة السلطان مع أمها ومعها الهدايا. لم تعتد اللغة الفارسية، ولكنك تتقن العربية أكثر مني، ويتقنها الكثير من أهل خراسان..و..

قال الغزالي في رفق: زوجات السلطان لا يتقنَّ العربية يا أخي ولكن لديهن من يتقنها.

قال موجهًا كلماته لثريا: هل تفتقدين دمشق؟

قالت في حيرة: لا أعرف.

-لا تعرفين دمشق؟!

-لم أحدد بعد لو كنت سأفتقدها أم لا.

ابتسم ربما لأول مرة.

فقال الأب والأمل يراوده بشدة: يا مولاي، ابنتي أعطيها لك خادمة في بيتك، وأتشرف فقط برؤيتك. لو قبلتها زوجة يكون الأمر شرفًا كبيرًا لنا جميعًا.

ثم أشار إلى زوجته لتخرج مع ابنته، ثم نظر إلى الإمام وقال: ما

رأيك؟

فقال في حسم: الصبر يا أخي مفتاح الفتح. نعرف رأيها هي أولًا.

-أي كلام هذا يا مولاي؟ هي قاصر ووالدها..

قال في تصميم: نعرف رأيها يا شيخ.

-أقول لك: إنها موافقة، فهل توافق أنت؟

قال وهو يقوم: أشكرك على كرمك وثقتك.

ما إن خرج الإمام حتى هللت عزيزة وبكت الأم من الفرح، حتى الجارية ذهلت من ابتسام الحظ لهذه الصغيرة التي لا تستحق.

بعد خروج الإمام أمسك عبد الله بيد الحارس وطلب منه اسمه وعنوانه. أما ثريا فكتبت كلمات في رقعة ثم هرولت خلف الحارس وهو يخرج من البيت، وأعطتها له. تساءل الحارس وهو ينظر إليها في دهشة: ما هذا؟

قالت: رسالة. أعطها لإمام خراسان.

الرسالة كانت مقتضبة، كتبت: «كرمك يغرقنا يا مولاي. أنا ثريا ابنة الشيخ عبد الله الدمشقي، لا أوافق على الزواج منك يا مولاي، وأتمنى أن تبقى هذه الرسالة سرًا عن أبي».

تسلم الإمام الرسالة قبل الوصول إلى بيته، فتحها وقرأها في بطء، ثم طواها، ووضعها في جيبه. هذه أول مرة يحدث فيها هذا الأمر. لم يحدث طوال عمره أن رفضته أي امرأة. كان هو من يرفض، ويتجاهل، ويبحث عمن تستحقه. لكل قاعدة استثناء. شغله الأمر

نصف ساعة لا أكثر. ترى لِمَ تجرأت ثريا على رفض الإمام؟ ألأن قلبها معلق بحب قديم تخلص له، أم أن كبرياءها منعتها من أن تنال النجوم بخفض الجناح والذل؟ تذكر الاسم وتناسى ما حدث. لو كان رفضها أثر فيه، فلابد أنه ارتقى وتحكم، ولكن الأمر ربما شغله أكثر من نصف ساعة، ربما مر كل حين على خاطره فأيقن أن الإجابات صعبة، واليقين يتملص من بين يديه دومًا.

عندما عاود عبد الله إلحاحه، تجاهله في إصرار.

***

يطلقون عليه إمام خراسان، حجة الإسلام، زين الدين، العالم الأوحد، مفتي الأمة وشرف الأئمة، ولكن ثريا أطلقت عليه «الغواص». منذ أول لحظة رأت محمد ابن محمد الغزالي «غواص». وويل لمن لا يتقن السباحة من عشق الغواص. في عمرها كله لم تشهد على رجل يتقن اللغة العربية مثله، حتى والدها، ولكنه فارسي، أليس كذلك؟ كيف قبضت أصابعه على المعاني، ووجدت الحروف منزلًا داخل صدره؟ عندما نطق أمامها انعكست صور كل كلمات الكون، واجتمعت كل صفحات الكتب على لسانه، حتى في الكلمات القليلة التي نطقها أمامها.

ومنذ رأت وجهه من نافذة الحرم، والقلب ينبض بالحياة. تلألأت عيناه فانكشف شغاف القلب، وأدركت حينها أن العذاب أنواع كما الأمراض المستعصية. حبها كان من نوع غريب كدودة القز التي تفنى في غزلها، ولكنها لا تبعث فراشة، ولا تطير فتستريح. تفنى وكفى.

ثريا عقلها ملك في مملكة البدن. ومن يترك العقل يسيطر، يستقر

حبه في أعماق الأعماق حتى يصعب الوصول إليه أو اقتلاعه. لا تعبر عن فرح أو حزن، لا تبكي من جزع أو غربة، ولا تضحك من لقاء أو هدية، لا تصرخ ولا تهفو. كانت أشد من أختها وأقوى، حتى وهي الصغيرة. كأنها جان، من عالم آخر. تعلمت منذ الصغر أن تدفق المشاعر يودي بصاحبه إلى الغرق، وهي تخشى الغرق منذ رأت أمها تعوي كالقط المحتضر من حب لا أمل فيه ولا ارتواء، فقد هجرها الزوج وتوقف عن حبها من أجل الجارية الشابة. أصبح كل أملها ألا تصبح مثل أمها، ألا تلهث وراء رجل، ثم تقضي ليلها في البكاء، كلما أشعل البرق الأمل أطفأ الجفاء كل نور حولها. شهدت على انهيار أمها أمام أبيها مرات. ترجو وتأمل، تستعطفه أن يقضي معها ليلة واحدة فينصرف إلى جاريته ويتركها في نواح يخترق الأضلع.

أدركت منذ الأزل أن المرأة لو تركت الحب يتحكم، تهوي وتنتهي، ولكنها اليوم انتهت، وفنيت فناء مختلفًا، وغرقت غرقًا لا يخنق الأنفاس، فهي غارقة وحدها دون يد تدفع بها، ولا رجل يحكم شراكه، ثم يذبح.

تارة يسافر خيالها إلى اللقاء، فيعيد تفاصيله، وتارة تشم رائحة المسك من الأفق دون أن يحضر أو يعود. لا تسأل عن العقل، فالعقل يعجز كثيرًا، ونعجز نحن عن السيطرة عليه.

في بعض الأحيان تغفو عيناها من الوسن، وتوبخ نفسها على رسالة كتبتها في لحظة غضب، ولكن الكبر يلوح لها، ويؤنبها ويذكّرها أنها ليست بضاعة بالية حتى يعرضها والدها هكذا على رجل. تُرى ماذا فعل عندما قرأ الرسالة؟ هل أدهشه رفضها؟ هل غضب؟ هل أراحته الرسالة، وسهلت عليه مهمة التخلص منها؟ ربما لن تعرف

أبدًا، ولكن النفس راضية بأن ثريا رفضت إمام خراسان، بينما يحاول كل أمير في بلاد المسلمين تزويج ابنته من الإمام. ستحبس أنفاسها بين أضلع مستقيمة ثابتة، فقد أغلقت باب كل أمل ورجاء. اليوم حبه آمن، فالزواج منه مستحيل.

كلما ندمت تذكرت، فهي شاهد على عذابات الهجر، فتصلبت إرادتها. الحب من مسافة آمنة أفضل كثيرًا، فهو حب حر بلا قيد أو إذلال، ولكن الشوق الذي بدأ يتحكم ويصدر الأوامر أربكها، وهل للألم أن يشتعل بلا حطب؟ وهل للعذاب أن يجد طريقه كماء المطر بلا منبع؟

يجمع الأب عائلته كل يوم. يحنو على ابنتيه، وينظر إليهما دومًا بإعجاب. يقرب ثريا منه ويُجلسها على عباءته ويحكي لها ويعلمها. توقعت أن يفتر حماسه لإمام خراسان بعد أن رفض الزواج منها، ولكنه لم يفعل. كل ليلة يجمعهم ليتكلم عنه فقط. يحكي عن كلماته، عن حكمته وثباته، عن سيطرته على كل الحكام بعقله الراجح وذكائه الذي عز الزمان على الكثيرين به، وأعطاه الله له هبة في هذه السن الصغيرة.

يقول عبد الله: أقسم أنى رأيت الوزير الأعظم نظام الملك هو الحاكم الفعلي هنا، فلا سلطان ولا خليفة يعرف خبايا الحكم. رأيت نظام الملك يمسك بيد محمد الغزالي ويقول أمامنا: أنت حجة الإسلام، بين راحتيك كل هذه الأمة يا بني، وبعقلك تنقذها من الهلاك.. لطالما تناثرت كلماتك فعبرت البحور والقفار بلا سجن. تبرع في العربية والفارسية، لا يجود الزمان بمثلك كثيرًا.

يقول والدها: الغزالي شافعي المذهب، وأشعري، يتنبأ له نظام الملك أنه المجدد الذي يأتي كل مائة عام لينقذ الأمة، ولكنه لا بد أن يفكر باعتباره سياسيًا أيضًا لو أراد أن ينقذ الأمة، فالأمة حاربت أعوامًا حتى وهي تبجل الدين. أمسك نظام الملك بيد الشاب وأجلسه بجانب السلطان السلجوقي ملك شاه، ووعده أنه يومًا سيجلس بجانب الخليفة العباسي نفسه، بل يومًا ستستقر كل الأمة بين يديه، سيتحكم في ملك وسلطان وخليفة بلسانه وعقله. اللسان آلة العقل، وهو ليس بشرًا مثلنا، بل رجل يضن الزمان بمثله على الدنيا.

للصدق لم يفهم الكثيرون مناظرات الغواص ولا مجادلاته. كلما طوع الحروف والكلمات غرقت العقول مرة في التيه، ومرات في الإعجاب. أما ثريا فتنجذب لمن يستعصي على المعرفة كما ينجذب اللاهث لسراب ماء.

بدأت تنسخ لوالدها، ثم كتبت على هامش الكتاب: الغواص... والأسد، بل الأسد والغواص، فربما كان المسلك إلى الغواص من فم الأسد وأنيابه محمد الغزالي..

***

الغزالي يخجل عندما يطارده شيخ كبير ويجلس أمامه في خضوع يطلب المعرفة. لم تزل نفسه تتردد كلما أغدق عليه الهرِم بالألقاب، ولكن الشيخ عبد الله الدمشقي فاق كل الباقين. كان مهووسًا بالإمام، يجلس في كل درس في تركيز الطالب الشاب، يأكل العلم بنهم لا مثيل له. دومًا يحدق إلى عينيه بلا توقف! يتمتم أحيانًا أنه تمنى ابنًا

معله. أمسك بكتاب ألفه الغزالي، فتح صفحة، ونظر إليها برهة، ثم طلب من الغزالي أن يشرح له. بدأ الغزالي في الشرح، والشيخ عبد الله ينظر اليه كأنه ملاك من السماء. قرأ الغزالي جملة من كتابه، ثم عاود الشرح. توالى نظره إلى النسخة التي في يد عبد الله الدمشقي. اعتاد أن يدقق في أي نسخة من كتبه، يدرك حجم الحسد، والغيرة، وحجم الفتن، وتحريف الكلمات. بدأ في القراءة، ثم توقف. لم توقفه الجملة التي كتبها، ولكن أوقفه ما كتبه الناسخ على هامش الكتاب، قرأ الخط الصغير: «تعب كل واحد بقدر حرصه، وفقره بقدر طمعه، وراحته بحسب تسليمه».

استمر عبد الله الدمشقي في الحديث المتواصل والغزالي لا يسمع. يقرأ الكلمات التي وجدها على هامش الكتاب لأنها ليست كلماته. قال الغزالي: اترك لي الكتاب يا شيخ عبد الله اليوم.

-لا أستطيع مفارقته يا إمام.

-أعطيك نسخة أخرى.

عاد إلى بيته ومعه الكتاب، ولم يكن يريد قراءة كلماته، ولكن قراءة هوامش الصفحات التي كتبها الناسخ، قرأ: وحكاية «الغواص» هي حكاية أسد ملك قوي، يواجه البقر الوحشي في الغابة هو وأعوانه وأصحابه. وفي يوم من الأيام قرر ثعلب حكيم أن يقترب من الأسد الملك، ويعرض عليه النصيحة. وافق الملك الأسد على الفور، واستعان بالثعلب من أجل ذكائه وأدبه وشغفه بطلب العلم. وكان يلقب الثعلب باسم آخر أطلقه عليه كل أصحابه. كان يلقب بـ «الغواص»، ولكن الغواص مع علمه ورأيه وأدبه كان متكبرًا، واثقًا في

فطنته، يجد لنفسه فضلًا على غيره من العقول. وكانت عيناه تنظران إلى ما بعد الغابة، وما بعد أرض الأسد، فطموحه لا قِبلَ لأحد به، حتى هو لا يدرك حجم أمنياته.

طلب الثعلب الذي يُدعى الغواص من الملك الأسد أن يصاحبه وينصحه، ولكن صديق الغواص قال له: من يصاحب الأسد يرضخ له ويحذره، يمد يدًا بالعلم، ويحمي قلبه من خنجر مسموم يأتي على حين غرة. ومن يصاحب العلم يدرك أنه كل الغايات، لا يمكن للعلم أن يخدم أسدًا، بل هو المخدوم دومًا. أصحاب السلطان في كذب مستمر، وأصحاب العلم لا ينفعهم إلا صدقهم. يا غواص، إن «للسلطان أصحابًا وللعلم أصحابًا..»، ولا يصلح لصحبة الملوك كل الرجال. إن كنت أنت ممن يصلح لصحبة السلطان، فهل يصلح أصحاب السلطان للعلم؟ فكر في الأمر يا غواص...قبل أن تصاحب الأسد، وتغامر بنفسك».

يطوي صفحة وراء صفحة. لم يجد أكثر من هامشين في الصفحات. كأن الخطاط يتردد أو يستحي أن يزيد. في الصباح أعاد الكتاب للشيخ الدمشقي، ثم قال: من نسخ لك الكتاب؟ ابنتك؟

قال في حماس، وأمل المصاهرة يراوده من جديد: هي نعم، ثريا. تجادلني كالرجال، لديها عقل راجح وفطنة لا تملكها نساء عصرها، هي هدية الله لي.

قال وهو يتجاهل تشجيعه: فليحفظها الله لك. نعم، خطها جميل.

قال في حماس: هل تريدني أن أطلب منها أن تنسخ لك الكتب؟ تفعل عن طيب خاطر يا إمام.

صمت برهة كأنه يفكر في الأمر، تُرى هل أراد معرفة مصير الغواص أم الأسد؟ ولكنه قال في حسم: أشكرك، ولكن لدي من ينسخ لي.

***

لم يزل يحكي عبد الله عن الغزالي لأهل بيته، يجلسون جميعًا، يستمعون كأنها قصة من خيال الظل. الخيال جارف كأمواج قاسية لا شفاء منه. كل ليلة في مخيلتها تعيد اللقاء، ولكن الخيال أيضًا أحيانًا يخدع ويقسو. في البدء كانت تراه في خيالها وهو يجادل، ثم رأته يحارب الأسد بأسلحة مختلفة؛ تارة بيده القوية، وتارة بسيفه، وكثيرًا بلسانه. انهزم الأسد وركع أمام الغواص، محمد الغزالي. في مخيلتها تجري ناحيته، وتعانقه. كانت أضلعه صلبة، وذراعاه تحيطان بكل البحور. تفتح ثريا عينيها في فزع، بدأ خيالها يؤرقها لا سيطرة عليه. ومرت ثلاثة أشهر دون أن تراه، وتوقعت أن تُمحى ملامحه من مخيلتها مع الوقت ولم تفعل، بل ازدادت حياة وقربًا.

كتبت ثريا على الهامش: «كلهم يتكلمون عن الغواص ولا أحد يعرفه. المعرفة درجات ومعارج. يبقى هو ثابتًا كأنه ملك جاء من عالم آخر، يمشي بثقة من امتلك الأرض، وعرج إلى السماء، يرفع عينيه إلى النجوم، وطموحه لا يتوقف، ونفسه لا تسلم ولا تهدأ. لو سبر أحد أغواره لعرف أن الحقيقة يعجز كل البشر عن إدراكها، وكما يقول الغواص: إدراك عدم الإدراك إدراك».

ولكن الخوف يسيطر على كل جميل. هكذا أيقنت. وجد والدها عبد الله رسالة من الباطنية. قرأها بصوت عالٍ فصرخت أمها. يذكّرون عبد الله أنه رفض الصداقة والإخاء في دمشق، ويلومونه على

دروسه هنا في نيسابور، عبد الله يهاجم الباطنية وإمامهم، ومن يفعل ذلك يعرض نفسه لعقوبة وقتل. الهروب لن يجدي، والموت سينتظره. رأت والدها خائفًا لأول مرة، ثم قالت بلا تفكير: إمام خراسان يحميك بالتأكيد. كنت تردد كلماته يا أبي، وهو مَن كان يهاجم الباطنية المكفرين لغيرهم.

-الحامي هو الله.

فقال زوج أختها صالح، والخوف في عينيه: لا أحد يهرب منهم يا ثريا، ولا أحد يساعدنا سوى إمام خراسان، تكلم معه.

صمت عبد الله برهة، ثم قال: سأفعل، لا تقلقوا.

ولكنه لم يفعل.

***

يستغرق الحب كل النفس، ولا يُبقي للقلب رمقًا. ثريا التي يقسم والدها بقوتها وجلدها أصبحت تسهر ليلًا، وتعيد على نفسها لحظات التقت فيها أعينهما وتكلم معها، أو لحظة سيطرت كبرياؤها فهوت أو كادت، ثم تؤكد لنفسها أنه لم يكن ينوي الزواج منها، وأن تصرفها كان تصرف الأبية الحرة، ولكنها تضعُ كفَّها على قلبها لتُهدِّئ نارًا لم تدرك مداها، فبقدر جلَد ثريا كان عناؤها، وبقوة ثباتها كان عمق عشقها. تعرف أنه بلا أمل، وتدرك أن والدها عما قريب سيعرض عليها الزواج من غيره، وسترفض، وربما ترجوه أن تحيا لترعى أولاد أختها فقط.

بعد عدة أيام قالت لها عزيزة: أتحبينه يا ثريا؟

بقيت صامتة، فقالت عزيزة: أعرفك يا أختي؛ رأيت عينيك تتلألآن

حوله، وقلبك يرتعش، ولكنك تعرفين أنه بعيد المنال عنك يا أختاه. انسي أمره.

لم تنطق. أطرقت في يأس، فقالت عزيزة: استمعي إليّ، أنا أكبر منك. تزوّجت من شيخ كبير، تعذبت معه، ثم تزوجت من صالح، وعرفت معنى السعادة معه. ولكنك لا تعرفين الرجل سوى بعد الزواج. أبشع صفة في الرجل هي الغرور، وهذا الشاب الإمام يرى لنفسه فضلًا على كل الرجال. كم من امرأة تريده! وكم من أميرة تتمنى الزواج منه! الزواج من مثله يجر المتاعب. أنقذك الله.

لم تنطق. وبعد مرور أيام بدا وجهها ذابلًا، وعيناها تائهتين، قالت أختها في حنان: هل تريدين رؤيته؟

فقالت: مستحيل.

-لا مستحيل مع عزيزة يا ثريا. اعترفي أولًا أنك تريدين رؤيته.

قالت في أسًى دون تفكير: لا أعرف لو كان قُربه يعذب أم بُعده.

قالت عزيزة في حماس: أخيرًا نشهد على وقوع ثريا، هيا انضمي إلى صفوف المنهزمين مع أختك.

عبس وجهها، ولم تنطق، فأمسكت عزيزة بيدها، ثم خرجت معها إلى درس الإمام، تقهقرت وراء ستار، ثم قالت: استمعي له واملئي عينيك منه، ثم نعود إلى البيت.

قالت في بعض الخوف: لو عرف والدي أو عرف هو؟

فقالت عزيزة: الجُبن والحب لا يلتقيان. أتريدين رؤيته؟

-مرة، ربما.

عند دخوله قام كل الحضور، هرولوا ناحيته، أحدهم يشكر فيه، وآخر يدعو له، طالب يقترب وجلًا، وآخر يتمنى أن يقترب. كان يُحيِّي ويبتسم، وكانت هي تمتص الهواء حوله، تركز مع كل التفاتة، وكل نظرة، وكلما دنا حتى وهو لا يراها ارتجفت. فهمت بعض كلماته، ولم تفهم بعضها.

ثم بدأ الدرس قائلًا:

«إذا قلنا: إن الله سبحانه وتعالى عالم بالمعلومات، فهل علمه زائد على ذاته أم هو عين ذاته؟».

أي هل علمه غير ذاته، أم أن ذاته عين علمه؟

نظر كل طالب إلى الآخر في حيرة، ولم يُجب أحد. فقال الغزالي: «الذي أعتقده أن الله سبحانه عالم، وقد قام الدليل على علمه»، فكون العلم مغايرًا للذات محال.

فما رأيكم؟

قالوا جميعًا: نتفق معك يا إمام.

فقال: جئتم هنا لتدرسوا مسائل العقيدة على يد الغزالي الشافعي الأشعري.

ساد صمت، فقال وهو يبتسم وعيناه تنظران إلى كل طالب من طلابه: ولو قلت لكم: إن هذا يميل إلى رأي المعتزلة، وليس رأي الأشعرية، فما ردكم؟

ساد صمت مرتبك، وانتظر هو كلامهم، حتى قام أحد الطلاب وقال: يا سيدي، كلامك أشعري، وكلام الأشعرية أقرب إلى العقل والفهم من كلام المعتزلة، فلو قلت لنا هذا فسنعرف أنك تختبرنا، وأن هذا رأي الأشعرية.

ردد في بطء: كلام الأشعرية حسن، وكلام المعتزلة قبيح، وما معنى الحسنِ والقُبح في اللغة يا ترى؟

ارتبك الطالب، ثم قال: يا سيدي، كيف لمثلي أن يتكلم عن المعاني أمام الإمام؟

قال الغزالي: بل نطرح الألفاظ، وتُحصّل المعاني في العقل «فأغلب الارتباك والحيرة من عدم تحصيل وفهم معنى الألفاظ واختلافات الاصطلاحات فيها». فكر في الأمر، وستجد أن الحُسن والقُبح يرتبطان بالموافقة والمخالفة، وهما أمران إضافيان، فما يحسن من جهة، يقبح من أخرى، فلو قتل ملك من الملوك رجلًا فهل هذا فعل حسن أم قبيح؟

ساد صمتٌ حتى قال أحد الطلاب: لو قتله للقصاص فهو فعل حسن.

قال محمد: ولو كانت الدنيا بهذه البساطة لما احتجنا إلى الفقه. عند أعداء الشخص فعل الملك حسن، وعند أصحابه وأهله فعل الملك قبيح. الأفعال مقرونة بالأغراض، وما يوافق الغرض نظنه حسنًا بالطبع. أنت مثلًا...تعلّمت طوال عمرك أن الأشعري على حق، والمعتزلة مذهبهم به خطأ. استحسنت مذهب الأشاعرة واستقبحت مذهب المعتزلة، لماذا؟

-لأن كلامهم به خطأ.

-هل قرأت كل كلامهم، وأحطت بكل معتقداتهم علمًا، أم اتبعت مذهب آبائك بالتقليد لا بالفهم؟

ساد الصمت، فأكمل محمد: لو قلت لك إن كلماتي توافق مذهبك لفرحت بها، ولكن لو لم توافق مذهبك لن تتقبلها. بل ستكذبها بعد أن صدقتها. أتعرف لماذا؟ لأن طبعك مجبول على التقليد، وليس البحث والمعرفة. بل ليس طبعك أنت فقط كطالب علم فهذا طبع أغلب العلماء، «فإنهم لم يفارقوا العوام في أصل التقليد، بل أضافوا إلى تقليد المذهب تقليد الدليل، فهم في نظرهم لا يطلبون الحق، بل يطلبون طريق الحيلة في نصرة ما اعتقدوه حقًّا بالسماع والتقليد». فكل الأدلة التي لا توافقهم في نظرهم ضعيفة، وكل ما يوافقهم حسن.

-فماذا علينا أن نفعل يا سيدي؟

قال الغزالي: ابحث عن الحق. ولتبحث عن الحق لا بد أولًا «ألا تعتقد شيئًا أصلًا»، فعليك أن تنظر «إلى الدليل وتسمي مقتضاه حقًّا ونقيضه باطلًا»، كلنا نبحث عما هو مألوف ونستحسنه، ولكن الحق صعب ومعرفته تحتاج إلى الغوص في كل المعارف، ما ألفته واعتدته، وما لم تألفه أو تَعْتَدْهُ. لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق تعرف أصحابه كما علمنا علي بن أبي طالب رضى الله عنه. فلتقرأ كتب المعتزلة، وكتب الأشعرية، وتبحث عن الحق حتى وسط كلام تظنه قبيحًا.

-ماذا عن كتب الفلسفة يا إمام؟

سكت برهة، ثم قال: هي ليست للعوام، ولكن لعالم تمرس في العلم، وغاص في المعاني. فعالم كهذا يمكنه أن يُخرج الدُّر من الأعماق، ويقي نفسه سم الأفعى حتى وهو ينتفع به. لو رسخت في العلم فاقرأها، وإلا فلا.

-ولكنها كلها كُفْر.

-هل قرأتها؟

-لا.

-لا تقرأها، فعقلك ليس مستعدًا لأن تُخلص الحقيقة من بين الأصداف، لو كنت تحكم قبل القراءة فالأفضل ألا تقرأ.

-وكتب الباطنية، أليسوا كُفارًا؟ من يتبع الإمام، ويسب أبا بكر فهو كافر يا سيدي، أليس كذلك؟

- للكفر أحكام. الكفر حكم شرعي. فلو أنكر أحد غزوة من غزوات النبي، أو أنكر وجود أبي بكر أصلًا، «لم يلزم تكفيره لأنه ليس تكذيبًا في أصل من أصول الدين مما يجب التصديق به»، بل لو سب الصحابة فعقابه حد السب، وليس الكفر.

-يا سيدي، ألا تكفر الباطنية الروافض تابعي الإمام؟

-بل الشرع لا يكفرهم. تذكر فإن «استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة، المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ. والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم».

-والباطنية الذين يكفرون غيرهم؟

-يستحلون الدماء والأعراض، ويكفرون المسلم، فحربهم واجبة على كل مسلم. ليس لأنهم يتبعون الإمام، ولكن لأنهم يستحلون الدماء. وتذكر حتى وأنت تتكلم عن الصالحين ألا تقول أبدًا فلان أفضل من فلان؛ لأن «معناه أن محله عند الله تعالى في الآخرة أرفع، وهذا غيب لا يطلع عليه إلا الله ورسوله إن أطلعه عليه».

عم صمت من يحاول الفهم، فقام وقال: نعود إلى النقطة الأولى، ترى هل ما قلت عن ذات الله كلام الأشعرية، أم المعتزلة، أم رأيي أنا بعد البحث؟

انتظروا الإجابة، فقال: ابحثوا في الكتب عن الإجابة، وعن معنى القبيح والحسن، وتوقفوا عن الفتوى عندما لا تعلمون، أو تختلط عليكم الأمور، ففي التوقف علم، وفي الفتوى في كل شيء جهل.

وأول درس لا بد للعالم أن يتعلمه هو أنه «لا يبطل كلام الحق إذا قاله المبطل، وهذا من غاية الجهل إذا ظن أحد فيمن تكلم مرة بباطل أن كل ما يقول مرة أخرى سيكون باطلًا». فحتى لو ضل الفلاسفة في بعض الآراء فقد أصابوا في بعضها، وليس من يتكلم مرة فيتفوه بالخطأ يكون كل كلامه خطأ. ابحث عن الحق، لا عن حبك للشخص أو المذهب. اجعل عقلك يتخلص من المألوف أولًا.

لم تشعر ثريا بنخزة أختها سوى بعد حين، قالت: ثريا، لا بد أن نرحل قبل أن يرانا أحد.

تمتمت لنفسها، ولكن عزيزة سمعتها: هل سنأتي من جديد؟

مصمصت عزيزة شفتيها، ثم قالت: وما الجدوى لو تعلق القلب بلا

أمل؟

***

لم يدرك محمد الغزالي وهو يعطي درسه أن الأذن صاغية، والقلم يكتب، والكلمات في هذه البلاد حتى ولو من فم بريء لها مائة معنى أو يزيد. تكلم الغزالي عن الملوك، أعطى مثلًا عن ملك يقتل، بل أعطى مثلًا عن فعل قبيح من ملك ربما عند البعض، تكلم الغزالي عن الروافض الشيعة، ولكنه لم يكفرهم حتى ولو قال إنه لا يتفق معهم. هاجم الباطنية نعم، ولكن هذا لا يكفي، كان لا بد أن يُمجد الملك، وكل ما يأمر به وكل ما يظنه داخل جوفه وقلبه. تجرأ الغزالي، ودعا للشك والتفكير، بل قال: إن في بعض المواضع ربما يصيب المعتزلي، كيف له أن ينطق بمثل هذه الكلمات وهو شافعي أشعري؟ ومنذ متى يقرأ الأشعري كلمات المعتزلة ليفهم، لا ليجادل ويدحض أقوالهم؟ تجرأ الغزالي، واستمع لكلماته العامة، ورددوها على الشيوخ والفقهاء، حتى وصلت إلى أذن الوزير الأعظم نفسه، بل ربما السلطان والخليفة.. من يدري؟..ادعى أعداؤه -وهم كثيرون- أن الغزالي إمام خراسان يُشوِّش العقيدة، ولا يمجد مذهبه. ابتسم منصور في انتصار، جاءت لحظة التخلص من الشاب المجادل إذن. من يستحق الإمامة هو الشيخ المسماري فهو أكبر سنًا وأكثر علمًا. بدأت الوشايات ولم تنته، سافرت بسرعة سنا البرق واستقرت عند القصور. لا أدرك محمد حجم ذنبه، ولا سمع الشتائم التي تنهال عليه، ولكنه عندما ذهب لزيارة قصر الوزير الأعظم يوم الخميس كعادته وجد الأبواب مغلقة، والحارس يأمره في حدة بالعودة إلى منزله.

لم ينم ليلتها. في الصباح ذهب إلى المدرسة فوجد الأبواب مغلقة،

قال الحارس في خفوت: سامحني يا شيخ. يدرس اليوم الشيخ المسماري بدلًا عنك. هذا أمر.

لم يسأل ممن جاء الأمر. سار في خطى ثابتة إلى بيته، وسمع صوت أصحاب منصور وراءه وهم يقولون: انهزم الأخ الأكبر كما انهزم الأصغر.

لم يحاول أن يزور الوزير الأعظم مرة أخرى، ولا معسكر السلطان، مكث في بيته يقرأ الكتب، وينغمس في الكلمات. لحظة يأتيه وسواس يؤنبه يقول: لِمَ قال ما قال؟ وكيف يدعو إلى التفكير من كان مجبولًا على التقليد منذ البدء؟ وهل كان عليه أن يبث شكه في كلماته، أو يغربل ما استقر؟ ولكن الوسواس يخطر ولا يستقر، فلو لم يخلص في الكلمات فكيف يدعي أنه فقيه؟ قال ما اعتقده وكفى. ماذا لو كان اعتقاده أصعب من أن يفهمه العامي؟ اللحم الطيب لا يصلح للطفل الرضيع! كيف ينفخ الحياة فيمن لم يفتح قلبه لاستيعابها ولا يستطيع؟ هجم عليه الشك، قطع الأوتار والشرايين. تاه من بين راحتيه اليقين. كيف لجداله أن يفيد الناس؟ وماذا تفعل كلماته لتصلح بين البشر؟ أي علم يصل إلى عين الصدق والمعرفة؟ علم الكلام؟ أتقنه نعم، وأدرك أنه يؤكد لكل مجادل وجهة نظره لا أكثر. جادل وانتصر بالمنطق، ولكنه لم يغير رأيًا ولا ملأ عقل الناس بأفكار جديدة. أي علم ينقذ كل هؤلاء من غيابات البحر المظلم؟ عندما قرأ يئس، وعندما تفرغ إلى نفسه تجاهلها، وعندما أعاد الكلمات إلى لسانه شك. أين أنت يا وزير؟ كنت تقول إنني ابنك، قلت هذا. قلت إنك تحبني، وإنك تراني نفسك. هل تخليت عن نفسك يا وزير؟

لا طلب منه نظام الملك المقابلة، ولا استطاع أن يعود إلى التدريس. كل الأبواب أغلقت أمام الإمام. ترى أهي كلمة «الملك»، أم كلمة «التفكير»، أو «الدليل» هي ما أغضبت الحكام؟

هل عرف أخوه يا ترى؟ هل وصل الخبر إلى أحمد؟ إلى أين امتدت هزيمته؟ لم يخرج من بيته، ولم يكن يريد مواجهة الأصحاب قبل الأعداء. نهشت الذئاب قطعة كبيرة من رأسه، وسوس الشك في كل المألوف، ولكنه انهزم أمام يقين واحد، وهو يقينه بالله ورسوله، ما عدا ذلك هو ضباب وسراب. كل حزب بما لديهم فرحون...من أين يأتي للسلاطين اليقين؟ وكيف للعامة أن يحاربوا من أجل معتقد بلا دليل؟ من يفني حياته مدافعًا عن نبي وهو لا يتخلق بأخلاقه؟! ومن يصيح ويهتف لإمام وهو لا يعرف عنه شيئًا؟! المعرفة تتلاشى من حوله، والحقائق أصبحت بندرة الصدق... تنفس الصعداء وأغمض عينيه.

استيقظ، ونادى على حارسه السلجوقي أرسلان. نظر إليه مليًا، ثم قال: كم يدفعون لك للتجسس عليّ يا ترى؟

فتح الحارس فمه في ذهول، ثم قال: مولاي الإمام..

قاطعه: مولاك الإمام يعرف كل شيء، منذ البداية، منذ منحك لي السلطان نفسه وأنا أعرف. لا بأس. اذهب إلى الخارج، ولا تدخل عليّ دون إذن.

محمد يقلق نعم، ويروم إلى نجوم بالتأكيد، ولكن السجن بدأ يضيق حوله. حارسه أرسلان يتجسس لصالح زوجة السلطان تركان خاتون، وبعض طلابه يتجسسون لصالح منافسين، أو مفسدين، أو

ربما لصالح نظام الملك نفسه، ولكن الإرادة لا بد أن تنتصر؛ فالضيق فرس جامح يستطيع أن يسيطر عليه.

يكتب صباحًا ومساءً وهو صائم، وبعد أن يصلي، وقبل أن ينام. القلم لا يترك يده، ومقلمته الخشبية لا تبرح جيبه. مكث يكتب ليلًا كتابًا في الفقه الشافعي يفند الأحكام ويوضحها حتى سمع طرقًا على الباب. لم يوقظ حارسه أو خادمه، قام، وفتح الباب، وسمع صوتًا ضعيفًا، كانت طفلة لم تتعد السابعة بملابس جميلة وشعر منتشر على الوجه، ودموع قديمة، مدت يدها المرتجفة، ثم قالت: تعال معي...أرجوك تعال معي.

أمسكت بيده قبل أن ينطق، فسارت بخطّى قصيرة ولم تجب عن أي سؤال سأله طوال الطريق. أحيانًا تنشج أو تئن، ولكنها لم تترك يده. سارا ساعة أو أكثر، بدأت تنهج من التعب، فقال في رفق: لو توقفت لحظة..

لم تجب، أشارت إلى بيت كبير بإصبعها، ثم جرت لتفتح له الباب.

صوت الأنين يحيط بكل الكواكب المحيطة بالبيت. تقدم خطوة في تردد كأنه في حلم أو صحوة لا يدري. توقف أمام الباب، وشهق، وعيناه تحيطان علمًا بما حدث بداخله. رجل بملابس ثمينة مستلق على الأرض، يبكي ويتألم كأنه سبع يحتضر بعد غزوة من أنياب أسود لا ترحم. دم يغطي أرض البيت بأكمله. ولكنه لم يشهق عندما رأى هذا، ولا شهق عندما وجد امرأة تبدو كزوجته تشد شعرها كالمجنونة، ولا شهق عندما شاهد هزيمة ثلاثة أولاد يجلسون على الأرض، ويغطون وجوههم. شهق عندما نظر إلى قطعة اللحم

الطازجة التي لم تزل تنبض بالحياة، كانت مستقرة على الأرض. عرفها، هو بالذات عرفها، إنه لسان الرجل، بجانب اللسان تمكث على الأرض آله حديدية يضعها الطبيب أولًا داخل الفم عنوة حتى يحبس اللسان، ثم يقطعه بسكين حاد مرة واحدة. وأي طبيب هذا؟ أليس الطبيب من يشفي المريض، لا مَنْ يقطع أطرافه؟ ردّد السؤال على عقله كأنه يود أن يزيح الصورة والصانع الذي تسبب بها. أفاق من صعقته، ثم أمسك بالرجل ليساعده على النهوض، والرجل يتأوه ويبكي بلا توقُّف. حمله حملًا، ثم أجلسه على الأرض، وقال وهو يتجه إلى الباب: سأبحث عن طبيب.

نظرت إليه الزوجة لأول مرة بعينين كلهما كره وحنق، ثم قالت: الطبيب من قطع لسانه يا إمام. أم أنك لا تعرف؟ أخبرني يا شيخ، هل جزاء الكلمة هذا العذاب؟ هل هذا في كُتبك؟ هل تدعو الحكام ليفعلوا هذا؟ قل الحقيقة. أنت فعلت هذا به لأنك لم تعترض على وزيرك، ترافقه وتشجعه.

لو أرادت أن تفزعه فقد فعلت، ولكنه تماسك، ثم قال في هدوء: نداوي جُرحه، ثم نتكلم.

-جمال ابن وزيرك نظام الملك هو من فعل به هذا. حتى لا تقول إنك لا تعرف. جمال ابن نظام الملك الذي يرعاك ويحبك. عندما تذهب إليه المرة القادمة تذكّر أنك غارق في الدماء مثله؛ لأنك جزء من مملكته ترعى وجوده بالدين، وتوطد حكمه بالفتوى.

لم يأبه لكلماتها، هرول خارج البيت كي يبحث عن طبيب. جاء الطبيب، أعطى الرجل أعشابًا تهدئ الألم. فتح الرجل فمه ليصيح،

رأى الغزالي بعينه جوف الرجل، رأى آثار قطع اللسان، رأى النحر غير المكتمل. أشاح الرجل بيديه كأنه يستغيث، ثم أشار إلى رقبته كأنه يذبح نفسه. هل طلب أن يقتله أحدهم الآن؟ هل يفعل الألم هذا؟

بعث رجاله ينظفون البيت، أغدق بأمواله على عائلة مقطوع اللسان. ولكنه لم ينم.

في القراءة شفاء أو محاولة. يفتح عينيه ليقرأ فتتموه كل الحروف وتتشابك الكلمات، كأن الأوراق غرقت في بحر لُجيّ، ثم انتشلها الصياد فوجدها بلا جوهر ولا معنى. كلمات على صفحة بيضاء، موجودة، نعم، ولكنها لا تضيء ظلامًا، ولا تقيم بدنًا سقيمًا. الحيرة مرض مزمن لمن أراد المعرفة، ولمن اخترق كل النجوم باحثًا عن طريق للسماء والأرض فتاه أو كاد. ما جدوى هذا كله؟ ماذا حقق يا ترى؟ وهل يرضى عن علمه؟ أيشك ويبحث كما ينصح الطلاب، أم يرضى بما تعلم من أساتذته وقريته وبلدته؟ لِمَ لا يخضع كغيره؟ لِمَ يتمرد عليه عقله؛ يوبخه مرة، ويقلل من علمه مرات؟ عَمّ تدافع يا غزالي؟ وأي حزب على حق؟ ما معنى حياتك يا من تفك رموز الكلمات؟ لِمَ تعجز عن القراءة اليوم؟ أي من الحواس تخونك في هذه الساعة؟ لسان يسبح في دماء ينتظر يد الزبال لتزيحه؟ عقل كلما قبضت عليه تملّص وفرّ؟ قلب مرض منذ البدء ويبدو أنه راحل بلا رجعة، هل ترى يا إمام؟ هل تبطش بيدك، أم تقف عاجزًا داخل رقعة الشطرنج تنتظر من يحركك، ويفعل بك مثل غيرك؟ هل اشتروا الكلمات من فمك أم اشتروا لسانك؟ يقسو القلب...يوبخه أكثر مما ينبغي. هو إمام وليس محاربًا، فلماذا تقسو يا قلب؟

طلب من حارسه أرسلان أن يبحث عمن فعل هذا. وضع يده على

رقبته هو. تصور نفسه مكان الرجل. ماذا يملك الإمام؟ كيف يصنع القوة؟ بلسانه؟ بكلماته ومعانيه؟ تُرى لو انتزع أحد لسانه فماذا يفعل؟ هل أصاب أفلاطون عندما قال: إن الشفقة رقة في القلب تأتي من الخوف على نفسك من مصير مَن تشفق عليه؟ يصيب الفلاسفة أحيانًا. ولكنه أسَرّها في نفسه. الخوف داخله وكلام الفلاسفة لا بد ألا يظهر للعامة، وإلا شوش العقيدة، ولكن الغضب أيضًا شوش عقيدة الزوجة، والظلم يفتت كل العقائد. ارتعد وابتعد. أصبح كل هدفه أن يعرف من فعل هذا بالرجل. وجد الطبيب، قدمه للمحاكمة بنفسه. تكلم مع القاضي وصاحب الشرطة. بعد بضعة أيام حدث شيء غريب. يقولون قتل الرجل منزوع اللسان نفسه، أما الطبيب فوجدوه مذبوحًا في سجنه.

ارتبك العالم. هو يعرف أن نظام الملك يحبه. تعلم أن يحب دون إحكام. ووجد في الوزير رجل دولة يُبقي على الأمة كلها، ويجمعها في وقت ضياع وفتنة. لن يصدق كلمات من سيدة غاضبة.

في لعبة الشطرنج يقف الملك بعيدًا، ولكن الدخول إلى قلبه يكون عن طريق الفيل والحصان والعساكر. أدرك محمد الغزالي أن لا شيء يحدث صدفة؛ الطفلة التي أخذت بيده، والمشهد الذي رآه، ثم القتل، كل هذا يحدث بترتيب محكم من عقل فذ. يعرف الآن عقل مَن؛ امرأة تركان خاتون، زوجة السلطان ملك شاه. من استدعته إلى قصرها فرفض مرة ومرات، ثم أمرته أن يأتي حتى لا تضطر أن تشكوه لدى السلطان، فوافق.

***

أرسلان حارس الغزالي كان يتجسس، نعم. يكتب كل حركة، وكل كلمة يسمعها في بيت الإمام.

أرسلان التركي جاء من قبيلة ضعيفة في أقصى الشمال، كل همه كان أن يجد الطعام لأبويه، تدرب على القتال، ولحق بحاشية أبي الغنائم وزير تركان خاتون، ثم حدث ما لم يتوقعه. أحب. كان يكتفي بمضاجعة جارية كل حين دون أن يسأل من تكون، ولا لو كانت ستحمل منه، ثم شاء القدر أن تقع عيناه على ابنة عم تركان خاتون في إحدى زياراتها، لم تكن تتعدى السادسة عشرة، سقط كالذباب، تمنى فقط رؤيتها. أيقظت بداخله إنسانًا لم يكن يدرك وجوده. كأنه بهيمة قبلها أو صنم. لم يعد يريد أن يبعث الأموال لأمه، ولا أن يعاشر جارية واثنتين، فيشبع شهوته، وينام في راحة. أصبح يحلم ويتصورها، وفي أحلامه كانت له هو، الأميرة ماهي، بكى، يتذكر أول مرة بكى فيها كانت عندما ضربه والده بعمود فكسر إصبعه. لم يزل إصبعه المكسور موجودًا، ولكنه لم يعد يتذكر الذنب الذي اقترفه. أصبح يطارد صورتها في أحلامه. عام كامل ينظر إليها دون أن ينطق، حتى جاء اليوم الذي أدرك فيه معنى العذاب النفسي الذي يفوق كل كسر إصبع وضلع. كانت ليلة زواج ماهي من أحد الأمراء أقارب تركان خاتون زوجة السلطان. تركان خاتون هي من رتبت زواجها. كان يعوي كالكلب في حجرته. أغلق الأبواب والنوافذ، ولكن الطرق على بابه لم يتوقف. فتح الطارق باب حجرته المتواضعة. جاء صوت الحارس من ورائه، ولكنه كان مستغرقًا في الألم. نغزه الحارس بعصًا، ثم قال: قم، وقف، ثم انحنِ أمام قدم الأميرة تركان خاتون.

انتفض من مكانه. كانت زوجة السلطان تركان خاتون. أخذ يمسح وجهه بطرف عباءته، ثم وضع خده على قدمها، وهو يدعو لها. أمرته بالوقوف، ثم صرفت الحارس، وقالت في حسم: اليوم زواج ماهي. زوجها الأمير جميل الوجه والخلق.

انهمرت دموعه بلا توقف، فقالت وهي تبتسم: أنتم معشر الرجال أبسط مما تبدون، وأكثر خفة من الفرخ الصغير. لا عقل لديكم. إرادتكم تكمن في موضع شهوتكم.

قال كأنه لا يفهمها أو لم يسمعها: أمر مولاتي.

-أنت...سوف تصبح حارسها الخاص. زوجها سيسافر مع السلطان.

بدا عليه ذهول وفزع. قالت وهي ترفعه من على الأرض: الحب ولاء، أليس كذلك؟ والموصل للمحبوب محبوب. تقترب من الأميرة ماهي، وتصبح بجانبها، ولكن بشرط.

قال بلا وعي ولا معرفة: أكون عبدك من اللحظة.

-ماذا لو تذوقت جمالها؟

-لا تعذبيني يا مولاتي، لا قبل لي بالعذاب، اقتليني الآن.

-ولاؤك لمن؟

-للأميرة تركان خاتون زوجة السلطان. أموت من أجلها الآن.

ابتسمت، ثم قالت: تصبح عين الأميرة على رجل يزعجني بعض الشيء اسمه محمد الغزالي، أريد أن أعرف أين المفتاح لقلبه.

***

عندما اعترفت ماهي بحبها للحارس أرسلان انشق القمر، وتفجّرت النجوم، هام في العشق، وتذوق جسدها. أصبح يوم اللقاء ولو ابتعد أشهرًا هو يوم الحياة وحده. يحتضنها ساعات ويبكي عند الفراق. تشكو له غلظة زوجها واعتداءه عليها، تمنى قلبه بأن اللقاء سيدوم، والساعات القليلة ستصبح حياة يومًا. يطيع تركان خاتون ويبجلها، لو طلبت منه اليوم قتل الإمام كان سيفعل. اتسع إدراكه لأنها طلبت منه الاستماع إلى دروس الغزالي، وإعادة الكلمات. كلما حكى لها التفاصيل كافأته بلقاء مع عشقه، فيذوب، ويفضي، ويعترف. تمتمت الأميرة تركان خاتون: لَكَمْ أشفق عليها! ماهي تحبك أنت، وتبغض زوجها الأمير. كيف أحبتك يا ترى؟

يزداد تعلقه، ويتعلق بقدميها كالطفل الذي وجد أمه.

الفصل الرابع

«فإن حبك الشيء يعمي ويصم».

الغزالي

لم يمنع الساتر الرقيق تركان خاتون من أن ترى وجه محمد الغزالي، ولا أن تراقب كل سكناته وحركاته. اعتادت منذ الصغر أن تقيس الرجل بذراع، تعرف نقاط ضعفه، ومصدر قوته، المرأة خُلقت لتقيس حجم الرجل، ثم تتعامل معه. من خبرتها بالرجال لا شيء يهزمهم سوى حب الجاه والسلطة. البعض يغرم بالنساء، والبعض بالمال، ولكن من يعشق الجاه يحصل على النساء والمال. الإمام الأوحد، هكذا يطلقون على هذا الشاب الذي يبدو في الثلاثين من عمره. عيناه لا تتوقفان عن البحث، وصدره يتطلع إلى السماء. تعرف هذا النوع. وكيف تتعامل معه. ولكنه ليس الوزير أبا الغنائم الذي أصبح تحت طوعها هو ورجاله. الغزالي حليف عدوها، حليف الوزير الأعظم نظام الملك، بل نظام الملك هو مَنْ بحث وأخرجه من الصدف، ثم لمعه بيديه ومر به على السلطان ليشاهد جلاله، ولكنه لم يعطه للسلطان، احتفظ به لنفسه. هذا اللؤلؤ المكنون صاحب الكلام المعسول والعقل الراجح، محمد الغزالي. جاء اليوم يتعامل مع تركان خاتون. جاء لأنها أمرته بالمجيء وتمنى ألا يأتي. يعرف كل شيء عن صراع القوى بينها وبين الوزير الأعظم نظام الملك.

عداوة زوجة السلطان للوزير نظام الملك يعرفها نظام الملك قبل أي شخص. فهذه المملكة تحتاج إلى سلطان واحد. وبها سلطانان نظام الملك، وتركان خاتون. هكذا ترى الدنيا وهكذا لا بد أن تكون.

تقرب شابٌ من نظام الملك وعيناه على السلطة والجاه اسمه أبو الغنائم، ثم تقرب بعد ذلك من تركان خاتون زوجة السلطان ملك شاه وأصبح تحت إمرتها يريد ما تريد. هي تريد أن تتخلص من الوزير الأعظم، وهو يريد الشيء نفسه. وعدته بأنه سيكون هو الوزير الأعظم وأهم رجل في دولتها، دولتها هي. فلو لم تكن امرأة كانت سترث هي الحكم. فهي ابنة شيخ القبيلة وقاهر القبائل كلها. زواجها من ملك شاه كان لأنها امرأة لا بد أن تبقى في ظل رجل يحكم هو. وليس لأميرة مثلها أن ترضى بالمكتوب، ولا تتفرغ لتربية الأولاد. فزوجها السلطان يحتاج إلى من يرشده، ويعرفه أنه تحت سيطرة وزيره نظام الملك منذ الطفولة حتى اليوم.

محمد الغزالي هذا الفتى الطوسي... أخطر من كل الوزراء والسلاطين. يملك لسانًا سحريًا، يتكلم بالأحكام، يفتي ويأمر، يعرف تفاصيل المعاني وكنه الكلمات. بيده أن يصدر فتواه بسقوط هذا الحاكم أو ذاك. ولكنه ليس إمام بغداد. هو إمام خراسان حتى لو كان لا يترك خيمة الحكام، ولا يبتعد عن سياستهم.

الغزالي ظل ساكنًا وهي تنظر إليه، لم يلتفت إليها حتى أزاحت الحجاب الذي يفصل بينهما، ثم قالت وهي تنظر إليه بلا حرج: محمد الغزالي التقينا أخيرًا...خمسة أعوام وأنا أحاول لقاءك.

بقي صامتًا برهة، فأكملت: تسمع عن تركان خاتون. ربما يخيفك وزيرك مني، ربما يخبرك أن تدخل النساء في الحكم يفسد كل شيء وربما يجد كلامه هوى في نفسك. تحبه يا محمد؟ أتمنى ألا تميل إليه بقلبك ففي هذا الميل خطر. أما لو كنت تريد منه أن يوصلك لغايتك فهذا جائز. كيف حال من قطع ابن نظام الملك لسانه؟ هل

رأيته؟

قال بعد التحية: مولاتي تأكدت أنني أعرف الوجه القبيح للبشر. أشكرها على هذا، وعلى مقدمات الزيارة.

-ولكنك تعرف دون أن ترى. أنت فقط تخدع نفسك. تظن أنك الإمام الأوحد كما أقنعك نظام الملك، وأنك بعقلك تستطيع إنقاذ كل البشر، ولا تدرك أنك عاجز أمام السيوف يا رجل.

-العلم لا يعجز أمام السيف. ولكني أشكرك على المقابلة.

ابتسمت، ثم قالت وهي تسبر غوره: العلم لا يعجز أمام السيف، فما الذي يجعل العلم عاجزًا يا ترى؟ السلطة والرياسة؟ كل رجل يريد السلطة يسعى إليها بالحب والخوف. ما هو حلم محمد؟ ما الذي يحيا به ومن أجله؟

-صلاح الأمة وتحالف أهلها.

-كلمات تدرسها، نعم، ولكنها لا تقنعني. أقول لك أنا ما يريده محمد. يتمنى بكل نفسه شيئًا واحدًا يحلم به حتى وهو في هذه السن الصغيرة. يريد درة الخلافة. بغداد. يتحكم هناك ويتمكن.

بقي صامتًا. فقالت: لِمَ يتوقف لسانك عن الكلمات أمامي، وتنطلق كالفرس الجامح مع الملوك والعامة؟

-لأنني لا أعرف لِمَ تريدني الأميرة، ولا ما فائدتي هنا.

-أنت فقيه، أليس كذلك؟ أريدك أن تفتي في مسألة.

رفع رأسه إليها، فأكملت: ابنتي تزوجت من خليفة بغداد، ثم هجر

فراشها بعد عام، وأبقاها غريبة في قصره. أهكذا يتعامل الخليفة مع ابنة السلطان الذي يحمي ديار المسلمين؟ لولا دولة السلاجقة لانهارت الدولة العباسية بأكملها. دولة بني عبيد (الفاطمية) تحكم مصر، ودولة بني بويه الشيعية كانت تسيطر على العراق. لولا تدخل السلاجقة، وإعادة الحكم لدولة الخلافة السنية، كان الخليفة سيمحى أثره. أما الباطنية فخطرهم يتوغل في الأمة يومًا بعد يوم. ما رأيك في هذا يا محمد؟

-على الرجل تحصين زوجته، هذا حق من الحقوق للمرأة.

-وهل ما يسري على العامة يسري على الملوك؟ أنت في معسكر زوجي بين السلطان والوزير منذ زمن. أخبرني يا شيخ كيف حال الملوك؟

-المسئولية عليهم أكبر، والهم أخطر، فضياع الأمة في فساد ملك، وملك فاسد يفسد كل الرعية، وملك صالح يحميها. مسئوليته أكبر وثوابه أجزل لو عدل.

-لو عدل. نعم لو عدل. هل من العدل أن يعين نظام الملك أولاده على المملكة فيعيثون في الأرض فسادًا؟ وهل من العدل أن يصبح ابن نظام الملك هو القاضي والمفتي فيقطع لسان أحد الأمراء لأنه تكلم عنه بسوء؟ أخبرني يا شيخ.

-من العدل تولية الأصلح.

-كلماتك لا تخرج من القلب.

-تخرج من الشرع وأحكامه.

-وأنت يا محمد هل تحمي الشرع يا ترى، أم تشاهد كل الفساد حولك فتتجنبه أو تتجاهله، وتمضي في طريقك إلى بغداد؟

-أنا إمام يا أميرة أدعو إلى العدل، وأحارب الظلم، ولكني أعلِّم وأتعلَّم. وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه. لا سيف لي ولا عساكر.

-ابنتي ماتت كمدًا بعد أن نبذها الخليفة. هذا ليس من العدل. هو قتلها.

-حقن دماء المسلمين من العدل والرحمة.

-كيف لمثلك أن يبقى بلا زوجة؟ أهو بحث عمن تستحقك، أم ريبة في ولاء المرأة؟

-هو استغراق في العلم لا أكثر.

-يريد نظام الملك أن يزوجك إحدى بناته، وأريد أنا أن أزوجك أختًا لي، فمن تختار؟

لم يجب. فقالت: لا تثق في بنات الملوك يا شيخ؟

-يستغرقني العلم.

-لسانك معسول، ولكن قلبك مغلق، لا أحد يستطيع اختراقه. تسعدك الشهرة والصيت، أليس كذلك؟ الجاه والسلطة هما إعجاب الناس وأسر القلوب. الدنيا بين راحتيك يا محمد. أحيانًا أتمنى أن أكون مكانك. ربما لو ولدت رجلًا كنت سأكون مكانك.

-هناك نساء عابدات يا مولاتي تفوقن على الرجال.

ضحكت وهي تمعن النظر إليه، ثم قالت: ولكنك لست عابدًا يا

محمد. أنت رجل سلطة ورياسة. هل تظن أنك تستطيع خداع تركان خاتون.

ثم أشارت إلى قلبها وقلبه: هذا القلب وذاك يريدان الشيء نفسه، الشيء نفسه بالضبط. لو تعاونت معي نصل معًا، ولو حالفت نظام الملك كنت عدوًّا لي.

-القلوب يعلمها الله يا مولاتي. نتركها لمن يسبر غورها. أكتب في الفقه وعلم الكلام، لا أكتب في السياسة والحكم.

-بيدي أن أطيح بك. أعيدك إلى طوس لتأكل من خانقاه للصوفيين أو من دار للفقراء. بيدي أن أنهيك يا محمد، وبيدي أن أمهد طريقك لتكون أصغر إمام يتحكم في الدنيا، أنا أجعلك إمام بغداد. الاختيار لك.

بقي صامتًا برهة، ثم قال: بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

-وهو يعطي ملكه من يريد. تكلم معي عن المُلك والمَلِك.

- فرعون قال للناس: أنا ربكم الأعلى. والكثير يضمرها في قلبه ويريد النطق بها ولا يستطيع. فرعون صدق وطغى، ولكنه قال ما جال بخاطره. ولكن الرب واحد يا مولاتي. الملك الواحد يتصرف في مملكته كيف يشاء، يعطي أو يمنع. لو أعطى فمن فضله، ولو منع فمن عدله. الأميرة أنعم الله عليها بالقوة والقدرة فلتشكر الله، وتخصص يومًا في الأسبوع للصلاة والتسبيح وغسل النفس من كل الهم والحزن. فأمور المملكة خطيرة والهفوة فيها بمائة، وحساب من يقدر غير حساب من لا يقدر. يعرفك الناس يا أميرة، ويعرفون حبك للخير، أكثري منه، واطرحي الغضب جانبًا فهو يُهلك ويُعذب.

-والطمع؟

-يُهلك أيضًا. حِرص آدم أخرجه من الجنة، لم يكن يريد أن يترك شجرة واحدة دون أن يعرف حقيقتها، ولو تركها لخُلِّد في الجنة دون عناء الدنيا وتقلب الأزمنة.

-لم تفتح قلبك بعد. لا بأس.

ساد صمت كله كلمات مكتومة، ثم قال هو في هدوء: من كرم الأميرة أنها تريد حمايتي، ولكن الله هو الحامي، لا أحتاج إلى أرسلان.

نظرت إليه، وابتسمت، ثم قالت: السلطان هو من عيّن أرسلان وليس أنا. هل تريد أن تتحدى أمر السلطان؟

قال: كرمه يفيض علينا. بالطبع لن أفعل. أنا هنا من أجل سلامة السلطان؛ لأن سلامة الأمة من سلامته، والسلطان له الحق في معرفة أي شيء عني في أي وقت.

فهمت ما يقصد. ابتسمت، فأكمل: لو كانت الأميرة تريد أن تعرف أي شيء عني يمكنها سؤالي في أي وقت، لا شيء في بيتي يبقى سرًا، ولا شيء أفعله يستحق أن يبقى سرًا.

تصارعت النظرات في حرب صامتة، ثم قالت: هذا يحدده السلطان، وأنت إمام خراسان. ولاؤك أهم شيء.

سكت هنيهة، ثم قال: مولاتي تقدر أهل العلم.

-أقدرهم أجل تقدير يا محمد. هل تعرف منصور القاضي الذي

تزوج زوجة أخيك؟ يأتي إلي كل أسبوع يعطينا درسًا نتعلم منه الكثير. ما رأيك فيه؟

قال في حسم: من أعطى الجاهل علمًا فقد أضاعه.

-لا تحبه؟

-ليس للحب دخلٌ في هذا يا مولاتي.

-ها أنت تتكلم بالسوء عن رجل دين. مَن يدري ربما يكون إمام بغداد قريبًا.

لم ينطق. ثم قالت: ولكن تذكر أنك لن تصل إلى بغداد إلا بموافقتي. هذا تذكّره حتى نلتقي مرة أخرى.

قال في برود وهو يتحكم في غضبه: أعفيني يا أميرة من الزيارة. حماك الله وحمى السلطان.

استأذن وانصرف.

***

غفا على ما يبدو وهو يقرأ، رأى حلمًا أو حقيقة، تأرجح بين النوم واليقظة أو بين الغفلة والصحوة. كان مدفونًا في قاع جبل يختنق. الجبل من الحروف العربية، يتلهف على قراءة كلمة واحدة، استطاع أن يقرأ حرفين ربما أو أربعة، عين وضاد وكاف وميم وقاف وباء... لم يقرأ بقية الحروف فقد دُفن بداخلها، ينهال عليه الجبل فاختفى أثره تمامًا وسط الحروف المبعثرة. وما استطاع أن يجمعها ليكون كلمة واحدة. بدأت أنفاسه تختفي شيئًا فشيئًا، ثم شعر بتسعر نار في حلقه لا يدري سببه، تحسس مدفنه داخل جبل الحروف بيديه،

فقد عم الظلام داخل قاع الجبل، فشعر بشيء لين يخرج من حلقه، ويستقر بجانبه، لسانه. حاول أن يصرخ فلم يستطع. حاول أن يحرك جبل الحروف فلم يمتلك القوة. شلت يداه واستسلم للموت خنقًا، ولكنه لم يمت. استمر اللسان ينخر قلبه كأنه يريد النطق ولا يستطيع.

تأوه في منامه. فتح عينيه واستقام في جلسته. الحجرة القيمة في بيته كلها ظلام. لأول مرة يصبح بالوحدة مؤزرًا وبالتيه محاطًا. كأنه في مدفنه بالفعل. حرك لسانه. وتنفس في بطء. كان حلمًا، وانتهى. فلم يبق أثر الذبح في فمه؟ أمسك بإبريق المياه وغسل وجهه، ثم نهض، وارتدى ملابسه، وخرج إلى الحديقة يبحث عن فرسه الأسود. حركته أيقظت أرسلان الحارس. لم يقترب. نظر إلى الإمام وهو يمتطي فرسه وينغزه ليجري. كاد الفرس يقفز قفزة موت، ولكنه ألجم الفرس حتى لا يجمح به إلى النهاية. أسرع خارج البلد كلها، الهواء يضرب وجهه وعينيه، والندى يبلل جبهته.

عاد بعد حين. فوجد الحارس ينتظر أمام الباب. قال: أنت بخير يا مولاي؟

نظر إليه برهة، ثم ترك له الفرس ليدخله إلى مكانه، وقال: أنا دومًا بخير مادام معي حارس مخلص مثلك.

ثم ابتسم له ابتسامة كلها فهم. ودخل البيت.

***

ولكن تركان خاتون صدقت. من قتل الرجل وقطع لسانه هو ابن الوزير نظام الملك. فعل هذا من أجل كلمات لا تعجبه. ولم يحاسبه

أحد حتى السلطان نفسه لم يجرؤ على معاقبته مخافة غضب الوزير الأعظم. يمكنه أن يتهمها بالمؤامرة والتأثير على الحكم، ولكنها صدقت حتى وهو يكذب على نفسه. وربما صدقت في انتزاع الأحلام من قلبه. قرأت الأمنية وهي نطفة بفراسة وفهم. بعد عدة أيام بعث إليه الوزير أبا الغنائم يطلب منه التعاون معها، لا يحتاجون منه إلا أن يصاحبهم في خيمتهم، يدرّس لهم، ويجادل أمامهم رجال الدين. يحتاجون إلى واحد منهم هم. ما يفعله مع نظام الملك يمكن أن يفعله مع أبي الغنائم. هذا وزير وهذا وزير وأبو الغنائم بنى مدرسة أيضًا، يحب العلم والعلماء. الاستماع إلى الغناء يلهي القلوب، ولكن مجادلات العلماء أمتع من مجادلات السيوف، أصبحت عادة كل كبير ومشهور جمع العلماء والاستماع إلى المشاجرة. ذاع صيت الغزالي منذ زمن، لا يرحم من يخالفه الرأي يضرب باللسان وينزع الأظافر بالعقل والمنطق، يهزم ويكسر. كم من عالم انزوى في بيته بعد مجادلة مع الغزالي.

استقبل الغزالي أبا الغنائم بترحيب، ولكنه رفض طلبه. وأبقى حارسه أرسلان خارج بيته لا بداخله. مرت أيامه في لهفة وحسرة على حلم لم يولد بعد، كان سيجمع الأحلام كلها ويفيض بها على الدنيا كما الدنانير الذهبية.

أصبح يتحاشى كل العلماء وكل البشر. ألح الشيخ عبد الله الدمشقي في طلب مقابلته، قابله وتكلم معه. سأله الشيخ لم لا يعود للتدريس، ولكنه لم يجب. ماذا سيقول: إن باب مدرسته أغلق في وجهه؟!

امتزج الأسى ببعض المرارة. لا مكان له في رقعة الشطرنج على ما

يبدو. بعد مرور شهر كامل استدعاه الوزير الأعظم إلى قصره.

***

فرح بطلب الوزير، ولكن المرارة لم تتركه. لام نفسه على فرحه. هل أصبح القلب معلقًا بالوزير أم بما يمنحه الوزير يا فقيه؟ قالها لنفسه ولم يعقب.

بعد التحية والمصافحة قال الوزير الأعظم: محمد افتقدتك.

-مولاي كان يمكن أن يطلبني في أي وقت.

-لا ليس قبل أن تمتحن.

فتح عينيه، وهو يحاول أن يفهم كلماته.

فأكمل نظام الملك: قابلت الوزير الذي يصاحب تركان خاتون، قابلت أبا الغنائم. كان أحد غلماني، أنا من قدمته للسلطان، ثم ماذا فعل؟ غدر بي. وعدته الأميرة بالجاه والمال والسلطة، فخان من جاء به إلى القصور من البداية.

-كنت أظن أن كلماتي..

-نظام الملك لا يخاف من كلمات ولا من سلطان. كانت فرصة للامتحان.

أغمض عينيه برهة، ثم فتحهما. تعمد نظام الملك عدم مقابلته، تعمد إبعاده وهو يتوقع من تركان خاتون أن تحاول استمالته لها. تركها تفعل ما تشاء، كان يشاهد من بعيد. وضع الشرك فوقعت فيه الأميرة، ولكن الغزالي لم يقع. أبقاه بعيدًا شهرًا كاملًا ليختبر ولاءه،

هل يضعف تحت ضغط الرغبة في السلطة أم لا. وهل إخلاصه لأي وزير يمنحه ما يريد أم للوزير الأعظم فقط؟

مد نظام الملك يده، وضعها على قلب الغزالي ثم قال: هذا القلب كما الذهب، النار تشكله، ولكنها لا تغيره. بماذا وعدتك الأميرة؟

لو كان الغزالي غضب فقد كتم غضبه، ولو كان فرح في البداية فالحزن خيم. يلعبون به كما الصولجان في يد طفل، يقلبونه يمينًا ويسارًا على وجهه وعلى ظهره، يهزونه ليخرج ما فيه.

قال نظام الملك فجأة: هل غضبت مني؟

فقال مسرعًا: لا.

-أنا أقول لك: بم وعدتك الأميرة؟ ببغداد. ولكن من الحماقة أن يعد من لا يملك. تعال هنا بجانبي نتكلم. في بغداد مدرسان اثنان يرأسان المدرسة النظامية، لا تقل سن أي منهما عن الستين وأنت في الثلاثين على ما أعتقد لا أكثر، ولكن لا أحد يضاهي الغزالي في عقله ومعرفته. يتفشى الشك في البلاد يا إمام... الفلاسفة تقول للعامة: إن الله لا يعلم بالتفاصيل. والملاحدة تشكك أصلًا في وجود الله ووجود النبي، والباطنية يدعون الناس في كل مكان في الأسواق وفي المساجد سرًا وعلانية. أريدك أن تجادل الملحدين اليوم. كثروا هذه الأيام هنا أمامي، أخبرهم عن حماقتهم وعجزهم.

فتح فمه، وجد لسانه يكاد يسبقه في السؤال عن بغداد، ولكنه لم يسأل. كلما اقترب الحلم أصبح الصبر صعبًا والوصول لزامًا.

الفصل الخامس

«إنما يرتفع حجاب التقليد بأن يترك التعصب للمذاهب».

الغزالي

رأت ثريا والدها كعادته ينادي جاريته إلى حجرته. هذه المرة لامته ثريا بداخلها، وشعرت بوطأة عذاب أمها. فمن لم يذق لا يستطع أن يصف، واليوم هي ذاقت طعم الوجد. هرولت إلى حجرة أمها وربتت على كتفها وقالت: أحبك يا أمي!

فنظرت إليها بعدم فهم، ولكنهما تفاجأتا معًا. دخل الأب عليهما وقال لها في حسم: اخرجي يا ثريا.

خرجت حينها، فبات ليلته مع أمها، ليلة فليلتين فثلاثًا. همست عزيزة في أذن ثريا بعد أيام: هو تأثير إمام خراسان محمد الغزالي على أبي. حكى لي زوجي أن الإمام قرأ عليه الأحكام، وطلب منه أن يُحصّن زوجته. والدك يا ثريا أخبر الإمام أنه لم يعد يريد سوى جاريته فذكره بما نسي من الشريعة، أيقظ ورعه على ما يبدو.

قالت ثريا في عتاب: لا تتكلمي عن والدك هكذا.

-أنا فقط أخبرك بما حدث. انظري إلى فرحة أمك. لا بد أن ندعو كلنا للإمام. أليس كذلك؟

ثم غمزتها وقالت: آه من الحب يا ثريا!

قالت ثريا مسرعة: لا تتكلمي هكذا أرجوك.

-وكأن الحب حرام يا بنت...هو ما يجعلنا نحيا. أقسم لك لم أحي

سوى عندما تزوجت صالح...أما زوجي الأول فمت بين ذراعيه، وهذه الكلمات ليست مجازًا. لا تفعلي مثلي يا ثريا، لا تتزوجي ممّن لا تحبين.

قالت في حسم: لن أتزوج أصلًا.

-هل جننت؟

-بل قررت هذا منذ زمن.

-ليس قرارك أنت يا أختي أصلًا.

نامت ثريا في حزن؛ حزن على إفشاء سرها، وحزن على مصير لا تعرفه. احتضنت نفسها لعلها تعطيها بعض القوة. في الصباح تعجبت أن تبقى أمها في حجرتها، ولا تخرج لتفطر معهم كعادتها، ولكن عزيزة قالت في خبث: تبقى مع أبي. لا تزعجيهما.

ولكن عند الظهر قالت ثريا في بعض القلق: عزيزة، هذا غريب.

نادت عزيزة على الجارية، فلم تجب. بلا تفكير طرقت الباب في قوة فلم يجب أحد. فتحت ثريا الباب وأختها بجانبها، ورأت أمها وأباها معًا في مخدعهما مذبوحين!

شهقت عزيزة وفقدت الوعي. تسمرت عينا ثريا على الدماء التي استقرت على صدر أمها. رأت الدماء في مخيلتها تنهمر بتدفق الحبيس في سجن مظلم. اقتربت من أمها، وهزتها، وضعت يدها على صدرها لتكتم الدماء. كانت تردد بلا توقف: أمي...أمي..

دخل صالح زوج عزيزة، أمسك بأبيها، فالتفتت إليه ثريا، ونظرت إلى أبيها، وقالت: لم يزل حيًا، أليس كذلك؟ نستطيع أن نعالج

جرحه؟

شد صالح ذراعها، وأخرجها من الحجرة وهي مذهولة، ثم حمل أختها إلى الخارج. ثريا تحرك رأسها وكتفها كأنها على ظهر جمل، تتحرك بلا توقف ولا رغبة في الوصول. صرخت عزيزة، فهدأتها. اجتمع الخدم، قال أحدهم: كانا نائمين...الجارية دست السم لهما ثم ذبحتهما. ماتا قبل ساعات. هربت الجارية، لا أثر لها.

مزقت عزيزة ثيابها، ولطمت وجهها، وثريا صامتة تنظر حولها كأنها تشاهد خيال الظل. كل شيء يحدث خارج الزمان والمكان.

بعد ساعات قليلة حضرت سيدة لا تعرفها، قالت إنها زوجة الشيخ الناصري صديق والدها. بدأت تعطي عزيزة الشراب لتهدأ، طبخت لهما بعض الطعام، ثم التفتت إلى ثريا، وقالت: لا تقلقي، والدك ترك كل أمواله مع زوجي، وأوصاه أنها لك أنت وأختك. ترك ذهبًا وفضة ودنانير. كان يعرف أن الباطنية لن يتركوه. أنت بخير، أليس كذلك؟

نظرت ثريا إلى عزيزة، ثم قالت: الجارية؟!

-الشرطة تبحث عنها.

لم تستطع الصراخ مثل عزيزة ولا ضرب وجنتيها. بدت رابطة الجأش، والصورة لا تتحرك من أمامها. تمنت فقط أن تزيح الصورة ولم تستطع.

مر يوم أو اثنان وزوجة الشيخ ترعاهما كأنها أمهما، وتشفق عليهما وتبكي لحزنهما، ثم قالت لثريا: إمام خراسان يا ابنتي..

لم تسمع ما تقول في البداية فقالت وهي تهز ثريا لتفيق من

غفوتها: إمام خراسان محمد الغزالي يريد زيارتكما. لا بد أن ننتقل من هذا البيت إلى بيتنا، فلا يجوز بقاؤكما هنا.

قالت ثريا وهي لم تسمع كل الحديث: ولكن زوج أختي معنا.

-هذا البيت كان مستأجرًا وصاحبه يريده. نحن نرحب بزوج أختك، ولكنك أنت لا بد أن تنتقلي لبيت الشيخ الناصري، هو سوف يرعاك منذ اليوم. قلت لك: إمام خراسان يريد زيارتك، هل تسمحين له؟

نظرت إليها ثريا، ربما لو قالت هذا قبل أن تتملكها الصورة كانت ستتهافت تهافت الفراشات وتموت من فرحتها، ولكنها كانت مشغولة بصورة واحدة. لا تتركها. صورة هذه الدماء النافرة من الجسد، الكارهة له.

قالت زوجة الشيخ: هل أقول له إنك موافقة؟

-نعم.

انتقلت ثريا وعزيزة إلى بيت الشيخ الناصري. كان أصغر من بيتهما ولكنه نظيف، وزوجة الشيخ ترحب بهما وتراعيهما. أما صالح زوج عزيزة فضاق بكل الخوف والفقر والغربة التي تحاصرهم. سمعت ثريا حديثه مع عزيزة.

كانت عزيزة تصرخ بلا توقف، وهو يقول: وأنا ما ذنبي؟ ضاعت تجارتي وحياتي كلها من أجل كلمات أصر والدك أن يقولها عن الباطنية. أنا سأعود إلى الشام.

قالت فجأة في حدة: لا. يقتلونك هناك.

-لا مال لدي ولا عمل. نعود كلنا إلى الشام.

بدت عزيزة تائهة، لا تعرف ماذا تفعل، ثم قال زوجها بعد برهة: حسنًا. لو كنت تخافين فلا بأس. سأرحل للتجارة، وأعود بعد شهر أو اثنين. لا بد أن أعمل يا عزيزة.

لم تنطق. استمرت في الصراخ، فنظر صالح إلى ثريا، ثم قال: أنت تفهمين يا ثريا؟

قالت ثريا في قوة: أنا أفهم. ارحل لتجارتك وسوف أرعى أختي وأولادك، وننتظرك هنا.

-أخاف أن أتركها وهي في هذه الحال.

-ستبقى هكذا بعض الوقت، ولكنك تحتاج إلى المال والعمل.

صاحت عزيزة في وجهها بعد ذلك، واتهمتها أنها تكرهها، وأن صالح أيضًا يكرهها. غابت في صراخ طويل وعويل لا ينتهي.

في الصباح كان موعد زيارة إمام خراسان، الغزالي.

أمرت ثريا عزيزة أن تتماسك أمامه. جرتها جرًّا إلى حجرة الضيافة، وكان يرافقهما الشيخ الناصري وزوجته. بعد تحية الإمام جلستا أمامه بلا كلمة. طأطأت ثريا رأسها حتى لا يرى الحسرة ولا الهزيمة، ولكنه كان ينظر إليهما بإمعان. رفعت عينيها فالتقت بعينيه فقال: أنت لست بخير!

بلعت ريقها في صعوبة، كانت أول مرة يتكلم معها كأنها هي ثريا وليست ابنة الشيخ الدمشقي. اتجه بكلماته إلى القلب وقرأه، فقالت: بل أنا بخير يا مولاي. أختي هي التي ليست بخير.

قال وعيناه لا تتركان عينيها: العقل...غريب أمره، أليس كذلك؟ «يريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينساه فيذكره، ويريد أن يسر فيحزن، ويريد أن يغفل فيذكر، ويريد أن ينتبه ويتيقظ فيسهو ويغفل». هو «مغلوب مقهور». هي صورة لا تفارقك...صورة الذبح. ما رأيته يوم وفاة والديك، هل يمكن أن تشرحي لي ما رأيتِ؟

نظرت إليه في فزع على قدرته على قراءة الأعماق. قالت ثريا بلا تفكير: أنا بخير.

فقال محمد: ربما لن تفارقك الصورة. نحيا كثيرًا بخنجر على مخدعنا أو داخل القلب، ولكنني عهدتك قوية. استعيني به، لن ينفعك غيره. أنت هنا في أمان. الشيخ الناصري سيتولى أمركما نعم، ولكن لو احتجتما إلى أي شيء فلا بد أن تأتيا إليّ. أي شيء، وفي أي وقت.

انفجرت عزيزة في البكاء، فأمسكت ثريا بيدها، وقالت في رفق: توقفي.

فقال هو مسرعًا: اتركيها تبكي. ربما لا بد أن تبكي أنت أيضًا. هل بكيت؟

كلماته التي تخترق شغاف القلب، وتقرأ كل شيء أصبحت تعري بلا خجل، وتخترق بلا استئذان.

قالت والكلمات تخرج جافة دون قصد: وكيف لي أن أسيطر على دموعي وآمرها يا مولاي؟

قال: لا. لا تأمريها، ولا تنازعيها. القوة ليست دومًا الحل الوحيد،

أحيانًا نحتاج إلى بعض الضعف حتى نصبح أقوى، وإلى بعض الهزيمة حتى نتمكن من النصر، وإلى بعض البكاء حتى نتعايش مع الصور. تعرفين بيتي ومكاني أنت وأختك. هو قريب من بيت الشيخ الناصري، اطلبي مني الحضور في أي يوم.

قالت وهي تنظر إلى عينيه كأنها في صحوة الموت: نعم. أي يوم.

قام، ثم نظر إلى الشيخ، وقال: ابنة الشيخ التي لا تبكي تحتاج إلى البكاء.

***

بعد رحيل الإمام طلبت ثريا مقابلة الشيخ الناصري، وأخبرته أنها تريد أن تعطي الإمام كل كتب والدها، فوعدها بتنفيذ رغبتها.

صرخت عزيزة في وجه ثريا بعد أيام، عند رحيل الزوج لم تتمالك نفسها: أنت السبب، كنت أريد الرحيل معه، ولكنك مصممة على البقاء هنا لتبقي حوله، وهو لا يشعر بك.

لم تنطق ثريا. فأكملت عزيزة: تظنينني سأضحي بزوجي من أجلك. سأرحل وراءه إلى الشام.

فقالت ثريا: أولادك حياتهم هنا، وأصدقاؤهم ومستقبلهم.

-بل مستقبلك أنت. تحومين حوله فقط دون أي أمل.

تجاهلت كلماتها، ثم قالت: زوجك نفسه يدرك أن بقاءك هنا أفضل.

قالت عزيزة: الباطنية أرادوا قتل أبي وليس قتلنا نحن، وقد نجحوا. لقنوا كل شيخ يعصي ويستكبر درسًا بذبح والدينا. وها هي

الجارية تهرب، ولا أحد يُعاقَب غيرنا. هي دنيا كلها ظلم.

أمسكت ثريا بذراعها، وقالت: زوجك يعود كل عدة أشهر. يتاجر يا عزيزة، التاجر يسافر دومًا.

فقالت عزيزة: هو غاضب مني. كل أمواله كانت مع أبي، وعندما مات ضاع كل شيء. الشيخ الناصري يقول إن والدي لم يخبره بأي شيء عن أموال زوجي. سيطلقني، هذا أكيد.

قالت ثريا وهي تهدئها: يحبك وسيعود، اهدئي.

ولكنها لم تهدأ، كانت تصيح في وجه ثريا كل حين، وفي وجه أولادها الثلاثة. حياتهما في بيت الشيخ الناصري كانت مختلفة. زوجته ترعاهما وتجهز لهما الطعام وتطمئن عليهما. كل ليلة تجلس مع ثريا بالذات، وتتكلم وهي تنظر إليها كأنها تنتظر منها البكاء، وثريا لا تفعل. أعطتها زوجة الشيخ خاتمًا من الذهب الخالص ورداء من الحرير، ثم جاءت بالماشطة، وطلبت منها أن تتزين، وتختار أي شيء تريده هدية منها إليها. كانت تدللها، نعم، وثريا لا تريد إلا أن تتركها لحالها، تقرأ كتاب الله وتنسخ بعض كتب والدها. بدأت ثريا تراعي أولاد أختها، وتتجاهل كلماتها اللاذعة. أحيانًا تعتذر لها عزيزة، وتحتضنها، وتقول إنها كل ما تبقى لها في الدنيا، وأحيانًا تنفجر كمياه الينابيع بلا موعد محدد، ولكن ما نغص أيام ثريا في بيت الشيخ كان ابن الشيخ الناصري علوان. كانت ثريا وعزيزة في الحرم فلا يراهما ابن الشيخ أثناء زيارته مع زوجته وأولاده. تأتي الزوجة إليهن، وتتحاشى الكلام مع ثريا ويبقى هو مع والده. ولكن لسبب لا تفهمه ثريا، بل ترجح أنه إما أن يكون وصفًا من أمه لجمال ثريا أو

حرصًا منه على ألا تفوته أي متعة في هذه الدنيا، وجدته ثريا يومًا يتسلل إلى الحرم وهي تجلس بجانب ابنة أختها تصفف شعرها، مكث واقفًا برهة ينظر إلى ثريا دون أن تلاحظ، ثم التفتت إليه ثريا، وبحثت عن خمارها لتغطي شعرها ووجهها، فلم تجده، قامت من مكانها مستأذنة لتخرج فأمسك بيدها، شهقت من الفزع، ونزعت يدها، فقال مسرعًا: أريد كلمة لا أكثر.

اعتصر ذراعها بيده فقاومته واتجهت إلى الباب فسده بجسده، أمسكت ابنة أختها بها، فقالت ثريا وهي تتماسك مع بعض الخوف: اتركني أمر، هذا لا يجوز يا سيدي.

-لو كنت أريدك زوجة فهل ستقبلين؟

قالت بلا تفكير: لا.

-حلل ديننا الزواج من أكثر من واحدة.

-وحلل لي أن أرفض. اتركني أمر.

ولكنه أمسك بذراعها مرة أخرى، قربه من فمه، فدفعت به بكل قوتها، وصاحت في وجهه: سأخبر والدك بكل هذا.

نغز كتفها بأصابعه، وقال: أخبريه حتى يطردك إلى الشارع. ألا يكفي أنه يرعاكم بلا مقابل.

-يرعانا بمال والدنا.

-لا شكر في قلبك حتى لأبي. ستتزوجينني يا ثريا.

-ليس وأنا حية، هذا أكيد. بعد أن أفقد عقلي ربما.

-ستتزوجين علوان. صدقيني، أقسم لك.

-لا تقسم.

دفعت به، ثم صاحت بأعلى صوتها تنادي أمه. أخبرتها بكل ما حدث في ثبات، ثم طلبت منها الرحيل، فاعتذرت الأم، وأخبرتها أن ابنها من اليوم ممنوع من دخول البيت.

قالت ثريا في حسم: هو يقول إنك تراعيننا يا سيدتي شفقة، هل ترك والدي المال مع الشيخ؟ أريد أن أعرف.

قالت الزوجة مسرعة: أقسم لك أنه فعل.

عندما أخبرت عزيزة بما حدث قالت: ما الذي يعيب علوان؛ وجهه جميل، ولديه أكثر من دكان، تاجر وثري، ويستطيع أن يطلق زوجته، هي لا تطاق على كل حال.

قالت ثريا في غضب: إياك أن تنطقي بهذا مرة أخرى.

-في سنك هذه وفي ظروفنا هذه لا بد أن تفكري، لن تجدي رجلًا لم يتزوج من قبل.

-قلت منذ أعوام إني لن أتزوج.

***

وفت زوجة الشيخ بوعدها، وتوقف ابنها عن الزيارة، ولكنها سألت ثريا لو كانت توافق على الزواج به، وأخبرتها ثريا أنها لا توافق، فصمتت ولم تعقب، ولم تتغير معاملتها لهن. كانت ثريا تتابع أخبار الإمام، ولا تحاول رؤيته. تسترجع زيارته القصيرة، وكلماته، وتعاندها

الذاكرة. حين تكلم كانت تحت تأثير صدمة أكبر منها ولا تتذكر بالضبط ما قال وما قالت. تطلب من أختها أن تعيد عليها الحديث، فتقول إنها لم تفهم كل كلامه، ولكنه طلب منها البكاء. اعتصرت ثريا عقلها، رجته أن يتذكر ولم يستجب. بعد برهة سمعت من أختها أن علوان يزور بيت الشيخ، فهرولت إلى زوجة الشيخ الناصري، وقالت في حسم: أخبرتني أنه لن يأتي إلى هنا.

فقالت: هو ابني يا ثريا.

-ولكنه تجاوز حد الأدب.

أطبقت زوجة الشيخ شفتيها، ثم قالت: هو بيت والده.

-نرحل نحن إذن.

فقالت مسرعة: يا ابنتي، هل أسأت معاملتك منذ قدومك؟ أنت عندي في غلاوة علوان. لو كان يرضيك ألا يزورنا فسوف أتأكد أنه لن يفعل.

انتهى الحديث بينهما بتوتر وغضب مكتوم. طلبت منها عزيزة أن تنسى الأمر ما دام علوان لا يضايقها ولا يحاول أن يراها، ولكن وجوده كان يزعجها. يبدو أن زوجة الشيخ أخبرت زوجها أو ربما اشتكت من تعنت ثريا ودلالها، قالت إن ثريا اعتادت أن تعطي الأوامر في بيت أبيها، وأن تطاع دومًا، وإنها ذات قلب أسود لا يغفر. هدأها زوجها، وأخبرها أنها لا بد أن تحترم رغبة ثريا. استمرت الهدنة بينهما شهرًا ربما. واستمر ابنها يأتي في الخفاء ليزورها. وكلما عرفت ثريا أصابها حنق لا قبل لأحد به.

***

بعد صلاة الجمعة نادى الشيخ على ثريا وعزيزة. أصابها خوف مما سيقول وما سيرغمها على فعله. دخلت عليه ثريا وهي متماسكة وخمارها يغطي وجهها وعزيزة وراءها.

قال الشيخ في ترحيب: اجلسي يا ابنتي. هناك ضيف يريد رؤيتك.

رفعت رأسها وكان هو..محمد، إمام خراسان...الغزالي.

أطرقت جفنها، وزحزحت الخمار بعض الشيء. وجلست أمامه.

فقال الشيخ: الإمام بنفسه يريد أن يطمئن عليكما يا ابنتي.

سأل ثريا عن حالها، فقالت في اقتضاب إنها بخير. ثم سأل عزيزة عن أولادها وزوجها، فبدأت تتكلم بلا توقف، تشكو من غياب الزوج وشقاوة الأولاد والغربة وفقد الأهل، وبقيت ثريا صامتة، تنازع دموعًا تريد أن تتساقط أمامه. أمامه هو فقط كأنه أمها التي فقدتها.

اتجهت عيناه إلى ثريا كأنه أدرك أو كاد، ثم قال: هل بكيت يا ابنة الشيخ؟

وضعت كفها على قلبها، ورفعت مقلتيها لتلتقي بمقلتيه، ولم تدر بنفسها ودموعها تحرق الحلق. كأن الدموع تسير في طريق من القلب للرقبة، ومن الرقبة تتلوى وتعتصر مع الأنفاس، ثم تمكث في الجفون بلا حراك. ترقرقت الدموع في عينيها.

التفت إلى الشيخ الناصري كأنه يترك لها الفرصة للبكاء، ثم قال: ابنك يا شيخ...علوان...كيف حاله؟

كادت تشهق من فزع مختلف. هل يعرف شيئًا؟ كيف له أن يعرف؟ وربما لا يعرف أي شيء، ربما يسأل سؤالًا عاديًا. كيف له أن يقرأ الغيب كل مرة كأنه مطلع على قلبها هكذا؟!

أخبره الشيخ أنه بخير، فسقطت دمعة من عين ثريا، ومسحتها بسرعة من تحت خمارها، وساد صمت ممزوج بشوق صعب شرحه. حل الأمان، وعم الرضا حتى وسط كل الحزن والفقد. رؤيته كانت بالنسبة إليها حلمًا يبتعد كلما مر الوقت. لو كانت تستطيع أن ترجوه أن يبقى دقائق ربما أو لحظات. به عبق الأم واحتواء الأب. في حضرته راحة كأنه يقطن داخل الوريد.

ابتسم، وقال وهو ينظر إليها: لا خجل في الدموع. الماء يغسل كل يأس. جئت اليوم لأخبرك بشيء هام أنت وأختك.

مسحت ثريا وجنتيها بكفها، وكتمت شهقة من باطن النفس.

نظرت عزيزة إليه في ترقب، ومكث الشيخ صامتًا، فقال الغزالي في رفق: أريدكما أن تنتقلا إلى بيت سيدة صالحة عابدة تُدرس القرآن للأطفال.

فقال الشيخ الناصري في ضيق: يا مولاي...تركهما والدهما أمانة عندي.

فقال محمد: كل أهل خراسان يا شيخ أمانة عندنا جميعًا، وعند الإمام قبل أي شخص. ستأتي إليك عابدة تأخذ الأموال لهما كل شهر.

-هل أغضبناك في شيء يا إمام؟ هل صدر مني أو من زوجتي ما

يسوءهما؟

قال محمد: لم يحدث، ولكن الأحوط أن يبقيا في بيت عابدة وأن ترعاهما هي.

فالتفت الشيخ إلى ثريا لأول مرة في غضب، ثم قال: هل شكوت ابني إلى الإمام يا ثريا؟

قبل أن تنطق، قال محمد: يا شيخ، لا تصدق كلمة الإمام فتسأل البنت؟

ارتجف، ثم قال وهو يخفض رأسه: اغفر لي. لم أقصد...ولكني أعامل البنتين كبناتي.

ثم قال محمد وهو يتجه بحديثه إلى ثريا: كم من الوقت تحتاجين لتجهيز أمتعتك أنت وأختك؟

ابتسمت، ثم سقطت دمعة أخرى، ثم ابتسمت، ثم مسحت دمعتها، وقالت: ساعتين، أو أقل.

قالت عزيزة في تذمر: ولكننا تعودنا على بيت الشيخ.

فقالت ثريا في حسم: هيا نفذي ما طلبه الإمام بلا كلمة.

قامت من مكانها، ورفعت رأسها لتودعه، ولكنه قال وهو لا يتحرك من مكانه: سأنتظر.

-تنتظر ماذا يا مولاي؟

-أنتظر حتى تجمعا أغراضكما وتخرجا معي الآن إلى بيت عابدة.

فتحت عينيها برهة، ثم هرولت خارج الحجرة، ووضعت يدها على

خدها، ضربت نفسها برفق حتى تصحو لو كان هذا حلمًا.

قالت لأختها: هل سمعت ما قال؟

-سمعت.

-كيف عرف بقصة علوان؟

-ربما لم يعرف.

-ولكنه يعرف كل شيء. يحمينا يا عزيزة.

-الشيخ الناصري هو من يتولى مسئوليتنا ويرعانا.

-ولكن الإمام هو من ينقذنا دومًا.

-ثريا..لا تعلقي الآمال حتى لا تقع فتنكسر، وأنا مرهقة لن ألملمها من الأرض.

عادت ثريا إلى الحجرة، ثم نظرت إليه من النافذة الصغيرة. مكثت ساعة كاملة تنظر إليه؛ إلى السحر الذي يتفرع من هيبته، والبريق الذي يطفو على السطح ويتناثر حول عينيه، إلى حركاته وسكناته، إلى جماله وبهائه، إلى أنفه المستقيم وفمه المتقن، وشفتيه اللتين تفتنان دون أن تتحركا. استغفرت ربها على شوق تكتمه عامًا، فيفور ويتفجر كالبركان أعوامًا.

هربت الأنفاس، فعادت لاهثة، وأخبرته أنهم جهزوا كل شيء.

هل يسير بجانبها أم تتخيل هذا؟ يجتمع الناس حوله كلما حرك قدمًا، هذا يريد رأيه، وذاك يريد كلمة، وآخر يريد تقبيل يد العالم الفذ، يعاملهم بجلال ورفعة. ينزع يده، ويحترم كل مقبل متحمس

لرؤيته. سار بجانبها بلا كلمة حتى وصلوا إلى بيت عابدة. اتسع العالم حوله.. لأول مرة تصبح الروح حرة وهي تسير بجانبه هكذا، لا هي ترى أختها ولا الخدم والحراس. اجتمعت الدنيا كلها في عينيه. لو لم يصلوا! لو كان بيت عابدة في مكان أبعد بعض الشيء!

بلا إرادة اتجهت بعينيها إلى وجهه حتى وهو لا ينظر إليها. نظر إليها فجأة كأنه لاحظ ربما، ثم أدار عينيه في صرامة، وقال بلا مقدمات: لا بد أن تتزوجي، تعرفين هذا، أليس كذلك؟ لا يمكن أن تبقي بقية عمرك وحيدة يا ابنة الشيخ.

لم تتوقع كلماته، عقدت حاجبيها حتى لا تبكي من جديد. ثم أكمل: الزواج سنة أيضًا. الزواج من رجل صالح يرعاك ويحميك. إذا سمحت لي أن أقترح عليك اسمًا أو اسمين تختارين منهما.

تساقطت الدموع رغمًا عنها. لم ينطق. قال بعد برهة: سأطمئن عليكم دومًا. أنت هنا في أمان. دومًا في أمان.

***

لا بد من تصنيف الأفكار وغربلتها، فالمعاني تختلط عليه حتى وهو في هذه السن. ثريا!

قام من نومه، وذهب إلى حجرة مكتبته، هنا كتب والدها التي نسختها. ترى هل أكملت قصة الأسد والغواص؟ ماذا حدث للغواص يا ترى؟

صاحب الخط يتقن المسافات بين الحروف وانحناءات القلم وثباته. يتجاهل ميل القلب دومًا، لا يثق به، ولكن العين تألف هذا

الخط وهذه الحروف. هو كتابه وهي كلماته، ولكن خط ثريا يعطيها لونًا مختلفًا ويضيف إليها صوتًا واسمًا، ثريا. طوى صفحة وراء صفحة. لم يكن يبحث عن كلماته هو. كان يود أن يجد بعض الكلمات المتناثرة على الهامش. لم يجد. أو لم يجد في البدء. بدأ يطوي الصفحة وراء الصفحة في عدم صبر كأن الهوامش ستشرح له ما عجزت الكلمات عن شرحه. هذا كتابه «الوجيز»، وهذا «البسيط»، وهذا «المنخول»، ثم هذا كتابه «الوسيط». لا ينحرف قلمها ولا يفتر. هو الثبات ما يعجبه والصدق والكبرياء، ثم قصة على الهامش كتبتها ابنة الشيخ..

وجد غايته وسط كتاب «الوسيط». قرأ الهامش، هذه المرة هناك عنوان مكتوب بخط كبير يسيطر على كل فراغ:

«الأسد والغواص»

ابتسم ثم أكمل القراءة..

«سأل الملك الأسدُ الثعلب الغواص عن سر تسميته بالغواص».

قال الأسد الملك: «فلم سميت غواصًا؟».

قال الثعلب العالم: «لغوصي في المعاني الدقيقة واستخراجي أسرار العلوم الخفية، ومَنْ أكثر من شيءٍ غرِقَ به».

ثم أكمل الثعلب الغواص في حماس وهدفه أن يقترب من الأسد، وقربه من الملك أصبح واجبًا وضرورة: «اجعلني أعرض عليك عقول الناس وآراءهم وعلومهم وأخبارهم، وأفتش لك عن زبد العلم والحكمة، فأباشر المشقة في البحث، وتنال أنت المنفعة به، كالغواص

الذي يقتحم اللجج ويلجج ليستخرج للملك الدرة النفيسة والجوهرة الثمينة فيأخذها الملك عفوًا».

وافق الأسد الملك على مصاحبة الغواص والاستماع إلى علمه وحكمته. ولكن صديق الغواص لم يزل يحذره من هذه العلاقة وينصحه قائلًا: «تذكر أن طبع الملوك غير طبع العلماء، فلا تُحمِّل الملك طباعًا لا يعرفها. واحترس في معاملتك معه، لا تتفوه بالكثير ولا القليل، فكل كلمة لها أجر أو عقاب».

لم تكمل ثريا حكايتها بعد. ولا يعرف الغزالي ما حدث للغواص مع الأسد الملك. ترى هل نصحه فاتبع الملك نصيحته؟ هل غرر به أعداء الملك فانتهى الأمر به مقتولًا أو سجينًا يا ترى؟ لم يعرف قط أن النساء تكتب القصص. وهذه قصة غير كل القصص؛ لأنها عنه هو. أدرك هذا منذ البدء.

أعاد على نفسه كلمات كتبتها ثريا عن الغواص «ولكن الغواص مع علمه ورأيه وأدبه كان متكبرًا، واثقًا في فطنته، يجد لنفسه فضلًا على غيره من العقول. وكانت عيناه تنظران إلى ما بعد الغابة وبعد أرض الأسد، فطموحه لا قبل لأحد به، حتى هو لا يدرك حجم أمنياته».

ابتسم لا يعرف في عتاب أم في دفء. تهتم ابنة الشيخ بأمره، هذا أكيد، ولكنها ترى فيه غرورًا ودعة، راحة وثراءً ورغد عيش. أغمض عينيه وتذكر، كان يجري مع أخيه عند النهر في طوس، الشمس تتبعهما وتضحك على قدرتهما اللامتناهية. لا يتذكر حينها لو كانوا أغنياء أم فقراء، كان يملك كل ما يريد. مع تقدم العمر أصبح للحرير

ثمن، وللزخرف حاجة، وللذهب ضرورة. كيف للطفل أن يستغني، وللرجل أن يحتاج؟ تتهمه بالرفاهية والغرور ابنة الشيخ، ثريا... ويعرف هو أنه يحتاج إلى أن يفهم أكثر، ويقرأ ما بين السطور.

***

ذهب لزيارة الوزير ليعزيه في موت ابنه. يقولون مات مسمومًا. خرجت الإشاعات تقول إن السلطان نفسه دس له السم؛ لأنه لم يجرؤ على محاكمته على قطع لسان الوالي، ثم قتله.

لأول مرة يلاحظ خطوط العمر على وجه الوزير، وإرهاق تقلب الأيام، وإعياء رؤية الموت. الوزير يعرف أن من قتل ابنه هو السلطان السلجوقي. قال محمد وهو يدرك حجم الغضب داخل الوزير ويعرف وطأة الغضب على القلب وتهتكه لكل الأطراف: مولاي مرهق اليوم. أتركه ليستريح.

أشار إليه نظام الملك، ثم أمره بالجلوس أمامه. نظر إليه برهة، بلا كلمة، ثم قال: محمد الغزالي الطوسي. أتعرف ما الذي جذبني إليك منذ أول لحظة؟

قال: كرمك يا مولاي.

-لا. لم يجذبني إليك كرمي، ولا عقلك الفذ، ولسانك الذي يهزم أعتى الجيوش. ما جذبني إليك هو نظافة قلبك. تمنيت أن أنجب مثلك، ولكن من يُربيّ وسط الأسود لا يتوقع أن يصبح ابنه ثعلبًا أو غزالًا. أرى فيك ابنًا، والأهم أني أرى فيك نفسي.

-أين أنا منك يا وزير؟!

-من عرف الوزير فرح. المعرفة دومًا سعادة. هل تحبني يا محمد أم تفرح بمعرفتي فقط؟

فاجأه السؤال، وأجاب بصدق: أحبك.

ابتسم نظام الملك، ثم قال: ولكنك لا تحب كل أفعالي. ترى أني قاسٍ أحيانًا، وطامعٌ بعض الوقت.

قال مسرعًا: حاشَ لله أن أقول هذا يا مولاي.

-قلت لك: كنت أتمنى أن أصبح مثلك؛ أن تشغلني العلوم وأبحث وأكتب، ولكنني لو فعلت يقطعونني قطعًا صغيرة، ويلقون بي إلى الضباع. كلٌّ ميسر لما خلق له يا محمد. لا تحكم على الوزير بما ترى دون أن تجرب أو تتذوق.

-يا مولاي، مَنْ أنا لأحكم عليك؟! رزقني الله بك فأصبحت أبًا لي.

ابتسم نظام الملك، ثم قال: السلطان ملك شاه يقدرك، وخليفة بغداد يحترمك. لا تشغل بالك بوفاتي لو جاء الأجل. لديك من يحميك.

-الله هو الحامي يا مولاي. فليمتد عمرك لتعطي وتعدل.

-توقفت عن شرب الخمر. ادع لي أن أستمر الليلة أيضًا.

كتم محمد ابتسامته، ثم قال: تستطيع يا مولاي.

***

الغزالي استطاع، نعم استطاع أن يجعل من الوزير رجلًا أفضل. يتكلم معه، ويجادل أمامه، فيضيء بداخله شموعًا قد أطفأها الظمأ

والطمع. راضٍ هو عن نفسه اليوم لأنه استطاع، ولكن هناك رجالًا تمكن الظلام من شغاف قلوبهم، فلا مفر من محاربتهم. ومن هؤلاء منصور، زميل الدراسة.

منصور أصبح قاضيًا يفتي ويحكم، ولكنه لم يتوقف عن شرب الخمر، والهوس بالجواري، ومطاردة الأغنياء. ها هو يمتلك ألف وجه وخمسمائة قناع، عندما يرتدي عمامة القضاء يرتدي وجه العدل ويقتنع به، فيحاول أن يحكم بالشرع، ويسترجع كلمات من كتاب الله وكتب الفقهاء، ولا يستشهد بالغزالي أبدًا على الرغم من أنه شافعي المذهب مثله. ليلًا يتملكه وجه رجل يستهتر بكل الأرواح والملائكة. يضرب جارية حتى الموت، أو يجلد خادمًا. يعامل زوجته بحرص ورسمية فهي ابنة أحد القضاة، ولكن لا يقترب من فراشها، ولا ينظر إلى وجهها. أنجب أربعة أولاد واكتفى منها. يجتمع مع بعض الرجال ليلًا ليلعبوا ويقامروا، يروحون عن أنفسهم من عناء الدنيا وشرورها. ولم يزل محمد الغزالي يؤرقه ويستفزه. فقوته أمام الجموع وطلاقة لسانه وعزة نفسه وغروره لا قبل لأحد بها. عندما ذهب مع جماعة من القضاة للقاء الغزالي أبقاهم أمام بيته ساعتين، ثم أذن لهم بالدخول في عدم صبر، لم يتكلم معهم سوى عشر دقائق لا أكثر، ثم تحجج بعمله، ولم يسمح لهم بالدخول عليه بعد ذلك.

جلس منصور بين أصدقائه يحكي لهم: الغزالي كان يتيمًا، لا عزوة له، ولا قبيلة، ولا أموال، ولا مناصب. جاء إلى نيسابور يجر رأس أخيه ويحميه من أكابر القوم. وصل إلى ما وصل إليه بمكره لا أكثر. لا يستحق كل هذا.

تأكد الغزالي من أنباء ولكنه لم يتجاهل كغيره. سمع عن مقتل

جارية في بيت القاضي منصور، ومقتل صبي في بيت القاضي الدهداني، والمقامرة في بيت الفقيه الشنوي. ذهب إلى قاضي القضاة، جلس معه ساعات، أخبره فيها أنه يعلم الفقه، ويدعو الناس إلى طريق الله، ولكن لو كان الفقيه نفسه يزني ويفسق في الأرض فكيف للعامي أن يعتدل ويتوب؟! طلب منه أن يعاقب كل من أخطأ حتى ولو كان قاضيًا، استمع إليه القاضي في بعض الحذر. فهذا هو الإمام من يعرف الطريق إلى الوزراء والسلاطين. ثم أمر بمساءلة كل هؤلاء، ولكن منصور ادعى أن من قتل الجارية هو حارسه بالخطأ، ودفع الدية عن حارسه، وانتهى الأمر.

ولم ينس منصور من أزعجه كل هذا الإزعاج، وجعله يقف متهمًا أمام قاضي القضاة. لم ينس لمحمد الغزالي نقطة ضعف واحدة لا يعرفها سوى منصور، ومن عاشر القوم يدرك هفواتهم. كانا معًا سنوات حتى ولو لم يكونا صديقين. الانتقام لا يكون من محمد الغزالي، بل من قرة عينه وموضع لينه؛ أحمد أخيه.

***

يدرس الغزالي اليوم، وعقله يتوق إلى تحقيق حلم واحد. يتقن التفاصيل الفقهية، ويجد فيها متعة المسائل الحسابية. في مسائل الفقه التفاصيل في طياتها ثواب أو عقاب. يتقن الغور في أعماق التفاصيل، ويستمتع بالنتائج المنطقية. هي نتائج تعطي العقل الأمان. تثبت أنه قادر على معرفة الحقيقة، ولكنه ربما يجهل الطريق إليها. أعطى مسألة فقهية لطلابه، وانتظر منهم النتيجة. سأل طلابه قائلًا: إذا أنجب المسلم ابنين فقال أحدهما: مات أبي كافرًا. وأنكر الآخر ذلك، فكيف يوزع إرث الأب؟ هل يجوز للابن الذي أنكر إسلام

والده أن يرث ماله؟

تهامس الطلاب بعضهم إلى بعض، ثم قال أحدهم: لا يرثه يا إمام، ويذهب إلى بيت المال؛ لأن الابن أقر بكفر والده، والابن مسلم.

ثم قال آخر: يرثه يا إمام؛ لأنه ربما قال هذا عن ضلال، وقد علمتنا أن للناس أقوالًا وأحكامًا على المذاهب ليست هي عين الحقيقة، فربما لا يتقن الابن الحكم على والده أصلًا.

هز رأسه بالإيجاب، ثم قال: كل طالب منكم أعطى حكمًا واحدًا مع أنني كنت أفضل أن تبدءوا بتحليل المسألة وأحكامها؛ لأن الحكم فيه قولان، وليس قولًا واحدًا. نبدأ بالإمكانيات والإجابات الممكنة، ثم نرجح نحن واحدة. هذا منهج لا بد من استعماله في الفقه. أنتما الاثنان على صواب، ولكن المرجح عندي هو أن يسأل الابن عن تفاصيل اتهامه لوالده، ويفسر هو لِمَ ادعى عليه الكفر، فإن أقنع تفسيره الفقيه تعطى حصته لبيت المال لأنه لا يريدها، ولكن إن لم يقنع كلامه الفقيه فلا بد أن يتسلم الإرث.

تهامس الطلاب استحسانًا لتعليم الأستاذ. ولكن الأستاذ كان شاردًا. يعرف منذ عدة أشهر أن حلمه يكاد يقترب من التحقيق. واستدعاء الوزير له اليوم قد يكون لتحقيق الحلم أو نسيانه. لم يزل القلب يتوق إلى الوصول إلى بغداد، ولم تزل العينان تتضرعان إلى النجوم، وتطمح إلى القبض عليها والتحكم فيها. يعرفه الوزير، رافقه منذ البدء. التقت العينان في صمت. عبس وجه نظام الملك برهة، ثم قال: محمد، هناك اثنان من مدرسي المدرسة النظامية لديهما الخبرة والمعرفة. ربما ليس لديهما سرعة بديهتك، ولا عبقرية ذهنك، ولا

قدرتك على بلورة الفكرة وإنارتها، ولكنني لا أستطيع أن أزحزحهما عن مكانهما. لو فعلت يقولون نظام الملك يحب الفتى الطوسي، ويفضله على كل الشيوخ. الحسد سيتمكن منك حينها، والوشايات ستتساقط على رأسك. بغداد حلم بعيد. أريد أن أخبرك لأني أعرف كم تتمناه. هل تفهمني؟

تحكم في إحباطه، وابتسم، ثم قال: الأمر لله يا مولاي، يفعل الخير.

صمت الوزير، ثم قال فجأة في حماس: ولكن لا أحد في كل الأمة مثل محمد الغزالي، حجة الإسلام الذي يحفظ داخل قلبه كل الدين؛ لذا كان يجب إزاحة المدرسين، وإعطاء منصب إمام بغداد إليه هو وحده، ولقب مدرس مدرسة النظامية في بغداد له هو وحده..

فتح عينيه، فضحك الوزير، وفتح ذراعيه قائلًا: تعال هنا أعانقك يا بني...وأبارك لك يا إمام بغداد!

عانقه بصدق، وأحبه ليس فقط لأنه حقق كل أحلامه، بل لأنه صدقه، ووثق به. سنون مرت، كبر فيها الوزير وأصبح الفتى رجلًا، ولكن لحظات الألفة بينهما لم تتزحزح، ولم تتغير طريقة الوزير في لعب الألعاب، ولا طريقة الفتى في تفادي السيوف، والالتفاف حول الدماء والطغيان.

***

ليلًا سبح مع النجوم دون أن يذهب إلى الصحراء. هذا أسعد يوم مر عليه منذ وُلد. لحظة تقدر بعمر بأكمله. آه يا أحمد لِمَ غبت؟! لِمَ لم تشاركني هذا الانتصار يا ابن أمي؟ من اليوم يا أخي لم نعد يتيمين

ولا غريبين. الأماني أصبحت في قبضتنا، والدنيا بين راحتينا، باعنا طويل والسحاب لا يفلت من الأصابع. آه يا أحمد! لم تركتني؟ مَنْ أشارك في هذه اللحظة؟

أمسك بصدره، واستيقظ في أسًى غريب. نظر حوله إلى الظلام الذي يحاصره. يرتعش القلب، ويتملص من بين يديه، يجلس وحيدًا في طرف الحجرة يحتضن قلبه، ولكنه يهرب منه خائفًا. هيا يا إمام انصر مذهبك، ومذهب معلميك، وقريتك، وبلدتك. هيا يا إمام اجمع شمل الأمة على كلمة سواء، وأنت لا تعرف الكلمة، ولا فك رموز الأحرف. أي جهل يتملكك اليوم يا غزالي؟! وأي شك؟ هز رأسه كأنه يطرد الوساوس من الرأس. لم ينم باقي ليلته. في الغد يسعى لزيارة أحمد. أحمد دومًا يملك الدواء. به رائحة الأم، وقوة الأب، واندفاع براءة الملائكة. أحمد... لِمَ لا تمر الساعات؟ لِمَ تثقل وتضغط على النفس هكذا؟ انتظر أول شعاع للشمس ثم خرج.

انقبض القلب صباحًا، وشرد الذهن. رأى أمامه صورًا قبيحة للبشر حاول أن يطردها من سريرته، وهو يقول لنفسه: ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾. ها هي الحقيقة ما إن تدنو إلا وتبتعد، وها هو المُعلم يتوه في حروف اليقين وكلمات الحق. أغمض عينيه وفتحهما، ثم استمر في درسه.

ما إن انتهى من درسه حتى نادى على الحارس، وسأله عن رسالة أخيه التي ينتظرها منذ أسابيع. لم يعد يسمع منه أي شيء، حتى رسائله القصيرة توقفت. عندما وجد الحارس حائرًا حيرته، امتطى فرسه عازمًا الرحيل إلى نيسابور. فكيف يترك خراسان دون أن يودع أحمد؟ بل كيف يفترق عن أحمد من الأساس؟ سيقنعه بأن

يرافقه إلى بغداد. سيفضي بعضهما لبعض. من جمعتهما الأمواج ينبغي ألا تفرقهما المدن والأزمنة. ألم تمتزج دماؤهما وأقدارهما في الماضي؟ لم يتوقف في طريقه إلا مرات قليلة، يريد رؤية أحمد في أسرع وقت. وعند الوصول إلى بيت أحمد لم يجده.

يقولون اختفى أثره منذ أسابيع. تملكه غضب ممتزج برعب، ولكن عقله دله. البحث يكون حيثما يوجد منصور. جمع القضاة، والشرطة، والحراس. منصور يعرف ما حدث لأحمد. بحث كأنه تحول إلى جندي في لحظات. في غضون نصف يوم جاءه الخبر. أحمد في السجن. همس الحارس في أذنه في عبوس: يحتضر يا إمام. الشيخ أحمد يحتضر.

لم يستمع لباقي الحكاية، امتطى فرسه، واتجه صوب أخيه.

***

قال في حدة: كيف لم أعرف؟

-القاضي منصور فعل هذا في سرية تامة. لم يعرف أحد.

-يأمر بسجن شقيق الإمام في نيسابور ولا يعرف أحدا! أي هراء هذا؟!

-كأنه أخذه من بيته ليلًا، ثم ادعى أنه قذف العلماء، وأساء إليهم، وجلده، وأبقاه في السجن، فتسممت الجروح، كل هذا حدث في اليوم نفسه يا مولاي. أقسم لك حتى السلطان لا يعرف. يبدو أن منصور يريد قتل أحمد بعد إذلاله.

أملى الحارس كتابه على الوزير في نيسابور قبل أن يصل إلى

أخيه. إمام خراسان يريد لمن ضرب أخاه أن يحاكم اليوم أمامه.

عندما وصل محمد، لم يتنفس. أمر الحارس بفتح باب السجن، فتردد الحارس برهة، ولكنه فتحه، وانحنى، وقبل يد الإمام. نظر لأخيه، لم يتعرف إليه، كان يهذي بكلمات غير مفهومة، وينتفض من حرارة جسده. حمله بين ذراعيه، وانحنى ليخرج من باب السجن، قال الحراس: نحن نحمله عنك.

فقال: أخي لن يحمله غيري.

أوقفه الحارس في تردد، ثم قال: يا إمام، أمر القاضي..

قاطعه الغزالي: ابتعد عني الآن. ستحاسب، ويحاسب قاضيك.

تراجع الحراس، والعزم في عيني محمد يرهب كل الجيوش.

أمرهم بإحضار كل الأطباء. ارتجف لأول مرة، ربما انحنى أمامه، ونظر إليه، وضع يده على جبهته، ثم قال: أحمد..

ارتعد أحمد ولم يُجب. دخل عليه طبيب واثنان وثلاثة. غطى محمد وجهه بيديه، أدرك عذابات الفقد، وندم النفس على إهدار الساعات بلا لقاء. كانت أول مرة يخترقه إحساس أن ألم النفس أعنف من آلام البدن، وأن نار النفس يمكن أن تحرق بلا وجود للبدن في الأساس. هي حقيقة لم يعرفها وها هو عرفها، إن كان يبحث عن الحقائق فألم النفس يُغرق، أي ألم يصيب الجسد هو ألم لا ينتهي، هو خالد بخلود الروح. فلو جلدوه مائة جلدة اليوم كان سيكون أفضل حالًا من الآن. لوم ممتزج بأمل، وتعنيف للنفس على فوات الأزمنة، زجر الذاكرة على اجتياحها كل العروق والأوردة. سمع صوت أحمد،

كان طفلًا حينها يستغيث، ولم يكن هو موجودًا. صرخ وهو يغرق: محمد، لِمَ تركتني؟

سمع صوته وهو يستغيث: لأنني أغرق أنا نفسي.

ارتطمت لحظات الغفوة بالكوابيس، جلس أمام أخيه ثلاث ليال، مدد ظهره، ورفع رأسه، ثم نادى على الحارس وقال: ماذا حدث لمنصور؟

تردد، ثم قال: ربما لو أتيت أنت بنفسك إلى الوزير..

انتفض من مكانه، ثم قال: الآن نذهب إليه.

لقاؤه بالوزير كان لقاءً مدروسًا رتب كل كلماته، بعد الدعاء والإطراء، طلب منه في حزم أن يعاقب منصور. وعندما تردد الوزير، أخبره بلا تردد أنه لو لم يفعل فسيضطر إلى الكلام مع الوزير الأعظم، ثم السلطان السلجوقي نفسه.

فهم الوزير التهديد الضمني، ثم قال: يا إمام، هل يهمك أمر منصور إلى هذا الحد؟

قال في حسم: يعاقب وأنا هنا في نيسابور، أراه معاقبًا قبل أن أرحل من هنا. يجلد ثمانين جلدة في حضوري.

لم يبرح مكانه حتى تم القبض على منصور، وجلده، وإلقاؤه في السجن. ثم عاد إلى أخيه، وهو يخاف مما سيسمع من الأطباء، لم يسألهم، دخل عليه، ثم هزه، وقال في عتاب: أفِق يا أخي. هذا يكفي.

ولكنه لم يفق. نظر إلى الطبيب في عدم صبر، ثم قال: لِمَ لا ينطق؟

قال في عبوس: الأمر كله لله. ننتظر...بعض الوقت..

في لحظات أصبحت كل الأحلام تافهة، مثيرة للشفقة. تُرى لو كان أحمد بلا أخ، ألم يكن سيسعد ويعيش في سلام؟ تُرى هل ينقذ أحمد يا ترى أم يُغرقه؟ تُرى هل يتسع هذا العالم لبراءة أحمد، وطموح الإمام دون أن يفرق بينهما الدهر؟

بعد عدة أيام، أفاق أحمد وطلب شربة ماء، فأعطاها له، وأسنده ليعتدل في جلسته. ابتسم أحمد في إعياء، ثم قال: تأخرت هذه المرة.

حاول أن يلملم حيرته وقلقه، قال في ثبات مزعوم: هذا ما قلته في المرة الأخيرة. أنا لا أتأخر يا ابن أمي.

-أجلت سفرك لبغداد من أجلي، مع أن حلمك يسجن جوانحك، ولكنك تحبني على ما يبدو. تخاف ألا تصل إلى النجوم، وتتوقف عن الطيران من أجل أحمد. أهي وصية أمنا يا ترى؟ كل مرة تكاد تفقدني ولا تفعل لأنك أسرع من الأمواج دومًا. غواص تتقن السباحة.

-ماذا فعلت؟ ما هي الكلمات التي أدت بك إلى السجن؟ قالوا إنك جرحت العلماء بأشعارك.

أغمض أحمد عينيه وأنشد:

«أخذت بأعضادهم إذ ونوا

وخلّفك الجهد إذ أسرعوا

وأصبحت تهدي ولا تهتدي

وتُسمع وعظًا ولا تَسمع

فيا حجر الشحذ حتى متى

تسن الحديد ولا تقطع

هي أشعار يا أخي لا أكثر. كنت أنظر إلى حجر الشحذ، رأيت كل امرأة في نيسابور تأتي لتسن السكين عليه، فيصبح السكين جاهزًا للذبح، ولكن الحجر لا يذبح، ولا يقطع، كالإمام الذي يدعو الناس للهداية ولا يهتدي، تفهمني يا ابن أمي؟

أطال نظره إليه: فهمها الشيوخ على أنك تسيء إليهم يا أحمد.

-لم أكن أقصد الشيوخ يا محمد. كنت أقول: «أصبحت تهدي ولا تهتدي» وأقصد شخصًا قريبًا من القلب.

تجاهل مقصده، ثم قال: منصور يتحكم في نيسابور، لا بد من القضاء عليه وعلى كل شر.

تمتم، وهو يغمض عينيه: الإمام الغزالي يستطيع. دومًا يستطيع. بين يديك سفينة على وشك الغرق تنجيها بكلماتك.

ابتسم، وهو يضع الماء في فم أخيه مرة أخرى، ثم قال: الغزالي لا يستطيع القضاء على الشر. إذا كان الأنبياء لم يستطيعوا، فكيف يستطيع الغزالي؟

قال أحمد بعد برهة: عندما جلدوني لم أشعر بالألم. كنت مستغرقًا في الحب.

-أي حب؟!

-وفي لحظة بعد برهة توقف استغراقي فيه، فاخترقت الضربة الأحشاء، وصرخت بأعلى صوتي. كلما استغرقت سلوت عن الآلام، وكلما فكرت في نفسي هلكت.

-عن أي حب تتكلم؟!

-الحب الحقيقي، هناك حب واحد تدنو معه كل القلوب وتلين.

نفخ كأنه يزفر آخر غيظ في قلبه، ثم قال وهو يتجاهل كلماته: توخَّ الحذر في وعظك، لا تقلب علينا القلوب.

-افتقدتك يا محمد!

-ماذا قلت؟

-قلت إنني افتقدتك...كنت أحيانًا أتمنى يومًا نتسلق فيه الجبال معًا، نخاف ونطمئن، نضحك ونتألم.

-تعال معي إلى بغداد.

-لا قبل لي بالملوك.

-ابق معي. أحتاج إليك.

-محمد لا يحتاج إلى أحد سوى عقله، ولكن الشك لا يتركه. أعرف. تتكاثر الأسئلة داخلك كما الأمراض الخبيثة. أما أنا فلا أسئلة لدي. الحب وكفى. الشك لم يتركك منذ أعوام، منذ صبانا وأنا أرى العذاب في مقلتيك. ولكنني أعاني أنا أيضًا من خوف لا يبرحني.

نظر إليه محمد ينتظر أن يكمل كلامه فقال: يلازمني حلم في اليقظة والنوم كأنني أغرق وأبحث عن أخي فلا أجده، يتجلى لي من

بعيد رجل آخر يشبهه، ولكنه ليس هو، لا يستطيع أن يسبح معي، ولا أن يمد قلبه فيمسك بقلبي. منذ زمن وأنا أرى هذا الحلم.

-ربما تكون أنت من ابتعد. من يدري؟! ربما تكون امرأة فرقت بينك وبين أخيك.

ضحك أحمد، ثم قال: ليلى كانت وهمًا كما ريم الأمواج لا تروي ولا تسمن من جوع. لم يكن حبًا حقيقيًا. المشكلة هي اللهث وراء الأوهام. ما حدث لي يا محمد صعب وصفه، كنت ألهث وراء السراب، أحسبه ماء، وعندما اشتد العطش لم أجد بدًا من أن ألجأ إليه عاجزًا.. هو وحده.

قال محمد في حذر: لو كنت تتبع كلام الصوفية فلا تتبع الشطحات والأوهام.

-الحب ليس وهمًا. وحبه هو الحقيقة الوحيدة.

نظر إليه برهة، ثم قال في حسم: لا اختيار لك يا أحمد. ستأتي معي، ولو أردت أن تعيش في بيت غير بيتي فلا بأس، ولكنني لن أتركك.

التقت العينان، خالط العتاب الحب، وامتزجت الحدة بالأُلفة، ولم يترك له الاختيار هذه المرة.

فقال أحمد: جئت لأحرسك يا محمد لا لتحرسني.

-ومنذ متى يحرس الصغير الكبير يا أخي؟

-لو كان الكبير أكبر من نفسه، وأعظم من سلاطينه، وأجدر من كل رجال عصره.

***

هناك لقاء مؤجل كان لا بد أن يحدث قبل السفر إلى أصفهان. دخل السجن، فتحوا له الباب، نظر إلى منصور برهة، ثم قال: من الجُبن عدم المواجهة، لو كان لديك خصومة معي فلتنتقم مني أنا، ولكنك لا تستطيع، تدرك حجمك وجهلك، وتغتاظ من إدراكك، فتضرب الملائكة لأنهم لا يلتفتون إلى قاذورات البشر وحقدهم. أحمد ليس أهلًا لعداوتك؛ لأنه ليس منا أصلًا، هو قريب من الملائكة، وأنت قريب من الشيطان. أما أنا فتعودت محاربة الشيطان مرارًا. في المرة القادمة لو نجوت من هذا السجن، فوجه ضربتك لي لأمنع يدك من الحركة بقية عمرك.

قال منصور في مرارة وحنق: أتمنى أن يدرك احمد المسكين أن كل مصائبه بسبب أخيه. كل فشله، وكل حزنه بسببك أنت. هل أخبرتك عن ليلى؟ زوجته كانت تريدك أنت في البدء، كل الناس تريدك أنت.. أنت من قضى على أحمد، وليس أنا. قتلته يوم ضحيت به من أجل أحلامك.

لو كانت الكلمات أصابت القلب فقد وضع ستارًا على عينيه، لم يبد عليه أي تأثير. قال محمد في هدوء: من المؤسف أن يفني رجل كل حياته حولي، يقتفي أخباري، يبحث عن شيء يضايقني أو يزعجني! ولكني مطمئن لأن الذبابة دومًا تحوم حول الوسخ حتى لو مرت أمام وجه الشرفاء. ستبقى في سجنك حتى بعد أن تخرج من هنا؛ لأن الظلام يحجبك عن الحرية.

***

تأخر الغزالي في الرحيل إلى بغداد، يبدو أنه أعطى بعض الوقت لمن يحقد عليه، ويحسده. هرول ثلاثة من الشيوخ إلى الخليفة نفسه، يشكون الوزير الأعظم، يدّعون أنه يفضل الشاب الذي لم يتعد الثالثة والثلاثين على كل شيوخ العراق والشام. كيف للغزالي أن يتحكم في مدرسة بغداد، ويباشر، ويشرف على شيوخ في عمر والده وجده؟! هذا لا يُرضي الخليفة. جاءته رسالة من أحد وزراء الخليفة تطلب منه أن يفكر في الأمر؛ لأن الشيوخ لا توافق على قدومه، بل أخبره الوزير أن المدرسة ستغلق أبوابها في وجهه لو جاء، وأن بغداد غير نيسابور. بغداد قلب الأمة، والمخاطرة بداخلها تكلف الرجال كل شيء. قرأ الرسالة في بطء، ثم طواها، ولم يعقب. بعد يومين جاءت رسالة أخرى، وثالثة، ورابعة. مائة رسالة إما من شيخ، أو أمير، أو وزير. يعرفون محمد، وكتبه في الفقه، ولكنهم لا يقبلون أن يتحكم في دار السلام.

بعد مرور أيام ابتسم لنفسه، وذهب إلى نظام الملك، قال له في حسم: لو أمرني الوزير ألا أذهب فلن أذهب، لا أريد الفتن والصراعات. هذا ليس دوري يا مولاي.

ولكن الوزير قال في تحدٍّ: ستذهب، وتثبت لهم أنك أفضلهم لأنك تعرف أنك أفضلهم بالفعل. أليس كذلك؟

لم يجب. ابتسم نظام الملك، ثم ربت على كتفه، وقال: هل تخليت عنك من قبل؟

قال: لم يحدث.

-ولن يحدث.

خرج محمد الغزالي من عند نظام الملك وهو يبتسم. يبتسم لأنه أتقن اللعب، لأنه أصبح اليوم حصانًا في لعبة الشطرنج، وربما يومًا يكون الملك. منذ بدأت الرسائل تنهال عليه من بغداد تهدد وتتوعد وهو يعرف. يعرف مصدر الرسائل وسببها. ويدرك بعد مرور كل هذه السنوات كيف يتلاعب نظام الملك بالناس من أجل متعته الشخصية أحيانًا لأنه يعرف قدرتهم على الخبث والخيانة. الرسائل كلها، الرسائل المائة لم تكن من وزراء الخليفة، ولا أمراء الخليفة، وليس للخليفة دور في هذا الأمر. كل الرسائل التي وصلته مصدرها واحد، الوزير نظام الملك، من أخذه في كنفه ورباه. هذا اختبار جديد، ولعبة مختلفة. كاد الحصان أن يفقد حياته لو لم يتقنها. الأمر هو أن نظام الملك أراد أن يتأكد من ولاء الغزالي وعدم تغيره عليه عندما يرحل إلى بغداد، ويصبح تعامله مع الخليفة العباسي. أراد الوزير نظام الملك أن يثبت للفتى الطوسي أن مصيره دومًا مربوط بولائه له هو. أدرك الغزالي منذ البدء منذ جاءته الأنباء وتوالت الرسائل. وعرف أيضًا أن الوزير يحتاج منه إلى زيارة ليخبره فيها أنه مستعد أن يتخلى، وأن المنصب لن يغيره، وأنه لم يزل يدين إليه بالولاء.

ابتسم الغزالي وهو في طريقه إلى بيته. تكلم مع نفسه، وهو يقصد الكلام مع أخيه: آه يا أحمد! لو أن روحك الصافية تعرف كيف تنفذ الأحكام هنا..يا أخي...ليتك تستيقظ من غفوتك لتدرك أن الهفوة مع هؤلاء تكلفك البدن والقلب معًا. وأين الحقيقة من هذا كله؟! هذا حزب يحب السلطان السلجوقي ويجد بين يديه السعادة، وهذا آخر يدين بالولاء للخليفة العباسي، وهذا ثالث يكفر الشافعي والحنبلي، وهذا يكفر الحنفي والمالكي، وهذا يكفر من لا يتقن فن الكلام ولا

درس كلمات الأشاعرة، وآخر يرى في كل هؤلاء نقصًا في القدرة على استعمال العقل، ويجد في مذهب المعتزلة تفوقًا للفكر والعقل، وآخر يبحث عن إمام معصوم، وهنا من يظن أنه ناجٍ وهنا تسعون فرقة أو يزيد لا تدين بالولاء سوى لمذهب آبائها وبيئتها. وها هو يقف حائرًا بين كل هؤلاء. لن ينتمي لأي منهم دون يقين ومعرفة. حتى وهو يقر كل يوم أنه أشعري شافعي. لسانه ينطق بكلام الأشاعرة، وما علمه له أستاذه، ولكن السر في قلبه لا يعرفه أحد.

***

ها هو موعد السفر قد حان. ولكن قصة الأسد والغواص لم تتركه كما لم يتركه كاتبها بخطه المنمق، وقلمه المتقن.

طلب الإمام حضور ثريا وأختها إليه، يريد الحديث معهما قبل سفره.

استكانت ثريا، واستسلمت، ما تتوق إليه مستحيل، وبعد أن أصبح إمام بغداد ابتعد واستقر بعده. غدًا يرحل، واليوم تراه لآخر مرة ربما. عرفت أن الخيال يمكن أن يكون أوضح من الحقائق مجتمعة، وأن الصورة التي تسكن في القلب لا أحد يستطيع محوها.

ما إن دخل حتى خلعت عزيزة خمارها، ولم تفعل ثريا، أبقت وجهها داخل الساتر الشفاف لتحمي وجهها من لظى الشوق.

نظر إليهما برهة، ثم قال: أولًا أطلب العفو على عدم مقابلتكما، ولكني كنت أطمئن عليكما. مرض أخي شغلني بعض الشيء.

فتحت عزيزة فمها في ذهول، ونظرت إلى ثريا. لماذا يطلب الإمام

العفو؟! لا هو مسئول عنهما، ولا هو والدهما!

قال بعد حين: تعرفان أنني سأرحل إلى العراق بعد أيام.

قالت عزيزة مسرعة: نعرف يا مولاي.

قال بلا مقدمات: قبل أن أرحل أريد أن أطمئن على أختك.

ابتسمت عزيزة، وهي تنظر لثريا، ثم قالت: كلنا نتمنى أن نطمئن عليها يا مولاي. أعز الله الإسلام بك.

قال في رفق وهو ينظر لثريا: يا ابنة الشيخ الدمشقي.. أعرف أن الأمر صعب، وأن البلاء عظيم، ولكن رحمة الله واسعة فلِمَ نضيقها؟ لِمَ لا تريدين الزواج؟

فاجأها السؤال المباشر. أطرقت برهة، ثم قالت وهي تتحاشى عينيه: هل يتسع صدرك لحديثي يا مولاي؟

قال بلا تفكير: نعم.

قالت في ثبات لم تتوقعه من نفسها، وصورة أمها المنهزمة أمامها: في بلادنا الزوجة أسيرة لزوجها، والرحمة ليست دومًا من سمات الرجال.

قال دون أن ينظر إليها: الزوجة ليست أسيرة.

تراجعت برهة، ثم قالت والكلمات تخرج في بطء: «إن المرأة لا تستطيع أن تطلق من رجلها بغير إذن وهو قادر على ذلك متى شاء، وما دامت معه فهي لا تستطيع أن تتزوج غيره بينما هو يستطيع، ولا تخرج من البيت بغير إذنه وهو يمكنه ذلك، وهي تقنع منه بطلاقة

وجهه في وجهها وبالكلام اللين وهو لا يرضى بجميع أحوالها، وهي تخدمه دائمًا وهو لا يخدمها أبدًا، وهي تتلف نفسها إذا كان مريضًا وهو لا يغتم لو ماتت».

التفت إليها فجأة، فسقط القلب بين القدمين، وهوت إلى مقعدها. التقت العينان. لم تستطع النطق. ملأت عينيها ببهائه، وأغمضت الجفون، فبقيت الصورة، فالتقطتها لتحيا بها الأيام القادمة وهي على يقين أنه آخر لقاء.

لاح بوجهه عنها كأنه يجد ممرًا آمنًا وسط ضجيج الحيرة. قال وهو ينظر إلى عزيزة: من تقدم لأختك هذه المرة رجل من أصلح الرجال، أعرف أنه سيصونها، أتمنى أن أطمئن عليها قبل سفري.

قالت ثريا في بعض الحنق: لن أتزوج يا إمام.

قال فجأة، وهو ينظر إلى ثريا: الصدق واجب، وأنا أعتبر نفسي مسئولًا عنكما. أريد أن أعرف منك أنت..

نظرت إليه وهي تردد الآيات وتخشى سؤالًا لا تقوى عليه.

ثم قال وعيناه لا تتركان عينيها: أنت لا تريدين الزواج، أهذا بسبب خوفك من الأسر كما قلت، أم بسبب تعلق قلبك بماضٍ لا نعرفه في دمشق؟

لم تتوقع سؤاله. بقيت صامتة فقال: إذا كان سبب عدم زواجك تعلق القلب فأريد أن أعطيك نصيحة. الحب ليس المسيطر على علاقة الزوجين دومًا، هناك أيضًا الألفة والمشاركة، وأغلب الناس تحيا بالألفة والمشاركة، وليس بالحب، وتستمر حياتهم ناجحة.

أتمنى أن تفكري في كلامي.

قالت في حنق: لا.

فقال في دهشة من تحديها له: لا؟!

-إجابتي على سؤالك هي لا. أما نصيحتك يا مولاي فقد سمعتك تقول في أحد دروسك إن الناس مختلفون، ما ينفع واحدًا ربما يضر بالآخر. لكل منهم استعداد مختلف عن غيره.

-وأين سمعت محاضرتي؟

تجاهلت سؤاله، ثم قالت: أعطيتني اختيارين يا مولاي، مع أنك في درسك أيضًا كنت تطلب من الطلاب عدم التقليد والتفكير والبحث عن الدليل. الاختياران خطأ يا إمام.

لو كانت تريد أن تدهشه فقد فعلت، ولو أرادت أن تربكه فربما نجحت، ولكنها تكلمت من قلبها فانحلت عقدة اللسان.

قالت في تأكيد: بعض الإجابات والمسائل تحتاج إلى الأدلة. هذا ما تعلمناه منك يا إمام. هل تسمح لنا بالاستئذان يا مولاي؟

لم يستطع الكثيرون إرباك محمد، ولكنها فعلت. جلس، ونظر إليها ثم قال: اجلسي.

نظرت عزيزة إليه في دهشة، ثم إلى أختها. جلست ثريا، وهي تقلب كفيها في عصبية وعيناها لا تستطيعان أن تتركا عينيه.

ثم أغمضت عينيها؛ لأن الألم كان أكثر من تحملها، لم تعد تدري أرؤيته تشفع لها عند القلب أم تهيجه.

قال في رفق: ثريا..

كانت أول مرة ينطق اسمها، رفعت عينيها إليه، فأكمل: بعد أيام أرحل إلى بغداد، وأريد الاطمئنان عليك أنت وأختك قبل الرحيل.

قالت في مرارة: اطمئن يا مولاي. سمعنا أنك ستتزوج قريبًا من حفيدة الوزير، لو كان هذا الخبر صحيحًا نريد أن نبارك لك.

نظر إلى الحارس الذي يسجل في ذاكرته كل كلمة، وإلى عزيزة، ثم إلى ثريا، وقال: مَنْ تتزوج من إمام بغداد تَشْقَ، فالحمل ثقيل، والابتلاءات متدفقة، وليس كل امرأة تستطيع أن تتحمل هذا الشقاء. أنت رشيدة يا ثريا، لذا أسألك لو كنت تستطيعين أن تتحملي هذا الشقاء. أسألك أنت عن رأيك.

لو ألقى عليها لوحًا من الثلج أو مرر على رأسها شواظ نار لكان أرحم مما قال الآن. لا توقعت الكلمات، ولا أدركت حجم الفرح. الفرح يرج الجسد رجًا كما الحزن بالضبط.

بقيت ساكنة تستوعب ما يقول، فقال: لا توافقين؟

قالت في صوت مبحوح: أوافق.

هل ترى ابتسامته، أم أن كل ما حدث هو حلم تمنته؟ سمعت صوت تهنئة عزيزة وكل الحضور، ولم تسمع منه سوى كلمة أو اثنتين: أشكرك على الزيارة وعلى الصدق.

أشار برأسه لهما لتخرجا.

***

عندما عادت ثريا إلى حجرتها انغمست داخل الفرح كما انغمست داخل الحزن من قبل. لعنت الدنيا، ثم صالحتها، بكت من يأس، ثم غمرها الأمل واستقر. لم تدرك ما يمر من أمامها ولا ما يحدث. تناثرت الكلمات والطلبات والتجهيزات وهي تجمع كل الأمنيات في أمنية واحدة. تريد أن تمكث بين ذراعيه إلى أن تقوم الساعة لو استطاعت، لو سمح لها. تنحت موضعها داخل صدره، وتستقر بين حنايا قلبه. منذ سنوات والأمل موجود رغم الهلاك. لِمَ طلب الزواج منها مرة أخرى؟ هل أدرك حبها؟ هل لامها عليه؟

أيقظتها أختها من غفلة الأمل وهي تقول في حماس: ثريا...التي كانت تنصح أمنا بألا يسيطر الحب وألا يتحكم، ها هي تهيم في حب الإمام! ثُرى كم سيبقى هذا الحب؟! ماذا ستفعلين لو هجرك واتجه لغيرك؟ لا تتوقعي الولاء من رجل.

قالت في حسم: محمد ليس بأي رجل، هو سيد الرجال كلهم.

-ثُرى لِمَ يتزوج منك أنت؟ لا أفهم. أمامه بنات الترك والعرب والفرس، ويختار ثريا!

كتمت ابتسامتها الممتزجة ببعض الفخر، ولم تُجب.

***

جاء الشيخ الناصري لزيارتها، جر معه زوجته على مضض، ثم وضع الأموال أمام ثريا، وقال: هذه أموال والدك لتشتري بها ما تشائين لتجهيز الزواج يا ابنتي.

أخذتها، وشكرته، ولم تتوقع أن يدق الباب ابنه. فتحت له عزيزة،

فدخل وجلس في غيظ، ثم قال وهو يلتفت إلى أمه: هل أخبرتها؟

قالت أمه وهي تكتم غيظها: اصمت. جئت تبارك فقط.

ولكنه قام، وصاح في الحضور: أخبريها أنها يتيمة فقيرة كالأيتام الذين يسكنون الشوارع هنا.

تساقطت الكلمات على رأس البنتين، فلم ينطق أحد. قال الأب في حدة: اخرج من هنا.

ولكنه استمر: كان لا بد قبل أن تبيع نفسها للإمام كما الجواري أن تشكر الشيخ الذي آواها هي وأختها، ولم يلق بها في الشارع كما تستحق.

قام الأب ليدفع بابنه، ولكنه تهرب منه، ونزع الأموال من يدها، وقال: والدك لم يترك شيئًا. والدك مات، وسرقت جاريته كل الذهب وكل الأموال.

ثم مد يده، وأمسك بثوبها قائلًا: ثوبك هذا من أبي، لولاه لكنت تبيعين جسدك في شوارع أصفهان.

أبعدت يده في تلقائية، ثم هوت جالسة على الأرض، لا تتفوه بكلمة من هول المفاجأة. بدا أن الشيخ الناصري مجهد أو مريض، تصبب العرق من جبينه، فأمسكت به زوجته، ثم تمتمت: خيرًا تعمل شرًا تلقى.

صاح ابنه: أنت لا تصلحين لإمام بغداد يا بنت، ولا تصلحين لي. تعرفين ما تصلحين له.

ثم نزع الأموال من يدها، وطواها في كفه، ووضعها في جيبه،

وهم بالخروج، فسمع صوت والده الهين: توقف. أعد لها المال.

أمسكت زوجته بذراعه، ثم قالت: اهدأ يا شيخ. هو على حق. البنت لا تشعر بالامتنان كأننا نعمل عندها. اهدأ، ولا تغضب على ابنك من أجل...

قال في حسم: هذه أموال الغزالي ليست أموالنا. نحن لم نصرف عليهم شيئًا يا ولد...بل أعطانا الغزالي أجرًا شهريًا على مراعاة البنات.

-ماذا تقول؟!

-اسمع يا ولد..اسمعني. نعم مات الشيخ الدمشقي بلا مال، نعم سرقت الجارية كل أمواله. ولكن من أعطانا المال لرعاية البنتين كان الغزالي، ومن أعطانا المال لتجديد البيت وشراء الأكل كان الغزالي، ومن أعطانا أجرًا شهريًا يكفي أن نعيش مستورين كان الغزالي.

أمسكت عزيزة بيد أختها، وجدتها كالثلج. قالت عزيزة بلا تفكير: ولماذا يفعل هذا؟!

-هو شيخ يا ابنتي، ربما أشفق عليكما من مصير مؤلم، أراد أن تحييا بكرامة، وألا تشعرا بأي فرق بين حياتكما قبل موت والدكما وبعده.

قالت عزيزة: أعطانا المال صدقة؟ يشفق علينا؟ كل هذا المال؟ ولكن زوجي كان يستطيع أن...

قال وهو يقوم، وابنه قد تجمد مكانه في ذهول: أقسمت له ألا أخبركما قط طوال عمري، ثم جاء هذا الطائش فأجبرني على الحنث

في القسم.

بعد أن رحلوا، غطت وجهها بيديها، وكلمات علوان جرح ينبض، ولكن نبض الجرح والكلمات لا شيء أمام هذا الفيض والكرم. عزيزة تدعو له بصوت عالٍ، تتكلم بلا توقف: أي رجل هذا؟! يفعل كل هذا من أجلنا ولا يخبرنا. كأنه ملاك يا ثريا. هل سيتزوجك شفقة يا ترى؟!

هو السؤال الأخير ما استقر وذبح. وحتى لو فعل ألا يكفي أن تمكث بجانبه بقية عمرها؟ لماذا يؤرقها الهاجس؟ ولماذا تريد رؤيته قبل السفر؟

***

الغزالي لديه مهمة يريد القيام بها قبل سفره. ذهب إلى أحد مجالس الصوفية. قرأ عنها ودرس مع أخيه على يد الشيخ الفارمذي في الماضي ولم تستهوه. جذبت أحمد، جعلته يحلق في رضًا، ويمحو مرارة الخيانة. ولكن محمد لا يجذبه سوى ما يقتنع به عقله. الغوص واجب، والبحث عن لُب كل فكرة دأبه منذ أصابه الشك المعذب في الصغر.

ارتدى ملابس قديمة، لثم وجهه، ثم خرج ليلًا إلى مجالس السماع. الأشعار في حب الله جميلة، تُحرك القلوب، نعم، ولكن التهتك والمبالغة لم تعجباه. رجال تبكي بصوت مسموع، وآخرون يمزقون الثياب من الوجد والشوق. التفت إليهم في بعض الاشمئزاز، بعض الحيرة، لم يجد نفسه بينهم، ولا استطاع أن يستمتع بالشعر، وهم حوله. ربما لو خرجوا جميعًا، وسمع الشعر وحده كان سينتفع به. ثم تكلم أحد الشيوخ فاستمع إليه، لم يعجبه كلامه، ولا ثيابه التي

أرادها أن تخبر الجميع أنه من الصوفية الزهاد. نظر إلى الخرق الذي صنعه الشيخ عمدًا في جلبابه، والعمامة الخضراء الكبيرة، والكلمات المنمقة، ازداد ازدراؤه وتفشى، ثم قضى كل يومه مع الشيخ، فوجده لا يصلي ولا يصوم، وعندما سأله قال إنه لا يحتاج إلى القيام بالعبادات، فقد اقترب من الله وكفى. عند هذا الحد كان أمامه حلان؛ إما أن يجادل الشيخ ويكسره الآن، وإما أن يرحل، ولكنه رحل وكتب عن الإباحية من الصوفية، من يتركون شعائر الله ظنًا أنهم وصلوا إلى القرب. كتب أن الفرائض واجبة على جميع البشر بلا فرق. كتب عن النفاق والرياء. كتب عن تمزيق الثياب والقلب أسود طامع.

وعندما واجه أخاه بما رأى قال في ثبات: من يطلق على نفسه الاسم ليس بالضرورة من يملك مفتاح الفهم يا أخي، أنت تعرف.

ولكنه حتى مع من حاول منهم أن يقوم بالعبادات وجدهم يتوهون في خيالات أعوامًا بلا طائل.

أخرج كتب الصوفية ليطلع عليها ويحكم بالعدل على فكرهم. بدأ القراءة كلما وافته الفرصة. ها هي كتابات أبي طالب المكي، والمحاسبي، ثم مقتطفات من الشبلي، والبسطامي، والثوري، ورابعة العدوية. سيقرأ بنهم للمعرفة والفهم. عندما يحين الوقت. اليوم يريد أن يتأكد أن ثريا قد بدأت الرحلة إلى بغداد. أخبره حارسه أن ثريا لم ترحل بعد. تريد مقابلته في أمر هام.

***

ثريا حنت رأسها أمامه، ثم أخرجت الدنانير من جيبها، ووضعتها على الخزانة بجانبه، وقالت: كرمك يخجلنا يا مولاي الإمام، ودَينك

من الصعب علينا أن نسدده. لو طلبت منك أن أنسخ الكتب لك مثلًا فهل تسمح لي؟

انحنى، وأخذ المال، ثم وضعه جانبًا، وقال: هل كان هذا سبب إلحاحك في المقابلة، وسبب تأجيل سفرك لبغداد؟

قالت عزيزة مسرعة: جئنا نشكرك، وكلنا خجل..

-لا شيء يدعو للشكر لإنسان، الشكر لله فقط.

لم تستطع أن تنظر إليه، قالت كأنها تتكلم مع نفسها: حدث في الماضي أن طلب أبي منك الزواج بي، ولكن الزواج لم يحدث وكان من الطبيعي أن ينسى الإمام أمر الشيخ وبناته، ولكنك لم تنس ولم تحوجنا للسؤال. أعطيت دون أن تعلن، وأنت تدرك أننا لن نعرف أبدًا. أعطيت وأنت لا تريد شيئًا، ثم عندما تكرمت، وطلبت يدي للزواج لم تصارحني مخافة أن تجرح كبريائي، لم تكن تنوي أن تصارحني قط يا إمام!

لم ينطق. التقت أعينهما، وخارت قواها، قالت في بعض الحزن: من صفات أمثالك الجود سرًا. وهل يمتد الجود إلى الزواج من اليتيمة وحمايتها؟!

-لا علاقة بين ما فعلت وزواجي منك يا ثريا.

قرأ أفكارها كما توقعت. قالت وهي تتحاشى عينيه: أقصد يا مولاي أعرف أنك فعلت هذا، وأنت لا تنوي الزواج بي، ولكن ربما شعرت بواجب ناحية والدي أو ألح عليك كرمك المعروف أن...

توقفت عن الكلام. ابتسم على ما يبدو. كانت المرة الأولى التي

ترى ابتسامته.

نزع عن عينيه رداء الإمام وكان رجلًا للحظة ربما، كان شابًا بعينين تلمعان كما النجوم. لبرهة فتح المحار بعناية وبطء، فتبدت لها كل اللآلئ والياقوت. قال في صوت رقيق، ولكنه ساخر بعض الشيء: أجلت سفرك وطلبت مقابلتي لأمر هام لتسأليني عن هذا فقط يا ثريا؟

بلعت ريقها، ثم قالت بعد برهة في تصميم: كنت تقول إن الألفة تقيم البيوت أحيانًا والتفاهم يغني عن...

التقت أعينهما فقال في ثبات: أكملي...كأنك تنقشين كلماتي في عقلك. علي أن أحرص بعد الزواج على الكلمات.

ولكنها لم تستطع أن تكمل.

فمد يده بالدنانير ثم قال: الألفة والتفاهم والكرم، كلها صفات حميدة، ولكنها ليست سبب خطبتنا. خذي الأموال معك.

فأمسكت بالدنانير منه، لمست أصابعه عن غير عمد، ارتجفت وابتعدت خطوات، وهي تمني قلبها ويساورها الأمل أن الإمام ربما يكون قد لاحظها أو أرادها.. ربما أحبها..

هزت رأسها، وكتمت ابتسامة تطغى الآن على كل الوجود، ولكنه لم يكتم ابتسامته هو.

قال بعد برهة وهو يوصلها إلى الباب: هذه المرة لا تؤجلي السفر لأي سبب. إلى اللقاء في بغداد.

طوال الطريق وهي تضحك، وأختها تنظر إليها في حيرة. انتشرت

الألوان وغطت على كل القبح. تناثرت كلمات كلها فرح في الأفق وترقب وانتظار. أيام ويصبح لها. بين ذراعيها رجل أحبته في صمت بلا أمل ولا بوح. ماذا قال؟ لا تدري بالضبط، ولكنه أراحها من عناء طويل. لم تعد تكترث لحبه أو لإعجابه؛ لأنه مستقر في معترك الأحداق لا يتزحزح.

الباب الثالث

بغداد

«واعلم يقينًا أن أسرار الملكوت محجوبة عن القلوب الدنسة بحب الدنيا».

الغزالي

الفصل السادس

بغداد 1091

الإمام شاب، ولكن الله رزقه عقلًا غير كل العقول، كأن الملائكة مسته بعصًا سحرية فانقلب الطين إلى نور، وكأن الدنيا ألقت على عاتقه حمل كل ماضٍ وحاضر. يشرف على كل الواعظين في المساجد. يستمع إلى الخطب، ويفتي، ويكتب، ويحاضر. يتأكد من تطبيق العدل كلما استطاع إليه سبيلًا. اليوم يصل إلى بغداد مدينة السلام وجنة الأرض، اليوم يدخل القصر الذي حلم به طوال عمره. استقرت النجوم بين راحتيه ولم تحرقه، بل أضاءت ما حوله. نشوة الوصول تسكر كما مُدام الجنة بلا شوائب ولا عواقب. باعه طويل، والأماني دنت واستسلمت لمن يملك عقلًا غير كل العقول، ويتقن كلامًا بسيطًا في ظاهره، تامًا في باطنه. له طلة تدخل القلوب، وعينان تشيان بالحكمة، ولسان يذبح كل مجادل، ويكشف جهل كل من يدعي المعرفة.

ينهزم شكه في الحقائق اليوم أمام هذا النصر، وهذا الجمال. عن أي حقيقة كنت تبحث يا إمام وهذه الأزهار تدنو منك وتشتاق، وهذا النهر يجري من تحت قدميك؟! عن أي حقيقة تبحث وأنت لا تتذكر العيش إلا محاطًا بالحاشية والجاه؟! منذ أعوام والنصر يحاصرك، ترتبك نفسك فتوقظها من الغفلة، تُذكرها أنك من تراب مثل كل أهل طوس، حتى لو رفعت الأمة الأيدي كلها تضرعًا إلى كلماتك وطلتك. تغمض عينيك لتتذكر الماضي، ولكنك اليوم حيثما حلمت، وحيثما كُتب لك أن تكون. أنت اليوم في موضعك الصحيح؛ مدرس مدرسة

النظامية في بغداد، وإمام بغداد موضع الخليفة نفسه.

كلما مد رجليه ليخطو خطوته سمع صوتًا من خلفه أو من حوله أو أمامه، أفسحوا الطريق لإمام بغداد، للغزالي. وكلما خطا خطوة انفتحت كل الطرق، وتلاشت العوائق، لا حائل للسماء من اليوم. آه يا أحمد لو ترى أخاك اليوم، كنت ستعرف أن السعي دومًا يؤدي إلى الانتصار، لكَمْ تمنيت أن تكون معي...!

أحمد صاحبه في السفر نعم، وفارقه عند الوصول، وأجر بيتًا بعيدًا عن قصر الإمام. هرب من الحاشية كأنه لص يسرق الصدق من بين حنايا الزيف والغربة. اختفى قبل دخول قصر الإمام.

الإمام يدخل في النهاية بعد طول انتظار ساحة المسجد، وعند دخوله تنحني الرءوس، وتستعد الشفاه لتلثم يده، يسمع إطراء من هذا أو ذاك. لم يعد ينصت لكل الكلمات، توقعها وعرفها. قصر الإمام أمام نهر دجلة، كله أرائك تغمرها حدائق وورود. في كل ساحة نافورة مياه، وعند كل مقعد زخارف ملونة تسر العين، هنا كل الملذات، هنا يكمن سر الحياة لمن يعرف كيف يعيش. جناح الحرم يبلغ في وسعه كل أرضه في طوس، ولكنه لا يحتاج إلا لزوجة واحدة. يعرف فتن النساء، ويشهد على هشاشة عقل الرجال أمام جمال امرأة. لا يريد سوى الإخلاص، وهذا عزيز في هذه الأيام. بحث عنه أعوامًا، ووجده في كبرياء ثريا وثباتها.

أما جناح الرجال فقد بناه المهندس ليتسع للخليفة وحاشيته. هنا سيعيش الإمام ملكًا، وهنا يقابل أميرًا ووزيرًا. من يتذوق لذة السلطة يدرك عظمة الاجتهاد والبذل. ها هو يملك العالم، وها هو يغير العالم.

سيطمئن الرعية لوجود الإمام، ويعرفون الأحكام ولُب الدين. من اليوم لن يُرعب واعظ الناس من نار تمس كل من يخالفه في الرأي، من اليوم لن يجد السفسطائي طريقه إلى شاب فيشككه في وجود الله، ولن يزعم فيلسوف أنه يعرف الحقيقة المُطلقة، من اليوم لن تتصارع مذاهب، ولن يُكفر البشر بعضهم بعضًا. بدأت رحلته ولم تنته، وبدأت حربه ولم تنته، ولكنه اليوم يملك السلاح والمنصب.

في غضون أيام زاره كل الأمراء والوزراء مهنئين بالمنصب وبالزواج. أراد لزواجه أن يكون في قصره. أراد لثريا ألا تدخل سوى بغداد، وألا تطأ قدمها سوى قصره، كل عنائها ينتهي اليوم. ووحدته وسط كتبه وعلمه تنتهي أيضًا. وعندما استيقظ صباحًا ليلة عرسه وجد الخنجر على مخدعه مثل كل عام في الميعاد نفسه. لا ينساه المعصري على ما يبدو. وربما من يضع الخنجر ليس هو قاطع الطريق. من يدري؟! لم يعد يقلق من الخنجر، أصبح أحيانًا ينتظره. يفكر كيف دخل صاحبه إلى مخدع الإمام نفسه!

***

انتظرت ثريا هذا اليوم منذ أعوام، حلمت به على استحياء، ولم تجرؤ على الأماني. لم يكن يشغلها قصر بغداد ولا إمامة محمد. كانت تريده هو، وتريد أن تصاحبه بقية أيامها، تهيم حوله في صمت. فهي لم تعتد الكلمات المُزينة ولا صرخات الحب والهيام. تحب في عمق وهدوء كما البئر الداكنة. أختها عزيزة لا تتوقف عن الكلام، لا تلتقط الأنفاس، ولا تصدق ما آلت إليه أختها. تتذكر زوجها، تتمنى أن يأتي ليعرف ما حدث لهما في غيابه. هنا نصرة وفرحة. عزيزة تقفز من مكانها كل حين، تطلب من أختها أن ترتدي رداء معينًا،

توصيها، تضحك، ثم تبكي، تزهو بأنها تنتسب إلى إمام بغداد، ثم تتنهد وتتذكر والدتها وزوجها. لا تكف عن الكلام، وثريا لا تكف عن الصمت. حماس عزيزة لا يضاهيه حماس، ترتب شعر ثريا، وتخضب يديها بالحناء، تقول في قوة: ستصبحين زوجة أهم رجل في كل البلاد. هل تفهمين؟ لو تزوجت سلطانًا أو أميرًا لكنت أقل مما أنت عليه الآن. لا بد أن تفهمي هذا، وتتخلي عن كبريائك المؤذية يا ثريا. بين الزوج وزوجته لا يوجد حجاب. ما إن تدخلين على الإمام حتى تنحني احترامًا وتُقبّلي يده. لا تتناقشي، ولا تجادلي، تطيعين أوامره، ولا تكثري من الكلام. يكفي ما حدث، وما كلفك عامين من عمرك في حزن، أو لو أردت أن تشكريه فافعلي، ولكن وعيناك تنظران إلى الأرض، إياك أن ترفعي عينيك لعينيه، وإياك وكثرة الشكوى أو الجدال. أنا لا أريده أن يتخذ زوجة غيرك.

ابتسمت ثريا، ثم قالت: عزيزة تنصحني بهذا! وهي تزجر زوجها، وتوبخه طوال الوقت!

-زوجي أنا تاجر، وزوجك حجة الإسلام. هناك فرق.

-لا تخيفيني. يكفي ما أنا فيه.

أعادت عزيزة نصيحتها لأنها تعرف أختها وعنادها، قالت في لهجة آمرة: عندما تدخلين عليه تنحنين، وتقبلين يديه، وتشكرينه على ما فعل، هل تفهمين؟

هزت رأسها بالإيجاب، وما يشغلها هو شيء آخر. كيف ستتسع الدنيا لكل هذا الرضا والاكتفاء؟!

***

في ترقب السعادة سعادة، وفي ثبوت الأمل أمل، وعند تلاقي المُنى تتلاقى الدنيا بالوصل الذي لا ينقطع.

ثبتت نظرها بالأرض حتى وهي تسير إلى حجرته، لم تنظر إلى جدران القصر، ولا سمعت تهليل النساء بالخارج. أغمضت عينيها ثواني، ثم فتحتهما. كيف للأماني أن تتحقق كلها دفعة واحدة؟ وكيف للدنيا أن تعتدل وتعطي بعد أن كانت تغدر فقط؟ لا بد أن تبقى صامتة، فلو نطقت فربما تتفوه بشوق لم يعد باستطاعتها حبسه بالصبر.

ما إن دخلت عليه حتى انحنت قليلًا، وأمسكت بيده، وضعتها على رأسها، ثم قبلتها دون النظر إليه، وقالت: السلام دومًا للإمام.

رفعها أمامه، ثم أزاح خمارها، ونظر إليها، وقال: أختك طلبت منك أن تفعلي هذا؟

فتحت عينيها، فأكمل: لا أتصور أنك فعلت هذا من نفسك.

قالت وهي تنظر إلى الأرض في ثبات: لو توقع الإمام كل حركاتي وكلماتي لأن عقله يستطيع توقع كل شيء، فماذا أفعل؟

رفع ذقنها بإصبعيه، ثم اقترب على ما يبدو، وقبّل وجنتها في رقة وبطء، وهمس: السلام لك أنت، دومًا، في الظاهر والباطن.

أغمضت عينيها، وتمنت أن تغلق كل الحواس سوى التذوق واللمسات. ارتجفت وكادت تهوي من اليقظة والغفلة معًا.

أمسك بذراعها قبل أن تهوي أو تكاد، وأجلسها بجانبه على مخدعهما، قبل أن تنظر إليه أو تستوعب ما يجري بداخلها، ضمها

إلى صدره بلا كلمة. مكثت برهة مغمضة العينين، تكتم أنفاسها غير المستقرة داخل دقات قلبه. عانقته في مخيلتها، ولكن الواقع فاق كل خيال. أن تحلم بطعم العسل غير أن تذوقه، وأن تحكي عما يحدث بعد الموت غير أن تشهد على موتك. هنا موت به طعم الجنة، وغيبة المُدام، ويقظة المعرفة. عندما أحاطها بذراعيه، ودست أنفها داخل صدره ظنت لبرهة أنه غاص بها إلى عمق غير مسموح به لمثلها. ترى أيعرف ما يحدث لها؟ أيتذوق ما تتذوق يا ترى؟ يشتاق، تشعر بشوقه في لمسة يديه، ودفء قربه. يفيض حنانه بين اللمسات، وينبض الشوق فلم تعد تدري أشوقها أم شوقه. لأول مرة تعرف أن الشوق الموصول هو المُنجي من الحيرة.

بعد حين همست بصوت مبحوح: أتمنى أن تكتب كتابًا عن معاملة الإمام، كتابًا يوضح كيف لزوجته أن تتعامل معه.

ضحك لأول مرة، فبرقت الدنيا، وأنارت أمامها. اتسعت أنحاء الحجرة كأنها السماء بين راحتيها، واحمر خداها.

فقال وهو يسند ذقنه على رأسها: هناك بعض الحقائق تحتاج إلى التجربة لا الكلمات.

قالت بلا تفكير: أخاف أن أهفو فتغضب، وأنا لم أعتد الاعتذار ولا الهفوات. ليتني أعرف الخطوات مكتوبة بوضوح أمامي.

-«الصدور أفسح من الكتب المؤلفات، والمعاني أوسع من العبارات». افعلي ما تريدين أنت بصدق، الصدق يصل إلى القلوب بلا حواجز.

أمسك بيدها كأنه يهدئ ارتباكها، تعانقت الأيدي واقتربت من

الجوانح، اخترقت كل فقد وعذاب مضى. يتكلم عن الصدق وليته يدرك حجم الجوى الذي بداخلها، هل يفزعه التوق كما يفزعها يا ترى، أم يستوعبه كما يستوعب كل شيء؟

فتحت فمها لتخبره بحب أعمق من كل بئر، ووجد مجهد كما قلوب الملائكة وسط شر الشياطين، ولكنها لم تجرؤ.

كلما ازداد اقترابه ارتبكت، وكلما تنفست أنفاسه خارت كل قواها.

تريد أن تتفوه بالكلمات، أن تلقي بحمول الزمن بين راحتيه، ولكنها الآن تود فقط أن تبقي أصابعها على صدره. اخترق ألم اللقاء كل تهتك للفراق، وتركت نفسها له يُهدئ ما اشتعل أو يُشعل ما يحتاج إلى أن يحترق.

ما حدث بعد ذلك يصعب شرحه. تركت عمرها بين ساعديه، وكل سنواتها الباقية في ابتسامة ثغره.

سقاها نور الوجد بين راحتيه، تأزرت بدفء ريحه ورائحته، وتاه منها كل ماض وحاضر. اشتعل الجسد بشواظ النار، وتسعر الغرام وتمكن.

عرفت بهجة القرب، والعشق، وشوق الجسد والروح، ولكن لذة الوصول كانت تستعصي على الشرح. هي لسان حال لا مجال مقال. كيف يتآمر عليك قلبك وصدرك وكل الحواس؟! وكيف يغتابك لسانك وتخونك كلماتك؟! أدركت حينها وطأة الحب وحجم تحكمه، فأرعبتها الحقيقة وهالها ما عرفته. وفي خضم غفلة التيه والظلام المتسع أدركت ما لم تدركه من قبل. كأن الإدراك يأتي مع تبدل المنزلة وتغير الحال. هدأ قربه كل عذاب، ومحا كل ماض. امتلك بين

أضلعه دواء سحريًا.

يومًا ظنت أن عناقه هو كل المنى والمعرفة، وأدركت اليوم أن ليس العناق وحده هو كل المنى. اللذات درجات لا ندركها سوى بعد أن نتعداها. تدرك لذة العناق، ثم لذة القبلات، ثم لذة التحامهما معًا. ما ندركه هو ما يمر بنا وليس ما يصفه الآخرون، وما يدرك بالذوق لا وصف له. مثل ما حدث بينهما.

أخبرها أنه أعجب بكبريائها في البدء. لطالما رأى الطمع في العيون، ولكن عينيها كانتا بريئتين تجذبانه إلى الطمأنينة، اطمئن لها فأحبها. لا يعرف متى، ولكنه أيضًا لم يكن ينوي الزواج منها، رفضته فتركت أثرًا في القلب، وجرحت الكبرياء، لا يوجد امرأة ترفض الإمام. علمته ربما أن هناك نساء يؤثرن الكرامة على المجد. أعجبته قوتها وتماسكها. حتى والحب يصيبه كماء المطر لم يبال. أرادها سعيدة معه أو مع غيره، فصاحبة هذه الكبرياء لا بد أن تبقى آمنة دومًا.

هناك ليالٍ في عمر الزمان لا بد أن تمتد لتخترق كل الأمكنة والأوقات. لا نعاس يقطعها، ولا قلق يمر حولها، ولكنها نعست على ما يبدو بعد حين. مر أسبوع وهي بين يقظة وغفلة تسبح في الهواء، وتزيل بيديها الريم من على وجه البحور مجتمعة. هي كلمات الإمام ما تصف شعورها اليوم «فإن كل حب صار غالبًا، قهر لا محالة ما هو دونه».

ارتدى عباءته، واستعد للخروج وهي نائمة. فتحت عينيها، ولم تنطق فقبّل خدها، وقال: لن أتأخر.

أمسكت بيده، هذه المرة قبلتها دون أمر أختها، أبقتها على فمها

برهة، لتبقي على حلاوة لمسته، وتستنشق رائحته. والتقت العينان، لا جدوى من البوح بالشوق بالكلمات ما دامت القلوب موصولة. ابتسم لها، أزاح شعرها عن عينيها بأصابعه، ثم خرج.

أسبوعا تحاول ألا تعود إلى هذه الدنيا، يستغرقها الحنين، ويغير شكل الأيام وملمسها، ولكنها استيقظت على صوت أختها، وكلماتها الكثيرة. أمسكت بقلبها كأنها تبقي على آثار السعادة حول القلب. خرجت لتدير القصر على مضض. بعد حين قالت أختها في عتاب: كأنك لست معنا يا ثريا. غير شأنك الإمام. معك حق، كل بنات ديار المسلمين تتمنى مكانك يا بنت. أخبرينا يا ثريا كيف هو الزواج من الغزالي!

كيف هو؟ الوصف صعب فهو رجل غير عادي. لا قدرة لأحد على امتلاكه، لا يصادق سوى نفسه. هناك جزء بداخله يحن إليه ويحبه، وجزء آخر مع أخيه، مع أحمد كأنه يلملم بين صدره كل براءة الصبا واطمئنان الجوارح وهو معه هو، فقط أخوه أحمد. عندما يتكلم عنه تلمع العينان وينشرح الصدر، حتى لو كان ينتقده أو يلومه. لم تقابل أحمد سوى لحظات كأنه يتحاشى محمد عن عمد.

كيف هو الغزالي؟ هو صاحب العقل الذي لا ينام، ولا يسلم لأحد، ولا لشيء؛ أي شيء. أحيانًا يستيقظ ليلًا ويخرج من الحجرة ليكتب، أو يصلي، أو يفكر. في بعض الأحيان تراه شاردًا كأنه أغلق عقله عنها تمامًا، يتكلم معها نعم، ولكنه لا يدرك وجودها الفعلي، لا هي ولا أي أحد. تخرج منه كلمات غير متوقعة، أحيانًا جريئة جرأة مفزعة، وأحيانًا فقهية محضة كأن لديه ألف ذئب يعبثون بوجدانه. لا سرور ولا حزن يبدوان على وجهه، لا قلق ولا غضب، ولكنها أدركت بمرور

الأيام ما يغضبه وما يقلقه.

محمد الزوج كان له رهبة لم تستطع تجاوزها حتى بعد شهور من زواجهما. في وقت الحب يحن، ويعطي، ويشتاق، ويتفوه بكلمات جميلة كما لمساته، ولكن جماله وعبقريته تجعلانه كالمستحيل بالنسبة إليها. يفضي بعضه لبعضها، وتصدق معه وتخلص، ويبقى كالملوك القدماء بسحر لا يختفي باللمس أو المعاشرة. لم تزل ترتبك في وجوده؛ أحيانًا تتلعثم، أو تبحث عن كلمة ولا تجدها. ولم يزل يصبر، ويضحك، ويغمرها بحب لا قبل لها به، ولكنها تسير في حذر في ميادين نفسه، فلا تقوى على بعده ولا على إغضابه.

ثريا بطبيعتها تريد أن تعرف كل شيء، تحرص على الاحتواء والسيطرة على الأمور، ولكنها عرفت أن هذا مستحيل مع الإمام منذ البدء. يخلص لها نعم، ويعطيها ساعات من يومه نعم، ولكنه يتملص من بين أيديها كلما ظنت أنها تمكنت. ليس كزوج أختها صالح الذي يتكلم مع زوجته ساعاتٍ وساعاتٍ متواصلة، وتؤنبه زوجته، وتتشاجر معه أمامهم. لا هي تجرؤ على هذا، ولن تجرؤ؛ لأن الغزالي هيبته لا تأتي من منصب أو جاه ومال، بل من قدرة لا تعرف كيف تصفها، قدرة على قراءة التفاصيل الصغيرة وخبايا النفوس، عين ثاقبة تعري كل ضعف وكل هوى. اكتفت بأنه لها هي فقط، ودومًا تبيت بين ذراعيه، وأنها اليوم تحمل في أحشائها قطعة منه. لم تتقن الكلمات بعد، ولا يحتاج إليها ليعرف قدر عشقها. يعرف من لهفتها وارتجافها وعينيها اللتين تناديانه حتى وهو ليس معها. تطل عليها صورة أمها كل حين تؤنبها قائلة: يا ثريا، ها أنت عبدة لحبك اليوم أكثر مني بكثير. هل تدركين حجم تحكمه وولايته عليك؟

تخجل حينها، ولكنها لا تندم فقد اكتشفت أن في التعبير عن الشوق متعة لا تضاهيها متعة، وفي إفشاء أسرار القلوب راحة وسلامًا.

تنظر إليها أختها بدهشة، وهي تردد: ما لا أفهمه هو جرأتك عليه قبل الزواج، وخجلك منه بعد الزواج. كيف هذا؟!

فتجيب ثريا: لأنني اقتربت منه، فعرفته أكثر.

-وهل من تعرف زوجها أكثر تخاف منه يا أختي؟

-لو كان الإمام، فنعم.

كيف هو الإمام؟! لا تعرف بالضبط، ولكنها تعرف أنها لم تتوقع هذا القدر من الطمأنينة ولا النشوى. لو استمرت الأيام هكذا بعض الوقت فستكتفي بقية العمر.

***

استدعتها الأميرة تركان خاتون زوجة السلطان ملك شاه لقصرها في بغداد. هرولت إلى عزيزة تخبرها، تذكر جيدًا عندما حاولت هي ووالدتها في الماضي مقابلة الأميرة ورفضت. اليوم هي من تستدعيها. خفق القلب رغمًا عنها، هي زوجة السلطان من تريدها! فُتحت لها كل الأبواب منذ تزوجته. استأذنت ثريا زوجها، فلم يأذن لها.

قالت وهي تطأطئ رأسها، وخجلها ورهبتها منه يلازمانها: يا إمام، هي زوجة السلطان.

قال في حسم: لا أريدك أن تصاحبي أي أميرات أبدًا. أخبريها أنك

متعبة من الحمل.

هزت رأسها بالإيجاب، ولكن تركان خاتون لم تستسلم. أعلنت أنها ستأتي بنفسها لقصر الإمام مع بناتها وحاشيتها.

جهزت ثريا القصر. أوصاها بالكثير قبل قدوم تركان خاتون، طلب منها الحذر، والاقتصار في الكلام.

ارتجفت رغمًا عنها، وهي تنحني أمام الأميرة. لم تتوقع هذا البهاء وهذا الجمال. لم تتعد الأميرة الخامسة والثلاثين ربما. وجهها ملون بألوان الجنة، ويداها اللتان أمسكت ثريا بهما لتقبلهما ناعمتان وبيضاوان، كأنها البيض المكنون.

قالت الأميرة وهي تجلس: أنت جميلة يا ثريا. يعرف الإمام كيف يختار زوجته.

احمرت وجنتاها وخفضت رأسها، ثم قامت لتجهز الطعام للأميرة بنفسها، وتضعه أمامها، وهي تنظر إليها بلا توقف، انشغلت بجمال الأميرة قبل أي شيء، لا تدري كيف تحافظ الأميرة على رونق وجهها، ونعومة يديها، وجمالها، هل الجمال يصاحب الثراء يا ترى؟!

قالت تركان خاتون: زوجك هو من منعك من زيارتي؟

ارتجفت لحظة، ثم قالت: كنت متعبة يا مولاتي؛ بداية الحمل.

نظرت لحاشيتها، وابتسمت، وهنأت ثريا، ثم أشارت إليهن بوضع الهدايا أمامها. نظرت ثريا للقلادة الذهبية المرصعة بالمرجان التي مدت تركان خاتون يدها بها كأن عيني ثريا التصقتا بالقلادة، لا تستطيعان أن تتحركا يمينًا أو يسارًا، ثم شهقت، قالت: هذا كثير يا

مولاتي!

-ليس كثيرًا على صديقتي. أنت صديقتي يا ثريا.

ثم أخرجت طعامًا، ولحمًا، وفواكه مجففة، وقدحًا ممتلئًا بخمر معتق، وقالت: ستشربين معي، أليس كذلك؟

صمتت ثريا كأنها لا تصدق ما يحدث، ولكن رائحة الخمر من الصعب تجاهلها. أعادت عليها تركان خاتون الكلمات.

نظرت إلى القدح، ثم قالت في قوة لم تدرك أنها تمتلكها: مولاتي، اسمحي لي، هذا بيت الإمام.

قالت تركان: كل بيوت بغداد يا ثريا بيوت السلطان والإمام إمام السلطان. هل تفهمين ما أعني؟ ثم هل يوجد بيت في بغداد بلا خمر يا بنت؟ أنت صغيرة لا تعرفين شيئًا. الإمام يخطب في المساجد كما يريد، والناس تشرب، وتمتلك الجواري والغلمان. يذكرهم ربما، ولكنهم ينسون، لا يعدلون، ولا يتعظون. هذا شأن رجال الدين، كلماتهم تبقى أقل من بقاء الأنفاس. ألسنا أصدقاء؟ هل ستغضبين زوجة الملك؟

بلعت ريقها، ثم قربت الطعام من تركان خاتون، وقالت: مولاتي شرفتنا بالزيارة، أتمنى أن تجربي طعامي..

ثم اقتربت برهة، وتظاهرت بأنها تقرب منها الطعام، فوقع قدح الخمر عمدًا من السفرة، وتحطم على الأرض. نظرت إليها تركان خاتون في فهم، فارتبكت، وانحنت تنظف الأرض، وهي تقول: أتمنى أن تغفر لي مولاتي. هو خطئي أنا...لو سمحت لي مولاتي.

قالت تركان خاتون وهي تبتسم: لا بأس. أعرف أنك تخافين زوجك. كلهم يخافون زوجك. تعالي هنا بجانبي نتكلم..

مر الوقت ببطء، وهي تتمنى نهاية الزيارة بأسرع وقت. كانت أصعب لحظات على ثريا في كل حياتها كأنها أمام أسد لا تعرف هل تجري منه أم تقترب، كيف تنجو من أنيابه، ولو نجت من أنيابه فكيف تنجو من بطشة مخالبه.

ابتسمت لها تركان خاتون، وقالت: المرة القادمة تأتين إليّ، ونتكلم عن كل شيء.

ما إن رحلت حتى أمرت الخدم بتنظيف الأرض. دخلت حجرتها لتهدئ من روعها قبل قدوم زوجها، وهي تحمل هم الحديث معه ومصارحته، ولا تعرف ردة فعله.

عندما عاد زوجها بدا عليها الإرهاق. سألها فأخبرته بالتفصيل عما حدث، ولكنها استحت أن تخبره بتجرؤ تركان وكلماتها عن الامتلاك. استمع إليها حتى النهاية، قامت وأحضرت الهدية، وضعتها أمامه، وعيناها تكادان تحتضنان القلادة، ثم قالت: أعطتني هذه يا إمام.

نظر إلى عينيها، ثم إلى القلادة، وقال: تركان لا تعطي إلا لتصيد، ولا تجود إلا لتذبح. لا بد أنك فهمت هذا.

قالت في بعض الأسى: خذها يا إمام..

-محمد.. اسمي محمد..

-ولكنك اليوم الإمام.

وضع القلادة بين يديها، ثم قال: احتفظي بها إلى حين، ولكن لا

تتعلقي بها، فتأسرك تركان.

قالت مسرعة: أتخلص منها الآن.

تمتم لنفسه، وليس لها: توحشت الأميرة، وامتلكت أن تجرؤ على أن تحضر الخمر إلى بيتي...هذا حال من يترك زوجته تمتلك الجيوش والوزراء.

نظر إلى ثريا بعينين لا تتحركان، أدارت عينيها عنه في استحياء وارتباك كأنه يخترق القلب، قال في حسم: تحبينني؟

هزت رأسها وهي تضع يدها على بطنها كأنها تذكره أنها تحمل ابنه، فقال: الحب إخلاص وصدق. أكرر لك، لا صداقة ممكنة بينك وبين أي أميرة، ولا زوجة وزير، ولا ابنة خليفة، تفهمين هذا.

قالت كأنها قرأت أفكاره: ولائي لزوجي، ولو تكلم معي أي إنسان فسأخبرك بكل شيء دائمًا.

قال: هؤلاء يتقنون مداخل الضعف في الجسد والقلب، لا بد أن تبقي مستيقظة كما الظبي في البرية. لا غفلة مع السلاطين يا ثريا.

***

في بغداد دعاه الخليفة إلى قصره، هنا قصر غير كل القصور، تحيطه الأشجار الطويلة فتصبح كشريط السجن الحديدي. لم ير هذا الثراء من قبل كأنه كنز وراء كنز، يجمعه رجل ويأخذه آخر، كل تاريخ الدول مجتمعة بين راحتي الخليفة. في قصر الخلافة ريح الجنة. هنا تصدر الأحكام بلا منفذ، هنا زخرف بلا سقف، ونصيحة بلا شيخ، وعسكر بلا سيف.

يستمع الخليفة للغزالي من وراء حجاب، ولكنه بعد يوم واثنين، رفع الحجاب، وأصبح يجلس أمام الغزالي وعيناه مفتوحتان يريد المزيد. اخترق الفتى الطوسي قلبه كما يفعل مع كل من حوله. وجد فيه ما يتوق إليه، العلم والصبر والذكاء. وجود رجال مثله حوله يثبت الخلافة ويؤازرها. الخليفة المقتدي بالله لديه وقت طويل، فلا هو يحب الصيد مثل السلطان السلجوقي، ولا هو يملك جيوش السلطان. أحيانًا تمر فكرة الاستقلال إلى ذهنه، فلو وطد علاقته بإمام بغداد فربما يعطيه الإمام الشرعية ليملك الجيوش كما كان الحال في الماضي. فجيش الإمام أقوى من جيش السلاجقة لأنه من قلوب العامة. ومن يدري ربما يعود المجد القديم ويصبح العالم بين يديه هو الخليفة العباسي وليس فقط خارج نطاق سجنه. ما دام الجيش في يد سلطان السلاجقة فالأمل ضعيف، ولكن الغزالي ربما يكون هو النجاة. قربه منه يومًا وراء يوم. أغدق عليه بالإطراء، فأصبح كل من يدخل ينحني للإمام، ويقبل يده حتى قبل الخليفة أحيانًا. ارتبك الغزالي في البدء، ثم اعتاد أسر القلوب. لم يعد يتذكر أيام كانت الناس حوله تغلظ عليه الكلام، أو تراه إنسانًا عاديًا، أو فتى طوسيًا يتيمًا جاء ليتعلم في المدرسة النظامية. كيف للذاكرة أن تمحى بهذه السرعة؟ كم عامًا مر حتى لا يتذكر ماضيه؟ اقترب منه الوزير ابن جهير والوزير ابن النجيم، وكل وزراء الخليفة. الغزالي استشعر منذ البدء العلاقة المتوترة بين الخليفة والسلطان السلجوقي. منذ تكلمت معه تركان خاتون عن موت ابنتها التي تزوجها المقتدي بالله وحسرتها قبل موتها؛ أدرك أن الدنيا وإن كانت تسير كما يريد، وأن الخطى وإن كانت تصب في مصلحته كلها، فهي تسير في اتجاه الريح إلى قاع النهر. الغرق قادم اليوم أو غدًا، وقدوم

السلطان السلجوقي إلى بغداد لا بد أن له هدفًا.

استدعاه السلطان السلجوقي ملك شاه، بدا أنه يغير من علاقة الغزالي بالخليفة، قربه منه، وطلب منه النصيحة. أصبح يقضي يومه بين القصرين، ويتمنى فقط أن يكتب أو يقرأ. يجلس حولهما وعقله مع قلمه ودواته.

***

معسكر السلطان السلجوقي ملك شاه كله حياة، وهو كما الحياة؛ يومًا يغدق عليك بالكرم، ويومًا يغضب غضبًا مصحوبًا بعقاب مجنون، ولكن الإمام محصن من كل جنون، أو هكذا ظن حتى جلس أمام السلطان «ملك شاه» يعطي له الدروس والنصائح، والسلطان يستمع في تأثر. اقترب الحارس من السلطان وفي يديه كيس صغير، قلب الحارس الكيس فخرجت منه قطعتان من اللحم غير كل ما رأى. حتى الدماء لم تخف البريق ولا ألم فراق الرأس. كانتا عينين. هل سمع السلطان شهقته؟ لو كان سمع لم يبال، أشار إلى الحارس ليدخل عليه كلبه الذي يستعمله في الصيد، فافترس الكلب القطعتين في نهم، وانتقلت الدماء إلى أنيابه بعد أن كانت تتسلل إلى قلب الغزالي. قال السلطان في غضب لا يهبط: هو حاجبي أردت معاقبته، وأشفقت من قتله. كان ينقل إليّ الكلام، ويتكلم بسوء على الوزير الأعظم. كان يكذب عليّ فعاقبته، حفرنا عينيه لأنهما لا تريان سوى القبح، لا حاجة له بهما. الكلب يحتاج إليهما أكثر منه.

قال الغزالي بلا تفكير: هل استشار السلطان العلماء؟

فقال في بعض الغضب من الجرأة: السلطان يحكم يا شيخ، أنت

تعرف ذلك. ومن يكذب يعاقب أم لا؟

-العقاب يا مولاي على قدر الجرم، وسلطان العالم يُعلّم العامة الحلم والصبر، لو سمح لي مولاي بالانصراف.

قال السلطان كأنه لا يفهم: لا، لِمَ تنصرف؟ تكلم معي عن الحلم..

جلس أمامه من جديد، وبدأ يتكلم عن مجاهدة الغضب، وسؤال أهل العلم، وعدم اتخاذ قرار سريع مع فورة العقل وتحكم الغرائز. استمع السلطان في تأثر، ثم خفض جفنيه، وقال: أقسم لك يا إمام أني نادم، وأريدك أن تذهب بنفسك للحاجب تعطيه مني هدية، وتخبره أني سامحته.

الحكاية أن الحاجب كان بالفعل يفتري على الوزير نظام الملك. وعندما أثبت الوزير براءته من التهم، اغتاظ السلطان السلجوقي من جرأة الحاجب واعتدائه وطمعه، فأمر أن يمتثل أمامه، ثم طلب من الحارس أن يحفر عينيه الاثنتين بالخنجر ويخرجهما. كتم أحد الحراس صراخ الحاجب بخرقة على فمه، وفعل الحارس الآخر ما أمر به السلطان. ألقى الحارس العينين الاثنتين أمام السلطان، فاحتفظ بهما السلطان للكلب، ثم أدخل السلطان كلبه ليأكل أمامه العينين الاثنتين عبرة لكل مفترٍ وظالم.

خرج الغزالي، سار في الأزقة اليوم وصرف الحراس. خاف، نعم. أصابه الرعب ربما، ليس من عقاب السلطان للحاجب ولا من العينين المستديرتين اللتين لا تفارقان خياله. ارتعب من نفسه؛ لأنه وهو يتكلم، وينصح، ويشرح، ويحاول أن يصلح كان أيضًا يفترق عن قلبه. رأى قلبه معلقًا أمامه في وعاء من الكتان يشبه وعاء العينين،

ثم رأى الحارس يهز الوعاء، ويقلبه، ويلقي بقلبه إلى ساحة القصر، افترسه الكلب نفسه يومها. كيف سيكمل حياته بلا قلبه؟! أمسك بموضع القلب كأنه يتأكد أن ما رآه خياله ليس بالحقيقة. ها هو يخفق بين كفه، ويبث الدماء في الجسد.

لم يعد إلى بيته، سار في خطى من يفر من موت محقق إلى بيت الحاجب ليبلغه الرسالة، وقلبه لم يزل يؤرقه، لم يزل يضايقه انشقاقه عن الصدر، أحيانًا يتدلى أمامه من خيط كخيوط العنكبوت، وأحيانًا يرافقه وهو مستقل بذاته. أغمض عينيه، وارتعب مرة أخرى من أن يفقد عقله، أو يفترسه شكه كما أنياب الكلب. يا حاجب...لو كنت فقدت عينيك فقد فقدت قلبي!

ولو كانت قطعة اللحم قد ذابت بين أنياب الكلب فأصبحت بلا بصر، فقطعة اللحم التي تحييني ذابت بين أنياب الكلب أيضًا فأصبحت بلا بصيرة...يفتتني شك وبحث وقسوة وخمول!

وجد الحاجب على مضجعه، يبكي بلا عينين. أمسك بيده وقال: أنا الغزالي. جئت..

كان يريد أن يقول اطمئن أو طمئني على نفسي، ولكنه لم ينطق.

قال الرجل بعد حين: اذهب إلى سيدك، لا حاجة لي بك.

-سيدي وسيدك هو الله.

-ولكنه سلطانك من يعمي الناس ويبصرهم.

-الله قادر على كل شيء.

-يقولون الغزالي يكره الظلم.

لم يُجب، فقال الرجل: فلم تمكث في بغداد إذن؟ يكذبون، الغزالي يشهد الظلم ويعرفه. جئت لأنك خائف.

-أنا لا أخاف على نفسي.

-بل تخاف من نفسك. اتركني لظلامي الذي كتبه علي السلطان يا إمام. هل تستطيع أن تحكم عليه الآن، أخبرني؟ هل ستسجنه أم تفقع عينيه؟ عد إلى المعسكر الذي جئت منه، أو أعد إليّ بصري. هيا يا إمام، أعد إليّ بصري...أين عيناي؟

ثم أخذ يضرب رأسه بكف يده، ويصرخ كأنه اكتشف الفقد على حين غرة.

ماذا يفعل؟ يهدئه؟ يطلب منه الصبر؟ أم يصرخ معه يا ترى؟

تركه والهزيمة مستقرة.

عندما طلب السلطان مقابلة الإمام بعدها بيومين، لم يأت، قال إنه سقيم.

فتح كتب الصوفية، وكتب الفلسفة، أغرق نفسه أو كاد. حاول ألا يموت حسرة أو هباء.

«فلِمَ تمكث في بغداد إذن؟» أي سؤال هذا؟! وهل من يقترب من بغداد يستطيع أن يتركها؟ أي جنون مس الحاجب؟ ماذا يتوقع؟ أن يترك الإمام كل شيء؟ هذا مستحيل. في الترك جُبن. وخرق العينين كان سيحدث سواء كان الغزالي في بغداد أو خارجها. هو ليس مسئولًا عن كل البشر. هو إنسان..هو..

دوت الكلمات في أذنيه: «ولكن سلطانك من يعمي الناس ويبصرهم»!

عندما يستعصي عليه النوم يكتب أو يتوق إلى أحمد. ولكن أحمد أصبح يتملص من بين يديه كما النوم. نادى على أخيه الغائب: أحمد...أصبحت وحيدًا بلا معرفة ولا نوم. أحمد...لا نجوم تقترب مني ولا يقين يمر أمامي. ضاع العمر هباء يا أخي. كلما غصت في علم غرقت أو كدت.

***

استغاث به وزير الخليفة ابن جهير، شكا له ضعف الإيمان، وتفشي الشك. أخبره أن العامة تضطرب وعقولها في سقم. انتشرت أفكار جديدة، وتسلل الإلحاد إلى شباب الأمة. لا بد من مجادلة يحضرها كل العلماء؛ فقد تجرأ من يدعي المعرفة، واحد أواثنان، طلبا من الخليفة الأمان للكلام. قالا كلامًا يُفزع حتى الماجن. لو استطاع الغزالي هزيمتهما لساعد شباب الأمة. هما يدعيان استعمال العقل، ثم ينكران الأنبياء والمعجزات وحتى وجود الله. يدّعيان أن الظلم تفشى، وأن العيش في الدنيا عذاب مستمر. أين هو الله الذي يترك عباده في هذا الشقاء؟! أين عدله يا ترى؟!

استمع الغزالي إليهما.

صاحا في قوة في حضور الغزالي: لا وجود لأنبياء. كيف تستطيع أن تثبت بالعقل وجودهم إذا كان ما وصلنا أساطير وحكايات عن معجزات؟ نعرف بعقلنا أن لا وجود لها. هيا يا شيخ أثبت لنا أن العصا انقلبت ثعبانًا، وأن النبي شق البحر.

قال الغزالي: ما تقولونه هو عين الجهل. «أين مستندك بأن ما لم تدركه لم يحدث؟ أليس جائزًا أن يكون هناك طور آخر لم تبلغه فتظن أنه غير موجود؟»، وهل أنت حقًا لا تؤمن بالغيب، ولا تصدق إلا ما تراه عينك، ويثبته بصرك؟

قال الرجل في تأكيد: أنا لا أومن إلا بما يقنعني به عقلي، وأوقن بإمكانية حدوثه.

فقال الغزالي: أشك...فلأعطينك مثالًا أولًا.

قاطعه الرجل، وقال في حدة: أنت تتبع ما وجدت عليه آباءك بلا تفكير ونظر.

فقال الغزالي: بل أنت تتبع ما وجدت عليه أصحابك بلا تفكير أو نظر، وهذا غاية الحماقة. هل أتت هذه الأفكار من نفسك أم من أناس حولك رددوها على أذنيك؟ هل تفكر أصلًا؟ هل تستنتج وتبحث عن الدليل؟

-أنا لا أصدق في النبوة.

-وكيف تصدق بها وأنت لا تفهم؟ «إنما التصديق بعد الفهم»، ولا يمكن أن تفهم النبوة إلا إذا عرفت، وفهمت، وتعلمت. «اطلب اليقين بالنبوة لا من قَلب العصا ثعبانًا وشق البحر، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر، فربما تشك في حدوثه. لا بد أن تحصّل العلم الضروري، وهو ليس من المعجزات. ابحث عن الإيمان القوي العلمي. وجود الأنبياء يمكن إثباته بالعقل، أما إذا كان كل برهانك على وجود نبي هو شق البحر فأنت لا تفكر أصلًا، كما أن أصدقاءك لم يفكروا، وهذا كله لأن نظر

عقلهم مقصور على صور الأشياء وقوالبها الخيالية، ولم يمتد نظرهم إلى أرواحها وحقائقها، ولم يدركوا الموازنة بين عالم الشهادة وعالم الملكوت، فلما لم يدركوا ذلك وتناقضت عندهم ظواهر الأسئلة ضلوا وأضلوا».

قبل أن يفتح فمه أكمل الغزالي: أصحابك «تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه، وما لم يألفوه قدروا استحالته». وهذا عين ضيق العقل والاعتماد على الحواس التي أثبتت أنها غير آمنة أصلًا. فمثلًا لو قلت لك: «في هذه الدنيا» شيء هو بمقدار حبة، يوضع في بلدة، ليأكل تلك البلدة بجملتها، ثم يأكل نفسه فلا يبقي شيئًا من البلدة وما فيها، ولا يبقى هو في نفسه. لقلت لي: هذا محال، وهو من جملة الخرافات، «ولكنك لو رأيت النار وعرفتها لعرفت أن هذه الحبة هي النار، ولكن من لم ير النار ينكر قدرتها إذا سمع عنها من غيره؛ لأنه سجين عقله الضيق الذي لا يفرق بين ما يستحيل حدوثه وما يمكن حدوثه ولكنه لم يره».

قال الرجل، وقد احمرت وجنتاه غضبًا: أنت لا تثق في العقل.

فقال الغزالي: أنا لا أثق إلا في العقل، والعقل يثبت أننا نتبع الغيب في كثير من الأحيان. حتى في الأشياء البسيطة، مثلًا لو أصابك صداع يفتك برأسك، وسمعت عن طبيب حاذق يعطي أدوية، وذهبت لهذا الطبيب فأعطاك دواء فأخذته، لماذا أخذته مع أنك لم تجربه من قبل، ولا أنت رأيت الطبيب يعطي الدواء لغيرك؟ ولكنك وثقت في الطبيب بمجرد سماع سيرته وتجربة الآخرين له. إذن أنت لم تعتمد على ما تراه وحدك وتُجربه وحدك، اعتمدت على ما لم تره، وما لم تجربه؛ لأنك عاقل تدرك حجم المجازفة وعدم اتباع الطبيب.

«الإيمان بالنبوة أن يقر بإثبات طور وراء العقل، تتفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة»، وكما «تعجز الحواس عن إدراك المعقولات يعجز العقل عن إدراك الإلهام ولا يقر باستحالته». كلمات الأنبياء من إلهام ووحي لا يستطيع أن يقولها غيرهم. من يفهم المعاني يدرك حجم عمقها ومعجزة قائلها.

-يا شيخ، أنت تعرف، وأنا أعرف أن الفقهاء أنفسهم لا يتبعون ما ينصحون به الناس. أي نفاق تريدني أن أتبع؟!

قال الغزالي: فلنضرب مثلًا بعالم يزني، أو يسرق، أو يشرب الخمر، أو يأخذ الرشوة، هل هذا يسيء إلى العلم نفسه أم إلى العالم؟ كم من طبيب يعرف أن الأكل الدسم يضر بصحته، ولكنه يأكله! لا يأكله لأن الأكل الدسم لا يضر، ولكن يأكله لأنه لا يصبر على العيش دونه. ليس كل طبيب يعرف حد الصحة يتبعه، ولا كل عالم يعرف حد التقوى يتبعه. فكِّر وشكّ، وابحث عن الدليل وأنت تدرك أن عقلك محدود، وأن هناك ما لن تستطيع فهمه سوى بالإيمان بطور وراء العقل، وغيب لا يستحيل وجوده حتى ولو لم تشهد أنت عليه.

-العقل قادر أم ليس قادرًا يا إمام؟ أنت تناقض نفسك.

-قادر وليس بقادر. معرفتك بالله محدودة، وهو لا حدود له. لو ظننت أن معرفتك تشمل كل العلوم فأنت مغرور، ولو أدركت عجزك عن إدراك كل شيء كنت عاقلًا. «العجز عن درك الإدراك إدراك».

الفصل السابع

«فمن عنده شيء أحب إليه من الله فقلبه مريض».

الغزالي

يئست تركان خاتون من الغزالي. أعطت الهدية وراء الهدية، لا اقتربت زوجته، ولا لان الإمام وفهم. ربما لا تحتاج إليه، ربما يكفيها وزيرها أبو الغنائم وجيشها وقدرتها. هم ثلاثة عندما تقضي عليهم يتحقق الحلم؛ الوزير الأعظم نظام الملك، الغزالي وربما الخليفة، ولكن أمره هين، فقوته محدودة، ونفوذه مبتور. بدأت بالوزير نظام الملك، ساعدها سوء تصرف أبنائه وثقة الوزير نفسه في سيطرته على كل شيء. تكلّمت مع زوجها السلطان مرة وراء مرة، أعطته الرسائل، وقدمت الشهود. قالت بعد حين: هناك سلطان واحد لهذه الدولة هو أنت. ألم يأتِ الأوان لأن تحكم أنت؟ هل ستترك الحكم له مدى عمرك؟ أفهم نعم، وأعلم أنه ساعدك، كنت تراه أبًا لك ومعلمًا، ولكنك الحاكم الفعلي، ورثت الحكم عن أبيك وأجدادك. أنت من تستحق الحكم وحدك. والمسئولية لك وحدك، لا تترك أولاد الوزير ينشرون الفساد في مملكتك. أنت العادل القوي.

طبق شفتيه، كانت تقرأ أفكاره دومًا، أخرج رقعة، وبدأ يكتب بالفارسية رسالة إلى وزيره نظام الملك قال فيها: «إن كنت شريكي في الملك فلذلك حكم، وإن كنت تابعي فيجب أن تلزم حدّك».

أغضبت الرسالة الوزير الأعظم، من رآه قال إن الدخان كاد يخرج من أذنيه، وهو يسب زوجة الخليفة بصوت خافت، ثم استدعى الرسول وقال له: «أنا شريكه في الملك، وما بلغ إلا بتدبيري، أو ما

يذكر حين قتل أبوه كيف جمعت الناس عليه، وعبرت بالعساكر النهر، وفتحت الأمصار».

ثم أكمل: «أخبر سلطانك أن هذه الدولة قامت على أكتاف الوزير الأعظم، فتح المدارس، وعمر البيوت، ونظم الجيوش، وحارب وانتصر. أخبر سلطانك أن دولته بي أنا».

وصلت الرسالة إلى السلطان، أعطاها لزوجته تقرؤها. كتمت ابتسامتها، وهي تعرف أن النصر قد حدَث. هذا فراق بين زوجها ووزيره نظام الملك. قالت لزوجها السلطان: تخلص منه قبل أن يتخلص منك.

وجاء دور الغزالي.

***

نهاية الغزالي لا بد أن تأتي في حياتها. غروره وصلابته يستفزانها من البدء. هو من سيقف أمام الحلم، ويعرقل السفر إلى السماء.

نادت أرسلان ليقابل حبيبته، فقد اشتاقت ماهي إليه، وألحت في طلبه. التحم الجسدان واحتارت القبل بين الأحضان والأنفاس والرجفات. لم يكترث بالمكان ولا الزمان، قال أرسلان في يأس: أحبك. لو تزوجتك أكون قد حققت كل أحلامي.

لم تستطع الرد عليه؛ لأن زوجها دخل عليهما حينها. صاح، وصفعها في قوة. اشتبكت الأيدي، ثم أخرج الزوج السيف ليقتلها، في لحظات دخل حارس، ثم نادى على الأميرة تركان خاتون. توقف الاقتتال، وامتثلوا جميعًا أمامها منكسي الرءوس. شكا الزوج، وهدد

زوجته. بكت الزوجة، وركعت أمام الأميرة تطلب الستر. وأرسلان متجمد مكانه لا يعرف ما يفعل، ولا ما يمكن قوله. استمعت، ثم طلبت من ماهي أن تذهب إلى حجرة في قصرها تمكث فيها حتى تبت في الأمر. وأمرت زوجها بالخروج حتى يتسنى لها هي معاقبة الحارس، ثم قالت لأرسلان: أي حمق فعلت؟! كيف تجرؤ على هذا؟

نظر إليها كأنه لا يفهم شيئًا، ولم ينطق. أكملت: كيف تتجرأ على قصور الأمراء؟ هذه الأميرة لا بد أن تعاقب، أما أنت فالقتل لا يكفي في حالتك. لا بد أن تصلب، وتقطع أطرافك حتى يدرك الحراس هيبة القصور. عندما أخبر السلطان...

ركع أمامها، وقال في رجاء: أتوسل إليك..

قالت في هدوء: الغزالي...

-أفعل ما تأمرينني به في التو واللحظة.

***

راقب أرسلان الباب، انتظر ذهاب الإمام، وتعلل ببعض الإرهاق، وطلب العودة إلى بيته اليوم. ثم عاد إلى قصر الإمام، تسلل إلى حجرة مكتبه، وبدأ يبحث عن ختم الإمام وأوراقه. ولكنها سمعت صوته.. ثريا.. سارت بخطى بطيئة، وهي تسمع صوت الباحث داخل الحجرة، ولا تدري من يكون. اقتربت وهي تتوقع عودة زوجها، قالت، وهي تفتح الباب: محمد..

ولكنه لم يكن محمد كان أرسلان. ما إن رآها حتى أمسك بسيفه. زوجة الإمام ربما تنهي أمره وتفضحه. لو قتلها الآن وهرب...هل

ستغفر له تركان خاتون؟

ولكنها كانت ثابتة في مكانها تقول في حدة: ماذا تفعل هنا؟

خبّأ عينيه داخل الكتب التي تغمر كل المكان، هل لو قتلها ينجو يا ثرى؟

ثريا اكتشفت أمره. ولو عرف الإمام يقدمه للمحاكمة ويموت. سينتهي كل شيء. تحسس سيفه، لو غرزه في بطنها يقتلها هي وابنها. لا يريد هذا. أشفق عليه الغزالي حتى وهو لا يثق به، ولكنه يحب ماهي. لو خيروه بين موت ثريا والإمام وكل الدنيا وبقاء ماهي، يعرف ما سيختار.

كانت حاملًا في الشهور الأخيرة. لبرهة رأى وجه ماهي المهزوم ومصيرها ومصيره، ثم وجه زوجة الإمام.

قال وهو يمسك بكتاب بين يديه لعله يعطيه بعض القوة حتى لا يقتلها: الإمام بعث بي إلى هنا يا مولاتي كي أبحث له عن كتاب.

نظرت حولها، أدركت خطر الموقف، قالت في حذر: أي كتاب؟

ولكن أرسلان لم يكن يجيد القراءة أصلًا. أمسك بكتاب، ورفعه إليها، فقرأت عنوانه: حارث المحاسبي، آداب النفوس؟

هزّ رأسه بالإيجاب، ثم التقط ختم الإمام، وخرج من الحجرة.

لم يعد بعدها لقصر الإمام.

***

حكت لزوجها ما حدث بالتفصيل بوجه واجم، ثم قالت في بعض

القلق: هي حيلة، هذا أكيد. الحارس يعمل لصالح الأميرة تركان خاتون يا محمد. كان لا بد أن أوقفه، ولكنني خفت.

مكث صامتًا، شغله خوفه عليها أكثر من سرقة الختم. ثم نظر إليها، وقال: حمدًا لله أن شيئًا لم يحدث لك. نحتاج إلى التأكد أن الحراس لن يدخلوا القصر. نحتاج إلى المخلصين، هذا أكيد.

انتشر الخبر في معسكر السلطان السلجوقي، الإمام الغزالي يسب السلطان في الخفاء، يبعث بالرسائل إلى العلماء يشكو حال البلاد والعباد. هذا ختمه على الأوراق والرسائل. همست تركان لزوجها: الغزالي إخلاصه للوزير نظام الملك فقط، ومنذ وقوع النزاع بين نظام الملك والسلطان والغزالي يحارب السلطان في الخفاء. ها هي كلماته تثبت ذلك. ثار السلطان وغضب. إذا كان مصير الحاجب كان فقع العينين، فما مصير العالم يا تُرى؟ استدعى الإمام إلى المعسكر وقد قرر ألا يستمع له، يعاقب ثم يسمع.

***

قبل دخول الغزالي على السلطان، أمسك الوزير أبو الغنائم بيده وأمره أن يأتي معه لدقائق. تملّكه غضب وقلق، لو ضاع منه منصبه، فماذا يفعل؟ وماذا يملك؟ كل آماله ستنتهي في لحظات. لِمَ لم يستمتع بلحظات الوصول وهو إمام؟ لِمَ نغص الشك عيشه؟ وما جدوى معرفة معنى الحياة أصلًا؟ كل واحد يظن أنه يمتلك الحقيقة، وكل بلد تسير على مذهب الحاكم، وكل قبيلة لها شيخ، وكل عائلة لها أب، وكل إنسان يولد لا يبحث عن الحقيقة، بل يدافع عن دين أجداده بلا تفكير. ما جدوى كل شيء؟

كم رجلًا جادل يا ترى؟ وما الفرق؟ هل أقنعهم؟ هزمهم نعم، كسرهم نعم. استخف بهم، هذا أكيد، ولكنه لم يقنعهم. وكيف يقنعهم والاعتقاد راسخ منذ الطفولة. مَنْ على صواب؟ ومَنْ على خطأ؟ هل سأل السؤال الصحيح؟ ولو كان كل من حوله يدافع عن كيانه وحاشيته، لِمَ لا يستقر الرضا في قلبه؟ ها هو اليوم يخسر كل شيء.

دعا ربه حينها. قال: يا رب، إمامة بغداد كانت حلمي، لا تجعلهم ينزعونه من أحشائي، كنت أتمنى أن أعطي وأعلم، أن أجمع الأمة على كلمة سواء. لا قبل لي بالهزيمة بعد النصر.

ثم قال من جديد: بغداد هي الحلم. لا تتركني لذلهم بعد أن أعزتني بلطفك.

تشبث بالحلم، غمره بيديه كأنه ابنه.

قال الوزير أبو الغنائم وهو يبتسم: الأميرة تركان خاتون تريد الحديث معك قبل دخولك للسلطان.

طبق شفتيه، ثم قال: جئت أقابل السلطان لا الأميرة.

فتح الوزير فمه في فزع، ولكن تركان دخلت وهي تبتسم وتنظر إلى الغزالي.

قالت: أردت أن أودعك. فبعد حين لن تملك العينين لتراني، ولا اللسان لتتكلم معي.

قال في هدوء وهو يكتم غضبه: من المؤسف أن يكون هذا هو دور الأميرة، وقد رفع الله شأنها في الدنيا ليحاسبها على ما أعطاها ويرى عملها فيه.

-طلبت منك أن نتعاون ورفضت. فضلت عليّ وزيرك مع أن كل شيء تحت سيطرتي أنا.

-وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

-أتندم اليوم؟

-لا.

-تتعاون معي؟ أهدئ السلطان قبل أن تدخل عليه، ولو لم تفعل يفقأ عينيك، ويقطع لسانك.

-وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

-اخلع عنك رداء الورع، لا أحد في غرورك يا محمد في كل بلاد المسلمين.

-يعلم الله ما في القلوب. حتى الأميرة لا تخترق القلوب إلا بالسيف، وحينها لا تقرأ ما بداخلها.

-أحب الاستماع إلى حديثك نعم، وذكاؤك معروف هذا صحيح، ولكن كل هذا لا يشفع لك عندي.

التقت العينان برهة، ثم رفعت يدها ليأخذه الوزير إلى السلطان، وتركت الحجرة.

***

كان هادئًا وهو يدخل على السلطان، فقد تعلم أن في التحدي قوة، وفي الهدوء وقت الخطر شجاعة، ولكن الغيظ يمزق أعضاءه. لو كان قد احتضن زوجته مرة أخيرة وقبّل بطنها حيث يمكث ابنه.

لو كان قد أمسك بيد أخيه مرة ربما. ولو ولو...ولكنها إمامة بغداد هي ما جعلت الحسرة تخنق أنفاسه. لا يستطيع أن يتركها بهذه السهولة، لم يحقق ما يريد ولا لمّ شمل الأمة. لا هو يستطيع أن يعود الفتى الطوسي، ولا أن يترك ما نال. الحسرة تتشعب وتتفرع كالزرع السحري، تصل إلى الأعماق قبل أن يغمض عينًا ويفتحها.

نظر إليه السلطان ولم يرحب به، ولا أعطاه السلام ككل مرة.

قال في صوت حادّ: لا أحد يعرف ما دار بيني وبينك سواك. فلا تقل لي إن الحارس دسّ الكلمات، وختم بختمك.

ساد الصمت برهة. لو قال الحق سيتهم زوجة السلطان أمامه وأمام الجموع، وفي هذا تهور لا تُحمد عقباه.

قال الغزالي في هدوء: سُئل عالم يومًا: «أي الناس خير؟ فقال: السلطان. فرد الناس: كنا نرى أن شرّ الناس السلطان. فقال العالم: مهلًا، إن لله تعالى كل يوم نظرتين؛ نظرة إلى سلامة أموال المسلمين، ونظرة إلى سلامة أبدانهم، فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنبه». في الحفاظ على سلامة الناس نجاة للسلطان.

توقع السلطان أن يدافع الغزالي عن نفسه، ولكنه لم يفعل.

فقال السلطان في حدته نفسها: فلمَ قلت ما قلت عني؟

-لو كان ظن السلطان أنى قلته فهو يدرك أهمية الدليل اليقيني، أما لو كان قلبه قد استقر فيه أنني قلته فلا سبيل لي معه.

-لا أتقن الكلمات مثلك. هل هناك دليل أكثر من ختمك؟

-بل هناك دليل أكثر من ذلك.

-وما هو؟

-ما تعرفه عني. المعرفة تسبق أي دليل، هي غاية الوجود ولُبه.

-عن أي معرفة تتكلم؟

-عن معرفة السلطان بأحوال الرعية، هل كان يجهل السلطان -أعوذ بالله- طوال السنوات الماضية حقيقة الغزالي؟ من يدعي هذا لا بد أن يُعاقب، فحكمة السلطان معروفة للعالم. فلو كان يجهل حقيقة الغزالي عامًا وراء عام، ففي هذا نظر.

-ماذا تقصد؟

-لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا.

-بل تكلم.

-أي سلطان يا مولاي يدعي جهله أمام الرعية بإمامه؟ ما أثر ذلك على القلوب؟ يلجئون إليك للمعرفة، وتلجأ أنت للعلماء للنصيحة. ساعة فوضى واحدة أو ريبة تُضيع المملكة كلها.

ساد صمت طويل.

تأهب الحراس بالسيوف.

قال السلطان فجأة: تطلب من كل الرعية أن يدعوا لي في المنابر من الغد، تخبرهم برأيك في سلطان العالم.

-أفعل يا مولاي دون أن تطلب مني.

-اليوم أطلب منك وأستمع وأنتظر...وأثق بك.

ابتسم في راحة، ثم قال: وثقة السلطان شرف لي، سأحافظ عليها مادمت حيًّا.

عند خروجه كانت تقف وراء الباب، التقت أعينهما، امتلأت عيناه بالتحدي والقوة والانتصار وعيناها بالغيظ والهزيمة والوعيد. ابتسم وهمس، ولكنها سمعته: الأميرة تغدق علينا بالهدايا، ولا نستطيع ردها لها. كرمك لا يوصف.

***

اجتمع الناس خارج معسكر السلطان، هللوا عند خروج الإمام. الإمام بخير لم يمسسه سوء. ولكن الوزير ابن جهير وزير الخليفة المقتدي بالله لم يهلل، كان يبتسم في فهم. أمسك بيد الغزالي، وخرج به من حول الجموع، قال بعد برهة: هل لي بكلمة مع إمام بغداد؟

قال: الوزير ابن جهير يطلب مني أي شيء.

دخل مع الوزير إلى قصره، جلس وأجلسه، ثم قال الوزير: هل أدركت من أنت اليوم؟

لم يفهم في البدء، فقال ابن جهير في قوة: الغزالي إمام بغداد أقوى رجل في بلاد المسلمين. أقوى من السلطان ومن الخليفة ومن كل وزير وأمير وجيش. السلطان لم يمسسك بسوء ليس لأنه حكيم، ولكن لأنه لا يستطيع.

أربكته الكلمات وأفزعته؛ لأنها تسربت إلى القلب مباشرة، فهدأت نارًا، وروت الظمأ. لم ينطق، فأكمل الوزير: أنت في عمر أبنائي، لم

تتعد الرابعة والثلاثين ربما، ولكنك اليوم تملك العالم. السلطان شرعيته بيدك، والخليفة والجيش وكل أمة المسلمين تنتظر كلمة منك. الإمام المجدد يأتي كل مائة عام، هو أنت. تسير في الشوارع فتتعلق بك الأحداق، تنطق فتخرس كل الألسنة. عقلك هذا جعلك تتحكم وتسيطر. لم يمسسك بسوء ولا يستطيع؛ لا هو، ولا زوجته، ولا جيوشه، ولا الخليفة نفسه. كلهم يحتاجون إليك يا إمام. كلهم أمامك مساكين كما الطفل الجائع.

مع أن الغزالي لم يتذوق الخمر يومًا، ولكن مرة أخرى يحدث الشكر من الكلمات. خضعت النفس للإطراء، وذابت بين أصابع النصر.

فأكمل الوزير: الباطنية لا يستطيعون قتل إمام بغداد. يقتلون أي رجل في الدولة نعم، أو أي شيخ، لكن لا يستطيعون أن يمسوك بسوء. من يمسسك يخضع لعقاب كل العامة، بل كل الأمة. من يمسسك بسوء يهلك. العامة تحيطك وترعاك، والعلماء تتشدق وتتلهف. مادمت أنت الإمام فأنت في أمان، لا بد أن تدرك هذه الحقيقة. الناس تحتاج إلى من يطمئنهم، يهدئ من روع الظلم وقسوة تقلبات الدنيا، يحتاجون إلى من يذكرهم أن النهاية ليست هنا، وأن العدل جائز حتى ولو في العالم الآخر. يحتاجون إليك؛ لأنك تثبتهم وتؤمنهم من أخطار التيه والحيرة. لو تاه العقل يا إمام واحتار يكون خطره أبشع من أي سيف ونار. تفهمني؟

قال في يقين: أفهمك.

-نحن أصدقاء من اليوم. الخليفة ينتظرك في قصره ليستمع إلى درسك.

***

انتهى من درسه بحضور الخليفة، وعاد إلى قصره والانتصار بطعم العسل ولذة العشق. يؤرقه لهفته على الإمامة أحيانًا، يخنقه هذا التعلق. يتشبث بالمنصب ربما لأنه يريد أن يعطي، أن يجمع الناس على كلمة سواء، أن يصحح العقيدة. يتشبث ربما، ولكن غرضه كله عطاء وعزة. ثم تطل من عقله الظنون. يا محمد؟ هنا بشر لا يريدون إلا عزتهم ومصلحتهم هم. كيف للبحر المالح أن يسقي الظمآن. أي كذب تقنع نفسك به؟ يا محمد...تُرى هل وجدت قلبك بعد أن خرج من أحشائك، واستقر في زاوية حُجرتك؟ يحتضر قلبك يا تُرى أم يشتاق إليك؟ لِمَ لا يكتمل النصر ولا تصفو الأيام؟ لِمَ ينغص الظمأ العيش؟ ولِمَ يرى الدنيا تدنو وتبتعد بلا معنى ولا فهم؟

ما إن عاد إلى قصره حتى وجد أحد جنود الوزير الأعظم ينتظره على الباب. الباطنية قتلوا الوزير الأعظم نظام الملك. ويقول آخرون: إن القاتل ربما كان من أعوان الوزير أبي الغنائم وزير زوجة السلطان السلجوقي. ويقول آخرون: إن السلطان نفسه قضى عليه. لم يتأكد أحد؛ لأن القاتل تم قتله في التو.

أمسك الجندي بيد الغزالي، ضغط عليها، وبكى، ثم قال: طلب أن تضعه أنت في قبره بنفسك.

بدا الغزالي متماسكًا. ذهب ليدفن الوزير بنفسه كما أوصى.

خفق صدر الإمام لحظة انتشار الرمال على الصدر والرأس، ثم استسلام الجسد لدود الأرض وأصحابها الحقيقيين وملوكها القادرين، هي الديدان التي تقضي بالفعل، وتمحو اللحم، وتطمس

آثار المجد. ليس ضعف الجسد ما يرهب من الموت ولا فنائه فقد خُلق من عدم، بل هزيمة الجسد أمام كائنات كنا نحسبها ضعيفة أمامنا، ندهسها بالأحذية، ونتجاهلها عند المرور بالفرس والسلاح. جاء دورها لتدهسنا، وترتع، وتلعب على أنقاضنا. سيبنون الطوب، ويزخرفون الزخرف، ويبقى الموت هو الأقوى. يفرق بين الحبيب ومحبوبه، وبين ما جمعنا وما تركنا، وما نسينا وما تناسينا. يُذكّرنا ويوقظنا هذا القادم دومًا بفراق الدنيا، وأن الآخرة يقظة ولقاء. لا يدري لِمَ ابتسم يومها في بعض الحزن والكثير من المرارة. يا لبساطة الأماني وسرعة النهاية!

«وكل ما هو آتٍ قريب، والبعيد ليس بآتٍ»...والموت آتٍ فهو قريب.

***

بغداد لم تعد دار السلام، دنت الدماء، وطلبت الدخول. قُتل الوزير الأعظم، وهدد السلطان السلجوقي الخليفة، بل أعطاه أسبوعًا ليترك بغداد، فلم يعد هناك داعٍ لوجود خليفة في بغداد مادام هناك سلطان سلجوقي. ثم خليفة بغداد المقتدي بالله لا يدرك كم ضحى السلطان السلجوقي من أجله! وكم حماه! منذ هجر ابنة السلطان السلجوقي ونهايته تقترب. اليوم استدعى الخليفة الغزالي وعيناه كلهما انهزام. لا جيش له، ولا قدرة حتى مع كل الأموال والقصور.

ثم قال الخليفة في استغاثة: أنت يا إمام تقنع السلطان بأن يمهلني شهرًا واحدًا أجمع أغراضي، وأترك بغداد.

حوقل الغزالي، ثم قال: أفعل يا مولاي.

رحل برسالة إلى السلطان ملك شاه يدعوه إلى إمهال الخليفة

شهرًا لترك بغداد، فهو خليفة المسلمين والعامي يحتاج إلى وقت لجمع أغراضه، فما بال الخليفة بحرمه وحشمه؟!

استمع إليه ملك شاه، ثم وافق، وهو مشغول بأمر آخر. ما يشغله هو مرآة كبيرة وضعها في بهو قصره صدئت بين ليلة وضحاها.

يحتاج إلى من يتقن تنظيفها ولا يجد. بحث وبحث حتى عثر على رجلٍ مجذومٍ تآكلت يداه وقدماه، يحمله ابنه من بيت إلى بيت ليصقل ويلمع الحديد فتنعكس فيه الصورة بوضوح.

حملوا المجذوم إلى معسكر السلطان السلجوقي ملك شاه، وما إن دخل حتى أغمض الغزالي عينيه لحظة من فزع منظره وتشوهات جسده، ولكن السلطان تكلم في رفق، قال: يقولون إنك تتقن صقل الحديد. مرآتي صدئت ولا أحد يستطيع أن يساعدني، ولكن كيف تصقلها، وتنظفها، ويداك بهذا الشكل؟ إصبع قصير، وآخر طويل، وأحد الأصابع تلاشى، وآخر ظهر من جديد. ما اسمك؟

قال المجذوم: بائع الثلج.

-ولكنك تصقل الحديد.

-كنت أبيع الثلج في الماضي يا مولاي.

-في بغداد أم خراسان؟

-هل يهم؟ البضاعة تذوب في كل مكان. كنت أنادي كل يوم: ارحموا مَنْ بضاعته تذوب مع كلِّ نفس وخطوة.

قال السلطان كأنه لم يفهم كلماته: انظر إلى مرآتي.

فقال الرجل وهو لا ينظر إلى أحد: أرى في المرآة أن مُلكي أعظم من ملكك؟

فتح السلطان فمه في ذهول، فقال الغزالي مسرعًا: مولاي السلطان، تذكر درسنا عن الغضب. الأمير من أمر النفس وتحكم في الغضب، والسلطان من أعطى لعقله مفتاح المملكة.

قال السلطان وهو يتنفس الصُعَداء ويوجه كلامه لبائع الثلج: وكيف هذا يا بائع الثلج؟

قال الرجل وهو ينظر إلى المرآة، ويبدأ في تنظيفها، ولا ينظر إلى أحد: ما أنت عبده عبدي. شهواتك وأموالك وسلطتك كلها بالنسبة لي لا شيء. ما يملكك تخليت أنا عنه.

لاحت ذاكرة الغزالي إلى ماض ليس ببعيد، تذكر فقأ العينين وقص اللسان. توقع مصير المجذوم، وأدرك عجزه عن تغييره. أشفق على نفسه أولًا من مشاهدة القسوة والهلاك، ولكن السلطان قال: وهل كان لبائع الثلج سلطة أو مال؟ وهل له ملك وهو مشوه مجذوم.

قال والمرآه تتلألأ بين يديه: لكل إنسان شيطان ينازعه، وطمع يحاربه، وملك يتسرب إلى دمه حتى المجذوم. الحرية صعبة لمثلك وأسهل لمثلي.

ثم التفت إلى الغزالي وقال فجأة: إمام بغداد...تطلب منهم ترك الدنيا لك يا رجل؟ تنشغل بتفاصيل النزاع بين البشر على دنيا كما شواظ النار تضطرب العين أمامها، وتتسارع الأنفاس، ثم تتحول إلى رماد؟ تسن السيف يا غزالي، ولا تضرب به؟

قال الغزالي: لست جنديًا لأضرب بالسيف.

-من يقتل طمعه هو الجندي الحق. تعال لأحكي لك... هذه كلمات قرأتها في كتاب رجل حكيم يقول: «هذه الدار ليست دار مقر وإنما هي دار ممر، والناس فيها على صورة المسافرين، ومبدأ سفرهم بطون أمهاتهم، والدار الآخرة مقصد سفرهم، وزمان الحياة مقدار المسافة، والسنون منازله، وشهوره فراسخه، وأيامه أمياله، وأنفاسه خطاه». هل قرأت هذا الكتاب يا إمام؟ ابحث عن كاتب الكلمات يا شيخ، وابحث عن موضع أنفاسك وخطاك.

قال السلطان كأنه مسحور: تجرأ المجذوم، ولكنه يبرع في تلميع المرآة. هذا يكفي، أنت تتكلم مع إمام بغداد.

ولكن المجذوم كان يكلم نفسه حينها، يقول وهو يتقهقر خارج القصر: هذا سفر لا يفضي إلى المقصد إلا بزاد واحد.. هو التقوى.

لم يفكر كثيرًا في لقائه بالمجذوم، فقد جاءه خادمه وهمس في أذنه أن زوجته جاءها المخاض، فاستأذن وجرى إلى قصره.

***

تنفست ثريا نفسًا أعمق من الغور. أمسكت بظهرها وهي تتحرك بلا توقف، تدور حول الحجرة، فقالت أختها: ثريا، اصرخي، أنا لا أعرف امرأة في العالم تلد دون أن تصرخ. كتم الألم ليس من شيمة النساء. لو لم تصرخي فلن يدرك مَنْ في القصر كيف عانيت وتعذبت، وهو نفسه لن يدرك، أتفهمين؟

لم تجبها. أمسكت بيد الداية، ثم قالت: لم أعد أستطيع التحمل.

ولكنها قالت في لامبالاة: ساعات ثم ينتهي الأمر...تتحملين بالطبع.

سألت عنه، فمصمصت أختها شفتيها، ثم قالت: هذا الحب لا أستطيع تحمله. ينتظر بالخارج، يسأل عنك أيضًا. اصرخي حتى ليعرف أنك حية.

هزت رأسها بالنفي، والعرق يتصبب منها، بعد ساعات ظنت أن قدرتها تهاوت، وطاقتها فَنِيت، ولكن الداية طلبت منها أن تجمع كل شجاعتها فقد حانت لحظة الدفع الكبرى. مرة ومرتين حتى سمعت صوت ابنها، ثم أغمضت عينيها تلتقط أنفاسها. يبدو أن أختها صاحت في فرحة أنه ولد. ويبدو أنها خرجت به لوالده، فأطلق عليه حامد لأنه رزق من الله لهما. كانت يده هي التي تمسح العرق من على جبهتها، ولكنها لم تكن تقوى على كلمة واحدة، ابتسمت، وضغطت على يده الأخرى بيدها.

ذاع الخبر، وانهالت المباركة. الإمام زرق بولد، فذبح العجول، وأطعم كل فقراء بغداد أو كاد. غمر القصر هدايا من أمراء ووزراء. حتى الخليفة بعث بهدية. ولكن الإمام تمنى زيارة واحدة، وتمنى مشاركة رجل واحد له هذه الفرحة المختلفة. مر يوم واثنان ولم يأت، ثم في اليوم الرابع دق بابه أحمدُ أخوه.

لم تحضر ثريا اللقاء، ولم تقابل أحمد قط، ولكنها سمعت كل شيء من عزيزة. همست وهي تسند ظهر ثريا حتى تعتدل في جلستها وترضع حامد: لم أرَ زوجك بهذه الفرحة منذ زمن.

-فرحته بحامد تقصدين؟

-لا، فرحته بأخيه. تلمع عيناه كأنه عاد طفلًا يقابل والده لأول مرة

بعد غياب. يتغير وجهه كأنه في طمأنينة وبراءة. عانقه وأجلسه بين يديه، وضع حامد بين ذراعي أحمدَ، وتكلم معه بلا انقطاع.

ثم غمزت لثريا، وقالت: هذا رجل لا بد أن تخافي منه، وتضعي حسابًا له.

-تقصدين أحمد؟

-هو؛ لأن الألفة بينهما بعمق السنين وهمة الدهر. تذكرين؟

قالت: هو أخوه يا عزيزة. كل ما تبقّى من أهله.

قالت في امتعاض: هو أخوه نعم، ولكنه ليس بشهرته ولا نجاحه. ومع ذلك يؤثر فيه كل هذا التأثير.

قالت في حسم: الإمام لا أحد يؤثر فيه، ولا يحركه سوى عقله.

***

ثريا لم تدرك معنى لقبها الجديد، زوجة الإمام، سوى بعد حين. طوال عمرها وهي حذرة تحتفظ بمشاعرها لنفسها، بغضبها وفرحها وحزنها، تتوقع غدر الأيام أحيانًا وتتقبله في صبر، ولكنها لم تتوقع كل هذا الرخاء والثناء والراحة. لم تعتد أن يطيع كل من حولها كلماتها، ولا أن يستمع إليها الناس في انتباه زائد كأن كلماتها من درر البحر. حتى أختها بدأت تحتاط وتفكّر قبل أن تصيح في وجهها أو تلومها كما كانت تفعل في الماضي. أغدق كل الناس عليها الهدايا. في البدء زاغت عيناها واحتارت بين الألوان والأشكال، ثم بدأت تعتاد كل الألوان، تحتفظ ببعض الهدايا، وتعطي بعضها لمن حولها أو تخرج البعض صدقات. أصبح قصرها أصغر من كرم البشر حولها،

لا يحتمل كل هذا العطاء. هل تغير الناس وعم الخير لأن الإمام يعظ ويفتي يا تُرى، أم أن الخير اختص فقط بيت الإمام؟ وكيف أصبح كل مَنْ يعاديه أصدقاء، وكل من يتحداه يخضع لإرادته؟ لم تفقد ثباتها ولم تثق في أحد، ولكن عينيها تتجهان إليه هو فقط. ومنذ ولدت ابنها والعالم بألوان الجنة وزهوها. كانت ترضعه بنفسها، وترعاه بنفسها، لا تتركه وحده دقيقة، تخاف عليه من كل شيء وأي شيء. حامد، هكذا أطلق عليه والده؛ لأن الحمد من الإيمان، ولأن خير الله عليه لا يُحصى. أصبح الإمام يُكنى بأبي حامد الغزالي.

عندما ينتهي من الكتابة والتدريس وكل المراسلات والمقابلات يقضي معها أجمل ساعات عمرها. يكون اللقاء بطعم العسل والشوق كما مناجاة الأرواح بلا كلمات. لا تحتاج معه إلى الكلام ولا تتقنه، ولكنه يعرف دومًا، يعرف كل شيء. أحيانًا يعود مهمومًا أو غاضبًا، لا تسأل، ولكن ترتبك ويدرك ارتباكها، فيأخذها بين ذراعيه بلا كلمة.

اليوم عاد والقلق يحيطه، جهزت له الطعام، ثم جلست أمامه تداعب طفلهما. اقترب منها، وأمسك بالولد من بين يديها، نظر إلى عينيه، ثم قبل رأسه وقال: كل ما أتمناه أن يحيا في سلام. أصبح السلام أعز من الياقوت الأحمر.

فتحت فمها تريد أن تسأله، ولكنها لم تفعل. جاءها الخبر بعد عدة أيام دون أن تسأل. عرفت المهلة التي أعطاها السلطان للخليفة لترك بغداد. اقترب الشهر من نهايته.

***

انتصف الليل، لم ينم بعد، ولكنه أغمض عينيه، أحاطت ظهره

بذراعيها كما تفعل دومًا، وسمعت الدق على الباب. تحرك من مكانه، خرج من الحجرة، ثم من جناحهما. قال حارسه في وجوم: السلطان ملك شاه يريدك الآن.

لم يسأل، ذهب، وارتدى ملابسه. قالت في قلق: لِمَ لم ينتظر حتى الصباح؟ هل تظن أنها وشاية؟ محمد..كيف أطمئن عليك؟

قال في هدوء: لا تقلقي.

ثم خرج، وأمر الحراس بغلق كل الأبواب. لم يصل إلى معسكر السلطان إلا قبل الفجر بقليل.

أمره الحرس بالدخول، لم يكن السلطان مَنْ ينتظره، كانت الأميرة تركان خاتون. ما إن رأته حتى نطقت اسمه في استغاثة، ثم جلست، وقالت في جمود كأن الزمن والأحداث خارج نطاق جسدها: أحتاج إليك اليوم. السلطان مات منذ ساعات. كان في رحلة صيد، ثم عاد متعبًا، ومات هنا أمامي. بل قتله الخليفة، دس له السم. أنا أعرف كل شيء. أراد أن يقتله قبل أن ينتهي الشهر. هذا فعل الخليفة وأعوانه. فلو أنهيته اليوم أخذ حق زوجي.

توقع هذا، لا يدري كيف ولا لماذا. لم ينطق.

قالت بعد حين: لا أحد يعرف، ولن يعرف أحد حتى يبايع الخليفة محمود ابني. لو عرف أحد الآن تنهدم الدولة، وتشتعل الحروب من أخٍ للسلطان، من أولاده، من زوجاته، أريد مساعدتك.

هوت إلى الأرض، وغطت وجهها براحتيها. بدت لأول مرة أمامه إنسانًا في ضعف وحاجة. قال في رفق: الأميرة دومًا قوية.

قالت في بعض الرجاء: محمد، أريدك معي، لا تتركني، لا تتخلّ عني.

فاجأته، نظرت إليه برهة، وتساقطت الدموع، بدأت تبكي بصوت مسموع، فقال بلا تفكير: هو أمر الله. الأميرة تصرفت كما الرجال، تريد استقرار الدولة قبل أي شيء. تريد حقن الدماء.

همست في صوت مكتوم: لا أثق في غيرك.

ابتعد، ثم قال في حرص: ما ستفعله الأميرة اليوم يمكن أن يجعل منها أحد الأبطال. سيكتب عنك العلماء يخطون تاريخك يومًا وراء يوم لو أنصفت.

بدا أن كلماته أفاقتها، قامت ونظرت إليه في قوة وقالت: أنت دومًا تريد أن تحقن الدماء.

لم ينطق فأكملت: محمد، من قتل زوجي هو الخليفة، دسّ له السم في الطعام أمس حتى كان يتقيّـأ دمًا، قتله بعد رحلة الصيد كما هو مألوف لدى الخلفاء. لدي جيش هنا بالخارج صرفت عليه ثلاثة ألف ألف دينار لو أمرته أن يهدم قصر الخلافة فسينتهي منه في غضون ساعة لا أكثر. المقتدي بالله خليفتك قتل زوجي، ولكنني مستعدة أن أحقن الدماء لو بايع ابني محمود اليوم. أنت سوف تخبره بما قلت، أنت...لا أثق في غيرك.

بقي ساكنًا فقالت: ابن زبيدة خاتون زوجة السلطان الثانية، بركياروك، ربما يكبر محمود ابني سنًا، ولكنني أنا الزوجة الرئيسية للسلطان، أنا رفيقته وصديقته، أنا من تحمّلت موت ولد وراء ولد.

كانت تتكلم في حِدّة وقوة، ولكن الدموع تتساقط بلا توقف، نظرت إليه في استغاثة وبعض الضعف. لأول مرة نطقت اسمه في حنان قائلة: لن تتخلى عني. محمد..

قال في هدوء: نتحاشى الحروب يا أميرة. قتل المسلم للمسلم خطيئة لا يدرك حجمها سوى من قابل ربه، وعرف هول الحساب. لا أريد دماء حولي. ساعديني لأنك تستطيعين.

-أساعدك، ولكني لن أضحى لأنني لو استسلمت أُقتل أنا وابني، أنت تعرف هذا. السلطان سيُدفن في أصفهان، ولكن وفاته لن تُعلن حتى انتهاء المفاوضات مع الخليفة. استقرار كل بلاد المسلمين بين يديك يا إمام. ولا تقل إنك لست سياسيًا، من يركب البحر لا يخشى الغرق.

***

عندما عاد ألحت عليه زوجته لتعرف ما حدَث ولم ينطق. ذهب لمقابلة الخليفة. رأى الحلم المخيف وهو في تمام اليقظة. هذا طفل يفقد أطرافه، وهذه سيدة تبيع جسدها في الأسواق، هذا جندي يقتل بلا رحمة أو معرفة، وهذا رجل يمسك ببقايا عينيه وهو يصرخ. هنا رجل يصيح أن الله ظلمه، وهنا آخر يقول إن كل الشيوخ منافقون، هنا امرأة تصرخ بأن الزنادقة على صواب، وهنا أخرى تخبر الله أنها لا تعرفه. وسط الأهوال تتلاشى التقوى، وتنهدم كل المقدسات. عبس وجهه وثقل قلبه. «من يركب البحر لا يخشى الغرق». هكذا قالت الأميرة. ومن يصاحب السلاطين يمسح الدماء وراءهم بيديه، يمحو أثر الظلم حتى لا يثور العامة، حتى وهو يعرف

أن الدماء استقرت في القلب لا محالة.

وسوس الشك، ثم نخر، ثم حفر، ثم ترك الندبات التي لا تهدأ ولا ترحم. أي علم نفعك يا إمام؟ كنت تجادل وتشرح، ماذا ستفعل اليوم؟ هل ستثبت للعساكر أن الله موجود؟ وعندما تفعل هل سيتوقف القتال أم سيزداد؟ هذا جيش سيقول الله معنا، وهذا جيش آخر سيدّعي أن الله معه. هؤلاء على مذهب، وهذا مذهب آخر، وكل حزب بما لديهم فرحون. تشققت الأيام كما البشر، وعمّ الفساد كما حشرات الفواكه وسوس الخشب. ولكن الإمام يستطيع أن يوقف الحرب. لا بد أن تقف الحرب. من يركب البحر لا يخشى الغرق. هكذا قالت. ومن يدعي أنه غواص يدرك وطأة الغرق.

***

كالعادة عرفت ثريا بعد حين أن من طلبت لقاء زوجها كانت تركان خاتون. لجأت إليه هو، بينما أمامها اللجوء لكل جيشها ووزيرها وللخليفة نفسه. بدأ الشك يتسرب في إتقان. كان الشك في نوايا تركان خاتون، وليس في زوجها، فهي جميلة وأميرة، وفي يدها جيش، وفوق كل هذا هي الآن تلجأ إليه كامرأة تلجأ إلى رجل ليحميها ويساعدها. وقع لجوء المرأة على قلوب الرجال عظيم، خاصة لو كانت في قوة تركان. تكبر تركان الغزالي بأربعة أعوام ربما لا أكثر. سيطر عليها ملمس يد تركان الناعمة، ونظرتها التي تخترق كل مستحيل بلا هوادة. دون أن تدري قارنت، ووجدت أنها لا تصل إلى جمال الأميرة ولا أصلها، وفوق كل هذا وهذا أرقها أنها لا تتكلم لغته التي تتقنها الأميرة. لا تعلمت الفارسية ولا حاولت، بينما تتقنها تركان خاتون مع أنها أيضًا تتكلم التركية. ومن يتقن لغة الطفولة

يعرف كيف يصل إلى القلب، هذا أكيد. طردت الأفكار وهي ترضع ابنها، نظرت إلى عينيه وأنفه كأنها ترى زوجها في طفولته.

***

لم يتكلم معها في أمور الحكم قط، ولن يتكلم معها اليوم، ولكنها عرفت وهي تراه يجهز حقائبه أنه ذاهب إلى أصفهان ليقابل تركان خاتون. تتناثر الأقوال بين العامة. هناك صراع يدور بين تركان خاتون والخليفة. أراد رجال القضاء والفقه أن يخضعوا لإرادة الأميرة فهي تملك الجيش، ولكن رجال نظام الملك يريدون محاربة الأميرة. جلس الفقهاء وكبار رجال الدين حول الخليفة المقتدي بالله، سألهم رأيهم في تولية محمود السلطنة، وجعل أمه الوصي عليه. قال الأول: يجوز. وقال الثاني: لا يجوز.

ثم قال قائد جيش النظامية: الخليفة لا بد أن يحكم بعدم شرعية محمود ولا أمه، لن نقبل بسلطان طفل.

نظر الخليفة حوله، لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، فقال الفقهاء معًا: إذا كان جيش النظامية يرفض تولي محمود فلا يجوز يا مولاي. يحارب جيش النظامية الأميرة إذن، ويبايع الخليفة من ينتصر.

بقى الغزالي ساكتًا. قالوا في تأكيد: هي ترفض أن نولي وصيًا على محمود، فلا بد من محاربتها. وجيش النظامية مستعد للحرب.

قال الغزالي في حسم: لا يجوز شرعًا تولية السلطنة لطفل.

قالوا جميعًا: الغزالي على حق. وقائد جيش النظامية على حق. نحارب الأميرة.

فقال الغزالي: محاربة الأميرة ليست من الحكمة في شيء. دور الخليفة الحفاظ على دماء المسلمين وحمايتهم من الحروب وخاصة الحروب التي لا داعي لها ولا طاقة لنا بها.

فقال أحد القضاة: الغزالي على حق، لو دخلنا في حرب مع الأميرة تكون نهاية الخلافة، ولو اقتتل المسلمون يفقد الخليفة هيبته وهو عماد الدين.

ساد الصمت. بدَا على الخليفة الحيرة، فقال للغزالي: بماذا تنصح؟

قال الغزالي: لا يجوز شرعًا تولية سلطان لم يبلغ بعد ولا هو رشيد، ولا يجوز أن تصبح هي الوصية على العرش. ماذا تملك الأميرة ليؤهلها لهذا؟

قال الخليفة: كأنك تفضل الحرب.

ساد الصمت، أشار الخليفة إلى الجميع بترك الحجرة ماعدا الغزالي. نظر إليه، ثم قال الخليفة: بركياروك هو الابن الأكبر للسلطان، وزبيدة أمه لها جيشها وجنودها. وجيش النظامية يكره تركان خاتون، ويتهمها بقتل نظام الملك. بماذا تنصح يا أبا حامد؟

بماذا ينصح؟ الغريب في أمور الحكم أنها تفرق بين المرء وقلبه، منذ أيام وأبو حامد لا يفكر سوى في أمر السلطان، وأمر الأمة، حتى درسه أعطاه وهو شارد الذهن. هنا قرار يؤدي إلى إراقة الدماء، وهنا قرار يؤدي إلى تشتت وضلال، وهنا قرار واحد يجمع الأمة. اليوم كل القرارات طوع يديه هو. تركان خاتون..لم يحلل يومًا مشاعره تجاهها. هل غضب منها عندما حاولت القضاء عليه؟ هل أشفق عليها وهي تبكي في عجز حتى ولو للحظات قليلة؟ يدرك أن الحذر معها

واجب كالحذر في وجود الأسد، تنقض من حيث لا يدري، وتشعرك بالأمان لتغرز الأظافر في العنق، تخنق ثم تفترس، ولكن من يصاحب تركان خاتون اليوم هو أبو الغنائم وزيرها، وهو كالضبع الجائع يريد الحكم حتى ولو كان ممزوجًا بالدماء. أبو الغنائم هو الخطر بعينه، لو قامت الحرب بينه وبين الخليفة تكون نهاية الخلافة. ولو حكم البلاد تكون النهاية أيضًا. والابن الأكبر ليس بقوة تركان خاتون اليوم.

قال الغزالي في هدوء: الوزير أبو الغنائم لا بد أن يبتعد عن الدولة.

فقال الخليفة: لا أفهم كلماتك يا أبا حامد. توافق أن نعطي الشرعية للسلطان محمود؟

-أوافق أن يكون هناك وصي على السلطان الصغير يعينه الخليفة؛ حتى نتقي شر الحرب، ولكن لا بد من تهميش الوزير أبي الغنائم.

-هذا صعب، كل قوة تركان خاتون مستمدة من وزيرها أبي الغنائم.

قال الغزالي: لو صمم الخليفة أن يصبح للسلطان الصغير وزير وقائد يختاره هو، نبعد شر أبي الغنائم.

-ولكنه لن يستسلم ولن توافق تركان خاتون. أنت تعرف.

قال أبو حامد: أنا أفضل تطبيق الشرع والمنطق، وأفضل إعطاء القوة للخليفة وليس لأبي الغنائم وزير تركان، فهو للسلطة كاللاهث وراء سراب ماء، ومن يلهث وراء السلطة لا يكترث بالرعية.

قال الخليفة: طلبنا هذا منها ورفضت، أنت تعرف، لا بد من الحرب.

-اتركني أحاول أنا معها.

-وكيف ستقنعها أنت؟ ولِمَ تريد أن تحاول أصلًا؟

-أعلم وأتعلم أحكام الشرع، وأعرف أهمية الحوار والإقناع. اتركني أحاول.

لم يُجب. أشار الخليفة بيديه فدخل القضاة مرة أخرى.

قال القاضي في غيظ: تذكّر يا مولاي أن الغزالي سيكون هو السبب في حروب تدوم أعوامًا. نتقي شر تركان فلا قِبَل لنا بها.

ثم قال آخر: بل نحاربها بجيش النظامية.

ولكن الغزالي قال: سأسافر إليها اليوم.

***

امتلأ الهواء حولهما بكلمات لم تخرج من الحشا، وقلق ينتشر بين الجوانح. منذ تزوجته ثريا وهناك خيال وحقيقة كلمات تقولها له في رأسها ولا تخرج إلى اللسان، وكلمات تقولها بعد تفكير وموازنة. لا خمدت الرهبة من كونها زوجة الإمام، ولا استقر الشوق ليلة. تشتاق إليه وهو معها، وهو حولها، وهو يمر مرور السحاب، وتخاف أن تنبس بكلمةٍ لا تروقه. عندما ذابت بين أضلعه ظنت أنها لن تخجل بعد ذلك، ولكن بقي الخجل مِنْ إدراك مَن يكون، وماذا فعل معها هي وأختها. حتى وقت الحب تختار الكلمات بعناية لا تزيد ولا تنقص، حتى وهي تترك نفسها بين راحتيه تغمض عينيها وتدير وجهها عنه. يدرك خجلها ويحتويها دومًا، يقرأ قلبها قبل رأسها. وفي وقت اليقظة يتبع عينيها ليعرف ماذا تروم. أصبح الأب والأم والحبيب والأخ، أصبح كل ما تملك. ودارت في الأفلاك حوله، تفكر فيه، وتبحث عنه. اليوم

تريد أن تقول: لا تذهب يا محمد. لا أريدك أن تقابل تركان خاتون، ولا أن ترحل، ولا أفهم لِمَ عليك أنت أن تفعل هذا. أنت لست جنديًا ولا أميرًا، لِمَ تحمل مصير أمة بين راحتيك؟ أنت رجل دين ولست رجل سياسة.

تتمنى أن تنطق بأكثر من هذا، تريد أن تخبره بما يجول بخاطرها، بغيرتها من تركان خاتون، بشعور كامن لزوجة بأن امرأة تريد زوجها، امرأة ربما تفوقها جمالًا ومالًا وعائلة. تريد أن تهدده، تخبره أنه لو فكر مجرد تفكير في الزواج من تركان خاتون فستتركه، حتى لو انتهى الأمر بها إلى كهف في أحد الجبال أو مغارة، ستتركه.

امتزج الغضب بغيرة سوداء ولهفة حمراء.

قالت وهي لا تساعده على تجهيز حقيبته للسفر ولا يطلب منها هذا، بل تنظر إليه وهو يضع أغراضه داخل الحقيبة: سمعت الناس تقول إنك ذاهب لمقابلة الأميرة.

نظر إليها برهة، ثم قال: نترك الحكم والسياسة خارج بيتنا يا ثريا.

ترددت، فتحت فمها، ثم أغلقته، ثم فتحته وقالت: أنت ذاهب للقاء الأميرة تركان خاتون.

-لديّ تكليف بالقيام بأمر من الخليفة، قلت لك هذا. لا أملك أن أخبرك بأكثر من هذا.

قالت وهي مغمضة العينين: تركان خاتون جميلة وقوية، لا يقدر عليها أحد. حتى الخليفة يقف أمامها بلا حيلةٍ الآن. وكل القضاة والأئمة حسمت الأمر إلا أنت تذهب لمقابلتها.

توقف، ونظر إليها مليًا كأنه يعرف ما لم تقله ولم ينطق.

فأكملت: تكلف نفسك ما لا طاقة لك به. ما لم يقدر عليه الخليفة لن يقدر عليه الغزالي يا إمام. وما الذي يجعل تركان خاتون تُطيع أوامر الإمام بعد أن تحدّت الخليفة؟ بيدها الجيش، ماذا يملك الإمام ليجعلها تطيعه؟

تجاهل أسئلتها، ثم قال: أريدك أن تعتني بنفسك، وابننا، وأختك، وكل من في القصر.

بدأت تفرك أصابعها، وجلست دون أن تنظر إليه، ثم قالت وهي تطأطئ رأسها: يساورني أحيانًا حلم يزعجني، كأن تركان خاتون ربما تجد في الإمامما لا تجده في أي رجل، أو ربما تخيره بين إراقة الدماء والزواج منها. أعني في حلمي أرى أن الأميرة لن تستمع إلى الإمام، فلا أنت أمير من قبيلتها، ولا من الغز الأتراك. لماذا تستمع إليك وتتحدى الخليفة إلا لو كانت النية معكرة بماء السواقي لا بالبحر الخِضَم؟ هذا الحلم يزعجني يا شيخ. هي أضغاث أحلام، أعرف ذلك، ولكن لو بعث الخليفة رجلًا غيرك يرحمك من خيالاتي.

أطال نظره إليها، لا تدري هل أغضبته أم لا. قال بعد برهة بصوت صارم: أتعرفين ما شهدته منذ اقتربت من السلاطين؟ وما يخيفني؟

-وهل يخاف الإمام؟

-يخاف من تدخل النساء في الحكم. يخاف من تأثيرهن على الوزراء والسلاطين. العامة تظن أن ولي الأمر هو السلطان، لا يدركون أن وراءه نساء قصره، كل تريد قطعة من الأرض، وقبضة من الذهب.

كانت أول مرة يتكلم عن مشاعره، ولكنه أربكها؛ لأنها تعرف ما يروم من كلماته. قال: لن تتدخل زوجتي في أمور القصور، فالسياسة تفسد، والطمع يجر صاحبه كالفرس المتوحش إلى أسفل السافلين. أخبرتك أن لدي تكليفًا بالسفر، وأنني سأعود خلال أيام. هذا كل ما في الأمر.

حنت رأسها، ثم عضّت على شفتيها وهي تفهم أمره وكلماته، ولكنها لم تصمت، قالت مسرعة: ماذا لو قتلتك؟ ابنك يحتاج إليك وكلنا.. يمكنها أن تَدُسّ السُم لك، تعرف أن دسّ السُم من عادة الملوك، ماذا لو..؟!

قاطعها وهو يقوم يحمل حقيبته للخروج: عهدتك تفهمينني يا ثريا. أريدك أن تطمئني..

نظر إليها، ثم أكمل: اطمئني على كل شيء.

فهمت كلماته التي لم يقلها. لا يكذب لو طلب منها أن تطمئن، فهو لا ينوي الغدر، هذا أكيد، ولكنها لا تثق في الأميرة ولا في قُدرتها.

قَطّبت حاجبيها، ثم اقتربت منه، وانحنت قليلًا وأمسكت بيده وقبّلتها، وقالت: تعود إلينا بسلام.

ثم وضعت يده على جبهتها برهة، فحرك كفه، وأحاط خدها، ثم أمسك بساعدها يقربها إليه، اقتربت، وألقت برأسها على كتفه دون كلمة، قبّلت كتفه، ثم ابتعدت قليلًا لتتركه يرحل.

وعندما رحل لم تنم ليلة واحدة بلا ظنون.

***

في الرحلة تحاشى أي طعام يقدّم له. كان معه طعامه من بغداد. وعند الوصول عرضوا عليه الشراب والفاكهة فلم يتناول أي شيء منهم.

دخل عليها، والتقت العينان. تزينت اليوم تركان، لمعت عيناها، وتألقت أطرافها. ذهب عنها الحزن، وتأهّب الجسد لحياة جديدة ويوم كله وعود وعربدة قلوب.

قالت في رقة بعد السلام: دسوا للغزالي السم، ولكنني أنقذتك اليوم. قلت لهم حياة الغزالي مهمة عندي جدًا. روحه تحمينا جميعًا.

ابتسم ثم قال: كرمك معروف يا أميرة.

-تكلم معي عن القلب

-قطعة لحم ..تهلك صاحبها أو تنجيه من الهلاك..ومعظمنا بين المنزلتين.

ابتسمت، ثم قالت: ما أشد طموحك وأخطر جرأتك! جئت تطلب مني أن أتخلى عن كل أحلامي من أجل خليفة ضعيف لا يستطيع أن يدافع عن عمامته سوى بجنودي؟

-جئت أطلب منك التمهّل في القرار. الحكمة تكمن في الصبر.

-أتعرف الصبر يا شيخ؟ أتدري ما معنى أن تضع كل آمالك في ابن وراء ابن، ثم يموت أمام عينيك، فتأتي امرأة تنزع الزوج، وتنجب الابن، فتتلاشى أيامك، وتتوارى دنياك؟! هل تشعر بقلبي ينشق نصفين مع كل موت، وكل انهزام، ثم يأتي الخليفة ليقول لي إن ابني محمود طفل لا يصلح أن يكون سلطانًا، أتعرف من يصلح أن يكون

سلطانًا يا إمام؟

لم يُجب، لكنه كان يعرف ما ستقول.

-أنا تركان خاتون ابنة الأمير وزوجة الملك. هذه دنيا؛ إما أن تأكل فيها، وإما أن تؤكل..هل شاهدت حرب الأسود من قبل؟ لا بد لأحدهم أن يموت ليحيا الآخر، ثم تعود الكرة، موت وراء موت، هكذا هي الحياة لأمثالنا، ليس لدي خيار.

-جئت لأني أعرف كم ضحيت، وكم علمتك الأيام، جئت لأنني أتكلم مع أميرة تدرك قدسية الروح ومسئولية الحاكم أمام الله.

-ربما جئت لأنك تثق في قدرتك على الإقناع، تظنني أحد الفلاسفة الذين تناظرهم وتمزق أوتارهم، أو أحد المعتزلة، أو الروافض، أعرفك يا محمد منذ أعوام، يرى فيك الناس الورع، وأرى فيك النزق. يرى فيك الآنام الذكاء، وأرى فيك الجمال، يرى فيك الملوك الخشوع، وأرى فيك الهيبة. ينظرون إلى بريق عينيك، وأنا ألمس بهاء روحك. لا يوجد رجل في بلاد المسلمين كمحمد، ولكنه مثلي أنا، أريد الغلبة وأنت تريد الجاه.

-محمد رجل ضعيف يحارب نفسه كل يوم ويعالج قلبه، ولكن العلاج على حسب المرض، ومن لم يعرف الداء لا يستطيع أن يكتب الدواء.

-جئت تتكلم معي عن مرض قلبي أم مرض قلبك؟

-نحقن دماء المسلمين. السلطان محمود يحكم، وندعو له على المنابر، ويعين الخليفة الشيرازي وزيرًا، وأونار قائد الجيوش.

ساد الصمت برهة. رأى الغضب يخترق عينيها. قالت في صوت أرادته هادئًا، ولكنه خرج كفحيح الثعبان: كل مرة أفكر في قتلك أعود وأقول لا تقتليه الآن، أمهليه بعض الوقت. هذه المرة فكرت كثيرًا لأصدقك القول؛ سم أدسه لك وأنتهي منك هذه المرة للأبد. ولكنني لم أستطع. لأول مرة يتحكم القلب يا محمد. لأول مرة منذ ولادتي يتحكم القلب. ومن أجل هذا تستحق الموت يا رجل. من أجل ما فعلته بقلبي. كيف تجرؤ...أن تجعل شغافه ترق وتحن؟

أبقى رأسه على السجاد المزخرف، لم ينظر إليها، فأكملت: أنت وخليفتك يمكن أن تتلاشيا أمامي اليوم، ضربة واحدة من جيشي تقضي عليكما معًا، ولكنني أتردد كما النساء، أغضب من نفسي، لا منك يا محمد..

أطرق يفكر، ثم قال كأنه لم يفهم بما تعترف الأميرة وما وقع كلماتها: الانتصار يحتاج إلى الصبر، كنت أتكلم عن المخاطرة بما كسبت الأميرة، حروب السباع مخاطرة، ولكن السبع الحكيم يختار الزمان والمكان، جيش الأميرة يوجد مثله في يد الأميرة زبيدة وابنها بركياروك، وجيش النظامية طوع يديها، لو مال لهم الخليفة تتبعه الأمة وتلتف السباع حولك أنت، أما لو أمر الخليفة بسلطنة محمود وعين له وصيًا، فسوف تبقى الأميرة حول عرش ولدها بين حاشيتها ورجالها، ولا تخاطر بكل ما تبقّى.

-تتكلم كالوزير.

-أتكلم بلغة تفهمها الأميرة.

-محمد.

قال في حسم: في الشرع لا يمكن أن يحكم سلطان طفل بلاد المسلمين، لا بد له من الأهلية للحكم؛ البلوغ والعقل. هناك أمير آخر، وابن آخر للسلطان الراحل هو بالغ ويصلح للحكم؛ ابن الأميرة زبيدة بركياروك، ثم أبناء الجارية السفرية، محمد وسنجر، محمود أصغر أبناء السلطان الشهيد ملك شاه، ولكن الخليفة يعرف تركان خاتون، يحترمها مع أنه يستطيع أن يتفق مع زبيدة خاتون في ليلة وضحاها، الأسد الحكيم يدرك الأخطار، ويرضى بنصف انتصار، ويأمل في النصف الآخر بعد حين.

-جئت تخبرني بهذا أم بشيء آخر؟

-جئت أطلب من الأميرة الحكمة، فالأيام قصيرة، والدنيا أقل المنازل وأحقرها، لا حرية لمثلنا في القنص يا أميرة.

-أنا وأنت؟ لأول مرة تضعنا في العبارة نفسها.. قربت بيننا في الكلمات يا شيخ...كلمة مجاورة لكلمة كما تمنيت أنا ربما.

-أنا وأنت وبقية البشر نتوق إلى الحرية.

-أنت تريد الهروب، وأنا أريد المجد.

-أنا أريد فك القيد، وأنت تحتاجين إلى من يدلك على الباب، فالسجن مظلم والعمر يمر.

جلست على مقعدها، والتفتت حولها، بدا أن كل الحضور تلاشوا، لم تعد ترى سواه.

قال في خفوت: حكمة الأميرة تركان خاتون دومًا تغمر قلبها، نحقن دماء المسلمين، ونضمن النصر لها اليوم، وغدًا نترك الأيام

تحكم، يكبر السلطان محمود، ويقرر ويختار.

رفعت يدها، فخرج كل الحضور.

بقي ساكنًا، اقتربت منه وقالت: تحب الدمشقية زوجتك؟ هل تكفيك؟

لم ينطق. فقالت في رقة: هل ستأتي من جديد تعلم الطفل الصغير السلطان؟

لا أثق في قرب غيرك من ابني.

-كل علماء الأمة طوع إرادته. لم أزل أعلِّم نفسي يا أميرة.

قالت وعيناها دافئتان من حر لظى جديد عليها: والله ما لهذا خلقت.

قال وهو يتحاشى عينيها: هذه كلمات الصوفية.

قالت تركان خاتون: بل كلماتي أنا اليوم. خُلقت للسلطنة والمجد. لحب امرأة حقيقية.

قال في هدوء: لو تأذن لي الأميرة..

-للأميرة حق الزواج أم لا؟

-لها حق بالطبع

-ولها حق الاختيار.

مدت يدها تمسك بيده، فأزاحها في هدوء، ثم قال: أنا عالم يا مولاتي، لا دراية لي بالسلاطين. أنصح الرجل دومًا بالزواج مِمَّن لا

تفوقه جمالًا، وفخرًا، ونسبًا ومالًا. لو استطاع.

-ولكنني لا أفوقك في أيٍّ من هذا. لو قلت لك: إن كل دماء المسلمين في رقبتك أنت... لو وافقت ...أوافق أنا على اقتراحك.

أطرق برهة، ثم قال: مولاتي تعرف أن اقتران سلامة الأمة بأمور القلوب ليس من الحكمة. العقل هو الملك على مملكة الجسد، وهو الملك في مملكة ابنك.

-أوليس للقلب مقام عندك؟ أنت مثلي لم تذق طعم الراحة يومًا، منذ المولد، وربما حتى الموت. أليس لمثلي أن تتمنى وتحب؟!

ابتسم، ثم قال: لمثلك أن تفعل، ولكنها تترك الحكم حينها، فالحكم بالعقل، أما أمور القلب فلمن يترك السلطة لا من يتمسك بها. هذه دنيا لا تعطي كل شيء.

اقتربت في حذر كأنها تحسب كل خطوة، في القرب افتراس لها أو له؛ إما أن تنقض هي، وإما أن ينقض هو. أحيانًا يتجرأ الأسد فيعض بأنيابه على جلد التمساح فيهلك. الحذر واجب حتى على الأسود.

رفعت يدها، وألقت بها على موضع قلبه، وأغمضت عينيها، وهمست: محمد...تسيطر أنت، وتأمر، وتنهي على قلبي بينما قلبك كالحجر.

تقهقر في هدوء، اتجه إلى الباب، وعيناه تتحاشيان عينيها.

فقالت: ولو قلت: إن كل جوارحي مشغولة بك فبمَ ستجيب؟ هل تريدني كما أريدك؟

فتح الباب، ثم قال: لو سمحت لي مولاتي..

-تقول: إن أمور القلب لمن يترك السلطة يا محمد...وأنت مثلي تريدها...يا إمام...أتهرب مني اليوم؟

قال والعينان تلتقيان: الخوف يعني دومًا الهروب، أليس كذلك؟ سأخبر الخليفة بموافقتك. عليك السلام يا أميرة. اسمحي لي بالعودة إلى بغداد.

***

تنفس الصعداء عند خروجه. في مواجهة الأسد خطر، ولكن في مواجهة أنثى الأسد تهتك وفتك. حركاتها دقيقة، وضرباتها هالكة، هي من تصطاد الفريسة للأسد دومًا، ولكنه نجح في اجتناب الأخطار والفتن. لن يموت الأطفال حوله، ولن تستغيث النساء. لا جوع سيحاصر العامة، ولا سيوف ستنهال على الرجال.

عندما عاد كان الخبر قد وصل ثريا. إمام بغداد استطاع أن يقنع تركان خاتون ويوقف الحرب. قطبت ثريا حاجبيها، ولكنها قابلته بترحيب، لم تسأله ما حدث لأنها كانت تعرف أنه لن يخبرها، ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من مراقبة عينيه كل حين. تبحث عن الرضا والطمأنينة فلا تجدهما. تغير حاله. ترى أهذا بسبب حب مستحيل أم شيء آخر لا تفهمه؟ عيناه تدوران حول المكان تبحث عن شيء. أصابعه تدق على رأسه كأنه يريد أن يفيق من غفلة موت محقق. يتسرب من بين أيديها يا ترى أم تتوهم كل هذا؟ هي عين أصابتهما، فكل امرأة في دار السلام تود أن تأخذ مكانها، ولكن تركان خاتون ليست في بغداد. ستنسى أمر الأميرة. ولكن ما بال زوجها شاردًا كأنه يبتر كل تعلق من قلبه أو يلهث وراء حب بعيد؟

***

لم يزره أحمد مجددًا. كان هو مَن يبحث عنه بين الجبال تارة، وفي بيته المتواضع أحيانًا. كل سبعة أيام يذهب إلى أحمد حيث كان. يبعث قبلها الحراس للبحث عنه، ثم يفاجئه بالزيارة أو ربما يتوقع الأخ زيارته. أصبح أحمد يعظ الناس في زاوية صغيرة في أطراف بغداد، ولو سألوه من يكون يقول إنه أحمد بن محمد بن محمد، ولا يذكر اسم الغزالي. وكلما عرف البعض أنه شقيق الإمام ترك البيت الذي استأجره، وبحث عن آخر. اليوم كان يختلي في مغارة تبعد عن المدينة أيامًا. رحل إليه محمد، واقترب، جَنَّ عليه الليل فوجد أحمد يسجد على الصخر، لم يلتفت إلى محمد إلا بعد حين. عندما التفت إليه رآه محاطًا بالحراس، وامتزجت ألوان النار بلون أعينهم، فزع أحمد حينها برهة، ثم قال: محمد، الحراس لا مكان لهم بين الإخوة.

جلس أمامه، ثم قال في رفق: سأطلب منهم أن يبتعدوا؟

-هل تستطيع أنت أن تبتعد؟

-ماذا تعني؟

-كأنك تحتاج إليهم لهيبتك وجاهك يا أخي حتى وأنت تقابلني، كلما اقتربت أبعدت عني نفسي.

-لم تزل تقسو..

قال أحمد: وأنت لم تزل تشك وتتحير، تتعذب حتى وأنت على قمة الجبل كأنك تريد أن تهوي أو تكاد.

قال محمد في تأكيد: يومًا كنا فرعين متصلين بلا جذر في بلاد

غريبة، بلا حماية، يطغى علينا من يطغى، ويلين من يلين. اليوم نملك ونتمكن. أنت وأنا.

قال أحمد في سخرية: نملك ونتمكن!

ساد صمت كله بُعد وتوتر، ثم قال محمد: جئت لأقضى الليلة معك كما كنا نفعل في الصغر في الصحراء وحدنا. نتبع النجوم، ونقتفي أثر الحيوانات..

لمعت عيناه، ثم قال: اصرف الحرس واقضِ الليلة معي.

صرفهم، فنظر إليه أحمد، ثم قال: هل ستقضي الليلة في الصحراء بهذه الملابس؟ كم ثمنها؛ ألف دينار أم أكثر؟

خلع ملابسه، ثم ارتدى جلبابًا، واستلقى على ظهره، ينظر إلى النجوم في صمت. استلقى أخوه بجانبه، ولكنه لم يقترب كثيرًا، كان بينهما ذراع، مد كل أخ ذراعه، فأمسك بيد الآخر بلا اتفاقٍ مُسبق.

اتسعت الرمال، واستقرت كما البحر، وفرد كل أخ جسده على أطراف الرمال كما كانا يفعلان في الماضي، ثم التقط كل منهما يد الآخر، وقال أحمد: لا تترك يدي.

فقال محمد: لن أفعل.

-ولكن الموجة تفرِّق بيننا دومًا.

-تفرق بيننا برهة، ثم نعود فنلتقي.

نعم، كان هذا في الماضي، ولكن الماضي حاضر اليوم بين أذنيه، أغمض عينيه، ثم فتحهما وهو ينظر إلى النجوم مرة أخرى، ثم

أغمض عينيه فرأى صورة النجوم في مقلتيه أوضح وأجلَى. تنفس في بطءٍ كأنه يتنفس لأول مرة. كان هذا سرًّا بينهما، يستلقيان معًا على سطح الرمال، ثم ينظران إلى النجوم ليلًا ويغلقان أعينهما، يتركان الخيال ينبت في القلب ويتفرع. يشرح كل واحد للآخر ما رأى. يمكث عقلهما صريع الخيال حتى يشعرا أنهما يطوفان خارج البحر والأرض، يسبحان على سطح السماء. دومًا يسبح أحمد أولًا ويصرخ: محمد، أين أنا؟

فيضغط محمد على عينيه ويقول: لا تنطق. استمتع فقط.

كان هذا في الماضي. اليوم لم يسبحا على سطح السماء، ولكنهما صاحبا النجوم أرضًا.

واليوم أيضًا لم ينطق أي منهما، حتى كسر محمد الصمت.

ثم قال في بعض العتاب: أنت لا تأتي أبدًا لتزورني.

فأجاب أحمد وهو لا يترك يده: ولكنني أنتظرك كل سبعة أيام. لا تُخلف ميعادك.

-أريدك أن تلتقي أهلي، ابني وزوجتي.

قال: هاته معك.

-لن يقوى على الصحراء.

-كنا نقوى نحن على تسَلُّق الجبال، والمبيت بين راحتيها، أم أنك لم تعد بقوتك الماضية يا محمد؟

نظر إليه في تحدٍّ، ثم قام من مكانه وقال: لنرَ مَن منا يصل إلى

القِمة أولًا.

جرى بأقصى سرعة، وجرى وراءه أحمد، لم يلحق به، تسارعت أنفاسه، ثم قال: أنت تكسب دومًا.

كانت لحظات توقف فيها الأنين الذي لا يتركه واستسلم له الزمن، ولكنه يعرف حتى وهو يضحك أنها مضت كما الأنفاس والـخُطَى، تمضي بلا رجعة دومًا.

***

عاد إلى واقع يتمنى أن يطويه كطيِّ السِّجِل للكتب. أصبحت مقابلات الوزراء والأمراء حملًا ثقيلًا واختناقًا وغربة. ها هي الحرب ترتع وتستقر. هذا نظام حاول هو الحفاظ على شرعيته لينقذ الأمة من الهلاك فهلكت. وهذا منصب ظن أنه يستطيع من خلاله أن يدير محركات الهواء، ويتحكم في السواقي، فركضت الماء وندر الهواء. وما معنى العلم يا ترى؟ ما فائدته؟ ضربة سيف تقضي على عالم وكل ذاكرته؛ ما حفظ وما نسي. ما معنى الدنيا؟ وما غايتها يا محمد؟ خضت كل علم، ورجعت تقلب كفيك على ما راح منك. لِمَ الحزن؟ لا أحد يستطيع أن يمسسك بسوء. أنت بخير، أليس كذلك؟ مثلك مثلهم تبحث عن نجاتك فقط، فليذهب الجميع إلى الجحيم، ويعش الملك والسلطان والخليفة والإمام. هل تحكَّم الهوى وتمكَّن يا محمد؟

تكلم معه الوزير ابن جهير وزير الخليفة، يشرح له كأن الأمر لا يعنيه.

الحرب التي أراد الغزالي أن يوقفها بتعيين محمود وعليه أوصياء

اشتعلت رغمًا عنه. جيش النظامية التابع للوزير الشهيد نظام الملك أخرج بركياروك ابن زبيدة الزوجة الثانية للسلطان السلجوقي ملك شاه من السجن، وبدأ حربه ضد تركان وابنها.

يقول الوزير ابن جهير: كل زوجة تدافع عن حق ولدها في الحكم. التقى الجيشان. مات من مات، وجاع من جاع. دورك مهم اليوم. لو وصلت نيران الحرب إلى بغداد، فسوف ينتهي أمر الأمة كلها. هذه خلافة دافعت عنها، ودعمتها، تذكّر هذا، وهذا استقرار كنت تنادي به. ساعدنا اليوم.

لم يُجب، فأكمل الوزير: مادامت الحرب لم تصل بغداد فنحن في أمان. أنت تفهم هذا.

قال محمد في حسم: ما دامت الحرب حاضرة، فنحن إذن لسنا في أمان يا وزير، أنت تعرف هذا. عندما تقتتل الجيوش داخل الأمة، فنحن لسنا في أمان. لا بد أن تتوقف الحرب.

قال الوزير: لن يحدث. لم يعد الأمر بيدك هذه المرة. هذا شأن قواد ووزراء وأمراء يريدون السلطة والحكم، لن تنفع أحكام الشرع اليوم يا أبا حامد، ولن ترضخ الكلمات للسيوف. أنت تعرف. هَبْ مثلًا أنك ذهبت إلى تركان خاتون طلبت منها الاستسلام ووافقت، هل سيوافق قائد جيشها ووزيرها الذي يطمع في الحكم؟ من ذاق الدم لا بد أن يشرب منه بقية عمره يا أبا حامد. ولو ذهبت إلى زبيدة خاتون لتقنعها بأن تتنازل، فهل سيوافق من يَدعمها؟ وهل ستتنازل وهي تعرف أن يوم استسلامها هو يوم مقتل ابنها بالتأكيد؟ لست المسئول عن كل أخطاء البشر وكل حروبهم. أنت إمام. نريد أن نثبّت

العامة، نريدهم أن يدركوا أن النصر قريب، والله يدعمهم.

-نصر مَنْ؟

-الخليفة العباسي. هو من يهمنا يا أبا حامد. أنت هنا في بغداد لست في أصفهان، أنت هنا في صدر الأمة.

قال الغزالي في مرارة ممزوجة بتهكم: تريدني أن أخبر العامة أن نصر مَنْ قريب، وأن الله يدعم أي جيش؟

صمت الوزير برهة، ثم قال: ننتظر من ينتصر، ثم نقرر.

-واسم الله نقوله هباء بلا إخلاص؟ لن أفعل.

كانت أول مرة يتحدى فيها الوزير. جفل الوزير حينها لحظة، ثم قال: أعرف أنك حزين، ولكن لا تكلف نفسك إلا وسعها يا أبا حامد. أنت إمام، ولست قائد جيش ولا نبيًّا. لن تستطيع أن تغير ما في النفوس من شر، ولا أن تحارب الريح وتمنعها من جعل كل الزرع هشيمًا. افهمني. أنقذ ما تستطيع.

لم ينتظر إجابته. خرج من عنده، وهو شارد تائه، كأنه أصبح يتيمًا للتو.

المجذوم، ربما يحتاج إلى الأموال، كيف نسي أمره؟ لم يعطف عليه، ولم يكرمه. المجذوم...كلماته غير الكلمات، وشجاعته تفوق كل الجيوش مجتمعة. أمر حراسه بالبحث عنه. وجدوه. بعث إليه الأموال فلم يقبلها. مرة وراء مرة. ثلاث ليال وهو ينتظر أن يقبل منه المجذوم أي شيء، ولكنه لم يقبل. هام محمد؛ هام على وجهه في حدائق قصره. الظاهر ثبات، والباطن تمزق وارتباك. وقف محمد أمام

قصره يراه من بعيد، صاح بأعلى صوته يحدث أخاه الغائب: دنست الدنيا ثوبي يا أحمد...وضاع القلب وارتبك العقل، كأنني أفقد عقلي وكل ثقتي فيه. لم أملك غير عقلي، فلِمَ يخون اليوم ويتمرد؟!

الفصل الثامن

«وفطام الخلق عن العادات ومألوفات المذاهب عسير».

الغزالي

تزينت عزيزة كما هي عادتها عند زيارة زوجها إلى قصر الغزالي. عند وصول صالح قبلته في شوق وقضت معه ليلة يتسامران ويضحكان. يحن صالح ويبذل. يحب بصدق على ما يبدو. وعند صلاة العشاء صلى وراء الإمام، ثم جلسوا معًا لتناول الطعام. ضحك صالح وهو يحكي كعادته عن مغامرات السفر والتجارة، وعزيزة تنظر إليه بحب، ولكن الغزالي لم يضحك. نظرت ثريا إلى زوجها، عيناه كانتا جامدتين. لم يمد يده للطعام. نظر إلى عزيزة، ثم إلى زوجها، وقال موجهًا كلامه له: كان سفرًا موفقًا على ما سمعت.

فقال صالح بلا تفكير: موفقًا جدًا.

أشار إلى زوجته قائلًا: ثريا، اذهبي مع أختك وأولادها إلى الداخل، لدي بعض الكلام مع صالح.

اقتربت منه، ثم همست: هل هناك أي مشكلة يا إمام؟

قال وهو يشير إليها بالدخول مع أختها: لا شيء.

جلس أمام صالح يراقبه كأنه يراه لأول مرة، ثم قال: هذه أيام تربك بعض الشيء. تختلط الأمور على العامة وتزيد الأخطار. أنت تاجر بالطبع لا شأن لك بهذا، ولكني أشكو إليك حال الأمة.

قال صالح في تأكيد وهو يضع اللقمة داخل فمه: هي أيام تربك يا

مولاي الإمام.

-يعجبني فيك أنك تهتم بزوجتك وأولادك. سافرت معهم في البدء، وضحيت بكل شيء. والآن لا تتركهم أكثر من شهور، وتأتي للزيارة محملًا بالأموال والهدايا.

-هذا واجبي يا مولاي.

-لم تتخلّ عنهم قط. الإخلاص من سمات العظماء.

-هل سمعت شيئًا عني يا مولاي يسوءني.

قال الغزالي: شيء مثل ماذا؟ ما الذي يمكن أن يسوءك يا صالح؟ أن تكون لك زوجة أخرى في بلد آخر لا تعرف زوجتك عنها شيئًا، أم أن تكون قد ادخرت أموالًا دون أن تعطيها منها؟

قام صالح من مكانه، وقال في غضب: أقسم أن هذا كذب. لم يحدث. من وصّل لك هذا الكلام يكذب.

نظر الغزالي إلى الحارس، ثم قال وعيناه تلتقيان بعيني صالح: كيف لي أن أتأكد أنه لم يحدث؟

-ليس لي سوى زوجتي وأولادي.

-وسفرك..؟

-للبحث عن مورد رزق لهم. اسألها لو لم تصدقني، هي تعرف كل شيء.

-ولكنني أصدقك. من قال إنني لا أصدقك؟

نظر إليه صالح في بعض الحيرة، وبعض الريبة.

اقترب منه الغزالي، ثم قال وهو ينظر إليه: أنا رجل بضاعتي العقل. بالنسبة لي «جميع محاسن الدنيا في العقل، وسائر العلوم والأعمال مرجعها إلى العقل». لا شرع إلا بالعقل. أيعقل يا صالح أن تصلي ورائي العشاء؟

قال في دهشة: أنت إمام بغداد!

-ولكنني لست إمامك.

-لا أفهم ما تقصد.

-بل تعرف بالضبط ما أقصد. الغريب أن إمامك لم يقم بالمعجزة بعد، ولا استطاع أن يهديني كما تمنى.

-أنا لا..

قاطعه الغزالي: الباطنية..لا أمان معهم. يدخلون قصر إمام بغداد نفسه. ويصلون وراءه، وهم يظنون أنه على ضلال. تُرى لمَ أجلت قتلي يا تُرى؟

قام صالح، وقال في غضب: هذا كلام لا يجوز.

أمسك الغزالي بذراعه ليجلسه، ثم قال: اهدأ لأن القادم أسوأ. تحتاج إلى المعجزة عن حق. اطلبها من إمامك الآن. الجارية...لم تقتل الشيخ عبد الله وزوجته، بل قتلتهما أنت. ولا سرقت أموالهما، بل سرقتها أنت.

قال في صوت مبحوح: كيف تجرؤ على أن..؟!

فقال الغزالي: أجرؤ على كل شيء.

قال صالح: سمعت عن غرورك وتكبرك، لكني لم أسمع بعد عن ظلمك وجبروتك. أهذه لعبة تلعبها مع سلطانك الكافر الطفل، أم خليفتك المارق؟

-كأننا نفهم بعضنا الآن أفضل. منذ البدء وأنا أشك، وعند الشك لا بد من الصبر. لم تستطع أن تختبئ كثيرًا، الدعوة تحتاج إليك بالطبع، دعوت الناس في دمشق، ثم هنا في بغداد، حتى وأنت ملثم عرفك حراسي. أعرف لِمَ قتلت عبد الله؛ لأنه يحارب فكر الباطنية، ولكن لِمَ قتلت زوجته يا ترى؟ ألأنها عرفت حقيقتك ربما قبل ابنتها؟ ألأنها تكلمت معك وحاولت أن تثنيك عن ضلالك؟ الجارية وجدناها. لا هي تملك القوة لتذبح هكذا، ولا هي سرقت الأموال. هذا ذبح رجل قوي...لديه هدف واحد. كنت قد أصدرت فتوى من قبل أن أمثالك لا بد من قتلهم. أنت تعرف. ومع ذلك تأتي إلى بيتي، وتخدع زوجتك بكلماتك المعسولة. كأنك رجلان شقهما الأسى والضلال. أنت تحوم حولي أنا يا صالح منذ البدء.

طوال الكلام وصالح صامت. ثم قال متماسكًا: ما تقوله لا إثبات لك عليه.

-أقول لك: إن الإثبات موجود فلا تصدقني. الجارية وجدتها، والذبح الذي حدث ذبح عميق يحدث من رجل؛ رجل من الباطنية، ولم يتم سم عبد الله وزوجته أولًا. رجل يتخلص من حماته أيضًا وفي الليلة نفسها يتم التخلص من حماه، ثم يدعي الورع، ويدعو إلى إمامه. أي نفاق هذا؟!

قال وهو ينظر إلى الأفق: النفاق يا أبا حامد هو نفاقك أنت. أتعرف

لِمَ لم أقتلك بعد؟ لأن الأمر جاء لي بهدايتك وليس قتلك. أنت يا إمام، أنت من تشق نفسك نصفين؛ نصف يدعي الورع، والآخر يسفك الدماء. أنت يا إمام بغداد، تكتب كتبًا لتعطي الخليفة شرعية وأنت تعرف أنه لا يستحق. أنا وأنت...الفرق الوحيد بيننا أنني أريد أن أحقن دماء المسلمين، بينما أنت لا تأبه سوى بعلو درجتك وتأمين منصبك.

-ما شاء الله، منذ عرفت الباطنية وأنا أرى حقن دماء المسلمين في كل مكان! هل جننت يا رجل! قتلت أم زوجتك وأباها وأنت تحقن دماء المسلمين؟! أي ضلال يسكن في رأسك؟ وأي إمام معصوم يطلب مِمَّن حوله أن يقيموا المآتم لأهليهم وأنفسهم كل يوم؟ حتى عصمة الأنبياء غير محسومة، فما بالك بعصمة الأئمة؟!

-ترى نفسك أنت الإمام يا أبا حامد، وليس إمامي أنا.

-الإمام يتعلم من المعلمين، ويدرس لا أكثر، هو رجل مثل كل الرجال. أنا إمام نعم بعلمي، ولكنني لست بمعصوم، ولا أقوم بمعجزات.

-قرأت كتبنا وتعرفنا. صديقك اتبع إمامنا، وهو من أجلِّ الشيوخ، أتعرف لماذا؟ لأنه سئم الحقد والبغي والطمع. يريد من يهديه...أنا جئت إليك أنت منذ البدء...مَنْ أفضل يا ترى؟ مَنْ يقتل رجلًا واحدًا فاسدًا أم مَنْ يجر جيوش المسلمين إلى هلاك من أجل علو شأنه هو؟ مزقت الاختلافات الأمة يا إمام، أنت تعرف، وتدرك وتتجاهل لأنك مستفيد. خلق الله إمامًا واحدًا يجب أن نتبعه كلنا. الاختلاف نقمة.

-بل الاختلاف بين الأمة يتبعه رحمة. خلقنا مختلفين من البدء.

-أنا لم أقتلك؛ لأني أريدك معنا.

قال الغزالي في تهكم: أو ربما لم تستطع قتلي لأنني الإمام. ربما منصبي منعك من النيل مني. فلو قتلت إمام بغداد تفتك بك العامة وبإمامك. وراء شجاعتك جبن، وخلف براءتك دماء. لا أمل لك معي. تذهب مع الجنود في سلام، لا بد لأطفالك أن يبقوا في أمان الجهل.

نظر صالح حوله يقيم الموقف، رأى الحراس تحيط به. أخرج سيفه بسرعة يتجه إلى صدر الغزالي، ولكن الغزالي أمسك بذراعه بقوة، وصارعه الجنود ودفعوا به أرضًا. قال الغزالي في حسم لأمين الحراس: يقام عليه الحد اليوم، وليس غدًا. القاضي يعرف.

صاح صالح بأعلى صوته: لتخبر زوجتك وأختها أنك قتلتني. أخبرهما أنك تتبع خليفة لا يأبه سوى بسلامته وجاهه، وأخبرهما أنك أسهمت في قتل المسلمين من حولك. كلما أعطيت خليفتك الشرعية قتلت نفسًا بغير نفس. يدك ملوثة بالدماء يا غزالي؛ دمائي ودماء كل الأبرياء.

-لا أبرياء حولي، بل قتلة وخونة.

***

علت صرخات عزيزة، هدأتها أختها، ولكن الحسرة على النفس لم تخمد. حتى عندما دخل عليها الإمام نفسه يخبرها أن هذا لم يكن ذنبها ولا شيء بيدها، لم تتوقف عن البكاء. قالت في خيبة: كيف نواجهك اليوم؟ أن يكون زوجي من الباطنية وقاتل أبويّ! لا بد أن

الذنب في..

قال في حسم: لا، ليس ذنبك، بل ذنبه وحده.

ليلًا أوصى زوجته أن تعتني بأختها وأولادها، ولكنها كانت مهمومة بهذه الهزيمة الجديدة. لم تزل تشعر بارتباك حوله اليوم، يزداد الدّيَن ويتكاثر للإمام. ثرى هل ينفر منها بعد أن اكتشف حقيقة زوج أختها يا ثرى؟ لم يمت صالح. هرب ليلًا من السجن، فازداد غم ثريا.

***

الباطني يتهمه أن يده ملوثة بالدماء. وماذا جنى؟ ألم يحاول كل عمره أن يهدي وينفع بعلمه وكلماته؟ لِمَ تخنقه كلمات مجرم قاتل؟ هل يتأثر من عدو حاقد، أم أنه الهم الذي أصبح لا يفارقه؟ القراءة تنقذه دومًا. في الماضي أنقذه لسانه من موت محقق على يد قاطع الطريق، فلماذا لا يحتويه عقله وتحن عليه أوراقه؟

هرب صالح. سيضرب من جديد. والأخطر أنه سيدعو من جديد.

للإمام رسالة وهدف، ليستيقظ من شكوكه لينهض من حزنه، الناس تناديه. هو من سينقذ الأمة من الغرق. وكيف سينقذها وهو يشك في جدوى كل علمه؟ ماذا حصد من مجادلاته؟ لا أزال خلافًا ولا أقنع خصمًا. انتصر لمذهبه نعم، ثم ماذا؟ أيغرق أم يسبح بلا هدف يا ثرى؟

استغاث به رجل قال: «نستغيث بك يا إمام لإنقاذ الأمة من الزندقة. من يقرأ الفلسفة يظن أن وجود الله ليس لازمًا للعالم. يتوه في كلمات الإغريق ولا يصل. يغرق يا شيخ. الفلاسفة يقولون: إن

الله لا يعلم بالجزئيات، وإن العالم يسير على قانون الطبيعة دون تدخل من الله. لو كان هذا صحيحًا، فلِمَ نعبده؟ ولِمَ نتبع أحكامًا وشريعة لو كانت النتيجة ليست منه هو؟ أنعبد ربًا لا يعرف كل شيء؟!».

قال الغزالي: قال تعالى في كتابه: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: 19].

-أنا أكلمك عن الفلاسفة لا عن القرآن. ينكرون بعث الأجساد. يقولون: النفس خالدة والجسد ربما لا يُبعث. أنا حرمت نفسي من متع كثيرة حولي من أجل جنة آكل فيها وأنكح. هذه أرض لم تنصفني، فلِمَ علي أن أحرم نفسي ولا أُشبع جسدي إذا كانت هذه هي نهاية معرفتي به وأنه لا إشباع له في الجنة؟

سأله الغزالي أين سمع هذا الكلام، فأخبره أن هناك رجلًا من الحكماء يدعى عبد الله، يشرح كلمات الفلاسفة القدامى.

طلب الغزالي مقابلة عبد الله الحكيم، سأله: أي فلسفة تقرأ؟

فقال عبد الله: أقرأ كتاب الشفاء لابن سينا. الكتاب الذي لم يفهمه إمام الحرمين يا شيخ؛ أستاذك ومعلمك. أنتم يا معشر الفقهاء لا تفهمون الفلسفة، عقولكم لا تقدر عليها. ستتكلم معي عن القرآن والشريعة، وأنا أشرح لك كلامًا بالعقل.

اخترقت الكلمات أذنه، توقف والتفت إلى الرجل، ثم قال: العقل؟! تظن أنني لا أستطيع أن أدحض كل كلماتهم بالعقل؟

قال عبد الله: لا أحد مثل ابن سينا يا إمام، وحتى هو قرأ كتاب

أرسطو الميتافيزيقا أربعين مرة حتى يفهمه. للفلسفة عقول ليست مثل كل العقول.

قال الغزالي في تحدٍّ: ابن سينا يقرأ كتب الفلاسفة أربعين مرة، والغزالي يرد على الفلاسفة بالعقل، ويتقن علمهم في عام أو اثنين لا أكثر. تعرف مع من تتكلم؟ أخبروك من أكون؟

قال عبد الله: ابن سينا، هو العقل الفذ الذي لم يواجهه عقل، ولم يفهم كلماته فقهاء أو متكلمون. أخبرني يا شيخ، هل يمكن للعقل أن يصدق مثلًا أنك لو ألقيت برجل في النار لا يحترق؟ معجزات الأنبياء أوهام لا يفسرها عقل سليم.

أطال الغزالي نظره، ثم قال في حسم: أمهلني رويدًا أغد إليك بإجابات، أو أفتت لك كل كلامهم بالعقل.

ثم عاد إلى بيته. أخرج كتب ابن سينا والفارابي، ثم كتب أرسطو وأفلاطون، وكل فلاسفة الإغريق. بدأ القراءة بلا توقف.

***

كتب الفلسفة والمنطق استولت على عقله، وتحدي الرجل له شغل كل أيامه. يتفوق دومًا ويسطع ضوءه فيغيب كل من حوله سواه، ولكنها كتب الصوفية التي نزعت شغاف القلب فأصبح غرضة لكل ريح وكل نسيم طفيف. اندفع إلى أغوارها، ولم يستطع الخروج. كلماتهم ليست ككلمات الفلاسفة، ولا الفقهاء. يتكلمون عن القلب والنفس، عن خلود الروح والقرب من الله. يتكلمون كلهم عنه هو. يكتبون له يومًا وراء يوم، ولكن ما أزعجه في كتبهم هو هزيمته. يقرأ الفقه فيَهزم كل مجادل وجاهل، يقرأ علم الكلام فيشرح للغافل

صفات الله، ويقرأ في الفلسفة فيوضح مقصدها وثغراتها. وعندما يقرأ سير الصوفية يتوقف. ماذا سيشرح؟ وكيف سيواجه القلب الذي يتملص من بين يديه منذ زمن؟

الكلمات لا تتركه، صداها في الروح لا يبرح، حتى وهو يستعد لمواجهة الفلاسفة تطغى كلمات الصوفية...هذا هو حارث المحاسبي، مَنْ أزعجه اختلاف الناس وانقسامهم مثله تمامًا، ومَنْ ترك كل شيء من أجل إخلاصه لله...سمع صوته يزجره، يستخف به وبكل ما أنجزه.

ما الذي يقلق في كلمات المحاسبي؟ أليس هو الغزالي من يحمي هذا الدين وهذه الأمة؟ ألا يصحح المفاهيم ويحافظ على العقيدة؟ لِمَ تنغص الكلمات عيشه؟ المحاسبي يتكلم عن معرفة الله، وهل يعرف الله أحد أكثر من الغزالي؟ هدأ وضرب على عقله بيده ليتوقف عن التفكر والشك، ولكنه واصل القراءة فازداد اضطرابه، وأصبح يهيم حول الحقيقة لاهثًا يائسًا يدرك وجودها، ويعرف عجزه... هي كلمات الداراني التي أوجعته كضربة العصا السميكة على ضلع أعوج.. «طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله عز وجل». خطوة واحدة لا يريد بها إلا وجه الله. ولِمَ يقلق؟ كل خطاه لوجه الله، ولتصويب العقيدة. ما الذي يقلق يا ترى؟ لا شيء. هو بخير وعقله في صحة تامة. حتى لو نغص العطش عيشه من حين إلى حين، فالاستقرار والرخاء يروي من الظمأ، ولكن الألم ينهش عقله كما الذئب الذي مصمص الشرايين على مهل. لِمَ لا يتوقف؟ وكيف يقضي على ذئب كامن في أعماقه لا يتزحزح؟

عاد إلى كتب الفلسفة، فكلام الصوفيين بلا عمل جنون. هو يعمل،

أليس كذلك؟ لماذا يضطرب ويضيق بكلماتهم؟ أصبحت الجملة تنغص عليه رخاء العيش، تطارده كحراس الملوك والنجوم في ليلة ظلماء. طوبى لمن صَحّت له خطوة...خطوة واحدة...! طوبى لمن صَحّت له...!

أزاح الكلمات بأصابعه واستمر. هذه حالة لن تدوم. تأتي عند الإجهاد، وكثرة الفكر.

***

كتب كتابه مقاصد الفلاسفة، يشرح فيه الفلسفة وعلومها. بعث به لعبد الله هدية ومعه رسالة: أبو الحامد الغزالي فهم الفلسفة، واستطاع أن يلخصها في أقل من عامين. في الكتاب القادم ستعرف تهافت أفكارهم، وضعف حجتهم. تعال لتجادلني في أي وقت تريد.

التف العامة والعلماء. اليوم مجادلة مختلفة لن يفهمها أغلبهم. يقف فيها عبد الله الحكيم ليتكلم بكلماته التي تشبه الطلاسم مع حجة الإسلام.

قال الإمام في توكيد: في معتقدكم أن الفلسفة تفكير وشك وعقل، وما نجد لديكم غير التقليد. أنت تريد أن تقنعني أنك اكتشفت الحقيقة مع أنك تقلد كلام الفلاسفة القدماء لا أكثر. بالعقل أثبت لك أن عقلك يُخطئ قبل أن يصيب، وأنك لا تدرك الحقيقة كاملة. أستعمل منهجكم نفسه، لأثبت لك ضعف نتائجكم. تقول إن النار تسبب الاحتراق، وإن القطن لو مسته النار يحترق. وهذا عندنا اقتران وليس سببًا.

-هل رأيت أمامك يا إمام قطنًا لا يحترق بالنار؟

- هذه النتيجة وصلت إليها أنت بإدراك عقلك نعم؛ لأن النار مقترنة بالحرق، ولكن الله يستطيع أن يخلق مادة تجعل القطن لا يحترق بالنار.

-هذا مستحيل، ومستحيل أن تذبح رجلًا ولا يموت. كلام الأشاعرة لا منطق فيه ولا عقل. لا تدافع عنهم دون دليل.

قال الغزالي: هناك فرق بين ما يدرك العقل إمكانية حدوثه ولكنه لم يشهد عليه، وما يستحيل حدوثه. في مقدور الله أن يخلق هذه المادة، ولكن عقلك الضيق لا يدرك لأنك مقيد بالتقليد لا تفكر في غير المألوف. هل وصلت لهذه الحقيقة بعقلك أم بقراءة كتاب لفيلسوف حكيم؟ «الانتقال إلى التقليد من تقليد خرق وخبال. أين التحقيق والدليل؟ ما دليلك على أن وجود القطن والنار بغير حرق مستحيل؟».

أكد عبد الله: أنت تتكلم مثل الأشاعرة، تريد أن تشرح المعجزات.

-بل أفكر بعقلي أنا بلا تقليد. اقتران الشيء بالشيء مهم في فهم الطبيعيات. اقترن الموت عندنا بجز الرقبة، كما اقترن الحرق بالنار. ولم يعودنا الله على أن الرجل سينقلب مثلًا إلى حصان، ويذهب إلى مكتبته، فيعبث بالكتب ويرفس الأرفف بحوافره. هذا غير محتمل حدوثه؛ لأن الله لم يعودنا عليه. وحتى لو ظن الأشاعرة أن هذا ممكن أقول أنا إنه غير جائز؛ لأن هناك اقترانًا بين الشيئين.

-القطن يحترق بالنار يا إمام، أنت تعرف، وأنا أعرف، هنا الطبيعة تحكم.

-لو استعملت عقلك لأدركت أن عدم الاحتراق أيضًا ممكن، ولكنك تخلط بين العلوم اليقينية وغير اليقينية. علم المنطق والحساب من العلوم اليقينية، أما علم الإلهيات فلا تستطيع أن تدرك كل أبعاده بعقلك الضيق، ولا يستطيع ابن سينا حتى بعد أن قرأ الكتب أربعين مرة أن يخرج من تقليد الإغريق. «النزوع عن التقليد بالتقليد ليس من الجمال ولا الكياسة». أنت تستعمل الكلمات المزخرفة المعقدة من أجل زعزعة الإيمان واليقين لا أكثر، أما الغوص في أغوار الحقائق فليس من دأبك أنت وأمثالك. كلام الفلاسفة متناقض حين يتعلق بالله.

قال عبد الله وعيناه لا تتركان عيني الغزالي: وأنت تفكر بمنهجهم وتستعمل حجتهم. ألست منهم يا إمام إذن؟

قال الغزالي في ثبات مع أن السؤال فاجأه: لا بأس من البحث عن الحق حتى وسط الضلال.

-تُكفر الفلاسفة وتجادل مثلهم يا إمام؟! هل تحكم بكفرهم الآن أمام العامة؟

- النتيجة التي وصلوا إليها في المسائل الثلاث المعنية بمعرفة الله بالكل وليس الجزء، وخلود النفس فقط وليس الجسد، وقِدم العالم - تتعارض مع الشريعة، فهي كفر، ولكن جميع مسائلهم الأخرى حتى التي لم نتفق معهم فيها ليست كفرًا. وبعض كلامهم لا يختلف عن كلام المعتزلة، ونحن لم نكفر المعتزلة، مع أننا لا نتفق معهم. ما يزعزع عقيدة العامة لا بد من البعد عنه.

استمرت المجادلة ساعتين حتى انهزم عبد الله الحكيم أمام

الغزالي، فقال الغزالي وهو يكلم العامة الحاضرين: كلام الفلاسفة في أمور الله والدين يعتمد على البداهة أم التجربة أو الدليل؟ البراهين الإلهية ليست قاطعة كالبراهين الهندسية والقياس؛ لذا يتناقض كلام الفلاسفة فيما يتعلق بالله، ولكن باقي علمهم به الصحيح والبدعة، وهو لا يناقض العقيدة، أما الكلام عن الله فلا عقولهم ألمّث به، ولا كلامهم به أي دليل.

***

لا هو يقترب من العلوم ويتردد، ولا هو يكتفي بالبلل، لا بد من الغوص كل مرة، ثم الخروج من البحر بلا درر ولا ياقوت. كل مرة يعود إلى الشاطئ بقلب فارغ يبتعد ويغترب. ما يجول بخاطره لا يخبر به أحدًا، فكيف سيخبر من حوله أنه بعد أن أتقن علم الكلام ومجادلة الناس لتثبيت إيمانهم لا يجد في علم الكلام اليقين ولا حتى الحقيقة. لم يدفئ القلب البارد ولم يحصل إلا على الصدف الرخيص. وعندما قرأ الفلسفة كان يبحث بصدق، وجد بعض الحق وبعض الحيرة. لا، لم يخرج منها بالياقوت ولا اللؤلؤ، ولم يترك له الغوص سوى الأصداف. الشرع يتقنه ويدرسه، والأحكام بين يديه كالمسائل الحسابية التي تحتاج إلى العقل الفذ يستمتع بحلها كل يوم، ويدرك أن الإنسان خُلق ليعيش مع الناس، ولا بد لمن خُلق ليعيش مع البشر من قوانين وأحكام وإلا تفشت الفوضى، ووجد الظلم طريقًا آمنًا وسلامة دائمة. الشرع مهم بالنسبة إليه، قضى فيه كل عمره الماضي، ولكنه ينظم لنا الدنيا ولا يغوص بنا إلى الحقيقة. هو أول الطريق وليس نهايته.

أحمد يقول: إن الحب يُغيبه عن كل الآلام. هكذا قال، ولكنه لم

يتكلم معه عن مقصده؛ لأنه كان يعرف. منذ البدء، منذ تعلما معًا على يد الشيخ الصوفي الفارمذي وأحمد يفتح باب قلبه للتصوف، ولكن محمد لم يفعل.

منذ الصبا وهو يشاهد بعض من يدعي الصوفية، بعضهم يرتدي الملابس التي تظهر هويته، يخرق الثوب عمدًا، ويهيم في الشوارع كما المجذوب. يدعي وينافق. وبعضهم يحضر مجالس الذكر، فيمزق الثياب، ويغشى عليه، فلا هو يستمتع بذكر الله، ولا هو يترك غيره ينغمس في الكلمات. والبعض الآخر ترك الشرع وظن أنه وصل إلى الحقيقة، فتوقف عن الصلاة والصوم. وهؤلاء يهاجمهم محمد كل يوم على المنابر، وفي دروسه، وعند الخليفة نفسه. أصبح الإمام محاطًا بالمدعين والمنافقين، هذا يدعي أنه صوفي، وهذا يدعي أنه فيلسوف، وهذا يتعصب للمعتزلة، وهذا يتعصب للباطنية، وهذا يدعي أنه يحب الشافعي ثم يأتي بكل المنكرات، وهذا يطلب من الناس التقوى ويفجر ويبيح لنفسه كل شيء. أصبح شعوره بالغثيان معتادًا ومتوقعًا كالأنفاس ودقات القلب، وأصبح يرى قلبه يسير بجانبه كأنه لا يعرفه، وكلما استغاث به كي يعود جافاه وزجره، ولكن الإمام لا يكتفي بما يرى، يقرأ ويتعلم. أخرج كتب الصوفية مرة أخرى، والجملة تطل من رأسه كما السهم الثاقب، «طوبى لمن صحّت له خطوة».

***

قرأ قوت القلوب لأبي طالب المكي...توقف عند جملة «اعلم أن النقصان يبدأ من الغفلة، والغفلة تنشأ من آفات النفوس». كأن أبا طالب يحدثه هو، يعريه هو. اضطرب حينها لحظات، ولكنه سيطر

على نفسه، هي بين يديه نفسه هذه. يعرفها أو يكاد. هؤلاء قوم يتكلمون عن المقامات ومعارج النفس. يجاهدون الداخل، وينظفون الوسخ من على الجدار العتيق. يحمون الروح، ويتقنون الحب. هل أتقن الحب يا ترى؟

قرأ مقتطفات من كلمات الجنيد، والبسطامي، ورابعة العدوية، كانت تقول: «ما عبدته خوفًا من ناره، ولا حبًا لجنته، فأكون كالأجير السوء إن خاف عمل، بل عبدته حبًا له وشوقًا إليه». كلمات منمقة، ولكنها مستحيلة. يعرف استحالتها حتى ولو أعجبته. تناثرت الجمل حوله، صداها لا يتركه وهو نائم، وهو مستيقظ، وهو يدرس، وهو يزور الخليفة، وهو يجادل، وهو يشهد على المؤامرات والغدر.

انتشرت الكلمات، كلهم يحدثونه هو، كل علماء الصوفية القدامى يتكلمون عنه هو، يدركون حجم حيرته هو وحجم عنائه...كانوا يسألون، ويجاوبون، يتحاورون داخل عقله، وينتصرون دومًا...هنا مجادلة ينهزم فيها الإمام، وهنا كلمات تبحث عن قلب ولا تجد.

لِمَ خلق الله القلوب؟

قال دون تفكيرلنفسه: للسفر إلى الله سبحانه، وقطع المنازل إلى لقائه. الإنسان مركبه البدن وزاده العلم، ولا يمكن الوصول دون أن يتجاوز الدنيا. المنزل الأدنى لا بد من قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى، فالدنيا مزرعة الآخرة. يا غزالي، قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة. يا محمد الغزالي، «الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرة، وباب الملائكة باب واحد، وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة».

توقف عن القراءة، قام ليصلي، وذكره وحده.

ثم عاد، وقرأ، فارتجت الأصوات، وتجرأت عليه. هنا كلمات تذبح أو تكاد. «إذا طلبت الله بصدق آتاك الله تعالى مرآة بيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة».

ها هي الحقيقة التي تبحث عنها! بين يديك، ولكنك لا تستطيع أن تراها. أتعجز اليوم يا غزالي؟ أي كلام هذا؟ وأي بشر يستطيع أن يصدق طوال الوقت في دنيا كلها عفن وغدر؟ أي «عمل» يقصد هؤلاء؟ وأي إرادة يتوقعون؟

التَّرك مُستحيل، يعرف هذا؟ لِمَ لا يشرحون الحقيقة ببساطة دون تلميحات وألغاز؟ لِمَ عليه المجاهدة؟ وأي مجاهدة يقصدون؟ كيف الوصول إلى الحقيقة لو لم تكن بالعقل وحده؟

ليلًا توقف عن القراءة وعن الكتابة. سيطر عليه لحن لم يسمعه من قبل، يخرج من جوف الأرض وعرض السماء، يسمعه بين أضلعه وفي انحناءات نفسه:

«يا أيها السيد الكريم

حبك في الحشا مقيم

يا رافع النوم عن جفوني

أنت بما مر بي عليم

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا

ولولا حسن ظني ما حييت

فأحيا بالمنى وأموت شوقًا

فكم أحيا عليك وكم أموت»

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا...أموت إذا ذكرتك ثم أحيا...فكم أحيا عليك وكم أموت!

صباحًا عاد الإمام إلى المدرسة والقصر بلا حماس ولا فزع، ولكنه حاول أن يخرج الأشعار من عقله ليستقبل خبرًا جديدًا، وفتنة تدنو كل يوم.

***

العداء لإمام بغداد لا يمكن أن يكون سوى بالهمس واللمز، كأنك تعادي جبل حُنين؛ لا أنت تقوى على مواجهته، ولا أحد يستطيع أن يجهر بالكره، حتى والعلماء تحسد وتتهامس أن الإمام يقضي بكلماته على كل من جادله. لا يبالي برتبة من يهزمه. لسانه يقطع ويبتر الأطراف، ولكن هناك رجلًا يعرف محمد منذ زمن، خرج منصور من سجنه إلى منصب القضاء مرة أخرى، وهذه المرة كان يشاهد في حذر وترقب؛ لا غفل عن أحمد، ولا عن محمد. جمع حوله شيوخًا وقضاة، كل يوم يجتمعون، يتكلمون عن اضمحلال الأمة، وعن غرور الغزالي وجنونه. لم يعد أحد يستطيع أن يزوره دون موعد مسبق قبلها بأسابيع. ينتظر على بابه الأمراء والوزراء. لا يسير في شارع إلا ووراءه مائة رجل أو يزيد. أي ورع هذا؟ وأي تقوى؟

بعد عدة أيام خرج منصور يبحث عن أحمد، يعرفه ويعرف قلبه. وجده في بيته المتواضع في أطراف المدينة كان يُدرس للأطفال، يتكلم معهم عن رحمة الله، وعن نوره وحكمته. انتظر حتى النهاية،

ثم طلب أن يتكلم معه. جلس منصور أمام يديه يبكي، ويطلب الصفح. قال إنه كان دومًا يغار من قوته وصلابته أمام الشر. أخبره أنه كان يغار منه هو، ثم أخبره أنه طلق ليلى منذ زمن، لم تكن تصلح له ولا لأحمد. استمع إليه أحمد في صمت. بعد أن انتهى، قال منصور: أريد صداقتك، أريد أن أتعلم منك، من يصاحب الملائكة يصيبه بعض نورهم.

ثم اقترب وأمسك بيد أحمد ليقبلها وهو يطلب صفحه، فانتزع أحمد يده وقال بلا تفكير: سامحتك.

-لن أصدقك سوى لو سمحت لي بحضور درسك ومرافقتك أحيانًا.

تردد أحمد، ولكنه كان لينًا في كلماته وحكمه. ينقبض القلب في وجود منصور، ولكن الرحمة تغلب على كل شيء.

الطلاب أخبروا الإمام أبا حامد أن منصور يتردد على درس أخيه. تملكه غضب لم يكن يعرف أنه يملكه. هرول إلى أخيه يوبخه، قال في حسم: هذه المرة إياك أن تقترب منه.

قال أحمد، وتحدي أخيه يروق له كما لم يرق له شيء من قبل: طلب أن أسامحه، وقد فعلت.

صاح محمد في وجهه لأول مرة: لِمَ فعلت؟ أفق يا رجل، هل يتحول الشيطان ويتوب؟ هذا رجل فقد قلبه. يريد أن يورطك في مصيبة ليقضي عليك هذه المرة. ابتعد عنه يا أحمد، لو كنت أخي فابتعد عنه.

قال في جفاء: لا تعطني الأوامر يا إمام، لست أحد طلابك.

-ليتك تفهم أو تعقل.

قال أحمد في حسم: تعرف أنني لا أملك عقلك، ولا فهمك يا أخي. لا تعايرني بما لا أملك.

جفل برهة، ثم قال في لين: أحمد، أخاف عليك...هذا رجل قتل وظلم..

-رحمة الله واسعة.

-رحمته للصادقين المخلصين. لا تلق بنفسك إلى التهلكة.

قال في صوت هادئ، ولكنه متحدٍّ: تقول إن منصور فقد قلبه؟ منصور فقط؟!

التقت أعينهما، قال محمد في حدة: أتعرف؟ ربما أنت على حق. ربما لُهاثي وراءك كل سبعة أيام بلا طائل. ربما علي أن أهتم بأمري، وتهتم أنت بأمرك. ما دمت ترافق منصور، فلا علاقة لي بك.

***

هذه المرة لم يفتقد أحمد. سيطر الغضب، فمحا كل حنين. كلما فتح عينيه رأى مخاضًا ممتزجًا بدم فاسد. ثارت فتنة في بغداد بين الشيعة والسنة. كفّرت السّنّة الشيعة، والشيعة كفّرت السنة. يخافون من خليفة الفاطميين في مصر. خربت البيوت، واحترقت دور العبادة. خرج يهدئ الناس، صاح بأعلى صوته: إن الشيعة ليسوا بكفار. همس أحد العلماء في أذنه: هذا كلام خطير يا إمام. وسيغضب العلماء.

-الشرع يحكم بيننا. توقفوا عن القتال.

أغمض عينيه حتى تختفي الصورة التي لا تفارقه هذه الأيام. روث ملوث بدم، وبواقي طعام فسد منذ أعوام. نمل يحيط بالدم كأنه وجد غايته. دنيا قبحها يكاد يفقده عقله. كيف يتوغل النفاق ويرسخ الفساد؟ كيف تتولد من الكلمات ثروات وكنوز؟ ما دام الميت خارج حدود البيت لا نبالي. أمسك برقبته. الأنفاس تكاد تتوقف. يستغيث به من يستغيث، ويصبو إليه من يصبو، والحقيقة لا أمل في وجودها.

استدعاه أحد القضاة، وكان معروفًا بورعه. أخبره أنه يلجأ إليه لأنه سيترك منصبه. حسده حينها. أي شجاعة يملك هذا القاضي؟ هل حقًا سيترك بعد أن تمكن؟ مَن الذي يترك في هذا الزمن؟

جلس القاضي في خيبة، وهو يُحسبِن، وينتظر دخول الإمام عليه. ما إن دخل حتى أمسك بجلبابه، وقال في مرارة: تختلط الأيام علينا، ويصيب العلماء الغم. حروب ودماء، كل يريد إنقاذ نفسه فقط، لا أحد يأبه بالأمة، ولا الناس.

قال الغزالي -لنفسه أكثر من للشيخ-: كل حزب بما لديهم فرحون.

فقال القاضي: ومَنْ منهم حزب الله؟ مَنْ منهم يرضى عنه رب العالمين؟ أتعرف يا إمام؟ أنوي أن أترك منصبي وكل البلاد للعبادة والتعليم فقط.

نظر إليه، ولم يُجب، فأكمل الشيخ: عندما يكون الخليفة نفسه سجينًا بين راحتي وزرائه لا يخرج ولا يعرف ما يحدث للناس، وعندما يهتم كل وزير بتأمين نفسه وزيادة ثروته وجيشه، وعندما يتقاتل السلاجقة على الحكم، ماذا تتوقع؟ قررت، ولن أعود في

قراري يا إمام. وقبل أن أفعل سأواجه الوزير ابن جهير نفسه بما يجول بخاطري.

قال الغزالي: «إنما فسدت الرعية بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء. فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفًا من إنكارهم». أنت على صواب. شجاعتك تجعلني أكثر تواضعًا.

-تقول الحق يا أبا حامد. والله إنك تقول الحق يا غزالي.

هم الشيخ بالخروج للقاء الوزير ابن جهير. حاول الغزالي تهدئته وتوصيته، فطلب منه أن يأتي معه، فوجوده ربما يمنع الوزير من البطش به. صاحبه إلى قصر الوزير. أمرهم بالدخول، وبعد التحية والدعاء بدأ الشيخ يتكلم في تأثر عمّا يزعجه، وعن انتشار السرقات والقتل في بغداد، والجوع، والعطش، والبغي، والطغيان. قال: إن هناك بعض القضاة معروفون بالاسم لا بد من التخلص منهم. استمع إليه الغزالي...واستمع الوزير. بعد أن انتهى.. طلب منه الوزير أن يختلي به دقائق، فذهب معه والإمام الغزالي ينتظرهم، وبعد حين عاد ووجه يبتسم. خجل الغزالي من نفسه. ها هو قاضٍ يبتسم لأنه ترك منصبه، وتخلص من حمل ثقيل،وها هو لا يقوى على التّرك، ولا على استعادة قلبه. خزي لا خزي مثله.

انحنى الشيخ، وقبل يد الوزير ابن جهير وهو يقول في حماس: لم يُخلق مثلك في كل العصور، أنت أفضل من أنجبت أمتنا يا مولاي!

ثم ردد الدعاء للخليفة ووزير الخليفة، وقال في صوت جهوري: إن العدل أساس الملك، وإن هذه أمة عادلة، وإن الوزير يعرف شرع الله

وينفذه. كانت الدموع تتساقط من عينيه وهو يمدح عدل الخليفة، والوزير، وكل الحكام. انحنى مرة أخرى، وقبل يد الوزير، ثم انصرف. مكث الغزالي مكانه، نظر إليه في ذهول في البداية، ثم في غثيان. ابتسم الوزير للغزالي حينها، ثم قال: ظننت أنه يريد ترك منصبه حقًا؟ يا إمام.. أنا أكبرك بأعوام، ومنذ ولدت لم أرَ في عمري كله مَنْ يستطيع أن يترك منصبه. هذا لا يحدث. المنصب كما الروح تتشبث به إلى آخر لحظة قبل الموت. هل رأيت خليفة يتنازل أو وزيرًا يجلس في بيته دون أمر من سلطان؟ هي غريزة بداخلنا كما غريزة الطعام والنكاح. السلطة أهم من الطعام والنكاح. لا حياة بدونها لمن جربها. القاضي كان يتدلل، أراد بعض المميزات، يحب مغنية بعينها، طلبها مني ورفضت، واليوم أعطيتها له مع ضيعة. كان يمكن ألا أعطيه شيئًا يا غزالي. أتعرف لماذا أعطيته؟ لألقنك أنت الدرس. لا براءة في هذه البلاد وهذه الدنيا.

أمسك يومها الغزالي ببطنه، يساوره الشعور بالغثيان منذ زمن، وحول قصور الأمراء يصبح القيء ضرورة لا انفكاك منها.

فقال الوزير ابن جهير: بعد أن أعطيته ما يريد عم الخير والعدل كل أنحاء الأمة، واتضحت سرائره، وتخلى عن فكرة الانزواء والعزلة وترك القضاء. ازدادت دعواته وهمته وحماسه، تكاثروا كأنه دخل الجنة أو كاد. هي جنة الأرض ما نعرف يا إمام، أما جنة السماء فلم نرها، وما لا نراه يصعب تخيله، هكذا تعلمنا. الغيب، الإيمان به جائز، ولكن ترك المتع من أجل ما لم تشهد عليه صعب.

***

عاد إلى قصره وكلمات الوزير تدوي في أذنيه: لا براءة في هذه البلاد وهذه الدنيا. ثم جاءه الخبر بموت جديد، «كل ما هو آتٍ قريب»، والموت يأتي دومًا. هذه المرة كانت هي، تركان خاتون. انهزمت وحاصرها جيش زبيدة خاتون. تخلى عنها وزيرها أبو الغنائم، عند أول هزيمة طلب اللجوء إلى بركياروك ابن زبيدة خاتون، وعرض عليه الذهب ليجعله وزيره. ماتت تركان خاتون بلا مقدمات هي وابنها. هل قتلهما أحد أعوان زبيدة يا ترى؟ هل أنهت حياة أرادت فيها جاهًا لا يدوم، وفقدت فيها كل الأحبة؟ يشفق عليها اليوم. دومًا يرتجف عند الموت. بدت الدنيا حلمًا، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام والسلام. «كأضغاث أحلام»...قالها لنفسه، ورددها بصوت عالٍ: «أضغاث أحلام». بعد حين جاءه خبر موت الخليفة نفسه المقتدي بالله، يسمع همس العامة، العامة دومًا تعرف ما تخفيه القصور. قتلته جاريته شمس النهار بالسم. هذه المرة كانت الأمة بين يديه حقيقة، وليس مجازًا. الغزالي لا بد أن يوحد الأمة اليوم. استدعاه القاضي الشاشي إلى القصر قبل إعلان خبر الوفاة. طلب منه أن يبايع معه الخليفة الجديد المستظهر بالله قبل أن تعرف العامة بموت الخليفة. لا بد أن يستقر كل شيء أولًا. بايع الغزالي الخليفة، وأعطاه الشرعية. لم يزل يرى صورة الدم والروث والنمل الطامع، يساوره الخيال، ينغص عليه العيش كثيرًا. موت وراء موت. نحيا كأن الدنيا لا تسع لطمعنا، ثم نموت فلا يتسع لنا سوى ذراع للدفن.

***

هبت رياح الغور في قلبه، وغمرت جسده، يلهث وراء الكتب،

يمتزج بداخله إحساس غريب بالحنين إليه وحده؛ الله، ورغبة جامحة في الانغماس في الدنيا. تملكته التفاصيل البسيطة، لم يعد يستطيع أن يستيقظ دون أن يجد حارسًا، بل ثلاثًا، هنا طالب يغرقه بالإطراء، وآخر يطلب المعرفة. يصوم عن الطعام، ولا يستطيع أن يمنع النفس من الفرح. لم يعد يتذكر متى كان هناك من يخالفه الرأي، ومتى كان هناك من يبقى جالسًا وهو يصافحه. كلما مر انحنى أمامه العامة والعلماء، وكلما تكلم تنهدت القلوب امتنانًا. لا يتذكر ما حدث من قبل، الماضي كله حروب ووحدة. فتى يتيم يصحب أخاه إلى بلاد غريبة، لا عائلة بها ولا عشيرة. كانا اثنين وحولهما ألف، يحاربان جيوش الدنيا، ويدركان حجم ضعفهما. اليوم، مَنْ لا ينحني أمامه ويدعو له؟! لو طل الإمام تتجه إليه كل الرءوس. اعتاد هذا.

وهبت أيضًا عاصفة بغبار يدثر الصدر والوجه، ذرات تتسلل إلى الأذنين والعينين تزاحم الأنفاس داخل الأنف، وتدفع باللسان إلى الخمول. صاحبت رياح قلبه رياح الخارج. انطلق بفرسه دون اكتراث للذع الرمال. لا بد من زيارة المجذوم. كلما بحث عنه في بيت وجده قد تركه، ولكنه صمم على أن يجده، وقد فعل.

قال الغزالي بلا مقدمات: بحثت عنك في كل الدروب، لِمَ تهرب مني؟ استدعيتك مرة ومرتين.

قال المجذوم وهو لا ينظر إلى الغزالي: من يريدني يبحث، ومن أريده أجده. هي دنيا لا تحتاج إلى كل هذا العناء لو صدقنا مع أنفسنا.

-كان بيننا حديث منذ أعوام. كأنك تعرفني أو تعرف شيئًا عني.

وجدت كاتب الكلمات يا بائع الثلج.

-ومن هو يا ترى؟

-أنا، ولكن كيف تعرفني؟ هل قرأت كتبي؟

قال المجذوم: تقصد ما كتبت أم ما ستكتب؟ ومن لا يعرفك في كل بلاد المسلمين؟ الفذ الذي ينطلق لسانه فيذبح كل مجادل. من يتقن العلوم بين ليلة وضحاها. من نهش الشك قلبه ولم يسترح بعد. أين شفاؤك يا صاحب الأدوية؟ وكيف لدواء أن يشفي رجلًا مثلك؛ يضع الدواء ويفتي بالداء؟ يهابك أي دواء يا شيخ. ماذا تروم يا محمد يا غزالي؟ وكيف تجهل كلماتك يا إمام؟ من لم يعرف نفسه كيف يصل إلى ربه؟

لم ينطق.

-وصلت إلى منتهى العلم إذن؟

تهرب الغزالي من الإجابة، وأزعجته قراءة بائع الثلج لقلبه، قال: لو كنت تظن نفسك أحد الصوفيين..

-لا اسم لأمثالي.

-لِمَ رفضت المال مني؟

-ولِمَ تشفق عليّ وأنت مَنْ يحتاج إلى الشفقة؟

-أنا أحتاج إلى الشفقة؟!

-أردت الوصول إلى النجوم، ومصاحبة الوزير، فرحت بمعرفة الوزير، فأنكر فمك تذوق معرفة الملك. لو كان من يعرف الوزير يفرح،

فما بالك بمن يعرف الملك؟ غرقت في ماء متسخ، ورضيت بشمعة بدلًا من النجم الساطع، فلا استطعت أن تصاحب الملك، ولا بلغت النجوم. تظن أنك وصلت، وأنت مكانك لم تتحرك، غرست قدمك في الطين، وتشوشت الرؤية أمامك، فلا عيناك تريان ولا قلبك يُخرج عجائبه. ضعت في مسائل فقهية تُزيح النزاع في الدنيا، ولا تُذكر الناس بالآخرة. ليست الدنيا هي الوجهة يا إمام. أراك أمامي..

-ماذا ترى؟

-رأيتك أمس في حلم عجيب...كأن أمة المسلمين داخل سفينة نوح الخشبية، والسفينة تتفتت قطعة وراء قطعة، وأنا أصرخ فيهم أنهم سيغرقون، ولا يسمعون صوتي، بكيت حينها، رجوتهم التوقف عن هدم السفينة، ولكن بلا جدوى. غرق سلطان وراء سلطان، وأمير وراء أمير...تناثرت الكتب، واحترقت المكتبات. كنت معهم...أنت..

-وماذا فعلت؟

-لا أدري.

-هل غرقت معهم؟

-لم أتأكد يا محمد هل غرقت معهم، أم أتقنت الغوص، فنجوت، لا أدري.

قال الغزالي: ترك الدنيا ليس من التقوى، أُمرنا أن نُعمر الأرض.

-اختار رجالًا ليس فقط لعمارة الأرض، بل لحملها على أكتافهم حتى لا تغرق في بحار الظلمات. من يحمل هم كل البشر لا يستطيع أن يفكر في الجاه أيضًا. الجاه والتقوى لا يجتمعان. والجاه والنجاة

لا يمكن الوثوق بهما، والجاه لا يجتمع مع الغوص، وحمل الأرض على الأكتاف يحتاج إلى الغواص وليس إلى المفتي وحسب.

ساد الصمت برهة، فأكمل المجذوم: وليس بعد الحب مقام. للبعض الخوف يردع، وللبعض الرجاء يُمني، وللبعض قُربه يغني عن العالمين. هناك غبار على وجهك يا محمد من العاصفة.

رفع الغزالي يده ليزيح التراب، فانحنى المجذوم، وأمسك بقدم الغزالي. قال المجذوم: اخلع حذاءك وأعطه لي.

بقي ساكتًا مذهولًا. خلع حذاءه، فأمسك المجذوم بالحذاء، وقرب نعل الحذاء من وجه الغزالي، ابتعد الغزالي في تقزز، وقال في استياء: ماذا تفعل؟

-أنظف وجهك من الغبار يا شيخ بأسفل نعلك.

-تريدني أن أنظف أغلى ما عندي بأخسّ ما أملك؟

-هكذا هو طالب الجاه والمال من وراء العلم. يستخدم أخسّ ما يملك لينظف به أشرف ما يملك. هذا في العِلم العام، فما بالك بالعِلم بالله وأحكامه وصفاته! العِلم أشرف من أن يكون خادمًا يا شيخ. هو المخدوم لا الخادم. أما المال فخادم دومًا، ووسيلة للمطلوب، والمطلوب بالمال هين وهباء. رجل العلم والدين لا يُذلُّ للمال والمنصب.

ثم اقترب من الغزالي، وقال: أخبرني يا إمام، هل كان العِلم عندك مخدومًا أم خادمًا؟ يأبى العِلم إلا أن يكون لوجه الله لا لغرض أو مال. أينعقد لسانك عند الأماني لكثرتها يا إمام، أم لأنك حققتها

جميعًا؟ آخر ما يخرج من قلب الرجل هو الجاه. أن تملك المال هين أمام من يملك القلوب، ويهابه الخلق، وينحنون أمامه، حينها يبذلون المال والنفس فداه. الجاه والسُّلْطة تحاصرانك يا شيخ. ولا ورع مع مصاحبة الأسد، ولا إيمان يشفع أمام السلطة. من يصاحب الأسد يترقب هجومه كل حين فيتفرغ له، ومن يتفرغ للأسد لا وقت له لرب الأسد. كم كتابًا كتبته بأمر من الخليفة و السلطان والوزير الأعظم؟ وظّفت عِلمك ولسانك لخدمة مَنْ؟

-هل تشكك في إيماني؟ عِلمي له هو. أنت لا تعرف شيئًا عني.

قال المجذوم كأنه لم يسمعه: لا نهاية للعِلم، هو بحر بلا شاطئ، والعِلم بالله لذة غير كل ما تذوقت، لا تقيسه بمصاحبة الملوك وهتاف العامة واستغراقك في حب الأهل والولد. من لم يذُق لم يعرف.

-كلماتك تذبح كالسيف المسنون. لولا الإمام لانتشرت الفتن والحروب.

-ودور الغزالي هو إنقاذ الأمة.

-هو إنقاذ الأمة من الموت والفساد والفُرقة والتيه. أحاول.. لا بد أنك تعرف أني أحاول.

قال المجذوم: دور الغزالي هو إنقاذ الأمة من التيه والموت والفساد والفُرقة. انظر إلى أعمالك قبل أن تمتطي الأمواج لتنقذ الغرقى، فربما لا طاقة لك بالغوص في اللجج. محمد يملك عقلًا لم يُرزق به كل سلاطين المسلمين ولا جيوشهم مجتمعة، يجادل المُلحد، والفيلسوف، والمعتزلي، والحنبلي، والباطني، والحنفي،

يهزم الجميع بطلاقة لسانه، وسرعة بديهته، ويقف عاجزًا أمام شكه وضلالة عقله. هذا دأب أصحاب العقول دومًا كشارب النار للهو؛ مرة يحرق لسانه، ومرة ينجو.

هوى أمامه يستمع كأنه يرى نفسه في مرآة؛ تبرق تارة بالنور، وتارة بالنار.

أكمل المجذوم كأنه يقرأ كل عمره: كان نظر عقلك مقصورًا على صور الأشياء، لم يمتد نظرك إلى الحقيقة، ففقدت اليقين بكل شيء. لا وثقت في حُكم الحواس، فالعين تخدع، ترى الكبير صغيرًا والبعيد قريبًا، ولا وثقت في عقلك، فحتي العقل والمنطق والحساب لا يُفسر الحلم واليقظة. غرقت يا محمد باحثًا عن الحقيقة، وفقدت الثقة في كل شيء. تعلقت بإذلال الضلالات، وتعذبت بها مع كل النعيم الذي تملكه وملكته بعقلك ولسانك. أنت يا مُحمد عقل ولسان، تبيع الماء إلى الشارب، وتبقى لاهثًا عَطِشًا.... تدعو الناس لتَرك الدنيا وأنت منغمس بها بما تقوله وبما تفعله...قولك وفعلك لا يخضع للمنطق الذي تحبه...ولا يعكس حقيقتك.

-تجاوزت بكلماتك..

-لأنني أرى أنك لاهث وراء الحقيقة كمن لم ير البحر، ويبحث عن الياقوت الأحمر.

-لِمَ تهتم بأمري؟

-لأنك تهتم بأمري.

-كنت أشفق عليك.

-كما أشفق عليك.

قال محمد: هداني ربي إلى اليقين.

-ولكنك لم تجد الأحجار الكريمة بعد. أغواصٌ أنت دون أن تجد أي حجر نفيس؟ من يغوص في المعاني يعرف أن الاسم والمعنى مختلفان، ليس كل من يبحث عن الدر غواصًا، ولا كل من يقرأ الكلمات عارفًا. وجدت اليقين بالله وليس بالعلم. أي علم يوصلك للحقيقة يا محمد؟

بقي ساكتًا، فقال المجذوم: مثلك يجد المسلك ولو بعد حين. ابحث عن نفسك تجد الحقيقة.

التقت العينان، ساد صمت متوتر، انتفض الغزالي من مكانه في عدم صبر، فابتسم المجذوم، ثم قال: صدق الفضيل بن عياض عندما قال «الدخول في الدنيا هين، لكن الخروج منها شديد».

فتح الغزالي فمه، فأكمل المجذوم وهو لا ينظر إليه: «اشتغلتم بتقويم الظاهر فخِفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم البواطن فخافنا الأسد».

الفصل التاسع

«إن بحر المعرفة لا ساحل له».

الغزالي

يهتم بها ربما، ولكن بقلب غريب عنها. بدأت تلاحظ ولم تفهم في البداية. يضحك ويلعب مع ابنه وابنته، يبادلها الحب واللمسات، ويمكث الحزن لا يتزحزح، وَجَدَ مستقرًا بين الأجفان. تركها لشيطانها؛ تارة تظن أنه حب قديم ربما، من يدري هل أحب تركان خاتون، وحزن على فراقها يا ترى؟ أهو توق إلى النجاة أم شغف وشوق؟ كأن ألف ذئب ينهشون رأسه، كتمت حيرتها يومًا وراء يوم. اتجهت لاجئة إلى أختها حتى وهي وسط نحيبها وحزنها، قالت مستغيثة: كأنه يضيع مني يا عزيزة.

نظرت إليها في يأس، ثم قالت: أضغاث أحلام. الرجل لم يفعل شيئًا يدعو للقلق.

-أرى ما لا ترين. كأنه ليس معي.

-تفكرين، ويلعب الشيطان بعقلك. ربما يحتاج إلى بعض الاهتمام لا أكثر. ربما انشغلت بأولادك عنه.

***

أيغرق الإمام؟ سأل نفسه، ولم يجد الإجابة. بحار المعرفة لا غمق يَحدُّها، وبحار عدم المعرفة لا غمق يَحدُّها أيضًا. ما لا يقدر الآدمي على معرفته من عِلم الله تعالى لا نهاية له، وما يقدر عليه أيضًا لا نهاية له...

تعلّم بمصاحبة الملوك كيف يتحكم الهوى ويطغى. ومن ينكر ضوء شمس الظهيرة إذا أحرقت الجفن من الأمام، هل سيتجنب الرؤية أم يشهد على الألعاب والخيانات والجري بلا توقف في صمت؟ هذا قاضٍ ينتقد أحكام الخليفة، ويتهمه بالجهل، يدعي أن الخليفة شاب لا يتفقه في الدين يحكم بهواه. ثم هذا هو القاضي نفسه أمام الخليفة ينحني، وينشد القصائد مدحًا في بركات الخليفة ومعرفته. هذا وزير يخبر الخليفة أن أحوال الدولة غير مستقرة وحروب السلاجقة تحتاج إلى الأموال. الضرائب والجزية هما الحل. يخرج رجال الوزير لجمع الضرائب من الفقراء، ويبقى الأغنياء وكل من يعمل معهم محصنين من غدر الزمان وكل الحروب. لا بَثر يقترب من أطرافهم، ولا جزية تجرح أملاكهم. هنا خليفة ينتظر المدح ويجذبه من الأفواه. ومن لا يمدح يهلك، ومن لا يزيد في مدحه لا عطايا له. هنا أموال وذهب تَسخر صاحبها فيتحول إلى حجر لا ينقد، لا يفتي، لا يشعر بظلم أو قهر. هنا غبار يستقر على القلوب، ونساء، وخمر، وغلمان، وقصور، وفواكه، وحلوى، ولحم طير، وغنم. هنا لبن مصفًّى، ولذات لا تُعد.

لم يدرك قبل اليوم شدة غور المال على قلوب الرجال، ولا اندفاعه إلى الذبح، فهو الموصل إلى اللذة، والموصل إلى اللذيذ لذيذ. ومن يُعط القلب كل الأماني يجب أن نعشقه عشقًا، ولا عشق كعشق السُلطة والمال، فالنساء والذهب تحت سيطرة الدنانير دومًا.

هرول إليه الصبي يطلب حمايته من الأمير. قال الصبي: هل يسمح دينكم بهذا؟

قال بلا تفكير: أقسم لك أنه لا يسمح.

-اتركوني أعود إلى أهلي إذن.

انتشر الخبر، الإمام يقف أمام رغبة أحد الأمراء، يحمي طفلًا هو في الحقيقة غلام للأمير. الإمام يحرسه كما ابنه.

هذا طفل هرب، ولكن الآلاف لا يجرءون.

أنقذ الإمام الغلام وأعاده إلى بلاده، ففرح العامة، وبدءوا يرددون اسمه في الأسواق والبيوت، ولكن الأمير اشترى ثلاثة غلمان من تاجر النخاسة، وسار بهم في شوارع بغداد يتبختر ليغيظ الإمام.

ذهب إلى القاضي، شكا إلى الخليفة، قال: إن معاقبة الفقير وتَرْك الغني يؤديان إلى فتنة أشد من فتنة الباطنية. استمع إليه الخليفة، وشكره. وعده بالتصرف، ولم يحدث شيء.

بعد أيام مرّ على زاوية صغيرة، داخل قرية فوجد أهلها يأكلون العُشب من الفقر، ويشربون الماء ليربط على بطونهم من الجوع. سألهم عن السبب، والأرض تفيض، والنهر مستقر يجري ويُغدق، فأخبروه أن الجنود التُرك الغُزّ يأتون بغنمهم، ويطلقون الأغنام ترتع في أراضيهم، ولا أحد يستطيع أن يمنعهم، فالسيف بيدهم والسلاطين تحت طوعهم. ذهب يتكلم مع الجنود بنفسه. استمعوا في تأثر، ووعدوا بالكفّ عن أذى الفلاحين. سيمنعون الأغنام من أراضي الفلاحين، ولكن أين سترعى إذن؟ أليس من واجب الفلاحين أن يطيعوا الجنود الأتراك الغُز؟

ذهب إلى الوزير، وإلى الخليفة، دعا إلى العدل، فقال الوزير بصوت

منخفض: يا أبا حامد، هل تريدني أن أقيم الحد على كل البلاد؟ تدعو إلى الله نعم، ولكن اترك الحكم لمن يعرفه، لك ذور هنا في بغداد، وقصر، وخدم، وحاشية. لك قدرة على الوصول إلى القلوب وهيبة تحير العلماء. وجودك يجعل الزمن أفضل، ولا جنة على الأرض يا إمام.

أمر الشيوخ بالخطبة في المساجد. من كان يرجو ثواب الآخرة فليتق الله، ومن وجد آباءه وأجداده يقلدون الشر فليتوقف عنه. خُلق لنا العقل لنميز بين الخير والشر، لا لنطوعه إلى الشر الذي يعجبنا. طلب من الناس التفكر، فلم يفهم الكثيرون خطبة الجمعة هذا الأسبوع. يريدون عدد صلوات تحقق الأماني، ودعوة تأتي بالمال والولد. يريدون خوفًا يمنعهم من الخطيئة، ووعدًا بزوجات في الجنة تجعلهم يتحملون نساء الأرض. في الأسبوع الثاني، غير موضوع الخطبة. طلب من الشيوخ أن يشرحوا غضب الله ورحمته، وأن يضعوا للناس خطوات واضحة لتغيير السيئ إلى الحسن.

قال أحد طلابه: مولاي غير طريقته في خطبة الجمعة.

فقال الغزالي: لكل عقل طريقة للدعوة إلى الله. نخاطب الناس بما يفهمون، ومن يُرد فهم المزيد يقرأ الكتب ويسأل. لا جدوى في كلمات لا تعطيهم أمثلة حية.

-وهل غضب الله مثل غضبنا، واتساعه مثل اتساع الأرض؟

-ليس للعقل أن يدرك غضبه، فهو غضب بلا ضعف إنساني، واتساعه ليس بحيز ومكان، ولكن العامة لن تفهم كل هذا. «وفطام الخلق عن العادات ومألوفات المذاهب عسير». أُمرنا أن نخاطب

الناس على قدر عقولهم.

***

تمكن الغزالي من الدنيا، أصبح الخليفة الشاب يتلهف للقائه والبقاء حوله. كل الأعداء تقف حائرة، وكل ملوك الأرض تشاهده في إعجاب. تمكن الغزالي من الأرض كلها. هنا طلاب يحفظون كلماته، هنا شيوخ تريد أن تقابله مرة، وتسافر من بلاد إلى بلاد. وهنا خليفة شاب يتشبث به كأنه كل ما يحميه في سجنه الشاهق. يرى الدنيا بعينيه، ويتردد، ويستفسر. أما الوزير ابن جهير فعلاقته بالإمام الشاب الذي لم يتعد السابعة والثلاثين لا تشبه علاقة الغزالي بنظام الملك قط. هنا رجلان لكل منهما مُلك وجاه. هنا رجلان لأحدهما جيش من رجال، وللآخر عقل ينظم كل جيوش الأرض. لا يستهين الوزير الكبير بالغزالي، ولا يأمن له. كل رجل يترقب الآخر ويدرك حجم قوته.

اليوم ذهب الغزالي إلى قصر الخليفة، واجتمع بالخليفة الشاب ووزرائه، ثم قال في حسم: إن أحد القضاة يأخذ الرشوة. شهد عليه رجل واثنان ممن يحسنون الشهادة.

فقال الوزير شاروان، وكان هو الذي عين القاضي بنفسه: لا تسئ النية يا إمام، ربما كانت وشاية.

قال في حسم: ولكنني متأكد. لا بد من العقاب لأي قاضٍ يأخذ رشوة.

ساد الصمت في البهو.

قال أحدهم: هو قاض في البصرة ونحن في بغداد، كيف لنا أن نتأكد؟

-يأخذ الرشوة، كل الناس تعرف هذا.

-لا تسئ الظن بالناس. هكذا علمتنا يا إمام.

نظر إلى الوزير شاروان، ثم قال في حدة: لِمَ تُبقي عليه؟

-مخلص للخليفة.

-الإخلاص لله أولى.

قال الوزير شاروان في لين وحذر: يا إمام، الخلافة تحتاج إلى الإخلاص، وأخطار دولة بني عبيد الفاطمية في مصر تحاصرنا.

قال كأنه لم يسمعه وهو يخاطب الوزير ابن جهير: قاضي البصرة يحاكم ويسجن. سأتابع أمره معك يا وزير.

قال وهو يضع يده على كتف الغزالي، ويخرج به من عند الخليفة: صدقك وورعك نتعلم منه يا إمام. كل ما تأمر به سيحدث. هناك إمام واحد لكل بلاد المسلمين، الغزالي؛ يجدد الدين، وينقذ الأمة من التشتت، ولكن لي طلب عندك.

لو أصابت كلمات الإطراء قلبه فقد شوش عليها طلب الوزير ابن جهير، قال الوزير في رفق وهو يجلسه بجانبه: الخليفة الشاب المستظهر -حرسه الله- طلب منك منذ شهور كتابة كتاب، ولكنك لم تفعل. يستحي أن يُلحّ عليك يا إمام. أريدك أن تكتب للناس كتابًا يظهر خطأ الروافض والباطنية، وأحقية الخليفة بالحكم. الفاطميون في مصر يسيطرون على العقول، وأفكارهم تتسرب إلى بغداد،

الإسلام السُنّي في خطر، ومعه خليفة بغداد، وأنت المنقذ فقط.

لم يجب، فأكمل الوزير في حماس: لو كتب الغزالي كتابًا يشرح فيه أحقية الخليفة العباسي بالخلافة وشروط الخلافة، ويُظهر فيه خطأ مذهب الباطنية، يوطد لاستقرار الأمة. الحرب حولنا من كل اتجاه. هذا واجب لرجل الدين يا إمام، وأنت دومًا تقوم بواجبك على أكمل وجه، وهذا خطر أكبر من خطر الملاحدة لو تعلم.

لم يُجب. ضاق صدره لحظة. يُلح الخليفة في طلب يجده الغزالي قيدًا على صدره، لا يدري لماذا بالضبط.

قال الوزير: إلى متى سيُلِح عليك خليفة بغداد يا إمام؟ هذا هو الخليفة الذي يطلب منك. أتريد تشتت الأمة واجتياح الفاطميين بغداد؟

قال بعد حين: ليفعل الله ما يشاء.

فقال الوزير مشجعًا: توكل على الله يا حُجّة الإسلام، ولا تنس دور الوزير في صد الفتن، والحفاظ على حدود الأمة. لو ذكرت الوزير في كتابك لتشجّع باقي الوزراء على العمل من أجل الأمة.

فهم ما يقصد. نظر إليه برهة، فأكمل ابن جهير: الإمام يدرك الأخطار التي تحاصرنا. دوره الحفاظ على الأمة.

***

زوجته أصبحت تتوقع ماذا سيفعل يوم عودته من زيارة الخليفة، لا يأكل، لا يتكلم مع أحد، لا ينظر حتى لأولاده، يدخل حجرته، ويغلق بابه، ويكتبأو يقرأ. اليوم قالت: لا تذهب يا محمد لو كنت تحزن كل

هذا الحزن كل مرة.

نظر إليها كأنه لا يراها. وضع يده على جبهته، ثم ذهب ليلعب مع ابنه وابنته.

ردد كلمات بقلبه: «لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك، وكل ما في إدراكه لذة وراحة، فهو محبوب عند المدرِك، والقلب أشد إدراكًا من العين».

قربها منه، وهو يلاحظ ابنه الذي لم يتعد الثالثة من عمره، قال لها فجأة: انظري للعبة في يد حامد؟

فاجأها بكلماته، فقالت: يحبها.

-طلبها مني منذ أيام، ولم ينم حتى جئت بها له. قلبه مستغرق في حبها. سيطرت على كل جوارحه. حب الصبي غير حب الرجال يا ثريا. «إن الصبي إذا كلف بالشيء لم يفارقه أصلًا، وإن أُخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه، فإن نام أخذه معه في ثيابه، فإذا انتبه عاد وتمسك به، وإذا فارقه بكى، وإذا وجده ضحك، ومن نازعه فيه أبغضه، ومن أعطاه أحبه». حب يسيطر على كل الحواس، حب يُضحك، ويبكي، ويؤنس كل وحدة، ويشغل القلب عن كل شيء.

حينها ظنت ثريا أن محمد زوجها يحاول أن يتكلم في موضوع مختلف عما يؤرقه.

ولكن محمد أكمل: «لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل».

قالت وهي تدفن رأسها داخل صدره: من تحب يا شيخ؟

تمتم، وهو يحيط رأسها بذراعه كأنه يحميها: «ما سوى الحق حجاب عنه، ولولا ظلمة الكون لظهر نور الغيب، ولولا الطمع لرسخت المحبة».

لم تفهم كلماته، ولا شرحها لها. بعد برهة قالت: حب الله هو ما تقصد.

أخذها بين ذراعيه يومها طوال الليل كأنه يطمئنها، لجأت إليه لجوء التائه، بادلها القبلات، ذابت في عشقه لتبرد نار القلب، هنا لذة كما الجنة دومًا. بعد حين قالت وهو يدير وجهه عنها، ويغمض عينيه: ماذا بك؟

لم يجب. ماذا سيقول، إنه يخشى النوم؟ فكلما غفل تذكر، وكلما صحا نام. بلع ريقه، ثم عبس وجهه، وقام من مخدعه متجهًا إلى الفناء. يكاد يختنق حتى من ذرات الهواء ونسيم الصبا. ارتدت رداءها وخرجت وراءه. جلس أمام الفوارة يستمع لصوت المياه وحركتها المتوقعة. بدأ الصوت يزعجه كأنها تتدفق بدماء كبده. وضع يديه على أذنيه، وضغط على جفنيه. شاهدته من بعيد. خفق القلب من رعب وعذاب قادم تكاد تراه بأم عينها.

اقترب من الفوارة، ثم وضع بعض المياه بين راحتيه، ثم حررها، وعيناه تريان الحروف مذبوحة، مُفتتة، تلوح في الهواء حوله بلا معنى ولا جدوى. جمع بعض المياه مرة أخرى، ثم رأى عقله يئِن ويرجو، يريد أن يتحرر هو أيضًا. كيف لحرف العين أن ينقسم إلى عشرة أجزاء، لا معرفة هنا ولا معنى. وها هي الضاد تستسلم لسيف

يجز بلا تفكير. تمتم لنفسه شيئًا بالفارسية. اقتربت منه، وقالت في رقة: محمد...ماذا قلت؟

كأنه لم يسمعها، أكمل لنفسه بالفارسية: جز الرقاب أرحم من ضياع القلب. أين هو؟ في أي حرف يسكن؟ كم سيفًا قطعه؟ وكم سهمًا مزقه؟

قالت في فزع، وهي تهز كتفه: محمد..

نظر إليها فجأة كأنها أيقظته، ثم قال: نعم. اعذريني، لم أنم منذ أيام.

قالت في رفق: تعال لتنام.

-عندما أنتهي من كتابي.

-تكتب طوال الليل والنهار. هذا لا يكون.

كأنه يهرب من وجودها، ومن كل شيء، دخل إلى حجرته، وأشعل القنديل وبدأ كتابة كتاب «المستظهري» لينقد مذهب الباطنية، ويعطي الشرعية للخليفة.

حملق في قلمه الأصفر اللون، الرقيق الوسط. قلم مستقيم لا يخدع قط. يهتم به ويحسن بريه بسكين حاد حتى يفرغ الكلمات في الكراس بلا تحفظ. ما كتبه يرضى عنه. كتب ما اقتنع به، وانتقد الانحرافات والاعتماد على المعجزات وعدم الاعتماد على العقل أولًا وأخيرًا، فالعقل هو الملك، وهو الحاكم، وبه نعرف الشرع، ونعرف الأنبياء. معجزات الباطنية لا تقنعه، ولا بد ألا تقنع العامة. كتب وكتب. ثم كتب فصلًا عن الخليفة وأحقيته. لم يسأله القلم، خط

كل ما حكم الإمام به. كتب عن الحروب التي تحاصر بغداد مدينة السلام، وكتب عن الوزير الحكيم الذي استطاع أن يمنع خطر حرب أبناء السلطان السلجوقي على الحكم، من أن تخترق البلاد. ما دام الوزير الحكيم والقائد ممدود مع الخليفة، فالخليفة الشاب في أيد أمينة. كتب لأول مرة عن الحكام في كتاب عن العقيدة، ذكر أسماء وزراء، وقوادًا، وخلفاء. خط القلم ولم يسأل، ولكن القلب احتضر أو كاد. بدأ كتابه بالحقيقة.. قال: هذا كتاب طلبه مني الخليفة المستظهر، ولكني انشغلت عن كتابته، ثم شرعت فيه اليوم.

***

أمسك الخليفة الشاب بالكتاب في فرح، شكر الغزالي، وأمر له بالهدايا، ثم طلب منه أن يجادل أمامه، فهو يتعلم منه كل يوم. ابتسم الوزير ابن جهير وعيناه تلتقيان بعيني الغزالي، ثم قال: قلت لك: هناك إمام واحد في كل العالم. الغزالي اليوم يكتب التاريخ. أشكرك أنك ذكرتني في الكتاب. لك ما تريد طوال عمرك.

ثم اقترب منه وقال: ولكن أكان لا بد من إعطاء النصائح للخليفة في كتابك؟ ثم أنت لم تُكفر الباطنية يا إمام؟

قال في حدة: الكُفر لا يحدث بأمر من الخليفة أو الوزير. هذه أحكام شرعية لا تتغير، أنت تعرف، ثم إعطاء النصيحة للخليفة واجب على رجال العلم.

قال كأنه لا يريد أن يُغضبه: أنت على حق، لنبدأ الجدال.

هنا جدال مختلف.. اجتمع أهل بغداد حول الإمام، يتكلم الباطني عن الخليفة اليوم بجرأة، ويترك الغزالي من يخالف يجادله بلا

رقيب.

قال الباطني: نحتاج إلى مُعلِّم.

فأجاب الإمام: هناك مُعلِّم واحد هو رسول الله. عند اكتمال العلم لا نحتاج إلى مُعلِّم. عندما تنتهي من دراستك ويعطيك شيخك الإجازة فلا تحتاج إلى شيخك. وهكذا العلم دومًا.

-ولكن إمامنا غيرك يا غزالي، له كرامات ومعجزات.

فقال الغزالي: «آمنت بصدق موسى ومحمد، لا بشق القمر ولا بقلب العصا حية فقط، فإن ذلك يمكن أن يتطرق إليه التباس، بل من يؤمن بقلب العصا يكفر بخوار العِجل، فإن التعارض في عالم الحس والشهادة كثيرٌ جدًا، وأنا رجل يرى العقل ملكًا. أنا تعلمت الموازين من القرآن بالعقل، وفهمت الشرع بالعقل. فـ «جميع محاسن الدنيا في العقل، وسائر العلوم والأعمال مرجعها إلى العقل».

-ولكن العقل يتعارض مع الكرامات يا غزالي.

فقال الغزالي: «لا تعارض بين الشرع والعقل، ومن كذب العقل فقد كذب الشرع؛ إذ بالعقل عُرف صِدق الشرع، ولولا صِدق دليل العقل لما عرفنا الفرق بين النبي والمتنبي، والصادق والكاذب، وما ثبت الشرع إلا بالعقل».

-إمامنا وخليفتنا نحن يريد توحيد الأمة ورفع الخلاف بين البشر، وخليفتك أنت يؤجج الخلاف.

فقال الغزالي: هل تستطيع رفع الخلاف بين البشر؟ وكأن خليفتك وإمامك رفع الخلاف؟ حتى النبي عليه الصلاة السلام لم يرفع

الخلاف، ولا رفعه علي بن أبي طالب. «اختلاف الخلق حُكم ضروري أزلي». قضاء من الله. «لا تشغل قلبك بمواقع الخلاف ما لم تفرغ من جميع المتفق عليه». ولكني أريد أن أسألك: أنت تتبع خليفة الباطنية لأن والدك ووالدتك يتبعانه، أم لأنك نظرت إلى كلامه واقتنعت به؟ دون الدليل العقلي لا عقيدة ترشد ولا تنفع. «ومن نبض فيه عرق من عروق التقليد فلا يصلح لصحبتي، ولا أصلح لصحبته».

-يا غزالي، خليفتك المستظهر شاب يملك نصف أموال الدنيا.

قال الغزالي: لقد اجتمع العلماء على مبايعة المستظهر بالله، «وهناك براهين شرعية على أن الإمام القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته في عصرنا هذا هو الإمام المستظهر بالله حرس الله ظلاله». «شروط الإمامة صحة العقيدة وسلامة الدين»، ومذهب الباطنية بِدعة، ومذهب السنة هو المذهب السليم.

قال الرجل: كيف ترضى بإمام بلا جيش ولا قوة، ألم يشترط في الإمام النجدة؟

فقال الغزالي: تحت طوعه جيش من الأتراك السلاجقة يطيعه ويعترف به.

- نحن نرى جيش الأتراك يتبع الشهوات، ويهيج غضبه، فيطغى، كيف تستند إلى طاعة هؤلاء؟

-«هذا سؤال ضعيف الفهم، فإن أحوال العبيد في طاعة سيدهم تختلف باختلاف صفاتهم، وهذا لا يُنقص من السيد، بل من العبد. الطاعة ليست مشروطة بالاستقامة الدائمة، هذا مستحيل في ذاته». هؤلاء جنود يستغني بهم الخليفة عن معاناة الحروب بنفسه.

-ولكن خليفتك مُخْتَلف عليه.

-«ومن صفت له الدنيا عن المخالفة؟». قلت لك من قبل: حتى الأنبياء اختلفوا عليهم، وعلي بن أبي طالب خانوه وحاربوه.

-إن من شرط الخلافة الورع وخليفتك شاب.

-الورع هو الأصل، ولو اختل فلا خليفة بعدها، فالحمد لله «الذي يزين أحوال الإمام الحق المنصور إمامته، بالورع والتقوى حتى أوفى فيه على الغاية القصوى، فتميز بمتانة الدين وصفاء العقل واليقين، فهو على التحقيق الشاب الذي نشأ في عبادة الله، هذا كله في عنفوان السن وغرة من الشباب وبداية الأمر، ينبه العقلاء لما سينتهي إليه الحال إذا قارب سن الكمال، فهو يجتنب الترف، ويستحقر زخارف الدنيا، ويواظب على العبادات، ويلبس الخشن من الثياب».

قال الرجل في سخرية: كيف تجرأت على دعوى الورع للخليفة، وشرطها التخلي يا إمام والتجرد من الأموال؟ وهل هناك أكثر ترفًا من الخليفة وأكثر مالًا منه؟

-«إن أموال الخليفة أربعة أصناف؛ الأول أموال ورثها عن أهله فهي له خالصة من دون الناس، والثانية من أموال الجزية، والثالثة من أموال التركات، وهو لا يأخذ من تركة لها وارث، ولو لم يكن لها وارث فهي لبيت المال»، والصنف الرابع أموال الخرَاج المأخوذة من أرض العراق، وهي باتفاق علماء الشافعية وقف على المسلمين، خراجها لبيت المال، فهي أموال لا يأخذها ظلمًا أو إجحافًا.

-لا عصمة لخليفتك يا إمام.

-«لا يظن (ظانٌ) أنا نشترط في الإمامة العصمة، فإن العلماء اختلفوا في حصولها للأنبياء». «وتتعذر العصمة من كل ذلة على البشر».

-ماذا عن العلم والفتوى؟ خليفتك شاب لا يصلح للفتوى.

- المهم أن يعرف الحكم الشرعي الصحيح من العلماء. أما أن يفتي بنفسه، فليست شرطًا في الإمامة، بل الشرط هو الورع الذي يجعل الخليفة يستشير ويسأل العلماء، ويعرف منهم الأحكام.

هلل الناس للغزالي، اجتمعوا حوله، يريدون تقبيله، وعناقه، ولمس يديه.

ولكن الخليفة استدعى الإمام، وقال له بعد التحية والشكر: الوزير شاروان قرأ كتابك. يتهمك أنك لم تُكفِّر الشيعة الباطنية حتى وهم يسبون أبا بكر والصحابة.

نظر برهة للخليفة الشاب الذي أمامه، يحاوره كأنه يعرف ويقرأ، كأنه يدرك ويحكم، وهو لم يتعد السادسة عشرة، فلو قاس علم الخليفة فلن يكون ذرة من علمه هو ومعرفته هو، ومع ذلك يحاوره، وعليه أن يجيب. كتم أفكاره حتى عن نفسه، ثم قال في صبر: حدُّ السّبِّ غير حدّ الكُفر يا مولاي. هذه أحكام شريعة لا مجال للهوى بها.

-الباطنية كفار يا إمام؟

قال أبو حامد في تأكيد: نحن لا نتسارع في التكفير إلا بعد السؤال على معتقدهم ومقالتهم حتى إن وجبت التخطئة، فالتكفير مختلف،

وأحكامه مختلفة.

-وماذا عمن يستحل سفك الدماء؟

-يجب محاربته، والبت في تكفيره.

-الوزير شاروان يقول إن تكفيرهم فيه مصلحة العوام.

-هذا وهم وظن محضٌ لا يغني عن الحق شيئًا. الشرع أحكام واضحة لا تخضع للأهواء.

- شاروان يقول إنك أعطيتني نصائح في كتابك، وكان يمكن أن تكتفي بإعطائي الشرعية.

نظر إلى الشاب، ثم ابتسم، وقال: وهل قرأ الخليفة الكتاب بعد؟ يحكم عليه بنفسه، وبقريحته الحسنة، لا بكلمات الوزير. الخليفة والسلطان ينتظران دومًا نصائح العلماء. بالعلماء تقام الدول، وبدونهم تفنى. ثم لقد أعطى الصحابة النصائح لبعضهم، وهم أصحاب النبي. هذا واجبي.

قال الخليفة الشاب: أنت دومًا على صواب يا إمام. الناس تحبك. الحنبلي يستمع إليك، والحنفي، والمالكي حتى وأنت شافعي. اطلب مني ما تريد...

-مولاي يكرمني دومًا.

-ولكني أخاف من الفاطميين، دولة بني عبيد في مصر خطر علينا. أريدك من الغد أن تطلب من الناس أن تدعو للخليفة كل جمعة. دعاء النصر غير الدعاء الذي يدعونه بالفعل. أريد دعاءً إضافيًا.

بقي صامتًا.

-لِمَ لا تتكلم؟

-هم يدعون لك يا مولاي، ولكن الدعوة التي يشوبها الرياء لا تصل إلى الرحمن. كل ما يشوبه الرياء لا يصل إليه.

-وكيف للخليفة أن يضمن إخلاص من حوله وهو المنعم عليهم؟

ساد صمت متوتر، ثم قال الغزالي: كلنا ندعو للخليفة على المنابر، ونتمنى نصرته. سندعو أكثر من الغد.

ابتسم، وسمح له بالخروج.

***

خرج من عند الخليفة والنار تكاد تصل إلى أذنيه. طلب مقابلة الوزير ابن جهير في الحال، أخبره بلهجة حادة أن الوزير شاروان لا بد أن يترك منصبه الليلة.

طلب منه ابن جهير الهدوء، وأن يحكي له ما حدث، ولكنه أصر، ثم قال: أنت مقيم هذه الدولة. كتبت عنك في كتابي، بحكمتك تتصرف دومًا.

قال في بعض الرجاء: يا إمام..

-أبو حامد يطلب منك اليوم أن تعزل الوزير شاروان قبل أن أخرج من عندك، وأن تتأكد مِنْ أن مَنْ يخالط الخليفة الشاب العلماء وأهل المعرفة فقط. أريد قائمة بمن يدخل على الخليفة كل يوم.

هز رأسه بالإيجاب.. وعزل الوزير شاروان في الليلة نفسها.

أمر الغزالي الوعاظ بتكثيف الدعاء للخليفة بعد كل صلاة.

***

لم يمس الطعام ولا الشراب، دخل إلى حجرته وبدأ يكتب، فدخلت عليه، وقالت في يأس: لا بد أنها المؤامرات والفِتن، أعرف أنك تخاف على الأمة. الخليفة حركته محدودة، وعيونه هم رجاله. أعرف أنك لا تحب التعامل معهم.

لم يُجب. قالت في بعض اليأس: محمد، ماذا بك؟ كل هذا الغضب بداخلك؟

قال بعد حين: سيهدأ، لا تشغلي بالك.

ولِمَ الغضب؟ ما الذي يزعجه في كتابه؟ لم يخطئ في حكم شرعي، لا شكر في الخلفاء دون أن ينصح ويروي حكايات المخلصين منهم والطغاة، ولا كفَّر مذهب غيره، بل انتقد وشرح، فماذا فعل ليطل ضميره من رأسه هكذا؟ الباطنية خطر، هذه حقيقة، وتوحيد الأمة واجب، هذا أيضًا حق، فلِمَ ينخر الوسواس بلا داع؟ مثلًا لو لم يكن هناك إمام مثل الغزالي بعقله وطريقته في الشرح، وقدرته على الإقناع، وحب العامة له، فماذا كان سيحدث؟ كان سيتحكم شاروان ومنصور والشيخ المسماري، كان سيتحكم كل هؤلاء. هو هنا درع لكل الضعفاء، هو هنا ليعتدل الميزان، هو هنا يُذكِّر الحكام بالملك. نعم، لا داعي لكل فزعه. ماذا لو كتب كتابًا بطلب من الخليفة؟ وماذا لو دعا للخليفة؟ الخليفة يحمي من الفتن، والفتنة أشد من القتل، ثم ماذا لو شكر في الوزير في كتابه؟ الوزير بذكائه استطاع أن يبعد خطر الحرب عن بغداد. هدأ الغضب بعد حين،

ولكن طل الدعاء من رأسه يوبخه: كم مرة نطقت اسمه هباء يا حجة الإسلام؟ وكم مرة دعوت لسلطان دعوة لا تعنيها؟ أتخدع السلطان أم تكذب باسم الله؟

قال لنفسه: لا بد من بقاء الأمان. هذا أقتنع به طوال عمري. الحرب تقتل بلا هوادة.

وما شأنك أنت والسياسة؟ اترك السياسة لأصحابها أنت والوزير ابن جهير؟ هل يعقل هذا؟ أتدعي محبة ربك يا غزالي، ثم تلهيك السلطة وتفتت أضلعك تفاصيل الحكم؟

غسل وجهه بالماء البارد. زجر الصوت الذي يزعجه هذه الأيام، يشبه صوت براءة أحمد، ونغم لوم المجذوم، يدق الأسى على رأسه كنقَّار الخشب. سينام لأن كل هذا أضغاث أحلام؛ خرف وجُبن. هو يحارب هنا من أجل بقاء الأمة.

في الصباح جاءه الوزير شاروان مستغيثًا. وقف أمام بابه ساعة واثنتين وثلاثًا.

قال الخادم وهو ينحني في بطء: الوزير ينتظرك بالخارج يا مولاي منذ زمن.

هز رأسه، وترك الخادم يساعده في ارتداء العباءة والعمامة اللتين كانتا أغلى ثمنًا من ملابس السلطان والوزير. لا بد أن يُدرك الأمراء أن الإمام لا يحتاج إلى أموالهم، لديه ما يكفيه، ولا يحتاج إلى ألقابهم، لديه ما يكفيه.

نظر إلى الخاتم الياقوت الأحمر الذي أهداه إليه الوزير الأعظم

بُرهة، لم يفكر في شيء سوى دكانة اللون وبراءة الجوهر الثمين، ثم خرج لمقابلة الوزير شاروان. ابتسم له، فقبل الوزير يده، ثم قال: زين الدين وحجة الإسلام، العالم الأوحد، مفتي الأمة وبركة الأنام وإمام الأئمة.

ابتسم الغزالي، جلس أمامه كأنه ينتظر أن يزيد الوزير الإطراء، فكّر الوزير قليلًا، ثم قال: شرف الأئمة يا مولاي.

هز رأسه، ثم قال: ولو كنت تعرف أني شرف الأئمة كيف تنتقد كتاباتي؟

أطرق الوزير، ثم قال: يا مولاي..

-كنت تطلق عليّ شرف الأئمة، هذا أحب الألقاب إلى قلبي.

بلع الوزير ريقه، ثم قال: يا مولاي، يا شرف الأئمة، ليس كل عالم مثلك، ولا كل رجل دين استطاع أن يتغلب على نفسه ويحارب هواه. منصور هو السبب. هو من عبث بعقلي، ولكني جئتك معتذرًا، أرجوك أن تعيدني إلى منصبي؛ لأنك تستطيع، لا أحد غيرك يستطيع.

قال في حسم: منصور وأعوانه لا بد أن يتركوا بلاط الخليفة وبغداد كلها.

قال في سرعة: اليوم أفعل هذا. لو أذنت لي. وأتمنى أن تقبل اعتذاري. كانت غلطة من وزير يتعلم على يديك يا إمام.

قال بعد حين: سأفكر في الأمر.

فقال الوزير: جئت لك بهدية..

نظر إليه في غضب، فتراجع، ثم قال: أقصد جئت إليك بنفسي لأتعلم.

-لو كنت جئت بشيء فخذه معك، وسأفكر في الأمر.

- يا شرف الأئمة، الناس لا تستمع لسواك، كل الناس بمن فيهم الخليفة.

-هذا ما أقصد بالضبط، لا تلعب معي هذه الألعاب مرة أخرى.

ثريا كانت تستمع من وراء ستار، انقبض القلب بُرهة، لا تدري هل خافت عليه أم منه. عندما عاد إلى حجرتهما قالت: انتهت مشكلة الوزير على خير يا محمد، أليس كذلك؟

تمتم كأنه يتكلم مع نفسه: لا شيء ينتهي على خير هنا.

قالت دون تفكير: تعفو عنه. أعني جاء بنفسه، وأنت رحيم..

-هذه ألاعيب السياسة؛ لا هو يخلص في قوله، ولا جاء ليغير من أفعاله. لا أحد هنا يخدم سوى نفسه. كلهم عبيد شهواتهم لا أكثر. حتى الوزير والخليفة والسلطان. كل منهم يعمل لمصلحته هو. كأننا يوم الساعة، كل يفتدي نفسه ببنيه وعشيرته التي تؤويه. هذا عالم لا تريدين معرفته يا ثريا. اتركي لي هذه الأمور.

***

الغم عندما ينتشر يصعب استئصاله، فكلما قطعت منه فرعًا تولّد ثلاثة أفرع أو أربعة.

بعد صلاة الجمعة ضاعف الدعاء للخليفة، قال الغزالي وهو يرفع

يديه: «الخليفة المستظهر، مد الله الخلق بظلاله، وضاعف جلاله، زعيم الأمة، وشرف الدين، ووزيره يشكر الله على نعمته، نسأل الله تعالى أن يمده بتوفيقه ويسدده لسواء طريقه».

وعندما انتهى جاءت امرأة عجوز من ورائه، ترتدي السواد، قالت: سافرت لأقابلك يا إمام، الحرب تقف على أسوار بغداد لا تدخل لأن فيها الإمام، هكذا يقولون. هل باركت بلاد المسلمين كلها أم أنك تصاحب الخلفاء فقط وتترك العامة للموت؟ لو مات أهل أصفهان ونيسابور فهذا لا يهم الإمام يا ترى؟ متى تبارك كل دار الإسلام يا إمام؟ باركنا فربما تعيد إليّ أولادي وزوجي وأخي.

صمتت الجموع من تجرئها، فأكملت بصوت قوي: يا إمام، هل يرضى الله بالظلم؟

قال في ضيق: أي سؤال هذا! العدل هو سبب النجاة فقط.

-هل في الجنة مكان للوزراء وحاشيتهم غير مكان العامة؟ لديهم الوقت للعبادة، ونحن نعمل حتى الموت.

قال وكلماتها تهزمه، لا مفرّ من أن يخسر هذه المجادلة: العدل سبب النجاة فقط.

قالت: هم ينتصرون دنيا وآخرة.

-هذه كلمات لا خير بها.

قالت في مرارة: وهذا دين لا ينصفنا.

-بل هم بشرٌ لا ينصفون، أما رب البشر فهو العدل.

-لا نفهم كلماتك. نرى أطفالنا تذبح أمام أعيننا، بينما من بدءوا الحروب في بيوتهم آمنون. ماذا يفعل بنا الدين؟ ومن يعبد الله وهو عطشان وجوعان؟! أتعرف لو طلبت مني القتل الآن من أجل بقاء ابن واحد من أبنائي الذين قتلتهم حروب السلاطين لفعلت. أقتل كل رجال بغداد ويبقى ولد لي. أين ربك يا غزالي؟!

-وهو معكم أينما كنتم.

-اطلب منه أن يوقِفَ الحرب.

-أفعل كلّ يوم.

-ولكنه لا يستجيب لك.

-سر القدر بيديه.

-جادلني يا شيخ كما تجادل العلماء، لِمَ انعقد لسانك، أم أنك تمسح حذاءك بدمائنا؟

اقترب الناس، بدءوا يركلونها بكل قوتهم، يسبون العجوز، ويتهمونها بالكُفر، اجتمعوا عليها حتى اختفت تحت وطأة أرجلهم وأيديهم، لملموا الحجارة ليرجموها. صاح في الوجوه، طلب منهم أن يتوقفوا، دفع بيديه الجنود والعامة من حولها، أصابه حجر أو اثنان.. اخترق جبل البشر الذي يحاصرها ويدفنها، دخل برأسه يبحث عنها وأصابته الأحجار أكثر، واستمر الضرب بلا هوادة، نسوا من يضربون، ومن يدفنون بين أجسادهم. تدخل الحراس، صاحوا: توقفوا، الإمام يدافع عنها. توقفوا، الإمام يقف ليحميها فتصيبه الأحجار..توقفوا..

تدخل الحراس، توقف الناس عن الضرب. حمى وجهها بذراعيه.

لم يعد متأكدًا لو كانت حية أم لا. تساقطت الدماء من يده وذراعه، حتى الدماء لم يعد متأكدًا إن كانت دماءه أو دماءها. هز جسدها يحاول إفاقتها، فقامت في بطء، والدماء تتساقط من أنفها. أجلسها، وبدأ يمسح دماءها بعباءته وهو يطلب منها الصّفح، اتجهت عيناها إلى يده، كانت تنزف، كلما مسح الدم من وجهها تساقطت دماؤه على عينيها، فقالت: لا بأس بغسل الدم بالدم.

-لا أفهم كلماتك. لا تتكلمي، الآن نحضر الطبيب.

قالت: لا طبيب يداوي هذه الجروح يا شيخ، لا بأس بغسل الدم بالدم. أي دم هذا يا غزالي؛ دمك أم دمي؟ هل تعرف؟

انتفضت من مكانها، فأمر حراسه أن يحموها، ويجدوا لها بيتًا، أن يأتوا بالطبيب، ويعطوها الملابس والطعام. سمع عن حكايتها. حرب أبناء السلطان تمتد كما الجراد لتذبح الرعية، هنا مدن يصبح القتل فيها فعلًا يوميًا لا يدعو إلى الدهشة. ذبحوا أولادها وزوجها. لا تدري أي جيش فعل هذا، ولا لماذا، ولكنه يحدث وقت الحروب. هكذا قال لها الشيوخ عندما صرخت صرخة موت. صاحت حينها بأعلى صوتها في كل مَنْ رأت، والحزن سم يتلف العقل: ينثرون الدم، ويدّعون الورع. ينثرون الدم وأولادهم في أمان.

ذهب إليها بنفسه ليهدئها ويتأكد أنها بخير. بدت ضئيلة هينة في المخدع الكبير. ما إن دخل حتى اعتدلت في جلستها، وقالت وعيناها لا تتركان عينيه: نم مطمئنًا، فقد أطعمتني، وتركت بقية الرعية جياعًا.

قال بعد حين: لديك قسوة تخشاها الصخور التي تتحمل أمواج

البحر الهائج.

-لا تخرج قسوتي إلا مع من آمن عقابه. أنت لست مثلهم يا غزالي. بقلبك رقة لا تملكها قلوبهم، أعرف الرحمة لأنها شحّت في أيامنا. حافظ على رحمتك ورقتك، هذا زمن كله موت. لا بأس بغسل الدم بالدم.

***

عندما عاد إلى بيته بدأت زوجته تمسح جروحه في فزع، وهي تقول: هي عين أصابت الإمام.

أمسكت بذراعه لتمسح الدماء، ولكنه نزع ذراعه في حدة، ربما لأول مرة منذ زواجهما، ثم قال في عدم صبر: لا تشغلي بالك، اتركيني اليوم.

قالت في ارتباك: محمد..

فقال وهو لا ينظر إليها: اتركيني يا ثريا.

دوت الكلمات في أذنيه: لا بأس بغسل الدم بالدم. تموت كل يوم يا محمد...كل يوم ينهش الذئب عروق رأسك. كل ليلة..اترك..تخلّ..تغرق يا رجل. وتتشبث بأمواج البحر لتنقذك. من ينجو من هذا البحر يا شيخ؟ تخلّ...أنقذ نفسك أولًا قبل غيرك. تموت، بل مت وانتهى الأمر.

ثم ماذا؟ يهرب؟ يترك الأمة والناس؟ يترك طلابه ومدرسته؟ يترك ابنه ليتعرض لما تعرض أحمد له؟ يتركه بلا سند في دنيا كما الغاب لا يملكها سوى الأسد؟ أي جنون هذا؟ بالطبع لن يترك أي شيء. هنا

أصبح هو الملك، والسلطان، والخليفة نفسه. هنا هو في أمان من كل البشر، إلا من نفسه. هنا يرى قلبه كالخرقة المبتلة الملقاة في القفر، تنشف ثم تنكمش ثم تتعفن ربما أو تتحلل، من يدري؟ هنا..لا مجال للتخلي.

وجد لنفسه رغبة جامحة في البحث عن باقي حكايتها التي كتبتها عن الأسد والغواص. لم تعد ثريا تكتب. هل انتهت الحكاية يا ثرى؟ لم تعد تنسخ الكتب، انشغلت بدورها الجديد، زوجة الإمام وأم لولده وابنته. بدأ يبحث فيما نسخته من قبل، ربما يجد جملة أو كلمة ليعرف نهاية الحكاية. بعد حين وجد ما طلبه على هامش كتابه «تهافت الفلاسفة» مع أنها لم تنسخ الكتاب، كتبت هي بخطها: «الأسد والغواص»:

«عندما شرع الغواص الثعلب في مصاحبة الملك الأسد حذره صاحبه خوفًا عليه وشفقة. أخبره أن أهل العلم غير أهل السلطة. قال للغواص: لا يصلح لصحبة الدنيا إلا أهل الدنيا. صاحب الدنيا بالذي يطلب أن يتخلل بين نقط المطر لئلا يصيبه».

أهل الدنيا. هكذا كتبت. ثم أكمل قراءة: «يا غواص، ما أقل طمع صاحب السلطان في السلامة! وكذلك خدمة السلطان، ما أطيبها لولا ما فيها من التعرض للتلف!».

«ولكن الغواص كان يرى في نفسه فضلًا ومعرفة، أراد أن يتأكد من سلامة المملكة وأمنها حتى لا يهجم عليها البقر الوحشي من أي جهة، وتبقى الغابة في يد الأسد العادل. وعندما تقرب الغواص من الأسد أصبح الحسد يتفشى بين كل الحيوانات. كلهم يعرفون قدر الغواص

في قلب الملك. لم يدرك الغواص حينها كلمات صديقه عندما قال إن خدمة السلاطين طيبة، ولكنها تُعرض الإنسان للتلف. فالتلف أنواع: تلف البدن بالموت وهذا هين، وتلف النفس بالغبار وهذا أمر جلل».

طوى الكتاب في ارتياح؛ لأنه وجد ما يبحث عنه، وفي غم لا حدود له.

***

لأول مرة يأتي إليه أحمد، يسعى هو إليه. جاءه الصوت على حين غرة لم يتوقعه، ولكنه استغاث به في أعماقه، قال الصوت في شوق: جئت أقابل حجة الإسلام.. الإمام.. هل لديه وقت ليقابلني؟

التفت، واحتضنه بلا تردد. في رائحة الأخ براءة الطفولة، وجسارة الصبا، في رائحته ريح الأم، والأب، والوطن. في رائحته الشجاعة التي لم يعد يملكها. لا تذكر حنقه على أحمد، ولا ورد منصور على خاطره.

طلب منه أن يذهبا إلى الصحراء؛ يمددان ظهريهما، وينتظران النجوم. لم تأت النجوم اليوم. غمرهما ظلام، ودثر كل أنحاء الفؤاد.

فقال أحمد في هدوء: جئت في موعدي. كأنك تحتاج إليّ.

-أريدك معي دومًا، أنت من رحلت وتركتني.

أطال أحمد نظره إليه، ثم قال: حلمت بك منذ أيام. كنا معًا عند النهر، أوصتني أمي بك، ولكنك غصت في النهر فلم أجدك. غرقت ولم أفلح في إنقاذك. أزعجني الحلم. أيقظ شوقًا وتوقًا إليك، كنت أحاول أن أدفنه في الأعماق فلم أفلح.

التقت العينان، تجاهل محمد كلماته، ثم قال: دار الخلافة تحتاج إليك، تحتاج لواعظ مثلك.

-ما تحتاج إليه دار الخلافة هو أنت.

ساد الصمت برهة، ثم قال أحمد: إمام بغداد ومدرس المدرسة النظامية. هذا منصب كمنصب الخليفة، لا اختيار فيه ولا ترك له إلا بالموت.

قال محمد في عدم ارتياح: أنا لم أكن أنوي ترك منصبي، هل جئت من أجل هذا؟

قال أحمد من جديد: لو أنقذت واحدًا بكلمة، فلك ثواب مَنْ أحيا نفسًا، لا خيار لك يا محمد.

-عن ماذا تتكلم؟

-عن قلبك. كنت أقرؤه طوال عمري حتى وأنت بعيد عني، هو رحم أمنا، ربما تبادلنا الشرايين حينها، فأصبح الوصل دائمًا. فلنقل إن إمام بغداد خرج اليوم أمام الجموع، وقال إنه ترك منصبه، ماذا يحدث؟ يُقتل في الحال، فقد ثار على الخليفة، وعلى السلاجقة، وعلى كل شيء، يُذبح الإمام أمام العامة، ولن يشفع له علم ينتفع به، ثم يتولاها منصور وأمثاله، لا خيار لك.

-بمَ تقنعني؟ لا أريد الرحيل.

قال أحمد في بعض الدهشة: الغريب أنني لم أستطع أن أنقذك في حلمي. الخوف هو ما جاء بي.

صفا القلب حينها، كان يتكلم كل أخ عن نفسه، وعن بضعة منه.

قال محمد وهو يمد ظهره على الأرض: العجوز قالت: لا بأس بغسل الدم بالدم.

-سمعت ما حدث لك مع العجوز. لا تفكر في كلمات الجياع، الجوع يتلف العقول أو يطهرها، لا أدري. جئت لأنك تحتاج إليّ. الذئاب تمكنت من عقلك يا أخي، تنهشه، وتجز، وتبتر، أرى قطعة من اللحم السمين أمام عيني...اترك لها اللحم، واستغث بالغار في الجبل، هكذا نصحتني. قلت: اترك للذئاب اللحم، واتجه صَوْب الكهف، هناك أمان وأمن. كيف تتوقع أن تتوقف عن نهشك، وأنت تملك هذا اللحم كله، ولا تستطيع تركه؟

أغمض عينيه، وعبس وجهه. ساد الصمت برهة، فقال أحمد: أريد أن أقابل أولادك، وزوجتك، وأريدك أن تسامحني، قسوت، وزلّت قدمي، ولكنك دومًا تحتوي وتسامح منذ الصغر، ولكني لن أبقى في قصرك. عندي خبر سيفرحك. نويت الزواج من ابنة رجل طيب، هو خياط، وإياك أن تقول إنها لا تليق بشقيق الإمام.

-تعرف أني لن أقول هذا. أفرح لك فقط.

ثم طلب منه أحمد أن يأتي معه لخطبتها، يريدها هي بالذات. صاحبه إلى بيت الخياط، اجتمع الناس ولم يصدقوا أن شقيق الإمام سيتزوج ابنة الخياط وخاصة هذه الابنة، هذه قصة كأساطير القدماء. ابنة الخياط أصابها الجدري منذ عام، وبعد أن كانت من أجمل بنات بغداد حفر المرض دوائر على الوجه والجسد، فأصبح كل من يراها يغمض عينيه من بشاعة المنظر، ويستغفر ربه، ويدعو لها. اختارها أحمد اليوم للزواج، وترك كل بنات التُرك والعجم. لا أحد

يفهم بالضبط السبب. لم يعترض محمد، صافح أخاه وهنأه، ثم حذره من منصور. لم يزل يحوم حوله، ولم يزل الخطر قائمًا.

***

ماذا لو ترَك؟ هل يهدأ حينها؟ هل تتوقف النفس عن اللوم؟ الصوفية يقولون: إن الحب الذي يستغرق كل القلب لا يجد مكانًا لطمع في منصب ورياسة وسلطة. في الصباح فاجأته نفسه بشجاعة لم يعتدها. جاء بثريا أمامه واعتذر لها عن شروده ووجومه، ولكنها كانت حذرة في التفاؤل، لم تزل عيناه غريبتين، وروحه تبتعد كل يوم. فكر أن يواجهها بما كتبت، يخبرها أن صاحب الغواص في حكايتها على صواب، مصاحبة الملك للأسد بها تلف لنفس الغواص. يريد أن يشرح لها أن نفسه تلفت من مصاحبة الملك، ويحتاج إلى الابتعاد، ولكنها لم تخبره قط بما كتبت، وخاف أن يحرجها أو يفشي سرًا لا تريد إفشاءه.

عندما طلب منها أن يتحدث معها، شبكت أصابعها أمامها، وهي تتوقع الحزن. اليوم يعترف بأنه يحب غيرها، أو أنها لم تقم بواجبها ربما، أو أنه لا يحبها. سيعترف بعدم حبه.

قال وهو ينظر إليها: كأنني أغرق يا ثريا، ولا سبيل إلى النجاة.

قالت بلا تفكير: ما الذي يحزنك كل هذا الحزن؟

- أفقد كل يوم قلبي في مكان مختلف. أبحث عن الغاية ولا أجدها. أحيط نفسي بزيف ونفاق، وأحيانًا تفاجئني نفسي بما أصبحت فأفزع، ولكنه قلبي ما يؤرقني، أبحث عنه ولا أجده. مَنْ يحيا بلا قلب يا ثريا؟

قالت في حيرة: ولكن لا أحد يعرف مثلك في كل العالم. الناس تذكر اسمك مقترنًا بالمعرفة والعقل يا محمد.

-ولكنها معرفة ناقصة. كلها أوهام كغفلة الدنيا.

-لديك الولد والعلم.

- ليس لدينا سوى ما نملك، ونحن لا نملك شيئًا، الملك يملك كل شيء.

-الملك يطيع أمرك يا محمد.

-الملك غني عني وعنك. كيف أدعي المعرفة، وأنا أدرك جهلي.

-عن أي جهل تتحدث؟

-عن نفسي.

-لا أفهم كلماتك.

-ولكنني أشقى بما جمعت.. أتمزق من كلمات الإطراء وانجذاب البشر لي. أتمزق زهوًا أحيانًا، وفزعًا في بعض المرات. كلما زاد النهم طلبت النفس المزيد، وابتعدت عن حقيقة نفسي، والعالم من حولي. لم أعد أتذكر من أكون.

-الحقيقة أنك أبو حامد الغزالي، حجة الإسلام، الإمام الأوحد.

-الحقيقة أنني أتلفت قلبي دون عمد، فليغفر لي ربي هذا.

قالت في عدم صبر: لا تتكلم كلمات لا أفهمها.

فقال: ولكنك تفهمين. أنت فقط لا تريدين مواجهة نفسك بما

تعرفين مثلي تمامًا.

قالت في محاولة لإقناعه: لماذا تشعر بالذنب؟ أعطانا المال لنستمتع به. كنت تقول: إن المال وسيلة للخير أيضًا.

-هو كذلك، ولكنني لو بقيت في بغداد أموت من حزني.

ساد صمت مهيب.. فقالت: هل تريد أن ترحل عن بغداد يا محمد؟ لا تستطيع.

-لا بد من الرحيل.

-هذا ليس منصبًا تستطيع تركه. أنت تعرف هذا.

قال في إعياء: أحتاج إلى الرحيل.

قالت في إنكار: لا بأس، نرحل إلى بلدك.

-الرحيل لا بد أن يكون إليه وحده، وبنفسي وحدها.

-تكلم بلغة أفهمها، قلت لك.

قال الكلمات التي عاشت طوال عمرها تخاف من سماعها؛ قال: لا أستطيع أن أرحل معك، لا بد أن أرحل وحدي. كيف لمن يغرق أن يساعد غيره؟ لو بقيت أفقد عقلي، لم أعد أستطيع..

قالت كأنها تحاول أن تنزع الخنجر من الصدر: تريد تركي؟

-بل أريد أن أجد نفسي، أريد الشفاء، بقائي هلاك، هل تفهمين ما أعني؟ انغمست في العلائق، فضاع قلبي، وفر من قسوة رآها مني أنا.

قالت في بعض الأمل وهي تمسك بيده: محمد، أنت متعب. لك حق، كتبت سبعة كتب في عام واحد، بالإضافة إلى كل الفتن التي تحيط بالأمة والمؤامرات، والخيانات، وطلابك، ومسئولياتك. أنا أفهم. تحتاج إلى الراحة. اذهب لأخيك ستكون أفضل. هذه حالة لن تدوم، ثم تصحو، فتدرك كيف حطمت كل حياتنا.

لم يُجب. فقالت كأنها تتأكد أنه لن يرحل: محمد..

-لا بد من ترك بغداد، نفسي سجينة الغبار والمال، بعض المجهود يجليها ويعيدها لصورتها الأولى لو شاء الملك. لا أستطيع أن أبقى ميتًا حولك، فلن تنتفعي بوجودي. أريد أن أعود إلى الحياة التي بحثت عنها أعوامًا.

قالت وهي تداري فزعها: أنت متعب، قلت لك هذا. لو أردت أن ترحل، نرحل معًا. هذا ممكن، أليس كذلك؟ لن أزعجك.

قال في حسم: هذا مستحيل، أنت تعرفين. لو كان منصبي منصبًا لا يمكن تركه إلا بتحدي الخليفة فحياتي في خطر، تريدينني أن أجرّك، وأجرّ أولادي إلى موت أو خطر؟

قالت في حسم: إذن لا ترحل.

قال بعد برهة: يفعل الله ما يريد.

***

قالها بلا عناء كلمات بتر بها الروح: «أريد أن أرحل من هنا. بدونك».

ارتبك كل العالم كأنه يوم الميعاد. انشق القمر وهاجت الأمواج. لا

بد أنه غضب منها، نعم. كانت تضايقه بغيرتها، خنقته والرجال تحب الحرية. غضب، هذا أكيد. هو خطؤها، لم تحافظ عليه. أعجبتها القلادة التي أعطتها إياها الأميرة، وهي تعرف أنه لا يستسيغ هدايا الأمراء. كان لا بد أن تتخلص منها، تعطيها الفقراء. ربما توقف عن حبها. ربما لم يحبها. ربما تزوجها شفقة منه، وعندما بدأت تتحكم أراد أن يلقنها درسًا لتدرك أنها لا شيء. رأت أمها في مخيلتها، كانت ترجو وتئن، تهون عليها نفسها مرة ومرات. أقسمت ألا تكون أمها. اليوم ستتحمل في كبرياء. يحب كبرياءها، هكذا قال. عندما عاد جهزت له الطعام بنفسها، جلست أمامه، ولم تأكل، ولم يأكل، التقت أعينهما، قال في يقين: أفزعتك.. أعرف. العلة بي وليست بك.

انفرط العقد، وانهزم العقل. كانت كمن تشهد على ذبح جنينها، وفي يدها إنقاذه. قالت في صوت لاهث: أعرف أنني السبب في قرارك.

جفل، ثم قال مسرعًا: لا، لستِ السبب.

ارتجفت، ثم قالت وهي تتحاشى النظر إلى عينيه، ولكن قلبها على مسمع منه: ربما أغواني الأمل بعض الشيء فأصبحت ألملم أشياء لا حاجة لي بها؛ ذهب وأحجار وملابس. كان لا بد أن أترفع عن هذا، فأنا زوجة الإمام. وربما أيضًا ضايقتك بغيرة لا داعي لها، كنت صغيرة ولا خبرة لي. أعطني فرصة واحدة..

أمسك بيديها الاثنتين، ضغط عليهما، ثم قال: لا ذنب لك. أريدك أن تفهمي ما يجول بخاطري، لا أفهمه أنا نفسي. لم أعد أعرف مَنْ أكون.

استغاثت بالكلمات من فزعها، قالت: لا تقل هذا. أرجوك لا تقل هذا. لك حق أن تشمئز مني، ومن أختي، لك كل حق، ولكن لا ذنب لنا، لم

نكن نعرف حقيقة صالح. أنت تعرف هذا. ربما مشكلة صالح تؤرقك، ربما تؤثر على منصبك، أفهم ذلك. اطلب مني أي شيء، ولكن لا ترحل. يزعجك أنه هرب. ربما تظن أنه نوع من الهزيمة، ولكنها ليست كذلك، أنت تنتصر دومًا. أعتذر لك عما حدث من زوج أختي وعن..

قاطعها: توقفي. لا علاقة لك بما يعذبني، ولا لأختك، ولا لصالح. هو شأن داخلي يا ثريا. اهدئي لتفهمي.

انحنت، أمسكت بيده، وقبلتها، ثم تشبثت بركبته، تهاوت أمامه كالخرقة التي فقدت كل رمق الروح. أمسكت بيده والدموع تتساقط بلا توقف، وقالت بلا حرج ولا إثم: أتوسل إليك.. أحلفك بكل ما هو عزيز عندك؛ بحياة حامد ابنك ألا تتركني. سأفعل كل ما تريد. نتخلص من كل المال والبيت.. بل انظر ..

قبل أن يتحرك، انتفضت من مكانها، وهرولت إلى الخزانة، أخرجت منها القلادة الثمينة التي أهدتها إياها تركان خاتون وألقت بها أمام قدميه، والدموع تنهمر كما لم تنهمر من قبل، ثم قالت: لا أريدها. أعرف أنك غضبت مني منذ أخذتها، كنت أسيرة الياقوت والمرجان، وزوجة الإمام لا بد أن تتعفف، كنت مخطئة يا شيخ. اغفر لي أو عاقبني، ولكن لا ترحل ولا تتركني. أو خذني معك...محمد..

فتح فمه، فهوت إلى قدميه، لثمتها وأمسكت بها، وقالت في يأس من يتمنى الموت ولا يناله: أتوسل إليك ألا ترحل. لم أتوسل من قبل. لا أملك غيرك. ليس لدي سواك. هل يرضى عنك الله لو تركتني؟ يا إمام...لا تظلم...لو كنت أخطأت فأنا أطلب عفوك، ولكن لا تتركني. سأتغير، سأفعل كل ما تريد..لا تفعل بي ما فعل أبي بأمي. كانت أمي

أقوى مني، أنا لن أتحمل، أعرف هذا. أحبك. أحببتك منذ أول لحظة رأيتك فيها، كنت أشتاق إليك في صمت ويأس، والآن أنت معي ... محمد...أبقني معك فقط، لن أطلب أي شيء.

رفع جسدها من الأرض، ثم أجلسها أمامه، وقال في حسم وهو يضع يده على رأسها: اهدئي.

ولكنها كانت كمن امتلك كل شيء ولم يدرك، وفقد كل شيء وأدرك. كانت تنشج وتبكي أباها وأمها وعمرها، وحلمها وخوفها وفزعها. كانت تنوي أن تمحو كل قلبها بين يديه، أن تتلون بكل الألوان، وتقوم بكل المستحيلات.

لا بد أنها أذهلته بتغيرها، أو أفزعته، لا تدري، طواها بين ساعديه، ثم مر بيده على ظهرها وهو يقول: لن أرحل. أحبك يا ثريا. أنت تعرفين. لا أستطيع البعد عنك أنا أيضًا. انسي ما حدث.

لفظت كل روحها أمامه، وأمسكت بيده، وقبلتها. وقالت: أرجوك ..

ولكنه نزع يده، وقال في ثبات: لا تفزعي كل هذا الفزع. أنا أحبك.

ارتجفت، والدموع لا تتوقف. رأت أمها وهي تكتم الأنين. كانت تختلي ليلًا وتئن كالحيوان الذي يفقد أطرافه الواحد تلو الآخر. أطبقت الأرض على السماء، وخسفت الشمس. بكت. بكت بصوت عالٍ.

عانقها بكل قوته.

أرادته اليوم كزوج وحبيب، أرادته بداخلها، يذكرها أنه لم يرحل، وأن ما تخافه لن يحدث. أرادته ليشعرها أنها لم تمت بعد، حتى

وإن كانت تحتضر. في لحظات العشق اعترفت له كيف تمنت وتوسلت، في لحظات العشق ألقت بكل الأسلحة. سكبت كل حمل السنين أمامه. تفوهت بكلمات عشق لم تكن تدرك معانيها. أخبرته بالأماني والصور بخيالات الصبا، ووجد التوق إلى المستحيل. نسيت في غضون الغفوة إن كان هذا حلمًا أو حقيقة. ترنحت بلا خمر، واحترقت بلا نار، ولكن ضوء الشمس جعل النوم صعبًا، ومواجهة الدنيا ضرورة.

لم تترك ذراعيه طوال الليل، ولم يتوقف البكاء. عندما يصبح التعلق داء والعشق موتًا يغيب كل عقل.

في الصباح دفنت رأسها في الوسادة خجلًا من ضعفها، ولومًا لعقل توقف تمامًا ليلة أمس.

قالت في صوت مبحوح: أمس..

اقترب، ثم قال: كلام العشق يطوى ولا يحكى. سأصنع لك عصيدة بنفسي.

صنع العصيدة مع ابنته وابنه، تكلم معهما وضحكا معًا. وضعها أمامها، وحاول التكلم معها، ولكن عينيها كانتا منتفختين، وثمة صفير يصم أذنيها، قال بعد حين: هل أنت بخير؟

هزت رأسها، ولم تنطق بكلمة. وضع اللقيمات داخل فمها، فابتلعتها بصعوبة. وأرادت لأول مرة أن تبقى وحدها، لا حوله. سكبت ماء القلب أمس، ولا تعرف كيف تجمعه اليوم.

كأنها أمس لفظت كل سر، وجادت بكل خبيئة. أسكرها العشق

البائس، فانسكبت نفسها بكل هوانها. أحست بذنب شارب الخمر بلا جدال، وحنق العاشق الذي يشتاق بلا أمل. شعرت بغبطة من تحكمه في نفسه ومن ثباته حتى وهو حزين. انتابها شعور غريب عليها؛ شعور بالحب والكره. الحب له، والكره لقوته وضعفها، لقدرته وعجزها، لجسارته وجبنها.

وعندما خرج بعد حين نظرت إلى العقد الذي لم تنفرط حباته. أمسكت به، ووضعته في عناية في الخزانة. اجتاحها صقيع من ذاب من وهج اليأس. جمعت بعض الملابس، وانتقلت إلى حجرة الأطفال. عندما عاد ليلًا دق بابها، وطلب منها الكلام، فذهبت معه إلى حجرتهما.

جلست أمامه بلا كلمة. فقال: لا شيء يدعو للخجل. بين الزوج والزوجة أنس وضعف والتحام. لو أردت أن تتكلمي نتكلم، ولو أردت الصمت ننسى.

قالت دون النظر إليه: تنوي الرحيل؟

فقال: قلت لك إنها فكرة راودتني برهة ونسيتها. الأيام صعبة يا ثريا، ربما كان لا بد أن أشرح لك. الدم يحاصرني والنفس مجبولة على العذاب؛ فساد ونفاق. آيات نطوعها لرضاء حاكم وسلطان أو عدو ومتعصب. فرقة وكره وحرب وشر. أقف عاجزًا كما النبات تذروه الرياح. لم أعتد العجز ولا أتحمله، ولكنني هنا لن أرحل، وليتني أملك الشجاعة لترك صفاء العيش والمجازفة بكل شيء.

-الرحيل هو الهروب يا شيخ.

-الرحيل هو إنقاذ النفس من الغرق.

-لا أفهمك.. قلت لك.

-لا يهم. أنا معك.

قالت في بغض من ضعف لا يترك ذاكرتها: أكان لا بد أن أتوسل إليك لتبقى؟ أكان لا بد أن أتبعثر أمامك؟

-لا.

-تحب أن تسيطر على كل شيء. أن تطوع كل العالم كأنك ملك. ألم يرضك غير هواني؟

-لا يرضيني هوانك، ولن يحدث ما دمت حيًا.

قالت في صوت عالٍ لأول مرة منذ زواجهما: ولكنك قاسٍ، صلب كما الحديد. لو ظننت أنك ملاك فأنا أقول لك إنك حداد، تتعامل مع النار وتشكل الناس كما تريد. جزء مني يبغضك يا محمد.

أذهله صياحها فلم يتحرك.. قال: أحمد الله أنه جزء وليس الكل. تعالي ننام ونتكلم غدًا.

-ولِمَ نتكلم غدًا؟ لِمَ عليك أن تقرر كل شيء؟ من يحكم؟ من يخطب؟ من يحارب؟ من يرحل؟ من يبقى؟ ماذا تظن نفسك يا رجل؟ لا أريد أن أنام، أريدك أن تطلقني.

صمت. دوت الكلمة في الحجرة، لم تندم عليها ولم تسترجعها. اليأس يخرج كل القسوة من الأعماق. صاحت بأعلى صوتها: طلقني يا إمام. يا شيخ. فلا أحد يعرف قسوتك غيري. طلقني وسوف أرحل بأولادي عن قصرك، لا حاجة لي به. لا أحتاج إليك لأنني أعرف

حقيقتك.

لم ينطق.. واجتاحها خوف أن يفعل ما تريد، ورغبة أن ينكسر أمامها هدوءه وسيطرته، فصاحت من جديد: ماذا بك؟ لا تصدق أن زوجة إمام بغداد لا تريده؟ أكرهك يا محمد، أكره غرورك وسيطرتك، أكره شفقتك عليّ وذلي أمامك. ثريا لا تُذل لبشر. طلقني وارحل يا شيخ، ولكنك لن تستطيع الرحيل، وكيف ترحل عن كل هذا الجاه وهذه العظمة؟! ألم تحي طوال عمرك تحلم بهذا المنصب؟ ألم تصادق كل أمير وتجادل كل عالم من أجل أن تتحكم؟ هل تظنني لا أعرفك؟ لا قلب لك.

ثم أشارت إلى قلبها، نغزته بإصبعها وقالت: هنا لا شيء لديك، لا شيء. أنت تعرف وأنا أعرف.

دق حامد الباب ففتحه، وحمل الطفل المفزوع من صياح أمه. تساءل الطفل عما جرى، طمأنه الأب وطلب منه الذهاب إلى حجرته.

ومكث مَنْ في البيت يترقبون هذه المعركة التي لم تنته. اقتربت أختها من الباب، ولم تجرؤ على التدخل.

قالت هي في إصرار وأنفاسها تتصارع: سأرحل من هنا.

التفت إليها ثم قال: هذا يكفي.

-بل ..

قاطعها في عدم صبر: هذا يكفي. هذا بيتك. لا رحيل منه.

-لا أريد العيش معك.

لم ينطق. فقالت: بالطبع ستترك البيت، هذا ما أردت من البدء. تتزوج أيضًا..في رحلتك، ثُرى، كم امرأة ستتزوج؟

قال في حسم: توقفي.

حينها دقت عزيزة على الباب، وفزعها يسيطر عليها، اقتربت ثريا من الباب فتحته، وهي تمنعها من الدخول بذراعها، فقالت عزيزة هامسة: هل فقدت عقلك؟ اصمتي واطلبي صفحه الآن. لا تتركي الليلة تمر إلا وقد صفح عنك.

أغلقت الباب في وجهها، نظرت إليه بلا خوف لأول مرة منذ أعوام. قالت في حدة: لا أريد العيش معك يا محمد.

أمسكت بالباب لتفتحه، فقال وهو يمسك بيدها في قوة: ابقي في حجرتك.

ثم فتح الباب وخرج. رأت الغضب في عينيه. رأت عرقه النافر فانتابتها راحة لا مثيل لها.

ما إن خرج حتى دخلت أختها وقالت: لن يعود.

فقالت ثريا: لن أكون مثل أمنا يا عزيزة.

فقالت عزيزة في أسى: ولكنك أكثر يأسًا وعشقًا يا أختي. الله معك.

تحاشاها يومها وتحاشته. مر يوم واثنان وهما غرباء. تسرب الشوق ولكن الغضب كان أسرع وأكثر وضوحًا.

***

استمر لوم أختها بلا توقف، اتهمتها أنها فقدت عقلها، ولكنها كانت مُقيدة بيأس لا يدركه غيرها، تعرف قلب زوجها أو هكذا شُبِّه لها. ودت لو تكلمت مع أخيه، هو سبب كل المصائب. تشاجرت معه في خيالها، أخبرته برأيها فيه، ولكنها لم تجرؤ على مواجهته بما يجول في خاطرها. حسد أخيه هو السبب. يريد منصبه ونجاحه وماله. ليته يدرك هذا.

بعد يومين دخل الحجرة وهي جالسة ورأسها بين راحتيها.. قال: نتكلم.. ما رأيك؟

-لا شيء نتكلم عنه. تريدني أن أعتذر لك عن الصياح؟

-لا.

-ماذا تريد؟

-هي أيام كلها غيوم وتيه، ننسى كل شيء.

-أريد الطلاق.

-ننسى كل شيء يا ثريا. لا أحب أن أسمع منك هذه الكلمة حتى وقت الغضب.

-ولكنني أنا أحب. هل تتصور؟ هناك أشخاص غيرك في هذا الكون وبعضهم يحب ما لا تحب.

-لا تُصَعِّبي الأمر عليّ.

-الغزالي لا يحيط بكل شيء علمًا، لم يدرك أن ثريا لم تعد تريده.

بدا كأنه يحارب سخطه ثم قال بعد برهة: أعتذر لك لو أفزعتك بما

يجول بخاطري. أتفهّم فزعك وغضبك.

-ولكني لا أعتذر لك.

-لا يهم، لا أريد اعتذارك.

-تشفق عليّ لأنني وحيدة ويتيمة، وليس لي غيرك؟!

-لي ولك الله، كلنا ملك له.

-أنت السبب أصلًا في موت أبي. كان يردد كلماتك في الشام ويُدرِّس كُتبك، فقتلته الباطنية بسببك وتركوك حيًا. لِمَ لم يقتلوك أنت؟ كل ما حدث لنا بسببك.

هذه كلمات أصابت القلب على ما يبدو، لم ينطق، ولكنها أدركت أنها نفذت بالسهم إلى الأعماق. أكملت والخوف يولد حنقًا مفزعًا: تزوجتني لتكفر عن ذنب ارتكبته، ولكنني لا أسامحك.

قام من مكانه ثم قال وهو يحاول أن يبدو هادئًا حتى وهي تدرك حجم ثورته: لا بأس. عندما تهدئين نتكلم. وحتى هذا الحين ليس علينا أن نعلن مشاكلنا على الملأ، ولا أن يعرف كل من في البيت أننا لسنا على وفاق.

قالت في تأكيد وهي لا تريده أن يتركها، التبست كل الأمور عليها، لو رحل فربما لن يعود، ومادام الشجار مستمرًا فهو معها. تتفوه بكل ما تريد وبكل ما يجول بخاطرها. ماذا ستخسر أكثر مما خسرت؟ ولكننا لسنا على وفاق. أنا أخبرك لماذا حدث كل هذا.

قبل أن ينطق قالت والأنفاس تتسارع: أخوك يشجعك على الرحيل. تُرى أيريد منصبك؟ لم أر في حياتي أخًا يريد لأخيه أن

يمتطي الخطر. لو رحلت عن المنصب فسينهشونك كما الثعلب الأسير. أعداؤك أكثر من أصدقائك. الباطنية سيتتبعونك لقتلك. وكل من أراد منصبك سيقتلك بالفعل، وأمراء السلاجقة الذين وقفت ضدهم عندما ظلموا، وكل فقيه ومتكلم وواعظ زجرته عندما فسد. كل وزير لم تنصفه ولم تأخذ منه الرشوة، وكل عالم هزمته أمام الجموع. ستتحد ضدك كل الأمة. فالفساد يا شيخ لم يترك منها فردًا وسيقتلونك. تعرف هذا. أو يقطعونك قطعًا صغيرة يمضغونها على مهل. سيطمسون سيرتك ويحرقون كتبك. أتكلم معك لأني أهتم بأمرك. أما أخوك..

قاطعها: ليس من العزة الغيبة يا ثريا، لا تتكلمي عن أخي بسوء.

جلست وقالت: كنت تقول إن الصوفية أصحاب شطح وخيال. كنت تنتقدهم في كتبك.

-لم أزل أنتقد من يدّعون ما لا يفعلون

-اليوم تراهم على حق وكل مَن دونهم لم يدرك الحقيقة.

بقي صامتًا كأنه يعرف أنها لن تفهم ولن تريد الفهم. أكملت: في التّرك جُبن يا محمد.

-في التّرك جُبن لو كان عن جهل وليس معرفة، ولو كان لخلو البال والهرب وليس للبناء والفهم.

-كيف لي أن أغلبك في الكلام ولسانك سلاحك؟ هو أخوك من يحسدك منذ البدء وأنا أعرف. لا يملك عقلك ولا علمك. يشجعك على الرحيل ليأخذ مكانك لا أكثر.

انفلت العقد لحظتها، صاح في وجهها لأول مرة: لا تتكلمي عنه، كُفي عن الأذى بلسانك، هذا يكفي.

جفلت وصمتت. فتحت فمها بعد حين فقاطعها في حدة وهو يصيح في وجهها: قلت لك: كُفي عن هذا الكلام، أليس كذلك؟ قلت لك: إني باقٍ لن أرحل، ماذا تريدين؟

ارتجفت خوفًا هذه المرة. انكمش الجسد في مكانه، ثم قالت في صوت خافت: أخوك...هل يحبك أكثر مما أحبك؟

قال في تهكم: كنت تتمنين موتي منذ لحظات.

فقالت في تحدٍّ: نعم بالطبع هو أفضل مني، يرى ما لا أرى، يعرفك أكثر مما أعرفك.

اقترب منها ثم قال في صوت صارم: لا تنطقي اسمه قلت لك. لم يسئ إليك فلا تسيئي إليه.

بلعت ريقها ثم قالت: لو لم تعد تثق بي فطلقني إذن.

التقت العينان. ارتعد قلبها خوفًا من أن يفعل وانعقد اللسان. بدا أنه يستعيد هدوءه أو يحاول. قال في صوت خافت: كلماتك وقت الغضب..سأعتبر أنني لم أسمعها.

ثم فتح الباب وخرج.

***

هذه المرة تجاهلها يومًا واثنين، كان يقضي معظم يومه في المدرسة، ويأتي ليلًا فينام في حجرة أخرى. حثتها أختها على أن

تعتذر له حتى من دون أن تعرف ما دار بينهما، ولكنها لم تفعل. تملكها إحساس أنه حزين معها، أنه يفضل الابتعاد عنها هي بالذات، حتى وهي تقضي الليالي بلا نوم، لم تحاول الاقتراب، لم يحاول أن يأكل معها، ولا يطلب منها أي شيء. يداعب طفليه ويقضي معهما الوقت، نعم يتكلم مع أختها كأنها لا تعرف أي شيء، ولكنه يتجاهلها هي بالذات.

كانت تنتظر عودته وتتمناها ولم تعترف حتى لقلبها. لا تدري كيف لها أن تتكلم عن قلب صعب شرحه، ولا عن حب فاق كل التوقعات. راجعت كلماتها فهابتها، وعلمت وقعها عليه، فحزنت لأنها آلمته، وفرحت لأنها آلمته. حركت فيه أي شيء. كانت كالطفل الذي يريد أن يحظى باهتمام والديه، فيشعل البيت نارًا حتى يوبخاه.

في الليلة الثالثة دفنت رأسها داخل الوسادة، وأغلقت عينيها، واحتبست الدموع. انتفضت من مكانها وخرجت، اتجهت إلى حجرته، وقفت أمام الباب وترددت، سراجه ينير الحجرة، هو ليس بنائم. يكتب ربما أو يقرأ. عادت إلى حجرتها مسرعة قبل أن يلاحظ وجودها ولم تنم.

وضعها في خندق لا خروج منه. طلبت منه الطلاق وهي لا تقوى على بعده يومًا، نعم. ألقت بكل الذخيرة ولم تحارب. هددت وقذفت الحجارة ثم انزوت إلى كهف يحميها. تُرى ما رأيه فيها اليوم؟ إنها ضعيفة لا تقوى على تنفيذ تهديدها، أم أنها بلا حيلة ولا أهل ولا مكان لها سوى قصره؟ لا رحلت ولا رحل. اختنقت من دخان النيران التي أشعلتها ولم تمت.

توبيخ أختها لا يتوقف، تصيح في وجهها: فقدت عقلك يا ثريا. كيف تجرئين على الكلام معه هكذا؟ صوتك وصل إلى حجرتي. رجل غيره كان تركك يومها أو ضربك. هذا هو الإمام يا بنت. اذهبي واطلبي صفحه قبل فوات الأوان. أتدرين كم بنتًا في بلاد المسلمين تتمنى الزواج منه؟ فتحت باب الشيطان يا ثريا.

ولكن ثريا لم تطلب الصفح. استسلمت للهزيمة، فلا هي تستطيع أن تعتذر على الكلمات، ولا الأمان استقر بداخلها.

***

كلما مر أمامها كأنه لا يراها ذَبح وكَسر. يقول إنه لن يرحل فلِمَ لا تصدقه؟ ماذا ترى في قلبه يجعل اليأس ينفرد بالسيطرة؟ طلبت منه الطلاق مرة ومرات، فماذا لو فعل؟ كلما اقتربت وفتحت فمها تراجعت. ليته ضربها ربما أو عاقبها، ولكن التجاهل أصعب على النفس. دقت الباب على حجرته وهو يكتب فسمح لها بالدخول ولكنه لم ينظر إليها ولا رفع رأسه عن الكتابة.

قالت في صوت مبحوح: هل تحتاج إلى أي شيء؟

فقال دون أن ينظر إليها: لا.

ترددت برهة.. تبحث عن الكلمات. قالت: كنت..أقصد عندما طلبت الطلاق..كنت أظن أن هذا ما تريده أنت..أقصد أنا لم أرده..لا أريده..أقصد..

قاطعها: أنا أكتب يا ثريا.

اتجهت إلى الباب وهمست: ربما أبدو كأنني لا أشعر بالامتنان،

أقصد ما فعلته من أجلنا وكل ما تحملته.. هي كلمات خرجت بلا تفكير ربما أو...أنت لست السبب فيما حدث لوالدي..وأنا...

ودت لو قالت: لا أعرف كيف نطقت هذه الكلمات، كيف قلت كلمة الموت مصاحبة لاسمك وكل عمري مقرون بأنفاسك.

أغمضت عينيها، وضغطت على جفنيها، وأمسكت بالباب تستغيث بصلابته.

رفع رأسه من الكراسة ونظر إليها، فتوقفت عن الكلام. التقت العينان. ودت لو ألقت بنفسها بين ذراعيه وطلبت منه أن ينسيا شهرًا كاملًا مر عليهما في فراق، ولكنها لم تفعل. تقهقرت شيئًا فشيئًا وفتحت الباب وخرجت.

قالت أختها بعد حين: هل اعتذرت له؟

فقالت في أسًى: لن يسامحني، أعرف ذلك. انتهى كل شيء.

-لسانك هذا يستحق القطع.

صلت ودعت ربها، هو يعرف ما مر بها وما تملّكها.

***

في اليوم التالي. في منتصف النهار مرت على حجرة طفليها فوجدته هناك يجلس معهما يلعب ويحكي. وقفت برهة أمام الباب ثم سارت إلى طريقها ولكنه ناداها. اقتربت وقالت وهي تتحاشى عينيه: هل تحتاج إلى شيء يا إمام؟

لم ينطق، أشار إليها بالجلوس معهم على الأرض. جلست ولم

تشاركهم اللعب. نظرت إليه وهو يحكي في حماس للبنت قبل الولد. ألقت بيديها على ركبتيها في استسلام. لا جدوى من معارك تتمزق هي فيها وتباعد بينهما الكلمات. مد يده وأحاط كتفها بلا كلمة، فأراحت رأسها على صدره، فتحت فمها فوضع أصابعه على شفتيها حتى تتوقف عن الكلام. ودت لو شكرته أنه رحمها من هوان الاعتراف بالذنب وإدراك مذلة فورة الغضب. وضعت كفها على صدره لتطمئن الروح الهائمة أنه معها. مر بيده على رأسها وطوق رقبتها. مكثا هكذا بعض الوقت،لا تكلمت ولا تكلم.

***

عاد إلى حجرتهما. كانت له اليوم مثل الماضي، غرقت في نشوى اللقاء، ولكنها حتى وهي غارقة أدركت أنه ليس هو. كأنه تبدل بين ليلة وضحاها. نفس الكلمات واللمسات، نفس الشوق والحنان والرقة معها، ولكنه ليس هو. كأن روحه انفصلت عن جسده. الجسد حي يتحرك ويشعر وينبض بالدنيا، والروح مختنقة بين كفي شيطان يقبض عليها بلا رحمة، لا هي قادرة على العودة للجسد، ولا الاستقرار في السماء كما تريد. اللسان ينطق بما يتوقعه كل الناس، والقلب توقف عن التوقع والمنى.

يبتسم صباحًا وهو يقبلها ليخرج، وترد له الابتسامة ثم تُبقي رأسها بين راحتيها طوال النهار، لا تلتفت لولد أو بيت.

***

جلس أمام المجذوم بلا استئذان. استمر المجذوم في صقل الحديد الذي بين يديه ليعكس الصورة بوضوح كأنه يعطيه هيئة

ونشأة جديدة. قال الغزالي بلا مقدمات: بدأت أواظب على قراءة القرآن، كل يوم أقضي ثلث الليل في القراءة.

قال المجذوم وعيناه لا تتركان الحديد: اذكره وحده باللسان حتى تنسى كل شيء سواه، ثم يستقر في قلبك حتى لا تحتاج إلى اللسان. إن ذكر الله هو أول الطريق، والقلب له باب واحد. لا بد أن يستقر هو فقط في القلب حتى تتساوى عندك الدنيا كلها ويشغلك ذكره عن كل شيء.

قال الغزالي في حماس: أعرف وبدأت الطريق، أجاهد هنا وأُقوِّم الناس حولي.

قال المجذوم وهو لا ينظر إليه ويده تستمر في مسح الحديد بلا توقف: قلت لك: «الدخول في الدنيا هين، لكن الخروج منها شديد».

قال الغزالي في تأكيد وهو يتجاهل الرد على كلمات المجذوم: بدأت الطريق يا سيدي، سأعمل بما تعلمت.

-لست سيدك. «الطريق تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها، والإقبال بكل الهمة على الله تعالى». الطريق يا محمد يحتاج إلى نية وإرادة صادقة، ثم تصفية وتعطش للقرب منه وحده، ولاستقبال نفحات رحمته عليك.

قال الغزالي وكأنه يقنع نفسه: ما فائدة ترك الدنيا في يد الفاسد لو كان وجودي في منصبي يساعد الناس على الوصول إلى الهداية؟ لدي زوجة وولد وبنت يحتاجون إليّ. كلنا مسئول عن رعاياه. كيف أترك وحول عنقي طلاب وأهل؟

هز المجذوم رأسه كأنه يتفق معه، فأكمل الغزالي: هي حالة تأتي كل حين ولكنها لا تستقر. التَّرك مستحيل.

قال المجذوم: أنت العالم الأوحد تعرف ما لا نعرفه. لو كان وجودك هنا يساعد أهلك وطلابك وكل الرعية والسلاطين فابق، أما لو كان بلا فائدة لأحد فلا تجعل الغبار يغمر القلب. ليس لك سوى قلب واحد ورب واحد. خلقك لتحيي القلوب لا لتشهد على موتها.

-لو تركت ابني بلا عزوة ولا مال فسوف يعاني كما عانيت وكما عانى أخي. هي دنيا تحتاج فيها إلى درع وسيف.

ابتسم المجذوم ولم ينطق.

فأكمل الغزالي: سأذكر اسمه في خلوتي وبين جوانحي. لن أرحل. لا أستطيع. هو يعرف أني لا أستطيع، لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. تريدني أن أهيم على وجهي في الزوايا والخانقاوات وأترك كل شيء؟ لن أفعل.

فقال المجذوم: كأن الحلم كاد يكتمل عندي يا محمد..

-ماذا رأيت...؟

-كأنك لم تغرق معهم يا غزالي...رأيتك تحمل السفينة على أكتافك لتنقذهم من الغرق. كنت شجاعًا في حلمي، لا تخاف الأمواج، كأنك أتقنت الغوص، ولكنني لا أعرف هل أنقذتهم أم لا.

-ماذا تعني بكلماتك؟

«ليس كل سر يُكشف ويُفشى، ولا كل حقيقة تُعرض وتُجلى، بل صدور الأحرار قبور الأسرار».

***

عادت الدنيا كما كانت أو هكذا بدا لها. يصحب ابنه معه في فخر إلى درسه، يدرس ويجادل. يعود فيكتب ويقرأ، تتركه مع كتبه بلا مقاطعة، وتكتفي بساعات الوصال بينهما. بعد بضعة أيام حدث حادث جلل أربكها أكثر حتى من إفصاحه برغبته في الرحيل.

ليلًا بعد أن وضع بنفسه ابنه على مخدعه ثم قبل ابنته، تسرب خارج الغرفة إلى حجرة مكتبه وأغلق الباب. داهمها بعض القلق والحرص.. فتحت الباب في بطء. لم يلاحظ على ما يبدو.

كان جالسًا على ركبتيه ورأسه بين راحتيه يبكي.

ما شاهدته ثريا حينها لم يترك الذاكرة.

كانت تقرأ في كتاب الله كيف خر الجبل صعقًا ورهبة من الرؤية والمشاهدة، ولكنها لم تشهد على انهيار جبل قط. سمعت الحكايات ورأت في مخيلتها الصور، ولكن الحقيقة كانت كما الزلزال الذي يهز الجوانح ويحرك القلب من مكان إلى مكان. من يصف الدواء غير من ذاق المرض، ومن يعرف حد السُكر غير من ذهب عقله من الخمر. أن تجرب غير أن تسمع، وأن تترجرج حولك عروقك غير أن تسمع أن نارًا تخترق الجبل فتجعله هشيمًا، أو أن الزلزال يحول بين المرء وعمره، أو أن أمواج البحر يمكنها أن تمتد وتتكاثر فتأتي على كل واد وبلد. هي رأت كيف خر الجبل صعقًا أمام عينيها.

الإمام أبو حامد الغزالي إمام بغداد كان هنا أمام عينيها جبلًا خر، يبكي وهو يُدثر وجهه بيديه.. يبكي بكاء طفل فقد أمه للتو، أو تائه

يلقون به في النيران، أو طفل أصابه ذعر الهارب من قطع يده أو جز رقبته. أو ربما رجل يندم على عشق كان بين يديه وتلاشى. لا تعرف. كان بكاء جبل يخر أمام عينيها. سمعت صوت تصدع أركانه، وشعرت برماله في فمها وهي تطرد صخوره وتنفر من أوتاده. الإمام...الجبل القائم يهوي ويندثر. صعقت ثريا.. توقفت مكانها كما المشلولة، هل تقترب أم تبتعد؟

ربما بكى خشوعًا ولكنها ظنت أنه بكى رعبًا.

كأنه لم يدر بوجودها ولا التفت إليها. استمر في بكائه، فرجّها هول الانهيار، اختنقت وابتعدت كأنها لم تر شيئًا ولم تعاصر الهبوط وخروج الطين من جوف الأرض. خرجت من الحجرة، ذهبت إلى حجرتهما. وقلبها على مسمع منها. بعد حين دخل عليها في هدوء وكأن ما كان لم يكن. هل يعود الجبل واقفًا أم ينشأ نشأة جديدة؟ لم تسأل، شكرت الله أنه عاد. أمسكت بيده وقبلتها وهمست: لو حدث لك شيء لا أستطيع أن أكمل عمري. أنت كل التمني يا محمد. لن تتركني أبدًا.

لا تتذكر رده لأنها فقط أرادت أن تخبره كأنها تستغيث بالكلمات، تطلب منها بعض الطمأنينة.

في الصباح أيقظت طفليها، جهزت الإفطار، والنفس تكتم الصور ولا تواجه العقل بالمعرفة. أن تعرف شيءً، أما أن تشرح لنفسك فشيءٌ آخر تمامًا. الإدراك إذا لم يصاحبه إحساس بالعجز لا يكون إدراكًا.

جلس أمامها كأنها لم تشهد وكأنه لم يتفتت ويتمزق. داعب طفليه

وابتسم وقام في هدوء وخرج إلى المدرسة. بدا قويًا قوة الحديد الصلب كعادته خارج الكون كما الروح بحجم الشمس وصلابة الجوهر المحترق. تناست ما رأت، ربما كانت لحظة هوى فيها الحديد في النار ثم خرج قبل أن يذوب. راقبته كعادتها.. مع كل من حوله رزين ومتوازن. لا أثر لجرح ولا نار.

***

يسبح قلبه أمام مقلتيه كلما حاول الإمساك به، سار كالسحاب ببطء ولكنه مستحيل المنال. خرجت الكلمات، يدعو للخليفة، يجادل، يفوز دومًا، يجمع الناس على كلمة سواء...وكلمات العجوز لا تترك أذنيه : لا بأس بغسل الدم بالدم.

اليوم طلب أحمد مقابلته ولكنه رفض. ذهب وحده إلى الصحراء واستلقى وحده يبحث عن النجوم. لا طفا على سطح الأرض ولا غرق في الأماني، تذكر فجأة اللص الذي قابله في الصغر. أين أنت يا معصري؟ متى يحين لقاؤنا من جديد؟ ألن تغرز سيفك في القلب؟ لماذا تكتفي بالخنجر كل عام؟

لكل رجل قلب واحد، وقلبه لم يعد بين جوانحه. لا رفرفت أجنحته لبريق النجم كما في الماضي، ولا تسرب النور إلى العقل. ومن يترك هذا النعيم وهذا الجاه؛ رجل مجنون أم رجل عاقل؟ وهل يقوى رجل على سطح الأرض على فعلها؟ هل يتجرد الجندي من سلاحه، ويقف أمام الأعداء ليذبحوه أو يذلوه؟ هنا كل عدو يخضع وكل حسود يرضخ. هنا لا يفوز سوى الغزالي ولا ينتصر إلا هو. هنا سكينة ومنفعة وهدف، وهنا موت وحسرة وعناء. هنا ابتسامة الفخر

وأمان الأطفال واجتماع الأحبة، وهنا فراق الأحبة وفتن الزمان وخطر الجنون. ماذا تفتقد يا إمام؟ من يحتاج إليك؟ حارس تعتمد على وجوده ليعطيك الهيبة؟ من يصدق ومن يخلص يا ثرى؛ سلطان أم خليفة؟ كلهم يلهثون وراء النفس، والنفس دومًا تهزم صاحبها؛ تأمره بالسوء ثم تلومه، تعده بالجنة ثم تقتنص منه الراحة. أي عدو يا نفس غيرك؟ هل ارتجف اليوم أم أنها دمعة أزاحها بإصبعه؟

انبثقت الكلمات من الأعماق: «العارف قد مات مرة في حق الدنيا، وفي حق كل ما يفارقه بالموت».

«أموت في حبك، ثم أحيا، وكم أحيا فيك! وكم أموت!». اختلطت عليه كل الحروف فلم يعد يرى الكلمات.

فكر أن يقضي ليلته في الصحراء ولكنه لم يستطع. هناك أهل وأطفال، خليفة ووزير. الكثيرون ينتظرونه غدًا. عاد إلى بيته ولم يعد.

يتهافت عليه الطلاب ثم العامة في الطرقات. لم يعد يسير سوى والأصوات تحاصره: اتركوا الإمام يمر، اتركوا الإمام يمر، لا وقت للكلام معه الآن، خصص لكم وقتًا للقائه، فأفسحوا الطريق، أفسحوا الطريق.

ولكنهم لا يأبهون؛ يهللون، يمسكون بيده ليقبلوها، يدعون له، يتشبثون بأي أمل في الغد. لن ينقذهم سواه. هو من يعرف الطريق إلى النجاة. الدنيا لا إنصاف فيها. هنا طالب يلجأ إليه لأنه يريد علوًا في الأرض، وهنا آخر يستغيث بعلمه. كم وكم؟ في الماضي كان يجمع العيون التي تهاب وتحب وتستغيث. كم عينًا يا ثرى؟

يا محمد.. يا أبا حامد، «لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب، فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له». هي أحلام.. تستيقظ لتجد نفسك هباء، ومن يدري؟ ربما غدًا تستيقظ لتجد أنك وحيد. «فكل ما يُبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يُبنى على أمواج البحر، فإنه لا ثبات له». يحبونك اليوم، وغدًا ينسونك، يهتفون باسمك يا إمام، وغدًا يلهثون وراء أمير بيده الثراء والسلطة.

ذهب لمقابلة الوزير، الوزير يتكلم بلا توقف، يسب البعض ويمدح البعض. استمع إليه ولم يسمع. تتشوش كل الصور وكل الكلمات ولكنه سيبقى. لا بد أن يبقى، هي حالة لن تدوم. ماذا لو رحل ثم عاد فلم يجد شيئًا؛ لا منصب ولا زوجة ولا أولاد؟ أيعود ضعيفًا تذروه الرياح؟ بعد أن ركب الأسد في شجاعة كيف له أن يجري منه اليوم؟

***

في الليلة التالية أزاح الغطاء ثم خرج من الحجرة، مكثت مكانها لا تعرف هل تذهب وراءه أم تتركه. ذهب إلى حجرة الكتابة ثم استلقى على الأرض وارتجف. أصابت الرعشة كل جسده، لا يدري أمحمومًا كان أم محتضرًا. احتضن مكان القلب ودسّ رأسه داخل الأرض وتمتم: إني عاجز، إني ألجأ إليك لجوء المضطر الذي لا حيلة له. لا تُكلفني ما لا أتحمل. تصلّبت الساق وعز الرحيل. حركني لو أردتني أن أتحرك، استعملني لو أردتني أن أعمل. لا حول لي ولا قوة. ها أنا أتناثر كأشلاء تحملها العقبان. هل يرضيك هذا العذاب وأنت رحيم؟ عبدك سقط اختياره بالكلية، لا قوة له. ألجأ إليك، استحكمت مني الدنيا، فسهل عليّ الإعراض عن الدنيا والمال والجاه والأهل. لا

يستطيع غيرك أن يفعل هذا. أنقذني من ضعفي بقوتك ومن عجزي بقدرتك.

تأوّه والنار تخرج من الحلقوم، وأغمض عينيه وقال: لا بأس، غدًا يعود كل شيء كما كان. ورائي الكثير، لا بد من القضاء على كل ظلم وفساد وفتن. هكذا يفعل إمام بغداد. هذا واجبه. غدًا بعد الدرس أذهب إلى الوزير لأتأكد من إبعاد كل فاسد، ثم أراجع خطبة الجمعة مثل كل أسبوع. غدًا.. أعطي درسي.

غفل على ما يبدو. نام على الأرض في الحجرة، الأوراق تُحكم سجنها حوله، تخرج الكلمات لتخنقه. تنتهز المعاني ظلمة الليل فتعربد بالنفس. غدًا يستيقظ وينتهي هذا الحلم. هدأت الرعشة وسوف تختنق النار كما اختنقت الكلمات. غدًا.

***

في الصباح دخل حجرته وارتدى ملابسه، نظرت إليه ولم تنطق. فتحت فمها تود أن تسأله لو كان يريد الإفطار ولم تفعل. قالت بعد حين: هل ستتأخر؟

قال وهو يتجه إلى الباب في هدوء: نعم.

فقالت في رفق: تأكل شيئًا قبل الخروج؟ ستنسى أن تأكل.

ربت على كَتِفها وقال وهو لا ينظر إليها: لا تقلقي.

قالت: أنت لم تزل غاضبًا مني.. أليس كذلك؟ هي كلمات قلتُها...

قاطعها: لست غاضبًا يا ثريا. كل شيء على ما يرام. كل شيء.

في طريقه إلى المدرسة كان يفكّر، تُرى كم مرة سينطق اسم الله هباء؟ كم مرة سيدعو لوزير وخليفة؟ كم مرة سيشوب كلماته الرياء يا تُرى؟ ألا تكره نفسك يا محمد بعد؟ أنا لا أعرفك يا رجل. يهون عليك الله ليرضى عنك السلطان! فلتفتخر بكل نجاحك يا محمد... هيا استمتع بكل ما حققت. لماذا تتحسر كأنك هويت في ظلام وغرقت في بحر لُجّيّ؟

جلس أمام طلابه ليبدأ الدرس...

ثارت كل الكلمات عليه كأنها تستعد منذ سنين للقضاء عليه. انهالت على رأسه من كل اتجاه. انفصل العقل عن الحواس فرأى فم الطالب يتحرك ولم يسمع كلماته. رأى الجموع حوله تنتظر منه أن يفتح فمه ويتكلم، ولكنه لم يكن يراهم سوى رءوس كثيرة كلها بالشكل نفسه لا يفرقها لون ولا ملبس. تمردت عليه كل الحروف التي طوعها وكل الكلمات التي نسقها...تناثرت الصفحات كلها...تفتتت أمام عينيه. اختلطت الأسئلة بعضها ببعض.

أين ربك يا غزالي؟ لا بأس من غسل الدم بالدم. تكلم يا إمام. هذا عقل لا أمان له، طلبت من عقلي أن ينسى فلم يتذكر! طلبت من عقلي أن يمحو فنقش الصور على القلب بالنار! الدماء تتساقط من أنف العجوز حمراء كما الياقوت الذي يزين إصبعه؛ هذا لسان مُلقًى على الأرض، ينبض بحياة لا يملكها، ها هما عينان تأكلهما الكلاب، مستديرتان، محفورتان بعناية، يشهد على حفرهما من صاحبها وزير وشرطي، هذا جائع يستغيث فيُـذبح ليأكلوا لحمه، قوي يطغى فتهلل له العامة، أطفال بأطراف ممزقة، حرب على سلطة وشرف مال..ونفس تعجز بلا رحمة؛ هذا فقد عينيه، وهذا لا يرى، هذا فقد

أطرافه، وهذا يعجز عن رد الظلم، هذا لسان لا ينطق خوفًا من موت، وهذا لسان لا ينطق خوفًا من فقر، وهذا لسان لا ينطق خوفًا على ما جمع من مال وعيال. هنا قلب ميت لا ينبض، وهنا رجل فقَدَ قلبه.

ذعر أصابه أم فزع مما رأى يا ثرى؟

ذعر أصابه من نفسه، من أن يواجهها بما عرف وما تجاهل، ذعر أصابه من القدرة على البتر، من التيه في طرقات الهلاك..

أفقد لسانه أم صارع الجُبن بداخله؟! كان يكره نفسه ورخاءه ومنصبه وعقله الذي لا يستجم، وقلبه الذي لا يستقر.

الكلمات تتناثر من حوله، ولكنها لا تخرج من جوفه، تسبح أمام عينيه ولكنه لا يستطيع أن يلملمها داخل عقله. اضطرب الجمع، هذا يسأل عن الإمام، وهذا يدعو الإمام للنطق. فرغت الحروف وتجوفت. لا لم تخرج. أختبسَ صوت الإمام أم بتر أحدهم لسانه؟ كيف يقف من يُتقن القلم عاجزًا أمام الحروف؟

سمع الصوت يصرخ: احتبس صوت الإمام.

لا يعرف كم مر، ولكن الطلاب كانوا ثلاثمائة طالب ارتبكوا جميعًا، دعوا الإمام للراحة، بعد برهة يعود إليه صوته. لا يمكن أن ينعقد لسان إمام بغداد، هذا مستحيل، وكيف ينعقد وهو داخل جوفه سليم؟ هنا رجل وصل للمنصب بلسانه، فكيف يخذله الآن؟

كانت يد أحمد هي التي أمسَكَت بكتفه، من أين جاء أحمد؟ هل كان وسط الحضور؟ أبعد أحمد الطلاب وهدأهم، قال: إمام بغداد بخير، يحتاج إلى الراحة، غدًا يعود إلى درسه.

أمسك بذراع محمد وأخرجه من المدرسة والناس تحاصره، تطارده، تتساءل عما حدث. ما إن دخل به باب قصره حتى أغلق الباب وطلب من ثريا شربة ماء. أجلسه أمامه ثم أعطاه الماء.

***

نظرت إلى عينيه وهوت، كأنه مات عن الدنيا. انهزم أمام دنياه أو تخطاها، لم تعرف. قالت في صوت مبحوحٍ: محمد..

قال أحمد وهو يضع الماء في فمه ومحمد لا ينطق ولا يعترض ولا يتحرك: هو مُتعب بعض الشيء، يحتاج إلى النوم، جهِّزي له مخدعه.

قالث في إصرار: هل حدَث شيءٌ؟ ماذا حدث؟

-لم يحدث شيء، هو مرهق بعض الشيء، يحتاج إلى الراحة، غدًا يكون أفضل.

ولكنها عرفت ما حدث. انعقد لسان الإمام.

أسنده أحمد في الطريق إلى حُجرته، مدد جسده على مخدعه ثم قال لها: يحتاج إلى الطعام وإلى طفليه، أين هم؟

نادت على حامد وفاطمة، جلسا حول والدهما، ولكنه لم ينظر إليهما. عيناه زائغتان كأن عقله توقف أو كاد. أجلسه أحمد وقال في لهفةٍ وهو يضرب خده ليتأكد أن الدماء لم تزل تسري في وجهه وأطرافه: محمد...تكلم..

لم يفتح فمه.

وضعت يدها على فمها في فزع، هرولت خارج الحجرة حتى لا

تنهار أمامه ربما. تنفست أنفاسًا سريعة ثم دخلت من جديد. وضعت فاطمة يدها على وجهه، ثم قال حامد وهو يقبل خده: أبي...أنت بخير؟

هزّ رأسه فتنفست الصعداء. قالت لأخيه في استغاثة: ماذا أفعل؟

قال وهو ينظر لأخيه: ابقي معه. هي حالة لن تدوم. غدًا يعطي درسه، لا بد أن يعطي درسه.

ثم همس أحمد لها وحدها: فلو لم يفعل فسيموت كمدًا، هو لا يستطيع أن يفقد النطق، أنت تفهمين.

جلست أمامه ساعات بلا حراك ترجوه أن ينطق بكلمة واحدة. ليلًا فتح فمه، ثم قال في صوت هادئ: أريد الوضوء.

ابتسمت وجرت مسرعة تأتي له بالماء.

قالت وهي تحتضن ظهره: محمد...أتمنى أن تطمئنني...أحتاج إلى طمأنتك...كلمة واحدة، أخبرني أنك بخير.

لم يُجب.

-هل يمكنك أن تنطق بكلمة معي أنا؟

فتح فمه ثم قال: أنا بخير.

ابتسمت وحمدت الله. خرجت من الحجرة لتجد أحمد يجلس أمام الحجرة على الأرض ورأسه بين راحتيه، قالت: تكلم. هو بخير.

ليلًا طلبت أن تبقى حوله ولكنه رفض. أراد البقاء في الحجرة وحده.

في الصباح ارتدى ملابسه في ثبات ثم خرج ليعطي درسه.

اصطحبه أحمد، كان يتكلم طوال الطريق، يكتم قلقه وراء الكلام المستمر. يحكي عن نفسه وعن زوجته، حتى عن منصور. أخبره كيف يحاصره، وكيف يتهرب هو منه. أخبره أنه يحبه وأنه على صواب دومًا. قال في يقين: محمد، من اليوم سآتي لأعيش معك في القصر لو سمحت لي مع زوجتي. أريد أن أكون معك، أن أتعلم منك. آن لي أن أفهم ما لم أفهم، وأتعلم ما لم أتعلم...هل تريد هذا؟

قال محمد في قوة: أنا بخير يا أحمد. كانت حالة وذهبت لحالها.

تنفس في ارتياح ثم جلس أمامه في أول الصف. جلس الشيوخ والطلاب ثلاثمائة أو أكثر. فتحوا أعينهم واتجهوا بقلوبهم إلى الشيخ الإمام...كلماته تداوي الروح. فتح فمه لينطق، تصلبت الكلمات، وأبت أن تخرج عنوة. رأى الوجوه أمامه ترابًا، والحروف زيفًا. تمردت المعاني على الغواص فأغرقته اليوم، تركته بلا نفس ولا أمل في النجاة. كانت الكلمات دومًا طوع إرادته، تخرج في بهاء يذهب العقول، تحبب فيه الحاكم والزاهد، من يعشق الدنيا ومن ينفر منها. كانت بين راحتيه كما العصا التي تتحول إلى ثعبان، وكما الأرقام التي لا تكذب. اليوم أيضًا صارعته وانتصرت عليه، تُرى لمَ تحاربه الكلمات؟ هل أدركت عجزه عن التخلي أم تعاونت معه على ترك ما ليس له؟

لم تخرج ولا كلمة. التف الرجال وعلت الهمسات، هي عين أصابت الشيخ. لسانه كان غير كل الألسنة. همس أحدهم برجاء وآخر بتشجيع: نريدك أن تتكلم يا شيخ...كلمة واحدة...أخبرنا بأي شيء.

ماذا نقرأ؟ ماذا قال الشافعي؟ ما معنى الدنيا؟ تكلم معنا عن البعث، عن أوصاف الله؟ احك لنا عن الأنبياء، عن الأحكام...نستمع إليك مهما قلت. ما بدع المعتزلة؟ وكيف تهافت الفلاسفة؟ ما ميزان العلم؟ وأين هو الاعتقاد الصحيح؟ يا شيخ...كيف ضل الباطنية؟ وكيف جاء الخليفة بشرعيته؟ يا شيخ...كيف نقتصد في الاعتقاد الصحيح؟ وما الذي لا بد أن نبتعد عنه؟ كيف نُزكي النفس؟ وأين السعادة؟ أرشدنا يا إمام.

هذه ثورة قاسية كما ثورات الفقراء البائسين، من ييئس يمكن أن يغامر. غامرت المعاني وأبت أن تتحرك. أصبحت الأنفاس تحت المياه مستحيلة. أمسك برقبته يريد أن يتنفس ثم تركها وهو يعد النفس وراء النفس. حاول مرة ومرات، لا يستطيع. لا تخرج كلمة أو حرف. أمسك أخوه بيده وجره إلى البيت. كلما انعقد اللسان أصر على الكلام، وكلما أصر سطع العجز. يومًا وراء يوم والشيخ لا ينطق.

تهامس الناس، العامة منهم والفقهاء، هل فقد النطق، أم يزعم هذا خوفًا؟ هل خاف أم فزع؟ ربما يريد أن يُنعم عليه السلطان أو الخليفة، ولكنه أخذ كل شيء، ماذا يريد أيضًا؟ ألن يترك شيئًا لغيره؟ المنصب والصيت والجاه والمال؛ فماذا يروم؟ ولم يتزعم؟

***

اليوم سيتكلم. كتب المحاضرة كاملة وقرأها على نفسه، ثم طلب من أخيه أن يأتي إلى حجرته وقرأها عليه في طلاقة. قال أحمد: غدًا تقرؤها. أنت تتكلم بالطلاقة نفسها، لا تقلق يا أخي.

جاء الغد. أمسك بالورقة ونظر إلى الأعين، كأنها ثعابين تلدغ بلا

رحمة، تخرج من لدغتها مادة لزجة سوداء تقززه، يريد أن يتقيأ. أمسك ببطنه. أغمض عينيه ثم فتحهما، ولم يعد يرى، فلَمْ تتسن له القراءة، فتح فمه ومات اللسان موتًا لا قيامة معه.

أمسك أخوه بكتفه وعاد معه إلى البيت، قال: لا بأس، لا تحاول مرة أخرى، تحتاج إلى الراحة، أجهدت نفسك سنوات. تحتاج...

رفع يده كأنه يريده أن يتوقف عن الكلام، ثم دخل حجرته وأغلق الباب. كلما حاولت الدخول منعها، ولو حاول أحمد الدخول يمنعه. تسارعت الأنفاس، وانهالت الدموع كما الصخور التي هبطت من أعلى الجبل. امتلأ جوفه بمياه مالحة فغرق أو كاد. يختنق ويكاد يموت ولا يموت. ليته يموت. كلما استنشق الهواء دثرته الصخور وغمرته البحور. هي ميتة واحدة، فلِمَ لا تأتي؟

***

لجأت لأخيه مع أنها كانت تتحاشاه، وتضمر في قلبها بعض الحنق منه. قالت في يأس: لا يأكل ولا يشرب. لا ينظر إلى طفليه، ولا إليّ. أدخل عليه كل ساعة، أتكلم فلا يجيب. أحيانًا ينطق بكلمة لا أكثر، ولكن عينيه لا تتحركان. أضع الطعام أمامه فلا يلمسه.

لم يُجب.

لم تستطع أن تتحكم في المرارة، ولا أن تمنع الخوف، قالت في حدة: هل تهتم بأمره؟

نظر إليها أحمد كأنه لم يسمعها، فأكملت: منذ البدء وأنت لا تهتم بأمره؛ لا تزوره، لا تسعى إليه، ثم اليوم تبقى معه فتزداد حالته

سوءًا، أليس هذا غريبًا يا أخي؟

لم يُجب، فقالت في نفس حدتها: الله يعلم بالنوايا، ولكن أنا حياتي كلها انقلبت رأسًا على عقب وكأنك لا تبالي يا أخي، كأنك تتشفى في أخيك.

خرجت الكلمة ولم تستطع ردها. وضعت يدها على فمها كأنها تسترجعها.

عبس وجهه.. خفض رأسه، ساد صمت رهيب، وأصابها فزع من عدم سيطرتها على نفسها. لو ذهب وأخبر أخاه ماذا سيحدث؟ ولو أضمر لها الحقد ثم انتقم منها، فماذا ستفعل؟

قام من مكانه ثم قال في هدوء: محمد كما الجبل لو تساقطت صخوره تصيب كل ما حوله، تهز الأرض هزًا فلا يبقى فيها مستقيم ولا ثابت. ندعو الله أن يبقى الجبل حتى تعود إليك الطمأنينة يا أختاه، هو قادر على كل شيء.

إجابته أربكتها والخوف أمسك بتلابيبها كما النيران، قالت مسرعة: لو أخبرته بما دار بيننا فستحزنه أكثر مما هو حزين.

قال وهو يقوم: لم أكن أنوي أن أفعل. لم يدر بيننا شيء، أنت أختي تعبرين عن فزعك وارتباكك، كلٌ منا يعبر عن الفزع بطريقته. ندعو الله أن يصبح الإمام بخير.

***

دخلت عليه. كان ينظر إلى الأفق بلا حركه. وضعت حامد بين يديه، قالت في لهفة: محمد..ابنك يحتاج إليك...كيف لنا العيش

دونك؟

التفت إلى الطفل، تحجرت عيناه وهو ينظر إليه، مد يده يحمل ابنه، وانفصلت اليد عن الجسد أو كادت، رأته أمامها كالتمثال الحجر؛ لا يشعر بوجودها ولا وجوده. اقتربت منه، تنفست في صدره، وهمست وهي تقبل رقبته: أفتقدك..

هز رأسه ثم أبعدها في رفق. لم يعد يتحرك من مكانه سوى لقضاء الحاجة والصلاة. وضعت أمامه الكتب فلم يلتفت إليها؛ لا طفل يعيده إليها ولا كتاب ولا شيء يُبطل هذا السحر. ظنته سحرًا ولم تجرؤ على الذهاب إلى المنجمين وهي زوجة الإمام. أكثرت من قراءة القرآن.

جاء نبأ عظيم، الوزير ابن جهير جاء برسالة من الخليفة، جاء بنفسه اليوم ليطمئن على حال الإمام.

وقف البيت كله مستعدًا. رتبت كل شيء، دخل الوزير محملًا بالهدايا لكل من في البيت، تكلمت معها زوجته، هدأت من روعها، أعطتها الجواهر والحرير. لم تهتم ولم تدرك أنها زيارة الوزير نفسه، لا فرحت ولا حزنت ولا قلقت. كانت قد أيقنت أن زوجها يحتضر، ترك الدنيا بروحه، ومن يفعل هذا يطوع بدنه لإرادته. أيام وسوف يموت. هذا ما يريد. تعرف. فقد كل رغبة في العيش.

لا هزته زيارة الوزير بنفسه، ولا حركت عنده حماس الصبي ولا لألأت النجوم. استقبله وهو لا يكاد يقف، تكلم كلمات قليلة. دعا له الوزير وأخبره أنه ينتظره.

قال الوزير موجهًا حديثه إلى ثريا التي غطت وجهها بخمارها:

سيكون بخير، لا نستطيع الاستغناء عنه، هي أيام ثم يعود إلى منصبه فهو الإمام.

التفت أحد الأمراء المصاحبين للوزير إلى أخيه أحمد ثم قال: إمام بغداد ليس منصبًا يمكن تركه، هو تكليف يا رجل. تفهمني، أليس كذلك؟

قال أحمد في بطء: أفهمك.

فأكمل الرجل: لو مثلًا افترضنا أن مرض الشيخ ليس حقيقيًا، وأن الشيخ يريد أن يستريح من الإمامة ومن المنصب، فالقتل حينها يكون جزاء عادلًا لمن خان الأمانة. هذا المنصب مبايعة للخليفة وتأكيد لشرعيته، لا يتركه سوى مجرم أو غادر. والغزالي ليس كذلك. الإمام قَبِل المنصب، والمنصب أمانة، من يتركه يتحدى الخليفة، ويثير العامة على الحكام، كأنه يحاول أن يأخذ من شرعية الخليفة ويتهمه. أخوك لا بد أن يدرك هذه الحقيقة.

غطت فمها بالخمار، والكلمات تخترق الأذن. مكث أحمد صامتًا.

عندما خرجوا قالت مسرعة: سيقتلونه لو لم يعُد.

فقال أحمد: لا يستطيع أن يعود.

-ربما أنت تستطيع إقناعه أو معالجته. يحبك ويثق بك.

ثم قالت: أم أنك لا تريده أن يعود؟

لم يتفاجأ باتهامها، قال في صبر: أريده أن ينقذ نفسه ويعيش.

-لن يعيش إذا لم يعد لمنصبه.

-لن يعيش إذا عاد لمنصبه.

فتحت فمها، تمنت لو قالت أنت تحسده، أنت تريد منصبه، ولكنها لم تنطق. دخلت حجرة زوجها، فوجدت عينيه على حالهما زائغتين، الطعام لم يمسسه، لا يرى شيئًا ولا يأبه بأي شيء.

نظرت إلى كف يده الباهتة كأنه على وشك أن يتحرر من عبء ثقيل. الطبيب قال: إن مرضه في القلب وليس في البدن. لا علاج له بالأدوية المعروفة.

قالت في ثبات: كنت أعتقد يا إمام أن قتل النفس حرام في ديننا، أم أنك تفتي اليوم بجواز هذا؟

التفت إليها ولم ينطق، فقالت: أنت حزين لانعقاد لسانك أمام الجموع، أم حزين لشيء آخر؟ تريد الرحيل، أليس كذلك؟ محمد... تكلم معي كلمة واحدة..

أدار وجهه عنها.

خرجت من الحجرة واستدعت الطبيب، أرادت أن تتكلم معه بنفسها. قالت في حيرة: كيف ينعقد لسانه أمام الطلاب وهو يتكلم معي؟

فقال الطبيب: لأن المرض في القلب، وأحوال القلوب لا يعلمها سوى الله، ولكنني رأيت هذا الداء من قبل؛ هو يتكلم معكم لأنه يثق بكم ربما أو يعرفكم.

-ويثق في طلابه.

-شيء يخيفه، يفزعه في الكلام معهم، أو الكلام أمام الجموع. هو

نوع من الخرس، رأيته في بعض الصغار، يتوقفون عن الكلام في المدرسة مثلًا، ويتكلمون مع أهلهم بلا مشاكل.

قالت في عدم تصديق: ولكنه الإمام، لسانه كان ينطلق أمام الخليفة والسلطان، هل سيخاف من الطلاب؟

-هو ليس خوفًا كما نعرفه، هو علة في القلب، صعب أن نفهمها.

قالت: هل سيستمر هكذا للأبد؟

-لا نعرف ولكن انعقاد اللسان هذا أثر في نفسه كما ترين، فالعلة في القلب يا ابنتي والقلوب بيد الله.

قالت في يأس: لا يأكل ولا يشرب، كيف يمكن أن تقنعه أن يأكل؟

-ليس بيدي، ادعي ربك.

***

نام على جنبه الأيمن وهو يناجي الله، ينطق اسمه فقط بالقلب. يقول: تعرف عجزي، حركني وأنقذني. صفا لي القرب منك اليوم، رأيتها بصِغَر النملة وتفاهة الذباب. لا قدر لها في قلبي ولا عودة إليها. لو كنت سأموت فلأمت حبًا لك، لا حبًا لها، لا يصفو حبك وحبها معًا لأمثالي. تتمثل الحروف أمامي بكلمة واحدة. «الرحيل». فلم يعد في العمر الكثير. أنقذ نفسي اليوم من الغرق أملًا في القرب والغوص والفهم. يا إلهي، بين ليلة وضحاها جعلت التّرك قيد أنملة، والدنيا هينة أمام عيني. بين ليلة وضحاها فتحت أبواب القلب للرؤية فأصبح البصر عاجزًا والبصيرة موقدة بنور يتسرب ثم يغمر ثم يفيض. كم كان صعبًا عليّ التّرك، واليوم أصبح هينًا! كم كان

مستحيلًا التخلي، واليوم أصبح تكليفًا! كم تمسكت بها كما يتشبث الغريق بالخشب الممزق، واليوم أدرك الغريق أن الغوص نجاة! يا «سلام»، يا «مهيمن»، اغمرني بسلامك، ودثرني بهيمنتك. نهشت عقلي كل الذئاب، أصبحت سقيمًا كإبراهيم، وغاضبًا كيونس، ولكن أملى بك كامل أيوب، أنجو بنفسي أولًا، فالفناء يدنو كل حين.

عندما دخلت عليه قال: لا بد من الرحيل.

فقالت بلا تفكير: لا تتركنا.

وحتى وهي تنطق الكلمات أدركت أنها هباء.

اجتاحها إحساس خفي أنه سيموت الليلة. عيناه بلا حياة، لا تتحركان ولا تشتهيان. جوارحه كانت أول من يئس، ثم قلبه. سيتركها شاءت أم أبت.

أيبتعد لينجو أم يبقى ليموت؟ لِمَ تصعب الدنيا علي يا شيخ؟ لِمَ تلقي فوق رأسي هذا الابتلاء؟ محمد لا بد أن يعيش. فلتقتلني يا إمام هيا...ماذا تنتظر؟ سأموت في قربك وبعدك.

ليلًا دخلت عليه، وضعت يدها على كتفه واقتربت لتتأكد أنه لم يزل يتنفس، أمسك بيدها برهة ثم تركها.

فقالت: كنت تساعدني دومًا. ساعدني اليوم يا محمد. اعتدت أن أراك الوتد والسند.

أغمض عينيه ولم ينم.

***

مكثت بجانبه وهي تتمنى أن ينقذها كما يفعل دائمًا، يحتويها، يسندها، لا يتركها للأيام، فهي لا تثق بها. عندما اقترب الفجر حاول أن يعتدل في جلسته فلم يستطع القيام، ساعدته هي ثم أمسكت بيده، فتح فمه وقال في صوت قوي حتى مع ضعف جسده: أريد أخي.

طبقت شفتيها في غيظ ثم نادت أخاه في جفاء. جلس أمامه ينتظر.

فقال محمد في حسم: أحمد، أهلي أمانه بين يديك. ثريا وحامد وفاطمة يرحلون اليوم إلى طوس.

بدا على أحمد نفس دهشة ثريا. قالت في رفق: يمكنني أن أذهب معك، خذني معك.

قال: في الرحلة الموت جائز. ترك المنصب ربما يفهمه البعض كخروج على الخليفة. لو أصابك سهم كان لا بد أن يصيبني، أو أصاب حامد فلن أسامح نفسي. حمايتكم أول همي اليوم.

قالت في أسى: ولم تغامر بنفسك؟ فلتبق هنا حتى لو..

قاطعها: تذهبين مع أخي اليوم إلى طوس وتصحبك أختك والأطفال.

-أنتظرك هنا أو في أصفهان.

قال: أريدك أن تذهبي إلى طوس، لن أطمئن عليك إلا هناك. أحمد يأخذ مكاني في المدرسة، يدرس في النظامية، وينوب عني في الإمامة.

نظرت إلى أحمد، تمنت أن تخبره أنها تعرف أن هذا هو ما يحلم به، أنه تمنى وقوع أخيه، أنه...لديها الكثير من الاتهامات. أبقت فمها مغلقًا خوفًا على حياة زوجها وغضبه، فأكمل محمد: أنت تخبر الخليفة أن محمد ذهب للحج وأنه سيعود، وأنت تنوب عني بضعة شهور حتى يجدوا مدرسًا غيري.

علت دقات القلب ثم قالت: متى ستعود؟

فقال: ليس إلى بغداد بل إلى طوس.

رفع يده لأخيه ليخرج.. ففعل.

نظر إليها ثم قال في عزم لم تدرك أنه لم يزل بداخله: ماذا تريدين يا ثريا؟ إذا أردت إمام بغداد فقد مات منذ شهر، إذا أردت محمد الغزالي فهو يغرق أو يكاد، يحتاج إلى أن يتعلم التنفس قبل أن يفيدك بأي شيء. هل يستطيع الرجل أن ينقذ غيره أو يسند غيره وهو يغرق؟

- أنت من أنقذتنا من اليُتم بوجودك حولنا. لو تركتني الآن...أتيتّم من جديد.

-الضعف ليس في اليتم يا ثريا، بل في مرض القلب، فما بالك بمن فقد قلبه، كيف يمكنه أن يساعدك؟!

- لا بأس أن ترحل وعندما تصبح في حال أفضل نعود إلى هنا.

-لو أردت إمام بغداد فقد مات يا ثريا.

-لا أفهمك. أحبك أنت.

قال في نفس حسمه: هذا القصر وهذه الأموال...أريد أن أفرقها قبل سفري.

-تفرقها كيف؟ هي أموال أطفالك.

-لا أريد أموالًا من السلاطين، ولن أكتب كتابًا من أجل جاه أو مال من اليوم.

- هذه أموال أولادك، تريد أن تتركنا بلا مال يا شيخ؟ يحتاجون إلى الأمان في غيابك.

-يحتاجون إلى الطمأنينة كما أحتاج إليها أنا. أُخيِّرك بين البقاء مع محمد، أو أن تصبحي أرملة إمام بغداد.

-تعرف أنني أحبك أنت، ولكن ما رأيك لو تركنا مسألة الأموال حتى تعود؟

فقال وعيناه لا تتركان عينيها: الأموال أُفرقها قبل الرحيل؛ لدينا مال الوقف في بغداد للعلماء، وهذا سيكفي الأولاد ويكفيك في طوس. القصر سأبيعه، لا حاجة لنا به. هناك من تعتمد أنفاسه على شربة ماء لا يجدها.

نظرت إلى الأرض بُرهة، لا تدري ما جدوى المجادلة مع من أتقنها أعوامًا حتى وهو مريض. قالت في صوت محبوس: الثراء ليس ذنبًا.

-الثراء ذنب لمن يدعو الناس لترك الدنيا والتفكُّر في الآخرة، ثم يتمتع بكل ملذات الدنيا هو نفسه. لا أحب النفاق ولا أجيده.

التقت أعينهما، رأت الحسم والضيق في عينيه.. فقالت في صوت خافت: الأمر لك يا محمد، سأفعل ما تريد وسأنتظرك.

ثم مدت يدها بالطعام وقالت: لا بد أن تأكل حتى تستطيع أن ترحل، أليس كذلك؟

***

قالت وهي تخرج من حجرته: لا حول ولا قوة إلا بالله.

صاحت عزيزة: لا أصدق...أنت على حق، هو أخوه يحسده أو يقنعه بهذا، كان بكامل قوته، ماذا حدث بين يوم وليلة؟

-أخوه ليس المشكلة. ليته كان أخاه. كأنه يموت كل يوم. منذ شهور وهو يموت بين يدي وأنا عاجزة.

-هي عين أصابته لا أكثر. عندما يخرج من بغداد سيعود في حال أفضل. يذهب للحج ثم يعود. سيعود.. أليس كذلك؟ أم أنه ترك الإمامة.

قالت: سيعود بالطبع.

لم تستطع أن تخبرها بالحقيقة التي لا يعرفها غيرها هي وأحمد. لو أخبرتها تخون أمانة زوجها، وهي لا تستطيع هذا.

-ثريا، هل ما سمعته صحيح؟ الإمام سيبيع القصر ويفرق أمواله على المحتاجين؟

-هي أمواله يفعل ما يشاء.

-أخبريه أننا من المحتاجين إذن.

-ترك لنا ما يكفينا للسفر والعيش في طوس.

-أنا سأبقى هنا.

-ليس لي غيرك يا أختي، تعالي معي وعندما يعود نعود معًا.

-كيف تركته يفرق أموال أولادك؟ لا بد أن تمنعيه.

-يفعل ما يشاء، هي أمواله هو.

فقالت عزيزة: أبعد أن عشت أميرة يريدك أن تعيشي فقيرة؟!

قالت ثريا: أعيش معه، هذا هو المهم.

ضربت عزيزة كفًا على كف ثم قالت: ليتك ستعيشين معه أصلًا، بل سيتركك ويسافر. ماذا أصاب هذه العائلة؟

***

مكثت في حجرتها وحدها. لم تذهب إليه، عليها أن تجهز كل شيء للسفر. تترك كل حياتها التي عرفتها معه لتبدأ من جديد أو لا تبدأ. من أنت يا ثريا؟ أليس لك يد فيما آل إليه مصيره يا ثرى؟ هل تجاهلت ما رأيت طوال الأشهر الماضية أم استغرقتك نفسك وخوفها، فهان كل ما هو دونها؟

الحقيقة تصيب القلب، ما لم تدركه وما أدركته. بلاؤها غير كل بلاء، وحسرتها غير كل حسرة. تحبه؟ نعم. هو كل ما يشغلها، هذا صدق، ولكنها تجاهلت ما عرفته ولم ترحمه حتى وهي تراه يتفتت كأشلاء تحملها العقبان. منذ البدء فكرت في نفسها وحاولت أن تحمي قلبها من الانهيار وكبرياءها من الذل. منذ البدء وهي تحسب كل خطوة تخطوها، تفكر في وقعها على كرامتها، وتهتم بأمر مصيرها هي عند كل حنو ورحمة. لو أغدقت في العطاء وقت الحب

تخاف أن يستغل ضعفها كما فعل الأب بالأم، ولو نطقت بكلمات عشق تندم يومًا أو اثنين. كانت ثريا في علاقة بثريا، وعندما بدأ الجبل يتفتت أمام عينيها فكرت في ثريا ووقع الانهيار عليها هي لا عليه هو، حتى وهي ترجوه كانت تريد إنقاذ نفسها. كان يقول: «وليس بعد الحب مقام». ويقول: «الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب»؛ لأن «شغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل»، ولكنها انشغلت بنفسها فقط لا به. أي حب أحبته له؟! وأي هزيمة تتبعها اليوم؟ ربما يموت الإمام بعد ساعة أو ساعتين، بعد يوم أو ثلاثة. سيموت وهي لا تعرفه. وكيف تدعي الحب لمن لا تعرفه؟ يا محمد...آه من الإدراك بعد فوات الأوان!

ولكنها ربما عرفته وهذا أمرّ وأقسى. بالطبع عرفته حتى قبل أن يعرف نفسه. رأت الغواص الذي يحاول أن يجمع الحروف ليفهم المعنى، ثم تتمزق منه الأوراق فيتحير ويصاحب السلطان. هي كتبت عن الأسد والغواص لأنها رأت منذ أول يوم، ثم ماذا؟ طغت نفسها وهيمنت السيطرة فتوقفت عن الكتابة وعن الإدراك. دون وعي عادت لتكتب سطرين أو ثلاثة على هامش أحد كتبه، ثم أغلقت الكتاب ومعه كل القلب. هناك فرق بين من يعرف ثم يدفن الحقائق حتى لا تُزعجه، ومن لا يدرك من الأصل. أدركت هي.. نعم، وانتصرت أنانيتها حتى على الحب.

يقول الغزالي.. زوجها: «يجوز أن يغلب الحب، بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه، لا لمعنى آخر وراءه، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبًا عنده ومطلوبًا»، فلمَ تقف رغبته حائلًا أمام عمرها الباقي؟ لا تستطيع أن ترضى بمراده ولا أن تفرح ببُعده.

ليتها لا سمعت كلماته ولا رأته. كانت ثريا، أحلامها بسيطة، ونفسها بين يديها تفهمها وتشكلها، وها هي أصبحت كما الطفل في درس إمام بغداد، لا هو يعرف رسم الكلمات، ولا لديه القدرة على الغوص في أعماق بحر المعاني.

دخلت حجرته مرة أخرى، لم يزل ينظر إلى لا شيء. لم يتحرك من مكانه منذ تركته. أغمضت عينيها حتى لا ترى الأسى ثم قالت مودعة: محمد... جهزنا كل شيء. سأذهب الآن إلى طوس.

بدا الارتياح على وجهه برهة. مد ذراعيه لها قائلًا: تعالي هنا.

احتضنها كأنه سمع حديثها لنفسها، أو حدث نفسه عنها. قال: هوني عليك. هو سفر لا أكثر، فراق مؤقت.

حاولت أن تبتعد ولكنه شدها إليه وأكمل: لو احتجت إليّ فسأكون بجانبك على الفور في أي وقت. ابعثي لي لو ضاقت الدنيا أو أرهقتك الأيام.

ضغطت على جفنيها حتى تمنع الدموع من الامتثال لأوامر القلب.

سمعت كلماته داخل أغوار القلب طوال الطريق: «والشوق وإن كان ألمًا ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال، فإن الرجاء لذيذ، واليأس مؤلم، وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق».

الباب الرابع

الفراق

«العارف قد مات مرة في حق الدنيا. وفي حق كل ما يفارقه بالموت».

الغزالي

قال الغزالي:

الحمد لله فائض الأنوار وفاتح الأبصار، كاشف الأسرار، ورافع الأستار، والصلاة على محمد، نور الأنوار..

في البدء كان ألم الفراق، فالنفس التي تحيرني تتحسر، وتتعذب أكثر من الجسد. كل عذاب الجسد في الآخرة هين أمام حسرة النفس، فهي الخالدة الموجودة، لا تتأثر بتغير المنازل. ما أفتقده هو مرضي الذي تعايشت معه، اعتدت أن يُحجب عني ضوء الشمس، فعندما أشرقت لم تستطع العين الاستيعاب. أنكرت الرؤية من رمد في العين، وأنكرت طعم الماء من سقم في البطن. هل ستزعجني الوحدة يا ترى أم سيزعجني بُعد الحاشية والحراس؟ ها أنا أبتعد خطوة وراء خطوة، وأصبح إنسانًا لا أكثر. لا أحمل معي سوى زاد قليل يكفي يومًا أو اثنين، في الطريق لا بد من رزق يأتي من السماء. لن أقلق ولن أفكر. كنت أنطق اسمه بلساني. أدعوه أن يعيد إليّ قلبي، أصلي وأصوم، أقلل من الطعام لعلي أجمح النفس، فلو اتبعت حمية الزهد أطوّع النفس على اللجوء إليه وحده، ولكنني كنت مُحمّلًا بما تركت، هو حمل ثقيل ما كان ومن كنت. وأنا أردد اسمه كان الصوت يشوش على سمعي كل الألقاب التي نلتها، كل متاع القصر الذي تركته، عينا ابني اللتان تشبهان عينيّ، منصور وأعوانه، الأمير الذي يطغى ويظلم، الوزير الذي يقرر كل شيء، الخليفة الذي يبقى حبيسًا داخل هيبته، كل الحروف التي لم يتصل بعضها ببعض، وكل الكلمات التي تملأ الفراغ بلا داعٍ ولا هدف. السجع والوزن المحسوب وترتيب الأحاديث وترديد الإطراء. كم تملكتني الدنيا! وكم تثقل اليوم غلائلها على صدري! نمت ليلتي في الصحراء في

ظلام متسع، لم أشعل نارًا ولم أتكلم مع سواه.

هل يمتد الزمن أم يقصر؟ كنت أعرف أنه بلا سلامة هذا الزمن؛ ساعة فرح تمر كالريح، وساعة حزن كالحجج والأعوام، وساعة آنس به، كيف هي؟

سجدت على الرمال أحدثه، أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري فناديته: «يا ودود».. ألجأ إليك لجوء المضطر الذي لا حيلة له، سهِّل عليّ الإعراض عن الدنيا والجاه، ساعدني على الهرب من العلائق والشوارد. يا أيها السيد الكريم، اجعل عملي لك وحدك، وكل خطوة أخطوها في مسلكي حبًا في رضاك وإخلاصًا في طاعتك. يا مجيب الداعي، عجزت فأنجدني. أعِذ لي قلبي وبصيرتي وأنشئني نشأة أخرى. كنت أقول: «إن الخوف منه، والأمن منه، وهو خالق سبب الأمن والخوف جميعًا». هو «المعز والمذل، هو الذي يؤتي الملك من يشاء، ويسلبه ممن يشاء. يا ألله، هب لي الملك الحقيقي، خلصني من ذل الحاجة، وقهر الشهوة، ووصمة الجهل».

تملكني يأس مختلف، أسعى بلهفة إليه ولا أعرف أي باب أطرق. أيقنت أن السعي دومًا هو المُوصِّل. هذا أعرفه، ولكن هل تخلصت من تقلب وجهي في الأرض؟ صبرت وسعيت إلى الإمامة في بغداد، نعم، ولكن هذا سعي أصعب لأن انتصاره دائم. آه يا محمد! يا من تهت في المعاني والحروف، أين سلامة قلبك اليوم؟ وأي معنى تغفل؟ وأي حرف تلاشى من كلماتك فأفقدك الطريق إلى المعاني كلها، وأعجزك عن الرسم بالكلمات والنقش بالقلم؟ اليوم ألهث وراء الوصول إلى سلامة القلب. أبى القلب إلا أن يكون سليمًا. ثار عليّ وكاد يُفقدني عقلي وكل ما عرفت. هناك فقه الأحكام وهذا أتقنته،

وهناك فقه النفس وهذا لم يزل يحتاج إلى سعي.

كنت أعرف حتى وأنا في بداية الطريق، كنت أدرك أنه الأول والآخر، «وكل معرفة تحصل قبل معرفته فهي مرقاة إلى معرفته، والمنزل الأقصى هو معرفة الله سبحانه وتعالى فهو الآخر، بالإضافة إلى السلوك، وأول بالإضافة إلى الوجود، فمنه المبدأ أولًا، وإليه المرجع والمصير آخرًا». «فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره، وخفي عليهم لشدة ظهوره!». لم يتبق لي سوى الاستعداد لاستقبال أنواره، ولكنني ربما لم أستعد بعد. تشوش الدنيا قلبك يا محمد! أعدت على نفسي كلمات استقرت في الحشا قالها المجذوم، «الطريق تقديم المجاهدة بمحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها، والإقبال بكل الهمة على الله تعالى».

يا رب، ها أنا قادم إليك بصدق وتعطُّش وترصُّد، اقبلني في حضرتك يا ملك، وافتح عليّ بجودك يا كريم، وأفرغ عليّ من رحمتك يا وهاب.

***

اليوم تُزعج الدنيا أحشائي.. نعم، تطل من خلف السجود، توسوس من وراء الستر الرقيق، ولكنني سعيت من أجل الدنيا من قبل بقوة وجسارة، ركبت الخطر وصارعت الأسد، فلم لا أصارعها اليوم من أجل القُرب من الملك؟

ولكن كيف يعرف ربه من لا يعرف نفسه ولا يتأمل دواخلها؟ ابتعدت عن بغداد وقلبي لم يزل معلقًا بالعلائق؛ ولد وزوجة وأخ. أفكر في أمر الخلافة والسلاطين. أتذكر نفاق وزير وإطراء آخر.

يمر أمام عيني ظل الترف والرفاهية فأنظر إلى أحوالي، ويطل من نفسي الأسى، فما استطعت أن أغير من أكون، وما استطعت أن أتقبل ما أصبحت. كانت حربًا ضارية بداخلي. تعرف المسلك وتتردد في الشروع فيه، فهو أصعبها وأسلمها معًا. تتحير بين سلامة دائمة مع عناء قصير، وسلامة قصيرة مع عناء طويل. أنظر إلى الطين فأرى وجهي عالقًا بين الوادي والجبل، ممتزجًا بتراب من رحل ومن ضل ومن هوى. يا محمد...من أنت؟

في البدء كنت القوي شديد العزيمة، كانت أمي تقول لأبي وقت احتضاره: مادام محمد معنا فلا تقلق على شيء. لا يوجد في همته. لا تخف عليه من فقر أو موت.

رددت حينها: سأحمل الدنيا على أكتافي، سأنقذ أمي وأخي، ثم السلاطين والملوك والوزراء، ثم العامة وكل البشر، ولكن الطفل أدرك وهو يشارف الأربعين أن باعه قصير حتى ولو امتلك النجوم. تنبثق الدماء من الأجساد، وتنبجس الحسرة من القلوب. لا نجاة حولك يا محمد. ماذا حققت؟ ما منعت حربًا وما استطعت أن تمنح السكينة والأمان. ماذا حققت؟ هل ساعدت مجادلاتك على تثبيت الإيمان، وتنوير البصيرة يا ترى؟ كنت أتساءل وصوت الأم المكلومة لا يترك أذني: أين ربك يا غزالي؟

هل تفيد المجادلة وينتصر العقل وقت تفتت البدن وتمزق الأطراف وفقع العينين؟

ماذا أنجزت في عمرك الفائت يا إمام؟ وماذا تروم فيما تبقّى يا شيخ؟

رحلت أبحث عن باب لقلبي ونفسي، فما عرفتهما بعد، ولا سبرت أغوارهما قط. لا غرقت ولا طفوت على الماء، ولا غُصت داخل اللجج. ها أنا أقف هائمًا ضعيفًا على الشاطئ أبحث عن النجاة، ولا أدري أهي في اقتحام البحر أم في الاحتماء برماله؟

***

ثريا.. ثُرى هل ستتحملين هذا الفراق؟ أراك أجلد من عرفت بثبات الأرض وجودها. ترى هل ستسامحينني يومًا؟ هل تحنقين عليّ؟ هل تعرفين ما مر بي؟ وأنت يا أحمد إياك أن تطمئن لمنصور، هل سترعى زوجتي في غيابي؟ يا وزير.. كيف حال الخليفة؟ هل تقرأ عليه نصائحي كما طلبت منك؟ ها أنا أتشتت وأتبعثر، وها هي نفسي لا تطيعني، بل تثور وتعربد.

حامد وفاطمة.. أسمع نداءهما حولي حتى وأنا لم أبرحهما بعقلي. رحلت منذ بضعة أسابيع وها هو البعد يقتلع أحشائي. لا حرية لي مع هذا الجسد وتعلقه بالأرض. الروح غريبة تتوق إلى السماء، والجسد ينازعها ليلتصق بالأرض، وأنا أتهتك بين الاثنين، لا وصلت روحي ولا هدأ جسدي.

شرعت في الإبحار لألملم بقايا ما تفتت من الأمة. غرقت سفينة نوح، هكذا قال المجذوم. يقرؤني هذا الرجل، ظننت أنني أحمل السفينة على أكتافي لأخوض بها اليم، ولم أدرك أني أغرق أنا نفسي. القليل من المياه ينجي من العطش، والكثير منها يغرق أمهر الغواصين. ماذا أحمل على أكتافي يا مجذوم إذا كنت أنا نفسي أغرق؟ مشغول بنفسي اليوم يا بائع الثلج، بضاعتي تفنى دون أن

أجد الطريق.

***

تلاشت بغداد من الأفق واتسعت صحراء لا تنتهي. لمن لا يعرف الصحراء، كل الرمال سواء، ولمن يدقق النظر، كل حبة رمل آية من آيات إتقانه وبهائه. في الحبة الواحدة حكاية كل الصحراء، ولكن لمن لم يُحجب بالفساد.

بعد عدة أسابيع اعتدت القليل من كل شيء. أغمضت عيني ونمت في طمأنينة مختلفة. كنت أشتاق إلى السعي وأبغي الوصول. عند الصباح ضللت طريقي كأني أفتقد الدنيا، فزعت لحظة وتذكرت وحدتي. لو نفدت مياهي فماذا أفعل؟ ها أنا أفزع عند أول محنة كأنني لم أتعلم. آه من نفس تحتاج إلى اللوم الدائم! نظرت حولي برهة ثم وجدت كهفًا مختبئًا في الجبل، اقتربت كأن به دابة أو إنسانًا. كانت الذئاب التي قابلناها أنا وأخي تشغلني، متى يا تُرى تأتي لتطلب اللحم فلا تجد شيئًا؟ وأين هي السباع الضارية؟ أريد أن أختبر نفسي أمام الخطر والخوف. أتردد ولا أدري كم مشيت وكم عرفت.

بدا لي من الأفق رجل عابد. من ملابسه عرفت أنه راهب منفرد عن الناس. ناديته فأشرف عليّ بلا كلمة. قلت: «يا راهب، إنا قد أخطأنا الطريق، فكيف الطريق؟».فأومأ برأسه إلى السماء.

ابتسمت ثم قلت: كأننا نسير إلى نفس الغاية، هل تجيبني لو سألتك؟

هز رأسه ثم قال: اسأل ولا تكثر، «فإن النهار لن يرجع، والعمر لا

يعود، والطالب حثيث».

قلت حينها: يا راهب، «علام الخلق غدًا عند مليكهم؟».

فقال: «على نياتهم».

قلت: يا راهب، «لقد أعجبتك الوحدة».

فقال لي: «لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك. الوحدة رأس العبادة».

فقلت: «يا راهب، متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟».

صمت برهة، التقت أعيننا، ثم قال: «إذا صفا الود، وخلصت المعاملة».

قلت: «ومتى يصفو الود؟»

قال: «إذا اجتمع الهم فصار همًّا واحدًا في الطاعة».

ثم أشار إليّ بالطريق وأعطاني بعض الماء.

خاطبت ربي حينها: «عجبًا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك؟».

زجرت نفسي لأنها لم تصف، ولمث نفسي لأن أعمالها لم تكن خالصة له وحده.

***

كنت أذكره بلساني، ثم تنطبع آياته على قلبي المريض؛ تارة يراودني الحنين إلى ما تركت، وتارة تسيطر على عيني صورة الدم والظلم. لحظة أرى الجاه والسلطة، وساعة أتذكر السيف الذي يضعه

المعصري على مخدعي كل عام. أما آن للسيف أن يخترق الحشا؟ ولِمَ صنعنا السيف؟ ولِمَ دربت نفسي عليه؟ أعوامًا أحفظ العلم وأفهمه، وأعوامًا يوسوس لي الشك ولا يضمر الجسد رضًا ولا يقينًا. مَنْ على حق؟ ومَنْ على ضلال؟ مَنْ يقلد من حوله بلا فهم؟ ومَنْ يظن أنه يملك الحقيقة الكاملة؟ أين من قلبي كل هؤلاء؟ تُرى لو تركت العنان لآياته وكلماته وصنعه وبهائه يطمئن قلبي؟

وحيدًا في الرحلة، أحاول أن أدخل في حضرة الملك ومعسكره، أريد القرب منه كقرب الخليل والصديق، مَنْ يُنعم عليه بالمعرفة هو الفائز، ومَنْ ينظر إلى قصر الملك من بعيد غير مَنْ يقترب من المعسكر، ومَنْ يقترب من المعسكر غير مَنْ يدخل إلى حضرة الملك، ومَنْ يدخل في حضرته غير من يختلي به ويصحبه. هنا ملك يعدل ويصبر ويرحم. بلا قرب منه لا يقين ولا طمأنينة. أروم إلى التخلي من أجل الوقوف في حضرته، ولكنني لا أملك شيئًا لأتخلى عنه، هو مَنْ يملك...ربما التخلي هو البحث، ها أنا أبحث عن الآية والمعنى لعمر ضاع في اللهث وراء المال والسلطة، ثم عندما تناثرت الأيام من حولي وجدت الحزن ينخر في الأعماق. مِتُّ حينها.. وبيدك يا ملك أن تبعثني وتنشئني نشأة أخرى.

مَنْ ظن أن الموت عدم فقد أخطأ، ومَنْ ظن أن الإيجاد الثاني كالإيجاد الأول فقد ضل. لكل زمن في حياة الإنسان نشأة وطور... كلها أطوار ذات واحدة، وجوهر وهوية واحدة. كنت طفلًا ثم شابًا ثم رجلًا، كلما نما الإدراك نشأت نشأة أخرى، ولكن الجوهر واحد، ومن ترقى من الجهل للمعرفة فقد نشأ نشأة أخرى، ومن أحيا غيره بالعلم فقد وصل لمرتبة الولاية. وأين أنا من هذه المرتبة ... ونفسي

لم تتفرغ من العلائق والتفاصيل الصغيرة؟ أين أنا منها وعقلي لم يزل يفكر في القاضي...والخليفة ...وحال ابني وزوجتي؟ هل سيحتاجون إلى مال أكثر؟ هل ستعتاد العيش في طوس حول الجبل والوادي؟

آياته بدأت تستقر في القلب كما انطبعت أسماؤه في الفؤاد يومًا وراء يوم..

ذهبت بكل همتي إليه، وبكل عزمي فرقت بين النفس وأماني دنيا لا أمان فيها. تألمت بعض الشيء. كأنني معلق من قدميّ بين السماء والأرض، وجهي مجبول في اتجاه الأرض ومكانه شطر السماء، يشق على النفس ألا تستقر ولكنني كنت قد قررت أني أعرف موضعها الحقيقي.

كنت أتضرع إليه ليلًا:

«وإني لأستغشي وما بي غشوة

لعلّ خيالًا منك يلقى خياليا

وأخرج من بين الجلوس لعلّني

أحدث عنك النفس بالسر خاليا»

***

في الليل تتضح الرؤية ويتأهب البصر. لا تصدق أن الليل ظلام، لو كان لك حبيب، فالليل ونس. «فأول الأمر ذهاب إلى الله، ثم ذهاب في الله». لم أزل في البداية، أرحل إليه وأتمنى أن أمكث حوله. رحلتي جزء من الكل؛ رحلة إلى الحقيقة نفسها ومعناها، فالإيمان

بالنسبة إليّ «معناه السفر إلى الله تعالى، ومن أركان السفر حسن الصحبة في منازل السفر مع المسافرين». اليوم أصاحب كل عابر سبيل، أتعلم من راهب أو مقتفي أثر لدنيا، ولكنني لم أتوقع أن يأتي اللقاء المؤجل هنا في طريق السفر ووسط الصحراء وقبل الوصول إلى المدينة.

كنت أمدد ظهري على الرمال بلا حواجز عندما شعرت بالسيف هنا عند الرقبة مكان النحر بالضبط. فتحت عيني وجفلت لحظة وسمعت صوته؛ المعصري، نظرت إليه كأنني توقعت اللقاء، كم مر يا ثرى؟ أكثر من عشرين عامًا، لم يزل جسده السميك المتين يُرهب المسافرين، خضب لحيته البياضُ وتبدلت عروق يديه وبرزت، ولكن أصابعه لم تزل بها عضلات تستطيع أن تخنق الغول والوحش الكاسر.

قال: قلت لك إنك لن تحيا في طمأنينة أيها الفتى الطوسي. هل ظننت أننا لن نتقابل يا ثرى؟

هممت بالقيام ولكنه قال: لا تتحرك جئت لأقتلك.

ابتسمت حينها فقال في حدة: ماذا بك لا تخاف الموت؟

لم أنطق لأنني لم أتأكد؛ أأخاف الموت؟ لو غرز السيف مرة واحدة ينتهي القلق وتبدأ النشأة الأخرى. في الموت حياة لمن وصل واقترب، وهل اقتربت؟ ربما أود العيش حتى أقترب، فأذهب إليه وأنا أعرفه، ولا أذهب إليه وأنا إمام بغداد.

اقترب مني وحرك السيف بعيدًا عن رقبتي ثم قال: كيف حال بغداد؟

قلت في مرارة: تنتظرك، كنت تحلم بها.

ضحك حينها ثم قال: لا يا فتى يا طوسي، بل كنت تحلم أنت بها، تتمناها، تذهب بكل همتك إليها.

-تتغير الأماني.

-نعم، هذا ما سمعت، ولكنها تتغير بعد أن تحققها، أما لو لم تحققها فتبقى كما الذنب الذي لا يغتفر. افتقدت عقلك ولسانك يا رجل كأنك لم تتغير، لم تزل عيناك تتوقان إلى الأفق وقلبك ينزح إلى السماء. نلعب لعبتنا.. ما رأيك؟

قلت في زهد من اللعب والكلمات: ألم يخبروك أن إمام بغداد انعقد لسانه؟

-ها أنت تتكلم أمامي...سمعت هذا.. نعم ولم أصدقه.

-أمامك أتكلم، ولكنني لا أُدرس أمام الطلاب، ولا أخطب أمام الجموع. لم أعد أستطيع.

-من أخذ لسانك؛ الطمع أم الأمل؟

-الطمع والأمل.

-أي محنة هذه؟! وأي ابتلاء؟! كأن المعصري مثلًا يفقد ذراعيه فلا يستطيع الحرب ولا السرقة، ويفقد رجليه فلا يستطيع الهرب.

ضحك في سخرية، ولم أشاركه الضحك لأنه أصاب في كلماته؛ فقدت كل ما أمتلك، أو ما ظننت أني امتلكت.

ساد صمت برهة ثم سأل المعصري: حملت معك كم خنجرًا في هذه

الرحلة يا محمد؟ ستحتاج إليها.. فقد دفعوا لي الكثير لقتلك.

لم أجب حينها، ولم أكترث.. فقال: ألن تسألني من يريد قتلك؟

-هُم كثير. ما الذي يفيد في معرفة واحد، والمقصد لم يكن البشر في الأصل.

-كيف استطعت التخلي عن منصبك؟ أي قوة تحمل بداخلك؟

-لجأت له بعجزي فأدركني بقوته. ضاع مني أغلى ما أملك فخرجت أبحث عنه في القفار.

-ولكني سأقتلك يا إمام. لن يشفع لك ورعك ولا يأسك ولا كلماتك المعسولة. أعطيك الفرصة لتدافع عن نفسك.

ألقى بالسيف أمامي ثم قال: استعمل سيفك بدلًا من أن تتركه يصدأ كما العلم بلا عمل. هيّا.

قلت حينها: لا أريد قتلك.

-لن تقتلني يا محمد، سأقتلك أنا. لا صداقة بيننا، كيف يكون هناك صداقة بين قاطع طريق وشيخ؟ ولا شفاعة وقت الحرب لأي إنسان. أنت تعرف.

أشهر المعصري سيفه ثم اتجه إلى قلبي وقال: أمسك بالسيف وحارب.

تعسرت الرؤية هنيهة كأنني في حلم، ولكنه ليس بحلم. ما جدوى وجود السيف بجانبك إذا لم تستعمله وقت الخطر؟ وما جدوى كل ما تعلمت إذا لم أعمل به؟ انحنيت قليلًا، أمسكت به، التقى السيفان،

تصارعت الأضلع وامتحنت قوتي، لم يتوقع المعصري الهجوم المفاجئ ولا الطاقة التي حاربت بها، جفل لوهلة، كاد السيف يسقط من يد المعصري، فقلت حينها مداعبًا: أصابك الكبر يا لص...عشرون عامًا أو يزيد. لم تعد تقوى على حمل السيف.

هيجته الكلمات فألقى بكل جسده عليّ وهو يهم بغرز السيف. تفاديته في اللحظة الحاسمة، ثم استمرت المعركة. تصبب العرق ونفرت العروق وعلت الأنفاس. يحاول أن يغرز السيف فأُمسك بذراعه في قوة، يقبض على كتفي فأدفع به وأنقض عليه من الأمام. تسارعت أنفاس المعصري تردد، فقبضت على يده التي تحمل السيف، بعد حين سقط السيف من يده. يبرق السيف أمام عيني مستقيمًا شامخًا حادًا مستعدًا. صوبته على صدر المعصري ولم أغرزه ولم أحركه. قلت: تستسلم؟

قال لاهثًا وأنا لا أعرف هل يبتسم أم يتوعد: أستسلم لك يا محارب.

أبعدت سيفي عن صدره فنهض وأكمل: ولكن لا بد من قتلك؛ فقد دفعوا لي الثمن وصرفت الأموال حتى قبل أن التقي بك. وعدتهم أن أفعل ونصحتك ألا تأمن الطريق.

ثم تراجع قليلًا وأمسك بسيفه وقال: لا تأمن طريقك.

تلاشى من أمامي فجأة. تحيرت حينها؛ هل عدل عن قتلي أم أنه سينتظر فرصة أخرى ويومًا جديدًا؟ لهثت من تعب المعركة وتحدي الحروب. جلست ألملم أوراقي وملابسي، تنفست في عمق وأنا أنوي تكملة الرحلة، وقبل أن أقف جاءني السهم، نفذ إلى ساعدي في

معرفة وإتقان. عندما اخترق الساعد لم أبال، ولكن بعدما استقر نفذ الوجع إلى أعماق الأعماق، كدت أصرخ حينها ولم أستطع من هول الألم. أمسكت به لأحركه ولكني لم أقو رعبًا من زحزحة العذاب. دارت الدنيا أمام عيني. لو كان سهمًا مسمومًا فقد انتهيت، ولو لم يكن مسمومًا فقد انتهيت هنا في الصحراء. آهٍ يا معصري! أكان لا بد أن تفي بوعدك للقاتل؟! كنت أظنك لصًا وقاطع طريق، لم أعرف أنك غادر أيضًا.

سرت خطوات، جررت فرسي ساعة والدماء تنهمر حتى بعد أن كتمتها بملابسي. هويت إلى الأرض، غصت برأسي في الرمال، ومددت ذراعي، وفقدت الوعي.

الفصل العاشر

«لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا، ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة، ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر، ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر».

الغزالي

دمشق 1095

كنت أتكلم عن آلام النفس، واعتياد الجسد على الخنجر المستقر، أعطاني الطبيب دواء في فمي ونزع السهم من الأعماق، وانخلع مع أحلام تبدت لي الآن كالقطن الأبيض بلا وزن يحمل ثقل المصائب، ولا غور يتحمل امتدادها. ربما كنت أهذي حينها، ضرب رجل على خدي قائلًا: أفِقْ يا رجل...أنت في دمشق. ما اسمك؟

خرجت الكلمات من فمي ثقيلة، وتشوّشت كل الرؤية، لم أستطع أن أحرك جسدي: محمد..

-من أين جئت؟ ابن من؟

-محمد بن محمد.

أعطاني شربة ماء، أسند ظهري ثم قال: لك أقارب في دمشق؛ أهل أو نسب؟

لم أنطق. ربت على كتفي ثم قال: ستكون بخير. إصابة عميقة ولكنها آمنة. من يطمئن في طريق السفر وحده يا رجل؟ كأنك شارفت على الأربعين، ومع ذلك تغامر بالسفر كما الغض الذي لا يدرك

الأخطار.

تمتمت وأنا مغمض العينين: كان الخطر في البقاء لا السفر.

-اليوم أصبح في السفر والبقاء.

تركني، فنمت يومًا أو يومين. يقولون إني فقدت دمًا كثيرًا. وجدني العربي على حدود دمشق، فأخذني إلى بيته وجاء بالطبيب. كنت بين الحياة والموت ثلاثة أيام أو أكثر، هكذا حكى لي، ولكن السهم لم يكن مسمومًا. يقول الطبيب: مَنْ ألقى بهذا السهم رام ماهر يريد أن يؤلم ولا يقتل، ينغز العظام ولا يكسر.

تفحص الرجل وجهي ثم فتح حقيبتي أمامي وقال: معك الكتب والأوراق، الكثير منها، وبعض المال.

فقلت وأنا أحاول أن أقوم من مكاني وأسير خطوات: خذ ما تحتاج إليه من المال.

نظر إليّ برهة ثم قال: لا أحتاج إليه، بل ستحتاج إليه أنت يا مسكين، هل تعرف الغلاء هنا في دمشق أم لا تعرفه بعد؟ هنا ستعرف الغلاء، حتى الخبز أصبح ترفيهًا ورخاء للفقراء. جئت من بغداد؟ أليس كذلك؟ هي بلد الخليفة فلا بد أن رغد العيش يفوح على الجميع. القريب من الملك قريب من النعيم.

قلت جملته الأخيرة وأنا أعنيها: القريب من الملك قريب من النعيم.

فقال: ولمَ تركتَ النعيم في بغداد، وجئت إلى هنا؟

فقلت وأنا مغمض العينين: لأنني لم أكن قريبًا من الملك.

لم يُجب. بعد عدة أيام شكرته وصافحته وأنا أستعد للرحيل إلى غايتي. ثم سرت في شوارع دمشق، تمتزج الروائح والألوان، الليمون الطازج والرمان الأحمر يتناثر من الأفق. تزدحم الأسواق وتمتد إلى حدود جامع دمشق، كان هو ما أبغي. تركت نعلي على الباب، خلعته وأنا أحاول أن أخلع عن نفسي الدارين؛ الدنيا والآخرة، كنت أقصده هو فقط، لا أردت دنيا ولا جنة. كنت أحاول أن أصدق معه هو فقط، أن أخلص له هو فقط. خطوة أو خطوتين دون أن تنازعني حكاياتي وأطماعي وعلائقي وتفاصيلي. نظرت حولي، سلمت على المصلين، ولكنني قصدت المئذنة. تسلقت السلم في لهفة مَنْ يبحث عن وصول سريع كما هو طبعي، ومن عقد العزم ولم يخر كما هو دأبي. كنت أشتاق شوق من يغوص باحثًا كما هو مصيري. هنا بشر وهناك.. هنا عبادة وهناك.. هنا من يطمع ويأمل ويبحث، ومن أيقن وآمن، ومن فكر ولم يستقر، ومن شك ولم يبصر. من يحارب من أجل معتقد ورثه عن أجداده، ومن يترك الجد والأب جُبنًا وهربًا. هنا كل الألوان، هذا يتضرع، وهذا يطلب. لم أعد أعرف ماذا أطلب منه. حقق كل الأماني، ووضعني في أعلى مراتب الأرض ليعلمني أنني لم أصل ولم أفهم. «لا تسألني قبل الوقت، وتيقن أنك لا تصل إلا بالسير». قلتها لنفسي؛ لأنها لم تزل تثور علي كل حين. يا قلب.. أين أنت؟ متى تعود وتحكي ما رأيت؟

وسوست النفس ولم تستسلم، طلت من رأسي تتحدى: ثم ماذا يا غزالي؟ تريد أن تحيا كما الفقراء بلا سند ولا سلاح؟ سيتعرض لك كل مار ويؤذيك كل جاحد، هل ستجد وقتًا للعبادة حينها؟ كنت إمام بغداد محصنًا من كل الشرور، هل تتذكر؟ كنت حينها

تستطيع أن تعطي، بل كنت تعطي، ماذا بك؟ حجة الإسلام يستسلم للتّرك ويسجن نفسه داخل المئذنة ولا يخبر أحدًا من هو، هل فقدت عقلك؟ أليس في هذا هروب يا مَنْ ظن أنه سيحمل البشر على أكتافه لينقذهم من الغرق؟ها أنت تهتم بشأنك وتترك الناس لأهوائهم.

أمسكت بقلبي حينها. ها هي شهوات الدنيا تجاذبني يا رب. أي ضعف يمسسني؟ وأي هوان؟ لم تكن غايتي نفسي فقط، «إنما أبغي أن أصلح نفسي وغيري»، يا حكيم، انتزعني بحكمتك من نفسي، أرني الحقيقة وعلمني من بحار علمك الذي لا ساحل له، أيقظني من غفلتي. كيف لي أن أساعد غيري وأنا بلا قلب؟!

كنت أعيد اسمه على لساني لينطبع في قلبي. أصلي الفجر وأمكث في المئذنة، أعوّد النفس على طاعتي وأُجهز البدن للتحمل. أترك له نفسي. يومًا وراء يوم لا أترك المئذنة إلا بعد صلاة العشاء. تجلت لي عجائب القلب حتى وأنا لا أتمكن منه بعد ولم أصقله وأجلّه، وقد أدركت بعد التجارب أن «محل العلم هو القلب».

غمرني يأس مصحوب بهيبة. وضعت كفي على قلبي أناجيه: أعد لي قلبي لأستطيع أن أعيش. أنت القادر، كرمك يفيض، ورحمتك وسعت كل شيء.

أذكر اسمه وأتأمل مخلوقاته من المئذنة. يتضاءل أمام صنعه كل شيء.

***

بدأت أرى خطه في كل ما أبدع، هو البارئ المصور. رأيت حروفه

منطبعة على الإنسان، على الحيوان، على الطائر والنبات. كل آية يخطها أراها وأعرفها. وفي كل آية أرى قدرته. في الماضي كنت أمر على مخلوقاته وأتعجب من جمالها، ولا أرى الحروف المنقوشة على كل مخلوق، ولا أغوص في المعاني. اليوم أعيد قراءة الحروف لعلها تنجلي أمامي، فأعرف من أكون. أرى قدرته وأدركها. القدرة لا بد أن تدركها بالقلب، وقلبي سقيم.

نظرت إلى الطير يتخذ لنفسه بيتًا على الشجر، ثم يعمل في جد لبنائه من القش، يحتمل المشقة من أجل صغيره، يبني خصيصًا لحماية صغيره ثم يبحث عن الطعام له، رعايته مصحوبة بإتقان يعجز عنه الكثير من البشر. يطحن الطعام في فمه ليضعه في فم الصغير...ثم ماذا؟ ولِمَ يتحمل كل هذه المشقة، وليس «له رؤية ولا فكر في عاقبة، ولا له أمل يأمله في أفراخه، كما يأمل الإنسان في ولده من العز والرفد وبقاء الذكر؟ فهل هذا قطعًا إلا إلهام إلهي من فعل الله سبحانه؟».

أليست هذه قدرته تعالى على أن يجعل هذا الطير يرعى صغيره بلا هدف ولا مقابل؟ هي بضعة أيام ثم يرحل الصغير بلا أمل في عودة أو لقاء.

أي جمال يسكن في ريش الطائر، يبدو كالشيء الهين، وهو إبداع من الجميل؟! إنك تجده منسوجًا نسج الثوب من سلوك الرقاق، «ريش يابس ولين، من اليبس ما يمسك ما حولها، ومن اللين ما لا ينكسر معه، نسجت الريشة مع الريشة كتأليف الخيط إلى الخيط، والشعر إلى الشعر».

في خطه رعاية لكل مخلوقاته وتوازن لكل الكون. بدا لي لأول مرة أن الكون مربوط بعضه ببعض كما كل كائناته، وأن من ينظر إلى الجزء دون أن يراعي وجود الكل سيبقى دفين عقله المحدود. التفت لأول مرة إلى الحمام الذكر والأنثى كيف يتداولان على التسخين خوفًا من أن يفسد بيضهم، كأن الله أعطاهم علمًا من لدنه بكيفية البقاء والرعاية. كل هذه المعرفة عند هذا الطير منه هو معجزة وعدل.

نظرت إلى النملة تعمل بجد وثقة، أعطاها البديع القدرة على معرفة قوتها وحجم تحملها. تعرف العواقب وتعمل من أجلها، إذا عجز بعضها عن حملما حمله أو جهد به أعانه آخر فيه فصارت متعاونة على نقل الطعام. أليس في كل هذا تدبر؟ لم ألتفت إلى النمل من قبل؛ لقد رأيت مخلوقاته، ولم أر خطه وقلمه عليها.

نظرت إلى النحل والخلية المصنوعة بشكل سداسي لتحفظ العسل، فلو كانت على شكل مربع أو دائرة لأضاعت أجزاء منها دون أن تمتلئ. الشكل السداسي من إبداع الخالق. كيف تحفظ العسل في الأجنحة، ثم تحمله إلى الوعاء الشمعي؟ هل في علمها وقدرتها كيفية جمع الشمع مع العسل، أو عندها من المعرفة بحيث رتبت حفظ العسل مدة طويلة باستقراره في الشمع وصيانته في الجبال والشجر في المواضع التي تحفظه ولا يفسد فيها؟ أي إلهام أعطاها الخالق؟!

ثم تأتي هذه الذبابة فتطن في أذني، تنغص عليّ عيشي ليعرفنا البارئ سبحانه هوأن الدنيا التي تنغصها هذه الضعيفة فتصغر أمامي ويهون علي فراقها.

ولكنها دودة القز ما هزت الأحشاء والجوانح. ها هي دودة القز تفنى فيما غزلته، ثم تصير لها أجنحة. كنت أروم إلى مصيرها هي فقط. أريد الحرية والتحليق، سئمت الزحف على الأرض وهوان القرب من الدنيا.

رددت لنفسي كل يوم:

«وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد».

***

خرجت ليلًا إلى الخلاء أناجيه.. يا بارئ، يا مصور، أعيتني هَيْبتك.

أرى إبداعك في النحت على الجبل، في تفاصيل الرمال، في انحدارات الماء على وجه الصخر، في تلال تأخذ أشكال الكون، هذا التل يصور أسدًا، وهذا يصور حملًا، وهذا يصور موجًا..

هنا أمواج رمال تخط بخط سميك سنين العمر وتقلبات الأزمنة. في تشققات السهول وأمان الوادي...أرى قلمك.

آهٍ من عظمتك وضعفي! صحراء أقف بها ضئيلًا، أدرك كيف ضيعت العمر هباء، أصاحب وزيرًا بينما لو اقتربت كنت مع الملك. حريتي في اللجوء إليك، والعجز أمام جلالك.

«وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد».

جمالك وبهاؤك يتبدّى لي في بصري، ولكنها بصيرتي التي أحتاج إليها. «الحسن ليس مقصورًا على مدركات البصر»، هذا أعرفه اليوم. «فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى»، وكل ما

سواه قائم به. المحبة ثمرة المعرفة. ومن يعرفك؟ ومن لا يعرفك؟ وهل لمعرفتك حدود؟ هي بحر بلا شاطئ، حتى الغواص لا يقوى على اقتحام اللجج إلا بمشيئتك.

***

كلما جمعت كل همتي ووليت وجهي شطرك أنت فقط، تبدّت لي أطماعي. كانوا يقسمون بعلمي وعقلي، وترتع النفس وتجمح حينها. كنت أتحير في ملذات عقلية لا تروي الظمأ، يرددون: هنا رجل غير كل الرجال، هذا هو المجدد، كتبه في الفقه الشافعي توضح المسائل وتجيب السائل. هذا رجل لم يُخلق مثله منذ مائة عام. جاء لينقذ الأمة. أغمضت عيني حينها، وتركت الدموع تتساقط بلا رادع. كنت أحزن من قدرة نفسي على الجموح، كنت أحزن من إهمالي في تربيتها طوال هذه الأعوام. منذ الصغر وأنا أجعل العقل هو الملك في مملكة البدن، ومنذ الصغر وأنا أظن أنى أتحكم في أهوائي، ولكن أهوائي كانت من تلبيس إبليس، لم يكن هوًى في خمر أو نساء أو مال، كان هوًى في جاه وسلطة، في قدرة ونفوذ. وهذا أعصى الابتلاءات، هكذا أدركت. كلما سمعت الإطراء رويت النفس وتنفست، ولو توقف كنت ألهث وراءه كمن يلهث وراء الخمر بعد ترسخ العادة يومًا وراء يوم، حتى هجرني قلبي وانعقد اللسان. ثم ماذا يا إمام يا غزالي؟ ماذا ستفعل؟ هل ستقضي بقية عمرك داخل المئذنة؟ هل كنت تبغي الهروب أم المعرفة؟ هل انعقد لسانك جُبنًا أم حزنًا لأنك لم تحقق ما أردت؟ إلى أين يا إمام؟

أمسكت بقلم وكتبت «الحمد لله المتفرد بكبريائه وعظمته، المتوحد بتعاليه وصمديته، الذي قص أجنحة العقول دون حمى

عزته، ولم يجعل السبيل إلى معرفته إلا العجز عن معرفته».

الكتابة بالنسبة لي دواء للصدر العليل، والكتابة عنه هو وحده هي عين الشفاء.

ولكن للنفس خدع ومكائد لا تنتهي، في صباح اليوم التالي وأنا أصلي المغرب جماعة سمعت الشيخ يقول في صوت قوي: اليوم الدرس المنتظر، اليوم نُدرس كلام الغزالي عن الفلسفة، ثم نقرأ في كتابه الوسيط في الفقه الشافعي. سنشرح كل شيء، لا تقلقوا.

انكمش جسدي وعبس وجهي. ها هو اسمي يتردد في الشام، أتفرح يا رجل؟ هل تعلمت شيئًا من الشهور الماضية يا تُرى؟ كيف جمحت نفسك وجاهدتها؟

مد الشيخ يده إليّ، أطال نظره إلي ثم قال: أنت غريب هنا، ولكنك تأتي كل يوم.

نظرت إليه ثم قلت: نعم غريب.

قال في رفق وهو يشد يدي: تعال معنا لتستمع إلى الدرس. هل قرأت للغزالي من قبل؟ هو عالم غير كل العلماء، لم يخلق الله مثله منذ زمن. ننتظر كتبه كأنها الترياق، هنا في الشام نحبه ونقدره.

عبس الوجه وارتعدت الأحشاء ولكنني لم أنطق. فقال في ريبة: أنت لا تحبه؟ جاءت لنا الأخبار أنه في محنة كأن المرض أصابه أو عين الحاسدين. لا نعرف. يقولون الحروب أثرت على قلبه فحزن، وتوقف عن التدريس. حتى لو توقف يكفي ما ترك لنا من إرث. الزمان لا يجود بمثله يا أخي. هل ستأتي معي؟ لا بد أن تأتي معنا

اليوم لتتعلم من الغزالي.

قلت بلا تفكير: أنا أتعلم من الغزالي أو أكاد.

جر يدي إلى المجلس. جلست أستمع لكلماتي كأنني انفصلت عن نفسي حينها. تارة تصيب القلب كلمة، وتارة أشعر أنني لست معهم. لحظة أريد أن أصحح للشيخ جملة قالها ولم تكن في محلها، وتارة أتجاهل كل كلماته.

الضيق الذي أصابني كان من عجزي حينها عن قتل النفس، أو حتى جهادها. قمت في هدوء وتركت المجلس. عدت إلى المئذنة ونظرت إلى الدنيا، وكانت الحقيقة تبتعد ويبتعد معها قلبي.

خُلق الإنسان لسلوك سبيل القرب من الله. أين قربي يا تُرى؟ ولِمَ أهرب اليوم؟ ولكنني كنت حازمًا مع كل الأماني منذ الصغر، واليوم الأمنية أصعب وأجمل، ولا بد من تحقيقها.

***

يتهامس الشيوخ عني، عن الرجل الذي يجلس في زاوية وحده يكتب ويقرأ، يرد السلام في اقتضاب، لا يجادل ولا يباهي بعلم أو دين. كلما سألوه من يكون، قال: محمد. عرف الشيوخ أنه يختلي في المئذنة من صلاة الفجر حتى صلاة العشاء. يقولون: ربما أحد الصوفيين جاء من بلاد بعيدة.

انتهوا من الصلاة ثم أقاموا مجلسًا للعلم والإفتاء. كنت أتابعهم بعيني بلا كلمة، ظنوا أنني فقيه أو عالم. ربما شكوا أنني أفهم حديثهم، وأعرف أصول الأحكام وفروعها. كلما التقت الأعين أدرت

وجهي عنهم ونظرت إلى كراستي.

جاءهم رجلٌ يبدو عليه الإرهاق والحيرة، ملابسه قديمة ووجه ممتلئ بالتراب كأنه كان يحفر خندقًا أو يكسر حجرًا. قال وهو يجلس في خشوع: جئت أطلب الفتوى في أمر يعكر صفو كل حياتي.

ساد الصمت، فقال الرجل وهو يلتفت حوله خوفًا من الكلمات: مات أبي منذ شهور، ولكن هذا ليس ما يحزنني اليوم. ما يحزنني هو أن طليقته ذهبت إلى القاضي تطالب بحقها في الميراث، وكان قد طلقها قبل موته فلا حق لها، ولكني أخاف أن أظلمها فجئت أطلب الفتوى قبل أن أقف ضدها أمام القاضي.

ساد صمت حيرة وغموض. قال أحدهم مسرعًا: لو طلقها فلا ميراث لها.

وقال آخر: كم زوجة لوالدك؟

قال الرجل: أمي وهذه المرأة، ولكنه طلقها قبل موته وانتهت العدة منذ زمن.

فقال شيخ: أمك ترث، وهي لا ترث.

-ولكنها مصممة أنها ترث.

التف الشيخ إلى الآخر.

تعاقبت الأجوبة السريعة كأن كلًا منهم على يقين، ثم خمدت كل الأجوبة كأنهم كلهم في حيرة.

نظر الرجل حوله في عدم فهم وإحباط. تحير المجلس ثم قال أحدهم: تعرف الإجابة الآن.

فقال الرجل: لا.

بدءوا يتشاورون، يتجادلون، يرجعون إلى الكتب ثم خرجوا الواحد وراء الآخر. جلس الرجل مكانه، نظر حوله ثم طأطأ رأسه وأمسك بها بين يديه.

قلت في رفق دون تفكير: يا أخي، تعال هنا.

نظر إليّ؛ إلى ملبسي المتواضع وعدم تكلف عمامتي أو هيئتي، ثم سأل: هل تعرف الإجابة؟

سألت بلا مقدمات: متى طلق والدك زوجته؟

رفع كتفيه ثم قال: وما دخل هذا في الحكم يا رجل؟

فأعدت عليه السؤال فقال: قبل أن يموت بعدة أيام.

-هل كان على فراش الموت حينها؟

-كيف لي أن أعرف؟

-بل تعرف. اصدق في قولك. هل يئس الأطباء منه، وأخبروه أنه سيموت عن قريب؟

بلع الرجل ريقه ثم قال: نعم حدَث، ولكنه طلقها ثلاثًا، فلا رجعة لها، كيف ترث؟

فقلت في تأكيد: هي ترث، لها حق؛ لأن المطلقة ثلاثًا في مرض الموت ترث؛ لأن الزوج قَصَد الفِرار من ميراثها، فيعارض بنقيض

قصده؛ قياسًا على قاتل أبيه مثلًا، فإنه لا يرث؛ لأنه استعجل الميراث، فعورض بنقيض قصده. وفي القاعدة الفقهية «من استعجل شيئًا قبل أوانه عُوقِب بحرمانه».

أكملت كأنني عدت إمام بغداد حينها، أريد أن أوضح الحكم «فلو علل الحرمان بكونه متعديًا بالقتل، جعل هذا جزاء على العدوان، كان تعليلًا بمناسب ملائم، ليس بمؤثر؛ لأن الجناية بعينها، وإن ظهر تأثيرها في العقوبات، لم يظهر تأثيرها في الحرمان عن الميراث، فلم يؤثر في عين الحكم، وإنما أثر في جنس آخر من الأحكام، فهو من جنس الملائم، لا من جنس المؤثر، ولا من جنس الغريب. فالمؤثر مقبول باتفاق القائلين بالقياس».

لم يفهم كلماتي.

ساد صمت رهيب ثم قال الرجل: من أنت؟

قلت: درست الفقه ودرسته في بلاد بعيدة.

قال الرجل: هل أنت متأكد من هذا الحكم؟

فقلت في تلقائية: صفِّ ضميرك، وافعل الصواب. لن أسألك لِمَ طلقها، ولا لو كان طلقها إذعانًا لرغبتكم، ولا لن أسألك هل كانت زوجته الأولى يا ترى أم لا. الحكم قلته لك.

-ما اسمك؟

-محمد.

-ما اسمك يا أخي؟ كل اسمك.

- لا يعنيك اسمي. أردت الإجابة وأعطيتك إياها.

مكث مكانه في بعض الدهشة، بعض الخوف. ربما يتساءل لو كان هذا الرجل فقيهًا فلِمَ لا يجلس مع الفقهاء؟ ولو كان عالمًا فكيف يرضى بهذا الهوان؟

عند صلاة الفجر استغاث بكل الشيوخ الذين تكلم معهم من قبل الواحد تلو الآخر. أخبرهم بما حدث وبما قلت له. طلب منهم تأكيد فتواي.

نظر كل منهم إلى الآخر ثم قالوا: ما اسم هذا الرجل؟

-قال: إن اسمه محمد.

ساد الصمت المصحوب بالوجل والذهول. أصبح أمر الزاهد الذي يختلي في المئذنة يشغل كل علماء دمشق. ذهبوا إلى الشيخ أبي الفتح نصر فهو أهل للثقة، يعلم ويدرس، ولا ينافق ولا يكذب. تشاوروا في أمر الغريب، جروا معهم الرجل الذي جاء يسأل ويطلب الفتوى. استمع الشيخ أبو الفتح إليهم ثم طلب من الرجل أن يعيد كلماتي عليه. بعد حين طلب أن يذهب معهم ليقابل صاحب هذه الفتوى.

في البدء لم أشعر بدخولهم، كنت مستغرقًا فيه وحده. أغمض عيني، وأمسك بتلابيب قلبي. اقترب الشيخ أبو الفتح، كان رجلا في السبعين بوجه هادئ، وعينين مستقرتين. مكث ينظر إليّ بلا كلمة، ثم جلس أمامي وقال في هدوء: من أنت؟

رفعت عيني إليه ثم قلت: عبد الله.

-ومن ماذا تهرب؟

-من نفسي.

ابتسم الشيخ ثم قال: أنت شافعي، جئت من أين؟ هل تعرف الغزالي؟ هو الإمام الشافعي الشهير.

رفعت رأسي ثم قلت: أحاول هذه الأيام أن أعرفه.

قال الرجل وهو يقوم من مكانه في هيبة: أنت هو، أبو حامد الغزالي هنا في دمشق منذ زمن ولا أحد يعلم. لا استقبلك وزير ولا أمير ولا حتى جمعت العلماء لتعطيهم درسًا.

التفت الرجل حوله ثم قال بأعلى صوته: يا أهل الشام، هنا معنا أبو حامد الغزالي..

ذاع الخبر من حي إلى حي، ومن شيخ إلى شيخ. الإمام أبو حامد الغزالي هنا في دمشق. يعيش بينهم منذ عام أو يزيد وهم لا يدركون. يدرسون كتبه، يرددون كلماته، يحتارون في معاني حروفه، يغوصون في المرادفات، يقلدونه تارة، ويعجبون وينبهرون تارات. كل شاب يتمنى لقاءه وكل شيخ يريد أن يرتشف من علمه قبل الموت. اجتمع عشرة، ثم عشرون، ثم مائة، بل ألف. وصل الخبر إلى الوالي، ثم الرعية. أصبح جامع دمشق كما قلعة آمنة وسط حرب ضارية كأن كل البشر به اليوم. ينتظرون، يدعون، يرومون إلى لقائه.

سمعت الأصوات، خرجت من المئذنة بخطًى بطيئة، وما إن اقتربت حتى انهال علي الرجال، هذا يصافحني، وهذا يقبل يدي، وهذا يرجوني، هذا يدعوني لمقابلة الوالي، وهذا يتمنى أن يمسك

بردائي، صاح فيهم الشيخ أبو الفتح: اتركوا الرجل يتنفس.

دارت عيناي حولهم. سمعت الإطراء، رأيت القلوب تخضع لي مرة أخرى، هنا في الشام، وقلبي أنا يتملص من قبضتي. ذاع صيتي في كل العالم. حجة الإسلام المجدد العالم الأوحد، مفتي الأمة، شرف الأئمة...تناثرت الألقاب، دوت في أذني، لها طعم العسل في فمي. فرحت النفس وكادت تهوي. زاغ البصر أو كاد. كلما لمحت لمعة العين بالمحبة والإعجاب هويت. كلما خضع لي قاضٍ أو والٍ داهمني غبار يعمي ويصم. أمسك الشيخ أبو الفتح بيدي، سار معي ولم يتوقف الشيخ عن الكلمات: لا أحد مثلك. تعلمنا منك. ننتظر كتبك كأنها كل الأمل. وقفت في وجه الدم والقتل. تركت الجاه لأنك قادر، لا أحد في قوة الغزالي. تبقى معنا هنا. تدرس في دمشق. نرجوك. سيطلب ذلك منك الوالي. عِدنا أنك ستبقى. هذه الزاوية في المسجد ستحمل اسمك طوال العمر. لا أحد مثلك. نتعلم منك. يا شيخ يا سيد يا ...هل ستبقى؟

هززت رأسي، جلست معهم، سألوا وطلبوا الإجابة، ولكني بقيت صامتًا. أستمع وأتحسر. فساد القلب هين كما المياه، وغالٍ كما ندرة المياه. أغمضت عيني برهة ثم فتحتها. هذا يسألني عن الفلسفة، وهذا عن أصول الفقه، هذا عن المنطق، وهذا عن علم الكلام. هذا يتكلم عن انتشار الباطنية، وهذا يحكى عن الإلحاد. هذا يسأل عن العدل، وهذا يشكو الظلم. أنت...يا مجدد، يا شيخ، أنت تنقذنا من الغرق. تاهت سفننا، واختنقنا برًا وبحرًا. أنت...لا يوجد غيرك...بعثك الله لنا. تبقى هنا...معنا. تكلم..

لا يعرفون أن لساني قد انعقد أمام الجموع. هل عرفوا؟ عندما

مكثت صامتًا، ربما أدركوا أو ظنوا أني أتدلل وأتكبر، أو أني متعب أو مذهول.

انقضى النهار وطعم المجد به لذة العسل، وأسر القلوب بمذاق الطيور السمان. نظر إلي الشيخ أبو الفتح مليًا، ثم أمر الناس بالخروج، وقال في بعض الشفقة: ماذا بك؟ لا تنطق كلمة واحدة. هل ما وصلنا عن مرضك صحيح؟ لم أصدق عندما قالوا انعقد لسان الغزالي. ظننتك تتحايل لتخرج من بغداد، بل ظننت أن الخليفة ربما قد تغير عليك. أنت تتكلم معي ولكنك لم تنطق أمامهم بكلمة. أي داء هذا؟

قلت في أسى: داء في القلب.

ربت على كتفي في شفقة ثم قال: بل عين أصابت الإسلام والمسلمين. تعال معي.

ودعاني إلى بيته، قدم لي الطعام فلم آكل إلا القليل. طلب مني أن أنام وأستريح، وفي الغد أذهب معه لزيارة الوالي، ثم قال: ابدأ بالتدريس لي ثم لاثنين ثم ثلاثة، ومع الوقت ينفك لسانك.

قلت في حتمية: الأمر ليس بالهين.

تركني والاضطراب يصيب النفس، كل ما بنيته وكل ما تعلمته.. ها هي كلمة إطراء تصيب القلب مرة أخرى، كأنني لن أتعلم، كأنني لن أرتقي أو أصفو. ها هو القلب يتملص من بين أصابعي حتى قبل أن أتمكن منه.

بعد صلاة الفجر لملمت كتبي وكراساتي وصافحت الشيخ وشكرته

على كرمه، ثم طلبت منه أن يسمح لي بالرحيل على وعد بلقاء قريب. أكدت له أن الغزالي اليوم ليس أهلًا للتدريس، يريد أن يختلي بنفسه.

خرجت من البيت، سرت في خطًى بطيئة قرب المسجد والناس تحاصرني، هذا يسير ورائي، وهذا يود لمسي أو قربي. قلت في رفق: أريد أن أخرج إلى الخلاء، غدًا نلتقي على خير.

ابتعدوا على مضضٍ. سرت في خطًى مرتبة، ساعة أو اثنتين، وربما ثلاثًا. وجدت قافلة متجهة إلى بيت المقدس، التحقت بها، وما إن ابتعدت عن الحضر والناس حتى تساقطت الدموع، وبخت النفس قائلًا: لم يزل في قلبك مكان يا شيخ لمذاق الجاه! آخر ما يخرج من قلب الولي حب الرياسة. ها أنت تكاد تهوي. أعجبك الإطراء، وددت لو استمر كم يومًا؟ حتى موتك؟ من يريد لقاء الملك كيف يرضى بالعبيد؟

اتجهت في طريقي إلى القدس.

***

كنت أسلك سبيل القرب منه في كل نفس. أضطرب في البدء فقد اعتدت ملوكًا غير هذا الملك، لا هم بقوته ولا بحلمه. مع الملك الاطمئنان واجب، والأمان موجود، والقرب ليس لأهل علم أو مال، بل لكل من أتاه بقلب سليم. أطلت على نفس لوامة تذكرني بما حققت وما فعلت. يا طوسي، ألم تدع للخليفة وتذكر اسم الله هباء؟ ألم يعتد لسانك كلمات المدح حتى وأنت لا تعنيها؟ كم مرة دعوت إلى سلطان وأمير؟ وكم مرة دخل الرياء قلبك؟ تذكر أم أنك تنسى؟

يا رب، خلقت التذكر والنسيان نعمة، فلو تذكرت كل شيء أتعذب وأضيع، ولو نسيت كل شيء أتعذب وأضيع. يا طوسي، يا محمد، كنت تنظر بعينيك إلى الأطفال، وتقول: ابني حامد سيحيا في رخاء لن يحتاج إلى المال مثلما احتجت أنا، ولن يحتاج إلى الحماية فوالده إمام بغداد. قلتها يا محمد؟ هل تتذكر؟ وكيف كان حال ابنك والأطفال حولك تموت جوعًا؟ تدعي أنك تحمي الدين، وكنت لا تحمي سوى نفسك! أَفِقْ يا محمد. لم يعد في العمر الكثير، كم مرة انتظرت الألقاب وغضبت من عدم الإطراء؟ كم مرة أحصيت عدد الرجال التي تتبعك في سيرك في الطرقات؟ هل اعتدت الإطراء كأنه شربة ماء يا رجل؟ بل أصبح أهم عندك من شربة ماء.

ولكنني كنت أصبر في الماضي للوصول إلى الهدف، لا هفوت أمام جمال امرأة، ولا غرني مال حرام، فمن استطاع فيما هو فانٍ يستطيع فيما هو باقٍ، ومن قسا على نفسه في البدء للوصول إلى الإمامة يقسو على نفسه ويجاهدها اليوم لهدف أسمى، وأمل لا مقارنة بينه وبين غيره. القرب من الملك هو السعادة بعينها. لا.. لم أيئس. هو سبيل القرب إلى الله تعالى ما أبغي.

في «الخليل» جلست أمام قبر إبراهيم. كان يُدعَى خليل الله؛ لأن الحب تخلل كل شرايينه كالدماء، لا خاف نارًا في سبيل إيمانه، ولا لجأ إلى دون الله. هنا قبر إبراهيم من كان سيذبح ابنه وهو قرة عينه ومناه في هذه الدنيا من أجل رضا ربه. هنا إبراهيم مَنْ لم يقلد والدًا أو جدًا، بل فكر واستغاث بالواحد الأحد. هنا إبراهيم من حطم أصنام الهوى التي صنعوها بأيديهم ليعبدوها. أي أصنام صنعتها أيدينا يا ترى؟ وكيف السبيل إلى تحطيمها؟ هنا إبراهيم الذي وقف

أمام ملوك الأرض وهو لا يراهم، ولا يريد شيئًا منهم لهذه الدنيا. فلتخضع النفس وتخبْ أمام هذا النبي. جلست أمام قبر إبراهيم، ثم رفعت يدي إلى السماء وقلت: إلهي يا واحد يا حكيم، أقسم اليوم أني لن أصاحب خليفة ولن أسعى إلى سلطان، ولن أدعو لسلطان ولا أمير، ولن يخرج من فمي اسمك سوى بإخلاص. أقسم هنا أني لن أجادل أحدًا أبدًا ولن أتعصب لمذهب. لن أصارع بكلماتي فأكسر وأهزم. أدعوك يا رب ألا تجعل علمي عليّ، بل لي، وأن تتقبل مني حتى وأنا ناقص عليل.

***

بعد أن أخذت الوعد على نفسي أصبح النوم ممكنًا. طرقت بابه رويدًا رويدًا منتظرًا في صبر ممتزج بلهفة من نوع خاص، وانفتحت بعض الأبواب، ووجدت قلبي يسير في بطء إلى موضعه ومكانه داخل الصدر. دخل على استحياء، ثم استقر. آه من القلب! لو تعرفون، ومن عجائبه. خلق القلب كالسراج، والبدن منزل له. كلما تحرك السراج أنار أحد جدران البدن، ولو تحرك في كل البدن يُدفئ قبل أن ينير. تقترب الحقيقة لا بالمسافة، ولكن بصفاء القلوب. في القلب ينطبع ملكوت الله، في القلب يستقر العالم، ولو اتسع ورحم وصفا يستقبل الحقائق بلا عناء كالمرآة المصقلة النظيفة.

خلق للعلم والإدراك...خلق للرحمة والود.

رأيت حيرتي تهدأ وعنائي يتضاءل أمام سعة رحمته وبهاء نوره. وليس كل قلب مستعدًا لاستقبال النور.

فلو انطبع بمعتقد راسخ يصعب تحريكه ربما لا يجد النور مكانًا

فيه. ولو اتسخ بجدال وغضب ورياء وكبر وغرور وحقد فلا حقيقة تقترب منه. ولو أصابه هوس وخوف من نار وعقاب وأصبحت العبادة إكراهًا وضغوطًا فلا نور يدخل مع الاضطراب والإكراه. أما القلب الراسخ في العلم، القادر على استقبال ضوء الحقيقة، فلا بد أن يجدها.

أي اختلافات كانت تؤرقني، وفي القلوب سراج ونور على نور؟ ولولا نوره ما اهتديت، ولولا قدره ما عوفيت، ولولا إرادته ما نجوت. كنت سأستمر إمام بغداد، يأتي إمام بعدي، وآخر جاء قبلي، لا ترك أثرًا ولا أنشأ نشأة. لا تعتقد أنني شجاع، امتطيت الدنيا لأقترب من الآخرة، بل هو من أقامني حيث أقمت، وهو من أخذني حيث وجدتني.

بدأت الكلمات تجد طريقها لكراستي. كنت من قبل قد فقدت القدرة على ترتيبها؛ لأنها لم تكن خالصة لوجه الله، وكل ما يشوبه رياء لا يصلح لحضرة الرب. تجتمع الحروف بين أصابعي، ثم تنطبع على الأوراق. ينبض القلب بحنين، كلما نازعتني نفسي زجرتها، وكلما وجدت سهمًا مغروزًا في أحد الأضلع اقتلعته كما السهم الذي رسخ في الساعد أو حاولت. أردته أن ينشئني نشأة أخرى. ظننت حينًا أنني أعرف حقيقة الحياة، واليوم كنت أريد أن أعرف حقيقة الموت. ومن لم يدرك حقيقة الحياة لا يعرف حقيقة الموت. يحدث بعد الموت بعث، وللبعث معانٍ وتداعيات. فحقيقة «البعث ترجع إلى إحياء الموتى بإنشائهم نشأة أخرى، والجهل هو الموت الأكبر، والعلم هو الحياة الأشرف، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى العلم والجهل في كتابه العزيز وسماهما حياة وموتًا. ومن رقى غيره من الجهل إلى

المعرفة.. فقد أنشأه نشأة أخرى، وأحياه حياة طيبة، فإن كان للعبد مدخل في إفادة الخلق بالعلم ودعائهم إلى الله تعالى فذلك نوع من الإحياء، وهي رتبة الأنبياء ومن يرثهم من العلماء».

ناديت النفس وأنا أروم إلى نداء قلبي، يا محمد...متى تحمل الدنيا على أكتافك؟ وكيف تحيي الموتى وهم كثيرون؟ كنت واحدًا منهم حتى أحياك هو بإرادته ورحمته. أي كرم سيفيض منك وأنت تحمي القلب الضعيف؟ يا محمد...هل ستقضي بقية العمر تهرب من العمر؟ لم يزل طموحي يفترسني. كأنني مكلف وكَلِفٌ؛ مكلف بحمل ثقيل وكَلِف به وحده. لم يخلقني لأنقذ نفسي فقط. أي مشقة هذه؟! وأي جنون؟! يا فتى، أتريد أن تنقذ كل العالم؟ أي قدرة لديك وأنت لم تزل تصلح نفسك؟

ولكنني كلما فكرت في الغاية اقتربت، وكلما لاح أمامي الدواء اهتديت.

بدأت أكتب كتابًا غير كل ما كتبت، لا هو كتاب في علم الكلام كما «تهافت الفلاسفة» و«الاقتصاد في الاعتقاد»، ولا هو كتاب فقه كما «الوسيط» و«الوجيز» وغيرهما مما كتبت. هذا كتاب إحياء؛ لأن الناس موتى من حولي، ولو لم أساعدهم فلن أدرك الحقيقة أبدًا. أدركت حينها عجزي عن إدراك الحق مادمت أنا هنا أصارع نفسي فقط؛ يقول المجذوم إنه أرادني أن أحمل السفينة على أكتافي، ورأيت أني مكلف بالعلم لا بتطهير النفس فقط؛ مكلف بإعادة الحياة لمن ضل وأضل، لمن ظن أن الأحكام الظاهرة تكفي، ولمن لم يتبع الأحكام الظاهرة، لمن نافق حاكمًا ومن ابتعد ولم يفهم، لكل من لم يتعلم ولم يتفكر. كتاب للحياة. لم أستطع أن أوقف الحروب ولا أن

أصاحب الأسد، ولكنني لا أملك سوى قلمي وحروفي. ربما لو غصت داخل الكلمات أجد الخلاص لي ولغيري. هو كتاب لإحياء العلم، وعند إحياء العلم تُبعث الأنفس الميتة التي غلب عليها طمع وجهل وضلال.

هذا كتاب... حياة لمن مات...إحياء علوم الدين...سيشتمل على «أربعين كتابًا، يرشدك كل كتاب إلى عقبة من عقبات النفس، وأنها كيف تقطع، وإلى حجاب من حجبها، وأنه كيف يرفع».

كتبت وقد انحلت عقدة قلمي وأنا أتمنى أن تُحل عقدة لساني.

كنت أكتب للناس عن نفسي، وليس عن أحكام فقط ولا معاملات. كنت أحكي عن غير عمد، عن غواص يبحث عن اتصال الحروف ومعانيها، صاحب يومًا ملكًا، أسدًا، فتلفت نفسه وضاع قلبه، ثم بدأ يبحث عن قلبه ويصلح نفسه. آه يا ثريا! كيف أدركت قبلي أن الأسد والغواص لا لقاء يدوم بينهما؟! يا ثريا، ترى هل ستكملين الحكاية التي تكتبينها على الهامش يومًا؟ كنت تقولين: صاحب العلم لا يصلح لمصاحبة السلطان. قلت هذا في كتابك.

أما كتابي أنا فكتبت فيه: «والأجل قريب، والسفر بعيد، والزاد طفيف، والخطر عظيم، والطريق سد، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل» ينفع. هذا كتاب عن علم المعاملة، أما علم المكاشفة فلا يوضع في الكتب. هي المعاملة الموصلة إلى القرب، أما المكاشفة فحال لا يقوى أحد على التعبير عنه بالحروف.

الفصل الحادي عشر

«وأعني بالتصوف ما خُلق الإنسان له من سلوك سبيل القرب إلى الله تعالى».

الغزالي

الطريق إلى مكة 1097

التحقت بقافلة الحجاج ولم ألتحق. كان بدني معهم وقلبي معه وحده. أذكر اسمه بلساني وينطبع في القلب الضعيف. وكان بجانبي يمتطي فرسًا أسود مثل فرسي. كان يظهر ثم يختفي. ترى أجاء يسرق قافلة الحجاج؟ هو المعصري.

ما إن رآني حتى ضحك ضحكة عالية ثم قال: لم تمُت.

قلت وأنا أتحاشى النظر إليه: لو أردت قتلي لفعلت.

-ماذا بك لا تنظر إليّ؟ هل أنت غاضب؟ كنت أعتقد أن الزاهد الصوفي لا يغضب.

-بل يغضب ويسيطر على غضبه.

-لو كنت اقتربت من الله لعرفت أني أنقذتك.

لم أجب. فأكمل: أخبرني يا محمد لِمَ تشغل كل أيامي منذ رأيتك؟

-لأنك تريد قتلي، هكذا قلت، ولكنك لم تقتلني مرة ومرتين. ربما تريد مصاحبتي في الطريق لنتعلم معًا.

ضحك مرة أخرى ثم قال: وماذا ستتعلم مني يا شيخ؟ وماذا

سأتعلم منك؟ تعال نتكلم عن الدنيا. أصحابي يقولون إنك تقول إن العرب تحب النساء.

قلت: أنا في طريقي إلى الحج.

قال بعد برهة: حسنًا حسنًا، لا لغو إذن.

أكمل بعد حين وهو لم يزل يصاحبني: تعرف قصة الأميرة الجميلة ماهي التي خطفها اللصوص؟ تعرف من خطفها؟

نظرت إليه في عتاب كأنني أذكّره أني في طريقي إلى الحج، فأكمل: البنت كأنها كانت تتمنى خطفها. لا تحب زوجها ولا تحب عشيقها ولا تحب تركان خاتون. ضحية لهم جميعًا، أنقذتها المسكينة.

ابتعدت بفرسي لأتحاشى سماع كلماته.

ولكنه اقترب وقال: ولكن هذا كان في الماضي. اليوم المعصري تغير؛ لا شهوة لنساء، لا خمر، لا سرقة، ولا قتل. كنت آخر من أقتله.

-ولكنك لم تقتلني.

-ولكنني قتلتك لأنك لست محمدًا الذي قابلته منذ عام. هل تجيد اللعب اليوم؟

توقف فرسي ونظرت إليه برهة ثم قلت والتحدي يغازل عقلي: أي لعبة تقصد؟

-الغزالي يجيد اللعب بالكلمات. يُطوع كل الحروف كما يُطوع الساحر الثعابين. هيا بنا.

نظرت إليه أنتظر فقال: أجبني يا محمد، هل وجدت ما تبحث عنه؟

-هذا أصعب سؤال يا أخي.

-أخبرتك من قبل أني لست أخاك، ولكنك تشغلني من البدء. توقعت لك الغرق ولم أعرف كيف نجوت. أخبرني ما الذي يستعصي عليك يا فتى؟

-المعاني.

-لكنك تتقن الكلمات.

-ليت الكلمات توصل إلى المعاني دومًا، كانت الدنيا ستصبح بلونين لا أكثر.

-وعندما تتقن فهم المعاني ماذا ستجد؟

-اليقين.

قال المعصري: ها أنت تتكلم بكلمات لا أفهمها. سأسألك وأتوقع إجابة واضحة وقصيرة، استعد. ما الذي يدفعني للسرقة؟

قلت بلا تفكير: طول الأمل.

فقال: اشرح إجابتك ولا تلعب بالكلمات.

قلت وعيناي لا تتركان عينيه: تظن أن لديك وقتًا للتوبة، ووقتًا للاستمتاع بما جمعت، فتلهو في الدنيا وترتع لأملك في بقائك بها.

فقال: وما الذي يدفعني للكلام معك وعدم قتلك في الحال؟

-قصر الأمل.

نظر إليّ، فأكملت: تعرف أنك ربما تموت في اللحظة، فتبحث عن

مخرج آمن من أيام كلها أخطار.

فقال: وما الذي يدفعك للسفر وترك كل شيء؟

-طول الأمل وقصر الأمل.

ثم شرحت: فلو أبقى في عمري حتى أعرفه وأقترب وأفرح بالقرب، أكون قد حققت ما أريد إلى حين، ولو لم يبقِ في عمري حتى هذا الحين فهو يعرف أنني أتيت إليه بنية صافية ونفس ضعيفة لوامة.

-وما الذي يردع النفس الأمارة بالسوء؛ الترهيب أم الترغيب؟

-رحمته واسعة وعقابه شديد. ليس بعد الحب مقام.

صمت المعصري برهة ثم قال: ولكنني أحبه وأعصيه.

-«العاشق لا يستثقل السعي في هوى محبوبه. فإن كل حب صار غالبًا قهر لا محالة ما هو دونه».

أعاد المعصري الكلمات كأنه يزنها بقلبه ثم قال: كيف لي أن أتوب؟

فاجأني بسؤاله فقلت: «إن السفينة لا تجري على اليابس». اخترق بسفينتك البحر، ثم أبحر. ابدأ طريق التوبة، ولا تُكثر الكلمات.

ضحك المعصري ثم قال: أتدري؟ اليوم أنا أُعلمك. هل تعرف لما صادفتني في طريقك هذه المرة؟

نظرت إليه بلا فهم.

فقال المعصري: لأن غايتنا واحدة كما كانت غايتنا واحدة من قبل. كنا نريد بغداد، واليوم نريد كرمه ورحمته. لن أُكثر عن هذا. إلى لقاء

قريب.

تلاشى من أمامي حينها.

***

عند الكعبة كنت أدور حول بيته ولا أكتفي بقرع الباب ولا بثبوت الحقائق. تغيرت أحلامي وكبرت معها الأخطار. هذا رجل آمن بالله عن اعتقاد ورثه عن أجداده، يعرف أن الملك موجود، وهو مؤمن، هذا أكيد، وهذا رجل أثبت بالحجة أن الملك موجود في البيت، سمع صوته وهدأ شكه وهذا مؤمن أيضًا، وهذا رجل اقترب من قصر الملك ووقف على أعتابه وأصبح همه هو الدخول في حضرته والرشف من قدسيته، ولو قربه الملك يكون لعجزه عن القرب وحده وهو في درجة مختلفة من الإيمان، وهذا آخر عندما اقترب لم يسمع غير الملك، ولم ير في البيت غير الملك، كلما رأى حسنه أحبه، وكلما رأى عظمته هابه، وبين الهيبة والحب حار ثم ذاب، فكان طريقه أولًا إلى الله، ثم أصبح طريقه في الله، فهو الموجود، الأول والآخر، وكل شيء قائم به، ولكن بيته ليس الكعبة فقط، فمحله القلوب، ووصفه صعب، ليس كمثله شيء، وهو يملك كل شيء، ويعرف كل شيء، ويخلق كل شيء، يتسع عرشه، فلا لسان نطق يصف مكانه وزمانه، فهو خارج الزمان والمكان، ولا لسان حال يتمكن من كنهه.

كنت أتوق إلى حضرته والقرب منه، ثم للحظات انمحقت نفسي بين يديه، فلم يعد موجودًا غيره، ولكنني لست وحدي اليوم في طوافي حول الكعبة، ولا في قدومي بكل همتي إلى الله. سمعت الصوت من خلفي يعيد علي كلماتي: «السفينة لا تجري على

اليابس». هكذا قال محمد.

فتحت عيني وأنا لا أصدق ما أرى. هو المعصري بملابس الإحرام يدعو ويتضرع. اقترب مني ثم قال: ماذا بك يا محمد؟ هل تندهش من وجودي؟ ألم أقل لك إن طريقنا واحد؟ المعصري لا يكذب قط.

قلت وأنا أحاول تجميع كلماتي: رحمته وسعت كل شيء.

-سيرحمني يا طوسي لأنني لم أقتلك وكنت أستطيع.

رددت اسم الله ولم أجب. فأكمل كأنه يشرح لي: يا محمد...أنت لا تعرف المعصري مع أن المعصري يعرفك منذ زمن. لو كنت أريد قتلك لقتلتك، لا أحد يجيد رمي السهم مثلي في كل العالم بلا استثناء. أردت أن أفي بقسمي فقط. أقسمت أن ألقي السهم عليك وفعلت، ولم أرم السهم ليقتل يا محمد، بل ليؤلم ويؤدب.

قلت من جديد: رحمته وسعت كل شيء.

أكملت طوافي، ثم صليت، وبعدها التفت إليه، وقلت: لماذا أنا؟

قال المعصري: لم تسألني من قبل.

-لِمَ تفعل هذا؟ تبحث عني عامًا وراء عام، تتبع خُطاي. أنا لست أول عابر سبيل في طريقك ولا آخرهم. لماذا أنا؟ كل عام تضحي بخنجر، وكل عام تنتظر مقابلتنا. عمّ تبحث يا معصري؟

قال وهو يبتسم: أخبرتك من قبل؛ أبحث عما تبحث عنه.

-لو لم أكن أراك رؤية العين لظننت أنني أهذي.

-في الحياة الدنيا يظهر لنا بين الحين والآخر إنسانٌ كما النار وقت

الصقيع، يضيء ويدفئ ثم يخمد ويتلاشى. كنت لي نارًا يا فتى.

-أنا؟!

-قابلت الكثيرين ولكن هناك غزالي واحد بين كل البشر. تعرف كما أعرف أن مثلك يضن به الزمان. منذ البدء رأيت فيك ما كنت أروم وأبغي، ثم تركت أنت كل شيء كأنك فقدت عقلك، لم أصدق حينها أنك تستطيع، ولكنك تفاجئني كل يوم، منذ كنت في الرابعة عشرة وأنت تفاجئني. ألن تسألني من يريد قتلك؟

قلت في حسم: لا أريد أن أعرف.

-لن تسلم في رحلتك، أخبرتك في البدء ولكنني ربما لم أعرفك حينها.

صاحبني المعصري ليذكرني ربما أن كل البشر بين محن وفتن، وأنني لو كنت أبغي قربه فكل من حولي يبتغونه أيضًا، وأنني وإن كنت أرى لنفسي شأنًا فكل من حولي يرون لأنفسهم الشأن نفسه. كأنني ذبت في الجموع ولم أجد سواه، وكأنني منذ عرفته حق المعرفة عرفت أنني غير كل الجموع. لا يعرف ربه من لم يعرف نفسه. في كل خطوة خطوتها إليه نشأت نشأة أخرى، وفي كل لحظة هزيمة انتصرت فيها نفسي كنت أعد لها العِدّاد لحرب قوية تدرك فيها حجمها.

عند الكعبة ترقق ساعدي على القلب الذي عاد منذ زمن ليس ببعيد، أعطيته الدواء حتى أستطيع أن أصقله وأجليه.

للإنسان نشآت كثيرة، وليس نشأتين فقط، يقول في كتابه:

﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: 61]، أين مني الطفل الذي يسبح فوق الأرض وهو يطبع صورة النجوم في الأحداق؟ وأين مني الشاب الذي يقتحم الخطر؟ نعم، يبقى الجوهر واحدًا وتختلف النشآت، ولكن من أخبر الطفل أنه يومًا سيبحث عن قلبه؟ لو أخبره أحد لظن أنه مجنون، فلا أدرك الطفل معنى القلب ولا أهميته. فمن «طباع الناس إنكار ما لم يبلغوه ولم ينالوه حتى إن كل واحد ينكر ما لم يشاهده ولم يحصل له، ولا يؤمن بما غاب عنه. (...) فمن آمن بشيء مما لم يبلغه فقد آمن بالغيب، وذلك هو مفتاح السعادات».

***

عند جبل عرفة، تبدت لي حقائق جديدة، في السير معرفة.. نعم، ولكن لا يعرف ربه من لم يعرف نفسه. أدركت وأنا على الجبل وسط الجموع أنني لم أتوقف يومًا لأعرف. كنت ألهث كأنني أدرك أن العمر قصير، ولكنني تهاونت في إتقان الغوص في المعرفة، كأنني أظن العمر طويلًا والوقت باقيًا، ولكن الزمن يلعب بنا كما نلعب به. اليوم توقفت لأنظر فاطمأن قلبي، رأيت حولي بشرًا مختلفين في اللون والبلد، ولكنهم يتحركون في الاتجاه نفسه؛ هذا يدعو يتضرع أن يرزقه الله بالمال، وهذا صبي يتعلق برداء أمه خيفة وحشة الغربة، هذا عجوز يتمنى الصحة، وهذا حداد يرفع يديه الخشنتين السوداوين في يقين من كرمه. لا اهتموا بوجودي حولهم، ولا لاحظت أنا من قبل وجودهم حولي. اليوم رأيت معجزته في هؤلاء كلهم، لم أر اختلافهم وتشتت غايتهم ومذاهبهم، رأيت قلمه المنطبع في كل واحد، رأيت المعنى وراء تفرق الحروف، رأيت إنسانًا.

أمامي إنسانٌ واحدٌ هو نفسه كما العالم. يبدو لي واحدًا حتى وإن

كان له ظاهر وباطن، هو أعضاء متفرقة وقلب واحد. من يرى العالم أجزاء متفرقة لا يمكن أن يدرك كُنْه المعرفة الحقيقية، لا تكتمل المعرفة إلا برؤية قدرته في خلقه جميعًا. للإنسان أعضاء ظاهرة كالعينين، وأعضاء لا تظهر لنا كما القلب والكبد. ولو فسد عضو يؤثر على الجسد كله. ربما ما أعياني وأصابني بالوهن هو فساد الأعضاء من حولي، يُضعف النفس الفساد حتى ولو لم يصبنا نحن. جسم الإنسان تمثيل مصغر للدنيا التي نعيشها. العالم كله واحد حتى ولو تفرق كأعضاء الجسد. من يشاهد العظمة يهاب، ومن يشهد على الإبداع يحب، ومن أحب وهاب فقد عرف.

رأيت الكاتب لا الكتاب، وغصت داخل صفاته وفيض كرمه. تغيرت في رحلتي على ما يبدو، اتسعت الرؤية.. نعم، ولكن اللهث للقرب والشوق للقاء تركاني في وجد دائم وظمأ لا يرتوي.

***

في طريق العودة إلى دمشق كان لا بد أن أغوص في البحر الحقيقي الذي طالما حلمت به، وأبحث عن الدرر التي تلألأت أمام عيني أعوامًا. آه يا أحمد! ليتك جئت معي، كنت سأحملك على كتفي يا أخي ونبحر معًا، فالدر يستحق البحث والمجازفة، ويستحق السعي والمجاهدة. عند الفجر لامست المياه جسدي، انتابتني رعشة من يدخل البحر لأول مرة، فهذا بحر غير ما أبحرنا فيه من قبل يا أخي، وهذا شاطئ يتلاشى من أمام عينيك في ثوانٍ فلا تجد بدًا من أن تستقر في عمقه بعض الوقت أو كل الوقت، ولكنك أبدًا لن تصل إلى حدوده. الغريب أنني عندما غصت باحثًا عن بريق رأيت أمامي الحروف تسبح حولي في دائرة ضخمة، كنت أود أن أقرأ،

وأفهم كلمة أو حرفًا، تتبدى المعاني بوضوح أحيانًا، ولكنها تتفرق وتهرب مرات، تعرف طريقها. تتبعتها وأنا غائص في عمق البحر، أكتم أنفاسي ثم أنساها، كأنني أستطيع أن أعيش في الأعماق لو خضعت الإرادة. استغرقني الحب لحظتها، فهي لحظات أو دقائق تبتعد فيها الدنيا كلها، وتختفي الجنة والنار، ويبقى الاستغراق في محبته هو. كنت دومًا أروم النجوم ولا أرضى إلا بأعظم شرف. قهر حبه في قلبي كل حب دونه. لبرهة لم أعد أتذكر حياتي الماضية، ولا شغلني ما تركت ولا ما سيكون. استقرت اللحظة فأغرقت ما دونها. من الصعب شرح الحال، بل من المستحيل. كأن المياه برد وسلام على القلب المحترق. بلسم سحري لكل آلام الماضي. رفعت يدي كأنني أحاول أن أمسك بالزمن والمكان والعلم الذي أنار سراجًا دون نار. تنفست وأغمضت عيني وقلبي بيده الرحيمة. كنت ألهث وراء بقاء البرق الخاطف. يا أخي، أنت تعرف الحب وتعرف الغوص، الغوص لا يستمر في الحال سوى عندما تغلبك المحبة، فلا تستثقل جمح النفس عن الشكوى والدعة. خرجت من المياه وأنا ألهث، نظرت إلى الخاتم في إصبعي. نزعته نزعًا من إصبعي بعدما استقر ورتع وسكن، فعتبة البيت عالية، والاستقرار في دنيا قصيرة وهم وخيال. دفنت الخاتم في الرمال، ثم صنعت فوقه جبلًا من الأصداف، واستلقيت على الشاطئ وأغمضت عيني. كيف لمن غاص فوجد الدرر أن يرضى بجوهر زائف، وأن يقنع بدراهم معدودات؟! لا وصول إلا بالسير، ولا مجاهدة إلا بالسعي. كنت في بداية الطريق.. نعم، ولكنني أدركت أنني سالك ولست واصلًا. الوصول هو المحو التام. أثناء الوصول لن تشغلني نفسي عنه، أنا السالك وغيري كثيرون، ولكنني أحبه بقدر حب جميعهم مجتمعين. قلبي بيت يتوق إلى استقبال أنواره وكرمه.

عند الوصول يستقر النور في القلب، ويتلاشى أمام حضرته كل شيء، يفنى العالمون ويبقى هو وحده، فالكل قائم به وله. لم يزل الطريق طويلًا.

شعرت بحركة حولي ونظرت أمامي ورأيته؛ أسدًا حقيقيًا ينظر إلي بعينين صفراوين تشزّان الناظرين، وحدقتين تتحركان بلا توقف؛ تارة تضيقان وتارة تستعدان للافتراس. هو... أسد.

أسد بشعر أصفر وبرتقالي وبني، كل خصلة بثلاثة ألوان متناسقة، وفم بأنياب متقنة منسقة تخيف حتى دون أن تنغرز في الصدر، ويد ثقيلة وأظافر حادة. هل كان أصغر ما توقعت يا ترى أم أكبر؟ البصر يخدع دومًا؛ تارة أراه صغيرًا، وتارة أراه عملاقًا. جلس على الرمال أمامي، رفع رجليه الأماميتين كأنه أحد الملوك القدامى واستقر أمامي. هل خفت حينها؟ دهشت ربما، لم أتوقع أن يقابلني بنفسه، ويصبح التعارف وجهًا لوجه. ملوك الصحراء أشجى وأجمل من ملوك الوديان والمدن. لا سلاح في يديه سوى عينيه الحادتين، ولا جيوش تحاصره فتحجب الرؤية. هو هنا بعظمة خالقه أمامي. لم أتحرك من مكاني، استمرت المواجهة بيننا كأن الأرض تدور حولنا أنا وهو. خشعت الأصوات أمام إبداع الخالق، وخرت الجبال من الجلال، ولوهلة انتفض الصدر واختلج، ولم يكن خوفًا، كان إذعانًا للخالق، وجمالًا لكل ما يخطه بقلمه البديع. كنت أرى من قبل في مخلوقاته قلمه وخطه، واليوم أغوص في المعنى فلا أرى سواه، الكل قائم به. يهمني الصانع وليس المصنوع، يهمني الخالق وليس المخلوق. أسبح في بهائه وجماله وبديع صنعه، عبرت بقلبي إلى صاحب القلم، هو من علّم به، ومن خط الكلمات كلها. هو وحده ما يشغلني، ولأول

مرة خرجت حتى عن نفسي وعن تصفيتها، ولم أفكر سوى فيه هو. لم يعد لي أنا وجود، كان هو فقط. لم أعد أرى حراسًا، ولا حاشية، ولا ملكًا من ملوك الأرض، ولا رأيت أنيابًا تفتك بلا هوادة عند أسد الصحراء، لم أر سواه، وكل ما دونه لا وجود له. كالبرق الخاطف شطرتني هذه الأنوار نصفين، عرجت بي إلى حيثما لا أستطيع الوصف، أو المكوث. لذة معرفته تمكنت، وطمست ما دونها، قلت له:

«مقامك من قلبي هو القلب كله

فليس لشيء فيه غيرك موضع»

ليتني أستطيع أن أشرح هذه اللذة وحدودها، ولكنها بحر بلا شاطئ يتذوق منها الغواص رشفة عندما يصفو ويتخلى ويجلي ويتحلى. وليس مسموحًا الكلام عنها في الكتب. للحق لو فني كل عمري ومزقتني الآفات والمحن فهذه اللحظات تستحق. لحظة وصل منه بكل عمري الفائت والقادم.

بعد حين انطلق الأسد في طريقه، وتركني دون أن يقطع خلوتي وهنائي. لم يشغلني عدم مساس الأسد بي، شغلني ما حدث في الحال، وما ذقته من معرفة لأول مرة منذ بداية الرحلة ومنذ الميلاد.

***

هو الذوق ما جعل للغرق هدفًا وللحيرة شاطئ نجاة.

كنت أكتب في سرعة كأن الكلمات تنسكب من البحر المغرق، ولو لم ألتقطها تضيع من بين راحتي.

كلما خططت كلمة أو جملة تبدّت لي رشفة من رشفات النور في

قلبي.

تبدّت لي الحقيقة مع استقرار القلب وعودته لليقين الغائب بعد حين.

جميع الموجودات مرآة للوجود الحق المحضر، فالظاهر بذاته هو الله سبحانه، وما سواه فآيات ظهوره ودلائل نوره. هو العدل، من يشهد مملكة البدن يدرك أنه وضع كل شيء في موضعه متناسقًا مرتبًا ترتيبًا عجيبًا؛ عينان، أنف، فم، أذن، أسنان، رأس، كبد، طحال، كلى، عروق، ودماء، ثم قلب، وعقل، ونفس. القلب قلبان، قطعة من اللحم تخرج منها الشرايين والعروق، لطيفة ربانية بها سر الحقائق كلها. تنطبع فيها صورة اللوح المحفوظ أو بعضه لمن صفا وأصلح وأخلص. هو بدن كما العالم، مرتب بإحكام البديع، ملكه هو العقل. لو اختل عضو واحد من البدن ترتبك باقي الأعضاء، وتنتقص قدرة الإنسان، وهكذا هو العالم لو اختل جزء منه تنقص القدرة ويعجز البشر. كنت أبحث عن معنى الاختلافات وعن الفرقة الناجية، والحزب الذي يفرح بالمعرفة، ولكنني لم أدرك حينها أن الحقيقة تكمن في رؤية الصورة كاملة، ورؤية العدل والحكمة في حسن الترتيب، والجمال والإحكام والإتقان.

قلت بصوت عالٍ: «في كل شيء له آية تدل على أنه واحد».

هو العادل، فالعدل في مملكة البدن هو ترتيبه المستحسن. بـ «العدل قامت السموات والأرض حتى صار العالم كله كالشخص الواحد متعاون القوى والأجزاء، مترتب التقدم والتأخر، بتقديم المقدم الحق وتأخير المؤخر الحق جلت عظمته وعظمت قدرته».

أدهشني اتساع القلب كل يوم كأنه يتسع للعالمين وللأسرار والمعارف. وكمال القلب في ارتسام صورة الحقيقة ونقشها بداخله. والحقيقة هي صورة «الكل». يتسع القلب لكل الوجود بكل المخلوقات. وعندما يصفو يجذب «هيئة الوجود كله فينقلب عالمًا معقولًا موازيًا للعالم الموجود كله، مشاهدًا لما هو الحسن المطلق والخير المطلق، والجمال المطلق، ومتحدًا به، ومنتقشًا بمثاله وهيئته، ومنخرطًا في سلكه، وصائرًا من جوهره».

فقد قال: «ولم يسعني أرضي وسمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوديع». «ومن ارتفع الحجاب بينه وبين قلبه تجلت صورة الملك والملكوت في قلبه، فيرى جنة عرضها السموات والأرض، بل أكثر سعة من السموات والأرض، فإن الجنة وإن كانت واسعة الأطراف متباعدة الأكناف فهي متناهية، وأما عالم الملكوت وهو معرفة الحقائق والأسرار الغائبة عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصر فلا نهاية لها».

وقد علمت أن الإلهام طورٌ من أطوار المعرفة يفوق العقل؛ لأنه يدرك بالذوق، ولا يُدرك بالفكر ولا الإثبات. هو حالة يتوقف اللسان عن شرحها. تأتي كالبرق الخاطف أحيانًا، وأحيانًا تستقر برهة، ثم تختفي، وهنا يعجز اللسان عن الكلام.

الفصل الثاني عشر

«القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها».

الغزالي

دمشق 1097

استقبلني الشيخ أبو الفتح، لم أهب رؤيته ولا إطراءه لأنني حينها لم أسمع الكلمات. كانت همتي في الكراسات التي في يدي. مددت يدي وأعطيته الكراسة، قلت: هذا جزء من كتاب أكتبه أريدك أن تقرأه، ولو أعجبك فاقرأه على طلابك. هو كتاب عن الفقه ولكنه أيضًا عن النفس وعن الفقه وعن الإنسان وعن القلب.

قسم عن العبادات وأركان الإسلام الخمسة، وقسم عن المعاملات والشريعة والأخلاق، والربع الثالث يتعلق بالنفس البشرية ومحاربة ضعفها، والربع الأخير هو ما ينجي صاحبه من العذاب، ويحصل به السعادة مثل الصبر والحب والشكر والرضا.

-ولكن الأحكام الشرعية بها كل شيء نحتاج إليه يا إمام.

قلت: بل أصبحت الأحكام تعتمد على تفاصيل ظاهرة ونسيت الجوهر، فتوى نفصل بها الخصام مهمة.. نعم، ولكن ما يُعين الناس على عدم الخصام أهم، ألاوهو الأخلاق ومجاهدة النفس. علم طريق السعادة والآخرة يُحرر النفس ويسلك بها طُرقًا أرقى وأسمى. الإخلاص في كل شيء هو المطلوب. وأهم شيء هو الإخلاص في العبادة. أربعون كتابًا لسلوك طريق الحرية والسعادة في الآخرة

والدنيا.

نظر الشيخ أبو الفتح إلى الكراسات ثم بدأ يقرأ في شغف وقال: كتاب من أبي حامد الغزالي كنز، هذا أكيد.

ثم وقعت عينا أبي الفتح على بعض الجمل فقال: ولكنك تتكلم عن الحب والصوفية في كتابٍ للفقه والمعاملات!!

-أتكلم عن نفسي عما تعلمته.

-وماذا تعلمت؟

-«حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المُقدّم على العبادات، بل به تشرق سائر العبادات. من أحب شيئًا أكثر من ذكره».

قال أبو الفتح: هذه شجاعة لم أعرفها في إمام من قبل، وقطعًا لم نرها في إمام ببغداد قط. أنت تعطي الشرعية للصوفية بهذا الكتاب.

- أنا أتكلم عن أناس أخلصوا في عبادتهم، أعطي أمثلة مما قرأت ومما شاهدت.

- الصوفية يا إمام منهم المنافق والمدعي والإباحي.

فقلت: وهؤلاء أيضًا تكلمت عنهم. ليس الاسم ما يعنيني ولكن سلوك طريق الله بدايته الشرع، وأوسطه صفاء القلب بالكُلِّية، ونهايته التوحيد المطلق بالاعتراف أن كل العالم قائم به وما دونه عدم محض.

فقال الشيخ: توقع المتاعب والمعارك.

قلت: أخوضها مع نفسي كل يوم

***

بعد عدة أيام نظر إليّ الشيخ أبو الفتح، رأيت الإعياء في عينيه وأدركت أنها النهاية، قال في بطء: كتابك هذا يخترق كل الحواجز للقلب. الطلاب تنسخه الآن ولكنني كنت أتمنى شيئًا واحدًا منك يا إمام؛ أن تتكلم عن كتابك بنفسك فليس لغيرك أن يشرح ما يخرج من قلبك.

قلت في بطء: يا شيخ...أنت تعرف.

-تُحاول.

-انعقد لساني أمام الجموع مرة ومرتين، وكلما حدث هذا أصاب الحزن القلب. أعفني من هذا.. الكراسات بها كل ما تطلبون.

قال وهو يأخذ أنفاسه في بطء: ابني سيحملني إلى مسجد دمشق للاستماع إلى درس الغزالي. تمنيتها وأنت لن تحرم رجلًا من أمنيته الأخيرة.

***

أصابتني نوبة سعال مفاجأة ليلتها. كنت أصلي طوال الليل وأناجيه: يا رب، لو كان في كلماتي رجاء فأعنّي عليها، ولو كانت ضلالًا فسامحني عليها، ولكن لا تجعلني غرضة للسخرية أمام الجموع، أعياني العجز مرة ومرتين. أتيتك بكل همّتي حتى ولو لم يصفُ القلب بالكلّية.. أخلصت في يقيني وحبي. لم تزل الدنيا تنازعني ولكنني أضع كل أملى في رضاك.

يا من علّمت بالقلم.. في الماضي أردت أن أُنقذ كل البشر من الغرق فغرقت دون قصد مني. اليوم أريد أن أُنقذهم من الغرق أيضًا ونفسي بين يديك وقلبي بين أصابعك وعقلي تحت إرادتك. اغفر لي ما ذلّ به القلم وكل كلمة كتبتها دون إخلاص وكل كلمة تفوهت بها رغبة في دنيا وهي تدعو إلى التخلي عن الدنيا. اليوم ألجأ إليك وأنا لا أعرف لو كنت أستحق أم لا. ألجأ إليك وأنا أحمل بين راحتي كل العالم، وأريد أن أدفع به إلى شاطئ النجاة. يا من أنرت عقلي بنور معرفتك أعطني فرصة أُعوض ما كان. يا من أعطيتني الفرصة للغوص في معاني حكمتك اجعلني أنثر الدُّر حول الدنيا لو استطعت.

بعد صلاة الفجر اجتمع ألف أو يزيد، وقف من وقف وجلس من جلس. توقفت أمام الجموع، انهالت عليّ الذكريات كأن العقل لا يرحم ولا يمحو. سيتهامس الحضور.. سيمصمص أحدهم شفتيه ويدعو الآخر بإشفاق. سيقولون: الإمام فقد عقله أو كاد، تغيرت أحواله وعجز لسانه.

فتحت فمي بسم الله.. ولم أدر بنفسي والكلمات تخرج في انطلاقة جديدة عليّ، كأنها لا توقفت ولا تبعثرت من قبل. قلت: والقلب الذي أقبل الله عز وجل بوجهه عليه هو القلب المطمئن المراد بقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، وبقوله عز وجل: ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: 27].

نظرت إلى العيون التي تراقبني والوجوه التي تتجه إليّ ولكنني لم أرها، كنت أرى نفسي أغوص فأجمع كل الحروف المبعثرة وكل المعاني التائهة.

ثم أكملت: وقلب المؤمن يتوكل على الحي الذي لا يموت، يتوكل على الله ولكن التوكل درجات.

درجته الأولى أن يكون حاله مع الله تعالى والثقة في كفالته كحاله في الثقة بالوكيل. وأنت تثق في الوكيل بعد تفكر وتدبر، وهذه أولى درجات التوكل على الله في كل شيء. هذه حالة تأتي بالعقل والفكر، ثم هناك الدرجة الثانية و«هي أقوى»، وهي «أن يكون حاله مع الله تعالى كحال طفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلى أحد سواها، ولا يعتمد إلا عليها، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يا أماه، وأول خاطر يخطر في قلبه أمه»، فهي فقط من يفزع إليها، «فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها، وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له، ويظن أنه طبع».

فمثلًا لو سألت الصبي: لِمَ تثق في أمك وتفزع إليها عند الخوف؟ فلن يستطيع أن يلخص هذا ويشرحه كما يشرحه العاقل البالغ. فهذه درجة أعلى من الأولى؛ لأنها لا تعتمد فقط على العقل والفكر. فمن يثق في ربه دون أن يستطيع التفسير بالكلمات تكون ثقته عن حب، وليس بقياس عقلي فقط. كما ثقة الصبي في أمه وحب الصبي لأمه بلا شرح وتحصيل طويل.

قال أحد الطلاب: وما الفرق بين الأول والثاني يا شيخ؟

-الأول يدرك حقيقة التوكل بعقله، والثاني أحب ربه فيثق به وباختياره.

يقول لي الشيخ أبو الفتح: إن الناس حينها هزت رءوسها في فهم

جديد وعمق لم يسمعوا مثله من أي شيخ من قبل. قالوا له: هذا شيخ يتكلم عن حب ومعرفة، يعطي أمثلة على قدر فهمهم، فلكل منهم أم يفزع إليها ويعرفها.

ولكنني لم ألاحظ رد فعل المستمعين ولم أهتم، أكملت وأنا أتلهف لتوصيل المعنى: ولكن هذه ليست الدرجة الأقوى، هناك درجة أعلى منها.

فقال أحدهم: وهل هناك أكثر من هذا يا شيخ؟

قلت: نعم.. ولكن لا يعرف الدرجة الأعلى إلا مَنْ وصل للأدنى منها، ولا يعرف الدرجة الثانية إلا مَنْ وصل أولًا للأولى. القرب معارج لا يدرك أعلاها سوى من وصل إلى أوسطها، كما لا يدرك الصبي لذة الجماع ولا لذة الجاه والسلطة حتى يدركها.

توقف الجميع عن الكلمات ينتظرون ما سأقول، فأكملت: اليقين هو أعلى الدرجات، فمن أيقن أن الله هو «مُجرٍ للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات»، فقد وصل إلى هذه الدرجة. فلنتذكر مَثَل الصبي الذي كان يصيح باسم أمه ليطلبها ويتعلق بذيل أمه حتى لا تتركه ويسألها اللبن حتى تسقيه. هذا الصبي كأنه درجة التوكل الثانية، أما الدرجة التي نتكلم عنها ففيها يعلم الصبي ويوقن أنه لا يحتاج إلى الطلب ولا القلق. فيصبح في هذه الدرجة الأعلى «مثل صبي علم أنه وإن لم يزعق بأمه فالأم تطلبه، وأنه وإن لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه، وهذا المقام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وأنه يعطي ابتداء أفضل مما يسأل، فكم من نعمة ابتدأها

قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق!».

والفرق بين المقام الأول والثاني أنك في المقام الأول تترك سؤال غير الله، ولكنك تسأله هو، أما في المقام الثالث فأنت تترك السؤال من الله أيضًا لأنك تثق في كرمه وعزته ورحمته وتعرف أنه يبدؤك بالعطاء.

ساد صمت رهيب فأكملت: ولكن هذا الحال نادر، ولو حدث فربما لا يدوم. «فاعلم أن ذلك ليس بمحال، ولكنه عزيز نادر». فالقلب بطبعه يلاحظ ويقلق ويطلب ويتمنى، فحالة التوكل الكامل هذه ممكنة ولكن دوامها يحتاج إلى قلب سليم تحرر من كل علائق وغبار.

علت الهمسات.. توقعوا أن يتكلم الغزالي عن العقيدة والشرع، ربما يفعل كما يفعل باقي الشيوخ، يضع قائمة بتفاصيل الوضوء ويتناقش معهم في مياه الزعفران وكونها حلالًا للوضوء أم حرامًا، ولكنه فعل شيئًا جديدًا عليهم. تكلم عن القلب بالمنطق والعقل. علت الصيحات والتصفيق.. هذا يتمنى القرب مني على ما يبدو، وهذا يريد كلمة معي، هذا يسألني وهذا يصافحني، ولكنني لم أعد أرى أو أتأثر. تحصن شغاف القلب في غضون عامين، فأصبحت الكلمات تدق عليه ولا تخترق، والإعجاب يستأذن فلا يُسمَح له. أغمضت عينيّ ثواني ثم فتحتهما. انطلق لساني على ما يبدو. انطلق واخترق القلوب. أمسك الشيخ أبو الفتح بيدي ثم قال: أحسنت. تكتب عن الحياة التي لم ندركها وعن الآخرة التي لا نعمل لها.

هرولت إلى حجرتي وكتبت في كتابي الإحياء؛ كتبت: «فلقد حل عن لساني عقدة الصمت، وطوقني عهدة الكلام وقلادة النطق».

أغمضت عيني وكتمت دموع عجز تحول إلى قوة بقُدرته، ولومًا تحول إلى فائض من الكرم العميم.

***

مات الشيخ أبو الفتح بعدها بأيام وصليت عليه بنفسي، ثم ألحّ عليّ الجموع أن أشرح من كتابي الجديد وأخبرهم عن سر القلب. كيف لي أن أشرح لهم سرًا كنت أحاول أن أفهمه في رحلتي؟! وكيف أحكي عن قلب أؤزره بساعدي حتى لا يهلك؟! في مسلكي كنت أروم الإجابات للأسئلة التي ثلح على خاطري، ولكن ما أعاد لي قلبي كانت الإجابات التي لم أطلبها والأسئلة التي لم تخطر ببالي. خرجت أبحث عن شيء يوحد كل البشر، أبحث عن حقائق العلوم ونفسها، بينما كل الحقائق بداخلي بين الخافقين تنتظر أن يصفو القلب ويطمئن لتتجلى كما المشكاة. أي سر أفشي لهم وأنا لست أهلًا للكلام؟ أي حقيقة أبلغهم وأنا أحارب رق نفسي وتحكمها؟ نعم، مازال البشر مختلفين وسيبقون كذلك؛ لأن الاختلاف أمرٌ ضروريٌ، وحكم كتبه الله منذ الأزل فلا مفر منه. كل يعبد الله بطريقته وعلى حسب قدرته، وأمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم، فلماذا نريدهم أن يصبحوا واحدًا في المعتقد؟ هم مختلفون.. نعم، ولكنهم بكل اختلافهم من صُنع الواحد وهذا يكفي. صنعهم ليكونوا واحدًا ليس بالمعتقدات، ولكن بالتكوين والأعضاء، فلو فسد جزء من البشر، يؤلمني أنا كما يؤلمني فساد كبدي في جسدي. كل ظلم يصيب قلبي لا محالة لأننا من صنع الواحد، والعالم كله ينطبع على القلب الصافي، والجسد يعكس صورة العالم وعلومه في لوح محفوظ تنتقش على قلوب تخلصت من الكثافة والغبار. احتويت الاختلافات التي كانت

تؤرقني وعرفت حجم حزني وأسبابه، انتقش قلمه على كل صناعته فأصبحت كلها تستحق التقدير، وأصبحت أحيانًا لا أرى المصنوع بل الصانع. أصبحت أغوص في المعنى الأكبر والاسم الأسنى وأسبح مع نسائم الرضا والحرية. هي لحظات.

قلت في قوة للحضور: «فكذلك ينبغي أن يفهم أن السعادة لا ينالها إلا من أتى الله بقلب سليم، وسلامة القلب صفة تُكتسب بالسعي، كفقه النفس وصفة الإمامة من غير فرق».

نظر إليّ أحد طلاب الشيخ أبي الفتح دون أن ترمش عيناه ثم قال: أخبرنا يا إمام: ما هو السعي؟ وكيف يصل بنا إلى المعرفة؟ هل نحتاج إلى علم وعمل؟

اجتمع الطلاب حولي ينتظرون الإجابة. سألت الطالب عن اسمه فقال: إبراهيم.. لو بقيت معنا يا شيخ..

ابتسمت وحكيت عن معنى صفاء القلب والعمل بإخلاص.

كنت أحكي قصة لهم عن أهل الصين وأهل الروم.

«حكي أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن صناعة النقش والصور، فاستقر رأي الملك على أن يسلم إليهم (حائط)، لينقش أهل الصين منها جانبًا وأهل الروم جانبًا، ويُرخى بينهما حجاب يمنع اطلاع كل فريق على الآخر. ففعل ذلك، فجمع أهل الروم من الأصباغ الغريبة ما لا ينحصر، ودخل أهل الصين من غير صبغ، وأقبلوا يُجلون جانبهم ويصقلونه. فلما فرغ أهل الروم، ادعى أهل الصين أنهم قد فرغوا أيضًا، فعجب الملك من قولهم وأنهم كيف فرغوا من النقش من غير صبغ، فقيل: وكيف فرغتم من

غير صبغ؟ فقالوا: ما عليكم، ارفعوا الحجاب. فرفعوا.. وإذا بجانبهم يتلألأ منه عجائب الصنائع الرومية مع زيادة إشراق وبريق؛ إذ كان قد صار كالمرآة المجلوة لكثرة التصقيل فازداد حسن جانبهم بمزيد التصقيل. فكذلك عناية الأولياء بتطهير القلب وجلائه وتزكيته وصفائه حتى يتلألأ فيه جلية الحق بنهاية الإشراق، كفعل أهل الصين. وعناية الحكماء والعلماء بالاكتساب ونقش العلوم وتحصيل نقشها في القلب كفعل أهل الروم. فكيفما كان الأمر فقلب المؤمن لا يموت، وعلمه عند الموت لا يُمحى، وصفاؤه لا يتكدر». هناك من يصل إلى المعرفة بالتعلم، وهناك من يصل إليها بصفاء القلب واستعداده، وهناك من يصل إليها بالتعلم وصفاء القلب، وهذا خير على كل حال، ولكنه القلب الذي يعنينا هنا والعمل والجهاد المستمر.

فقال إبراهيم: وما المعرفة إذن يا إمام؟

قلت حينها: «فالمعارف أنوار ولا يسعى المؤمنون إلى لقاء الله تعالى إلا بأنوارهم» أريدكم أن تعرفوا أنه هو القلب ما يعنيني؛ لأن الصور تنطبع فيه عندما يصفو ويستعد، فيصبح كل العالم آية على وحدة العالم وحُسن صنعه. كنت أسأل في البدء عن سبب اختلاف البشر، ولكن الحقيقة تكمن في اتساق وتكامل العالم كله، وإتقان صنعه. لا حقيقة دون النظر إلى الصورة كلها؛ كل مخلوقاته وكل عوالمه، السماء والأرض، البهائم والنبات، الطير والذباب، البعوضة والفيل، كيف نسق وأحكم الإبداع. علمت أن العلوم التي نعرفها لا شاطئ لها، هناك بحار لم يزل على الإنسان اكتشافها، وهناك ما اكتشفه القدماء ولم نعرفه.

قال إبراهيم: ولكن يا شيخ لم يزل الناس مختلفين.

قلت: «اختلاف الخلق حكم ضروري أزلي». قضاء من الله. «لا تشغل قلبك بمواقع الخلاف ما لم تفرغ من جميع المتفق عليه». للحق اتفقنا على أمور تجعل الدنيا أفضل وتجهزنا للآخرة، ولكننا نشغل بالنا بما اختلفنا فيه أكثر.

هممت بالقيام فقال راجيًا: زدنا يا إمام.. احك لنا عن القلب.

قلت: «اعلم أن محل العلم هو القلب؛ أعني اللطيفة المدبرة لجميع الجوارح، وهي المطاعة المخدومة من جميع الأعضاء، وهي بالإضافة إلى حقائق المعلومات كالمرآة بالإضافة إلى صور المتلونات». «فكما أن للمتلون صورة، ومثال تلك الصورة ينطبع في المرآة ويحصل بها، كذلك لكل معلوم حقيقة، ولتلك الحقيقة صورة تنطبع في مرآة القلب وتتضح فيها». وليس كل قلب مستعدًا لاستقبال الحقيقة، ولا كل عقل مؤهلًا لها. لا يستقبلها سوى العلماء الراسخين الذين تركوا من ورائهم زخرفًا مغشوشًا من أجل جمال لا وصف له ولا نهاية. الحقيقة هي انعكاس صورة العالم على القلب الصافي، ولكن اعلموا «إن سالك سبيل الله قليل، والمدعي فيه كثير».

عندما انتهيت لم ألاحظ ردة الفعل، ولكنني سمعت صوت الطالب إبراهيم من ورائي يصيح: ليحرسك الله يا إمام. كلماتك غير كل الكلمات. هذا كلام ليس في كتبنا، لا معرفة لنا به.

اقتربوا وهللوا.. حاولوا تقبيل يدي أو لمسي، ابتعدت في هدوء. أسبلت جفني وشكرت ربي.

قالوا جميعًا: ابق معنا.

فأجبت: تحتاجون إلى الكتاب لا الكاتب، سأترك منه نسخة هنا.

ثم ابتعدت قبل أن أدنو، وهربت قبل أن أقترب. عندما غدت إلى حجرتي أمسكت بالقنديل وأضأته ثم كتبت في مستهل كتابي: «أحمد الله أولًا، حمدًا كثيرًا متواليًا، وإن كان يتضاءل دون حق جلاله حمد الحامدين، (...) كتبت كتابي هذا تداركًا لبعض ما فرط من إضاعة العمر». أتمنى به رضا الله ووجهه.

***

إبراهيم كان يلهث ورائي، قال: يا شيخ..

التفت إليه وأنا أتمنى ألا يشكر في كلماتي ولا يبجل أفكاري. قال في يأس: أرجوك أن تأخذني معك.

-آخذك إلى أين؟

-إلى حيث تذهب.

-أنت لا تعرف أين سأذهب.

-ولكنني أحتاج إلى مصاحبتك والتعلم منك. أعدك أنني لن أزعجك في الطريق. كنت أحلم بلقائك منذ أعوام منذ كنت في الخامسة عشرة.

-لديك هنا أفضل شيوخ ولديك الكتاب لا تحتاج إلى الكاتب.

-ولكني لا أريد أن أصحبك لأتعلم الأحكام يا شيخ، بل لأتعلم عن الحقيقة وتصفية القلب.

-هذا عمل، وعلم التعلم وحده لا ينفعك كأنك تجمع السيوف ولا

تحارب بها. ابدأ بتصفية القلب وذكر الله.

مد يده ثم قال: لا تخذلني وقد مددت يدي إليك أصاحبك حيثما تذهب. أنا إبراهيم السباك أحد طلابك اليوم.

***

إبراهيم يبتعد وقت الخلوة يتركني عند الغوص والاستغراق.

في الماضي استغرقني غضب وبعض الكبر، في الماضي استغرقني طموح لسلطة وسيطرة. كنت أريد أن أدرك مقامًا لا ينازعني فيه أحد، أريد مقامًا لا أحذر فيه من غدر سلطان. وعند بلوغ المقام أدركت أنني لم أصل، على قدر ارتفاعي هويت، وعلى قدر ثقتي تفتت قلبي، وعلى قدر نصري هُزمت. كنت عاجزًا بقدر سطوتي.

أحببته.. نعم منذ زمن، ولكنني كنت أحبه من أجل إحسانه إليّ، ونعمه التي يُغدقها عليّ، ولكن الملك الأحد لا بد أن نُحبه من أجل جماله وهيبته. نُحبه لأن القرب منه راحة والبقاء في حضرته سعادة ولذة. اقتربت منه في رحلتي وخلعت عني عباءة الدنيا حتى وهي تجاذبني، وتُثقل أغلالها حولي. لا يصلح لاقتباس المعرفة الحقيقية إلا قلب صاف كأنه مرآة مجلوة.

أمسك إبراهيم بكراستي ثم قال: هل هذا كتاب آخر كتبته يا إمام؟ هل لي أن أقرأه؟

أخذت الكراسة من يده في رفق ثم قلت: لا.

-لِمَ يا شيخ؟ جئت أتعلم منك.

-نتعلم معًا.. نعم. عندما يحين الوقت تقرؤه ولكن ليس الآن.

نظر إلى عنوان الكتاب كأنه لا يكترث لكلماتي، وعيناه تقبضان على الكلمات: هذا كتاب كتبته في القدس يا شيخ...أخبرني عن كنهه إذا تكرمت علي.

قلت وأنا أضع الكراسة في حقيبتي في حرص حتى لا يطلع عليها أحد: في القدس كتبت عن النفس كتابًا لا أريد لكل الناس أن تقرأه. هو كتاب لا بد أن نبخل به على غير أهله، فهناك أسرار في العلم بالله ربما تُربك الضعيف وتُحيره، وليس من واجبي أن أربك أو أُحير، بل أن أوضح وأشرح، فقد أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم. أما الراسخون في العلم ممن تركوا الدنيا لأهلها، واتجهوا بكل همتهم إلى الله، فهؤلاء لهم قلب يستقبل كل سرٍّ برحمة ويقين.

قال في يقين: أنا أستطيع يا إمام.

ابتسمت له ثم قلت: لا، لا تستطيع بعد.

-ما اسمه؟

- «معارج القدس في معرفة النفس».. ولكن إذا لم تجد في نفسك قدرة على هذا العلم فاتركه، فالحقيقة تستعصي على أصحاب العقول الضعيفة المدنسة بالخطيئة، واعلم أن الله خلقنا كنفس واحدة كما خلق في جسدك قلبًا واحدًا، وكما أن للعالم إلهًا واحدًا. اعلم أن النفس خالدة، وأن القلب لا يموت، وأن السعادة كلها في معرفة الله، «فلا معرفة أعز من معرفته، ولا لذة أعظم من لذة معرفته، وليس منظر أحسن من منظر حضرته»، وكل لذات الدنيا المتعلقة بالنفس تبطل بالموت، ولكن لذة معرفة الملك لا تبطل بالموت؛ لأنها متعلقة «بالقلب فلا تبطل بالموت؛ لأن القلب لا يهلك

بالموت، بل تكون لذته أكثر، وضوءه أكبر؛ لأنه خرج من الظلمة إلى النور». «وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى، بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء».

بدا أن إبراهيم لم يفهم كل كلماتي، ولكنه لم يسأل، سار بجانبي صامتًا.

ونحن نسير معًا في طريقنا إلى بغداد باغتني إبراهيم السباك بسؤال: هل يجتمع الخوف والهيبة مع الحب؟

قلت وأنا لا أنظر إليه: «إدراك العظمة يوجب الهيبة، كما أن إدراك الجمال يوجب الحب».

قال إبراهيم في حماس: أريد أن أشكر الله كل يوم أنني قابلت حجة الإسلام العالم الأوحد الذي..

قاطعته في حسم: لا إطراء إن كنت تريد مصاحبتي، ولا ألقاب، وليس في الألقاب أجمل من لقب عبد الله.

***

جمعت الأوراق في عناية، ضممتها إلى قلبي. تحمل على أكتافك السفينة يا أبا حامد.. هكذا قال المجذوم. لم أدرك حينها ما يقصد. ظننت أن بقاء الأمة بين راحتي يعني أن أتفاوض مع الحكام، وأعطي الشرعية للخليفة. ظننت أنني أستطيع أن أكتفي بشرح الشرع والعقيدة لأثبّت إيمان العامة، وأحافظ على الاستقرار. فبدون استقرار لا أمان لأي عقيدة. هكذا ظننت دوري. وللحق حاولت ولم أزل أعتقد أن في كتبي الماضية ما ينفع الناس، ولكنه قلبي الذي

ضاع مني في الطريق. ثم مت مرة ومرات. في كل مرة أرى قلبي يُذبَح أمام عيني فأدرك عجزي وعجز بصري. كان لا بد من البصيرة وسبر الأغوار.

تحمل على أكتافك السفينة...وها هي أكتافي مجمعة في هذه الأوراق. فالطريق ليس بتزيين الظاهر والسوس ينخر في الأعماق. واجبي هو كتابة وصف للدواء الذي يمحي كل عفن، فالقلب لا بد أن يبدأ نظيفًا، وهذا طريق محو وإثبات. كنت أُشفق على المجذوم، ولكنني لم أدرك أنني أنا الذي يستحق الشفقة، فالمجذوم يجلي وينظف، وأنا كنت أخيط الخرق القديمة المتسخة وأحاول أن أجمعها حتى تحمي الجسد من الصقيع، ولا ألتفت إلى تهتكها وضعفها. هنا كتاب لكل البشر، يهذب النفس، ويقوي القريحة. هنا كتاب لتثبيت العقيدة وإزالة اللبس والحيرة. فالمعرفة تبدأ من النفس، والسر يبدأ من القلب. «اعلم أن سالك سبيل الله قليل والمدعي فيه كثير». هنا بين يدي ما أبصرته من علوم يمكن تعلمها. أما ما كُشف لي في رحلتي فلا يُسمح بالكلام عنه في الكتب. إحياء علوم الدين هو محاولتي أن أبث الحياة في قلوب ماتت. وهل يدرك مرض القلب سوى من مرض؟ وهل يصف الداء إلا المريض؟ أنا المريض الذي يعرف داءه ودواءه. الداء يمكن شرحه، والدواء صعب تحصيله، ولكنني لم أزل أحاول. بينما يستغرقني جهاد نفسي، أريد أن أحكي لكل من يملك قلبًا عن هذا الداء والدواء. وكلما تدفقت الكلمات من القلب، عالجتني أنا المريض. كنت أقوِّم معها نفسي كأن بها شفائي. وضعت الأوراق في الحقيبة. كأنني اليوم أعرف التكليف والهدف. احتجت إلى أربعين عامًا كي أعرف التكليف والهدف.

***

علَت الصرخات: لصوص...ألقوا بأمتعتكم...

ارتجف كل من في القافلة، تردد الاسم وحمى كل رجل زوجته وأولاده بيديه. بدأ الرجاء الذي لا يتوقف. سمعت الأصوات تعلو: اللصوص...هو المعصري..

لم أصدق في البدء. كان يحج معي، رأيت التوق في عينيه، والصدق بين راحتيه. ولكنني عندما رأيت عينيه عرفته حتى وهو ملثم. قال كأنه لا يعرفني: اتركوا كل ما تحملون لو أردتم النجاة.

وضع السيف على رقبتي والتقت أعيننا ثم قال: أنت...لا تملك سوى كراساتك ليس عليك أن تتركها.

بدا العتاب في نظرتي فاقترب مني، حرك السيف وصوبه ناحية صدري ثم قال: قلت لك: لا تأمن في رحلتك. ليس هذا آخر لقاء.

ثم اختفى من أمامنا كما ظهر.

نظر إليّ إبراهيم السباك ثم قال: يا شيخ، كأنه يعرفك. لِمَ لم يفتش أمتعتك؟

قلت: لأنه يعرفني.

-ولو كان يعرفك فلِمَ يستمر في السرقة؟

-إذا كان من يعرف ربه يستمر في الذنوب يا فتى.

-ما قصتك مع اللص يا شيخ؟

-لا تسألني قبل الوقت.

-أريد أن أعرف.

-أنت لا تصل إلا بالسير.

الباب الخامس

الحال

«وعند حضرة الحق سبحانه وتعالى كل ما لم يكن خالصًا وفيه رياء غير مقبول».

الغزالي

الفصل الثالث عشر

طوس 1097

طوس ليست دمشق ولا نيسابور، ولكنها عرفته أكثر وهي هناك. منذ وصولها جاءتها عائلة أمه ثم عائلة أبيه، عرضوا عليها الطعام والرعاية. أمسكت بيد أختها وأولادها وتقبلت ضيافتهم في حذر. جهزوا لها بيت الإمام، فهو لم يأت منذ زمن، وعند وصولها كان البيت في أحسن حال. دخلت أختها وهي تقول في امتعاض: كيف ننتقل من قصر إلى بيت صغير في ضيعة في طوس؟ هل يرضى الله بهذا؟

قالت ثريا في هدوء: لندعُ الله أن يعود سالمًا، وعندما يعود سينتهي كل ابتلاء.

فقالت عزيزة في أمل: تظنين أنه سيعود إلى بغداد يا ثريا؟ طمئنيني يا أختي، فلا أقوى على العيش هنا للأبد. لا أفهم لغتهم وهم يفهمون لغتنا، يتكلمون العربية مثلنا وعندما يريدون أن يتكلموا عنا يتكلمون باللسان الفارسي، وما يقولونه عنا من وراء ظهرنا لا نعرفه.

قالت ثريا وهي تضع ابنتها في سريرها: لا يقولون شيئًا عنا، يرحبون بنا، أحسني نيتك.

قالت عزيزة: يا ثريا، افتحي عينيك، كم بنتًا في عائلة زوجك؟ كل واحدة تتمناه. لا تأمني لأحد خاصة ابنة خالته الأرملة هذه، لم أحبها.

قالت في حسم: لا تتكلمي عن الإمام يا عزيزة كأنه رجل مثل كل

الرجال. نتمنى فقط أن يعود في سلام.

فقالت عزيزة: ولو عاد! أخوه لن يترك الإمامة في بغداد، هذا أكيد.

لم تجب ثريا ولكنها كانت لم تزل تحنق على أحمد، تُحمله نصف ذنب رحيل زوجها.

تقضي معظم اليوم تقرأ أعمال زوجها، تفتح الكتاب، تحاول أن تفهم معاني الكلمات، فلا تفهمها. كُتب الفقه تتوه في أحكامها، وكُتب الكلام تتوه في مناظراتها ودلائلها، ولكن كُتبه ونس وصُحبة في بعده. أحيانًا تنير الحروف وتجتمع أمام عينيها فيأتي إدراك ما قد غاب، وأحيانًا عندما تستغرقها الكلمات تسلو وتغفو إلى حين، ولكن أنين الفراق كان صعبًا حتى وهو يبعث لها بالرسائل بانتظام. كلما خطت رسالة تجد القلم يستغيث يريد أن يكتب: تعال الآن، اترك كل شيء وتعال، أحتاج إليك.

ولكنها لا تكتب سوى كلمات مقتضبة حتى لا تسكب الضعف أمامه والنزاع والشوق والمرارة. ليلًا تحتضن حامدًا وفاطمة كل يوم لتنام. في بعض الأحيان تطبق شفتيها حتى تكتم دمعة أو اثنتين. يهجم عليها الحنين ليلًا، يفترس وينتزع اللحم والعظم.

***

سمعَت دقًا على بابها بعد عدة أشهر، قامت لتفتح وهي تضع خمارها ولم تتوقع الزائر. كان أحمد مع زوجته. توقفت أمامه برهة كأنها تستجمع كل عقلها. كيف جاء إلى طوس وهو إمام بغداد؟ هل جاء لزيارتها ثم العودة؟ جلسوا ثم وضعوا الهدايا أمامها، قال هو بعد حين كأنه يجيب عن كل أسئلتها: عاهدت أخي على رعايتكم يا

أختاه.

-كنتَ إمام بغداد!

-اتفقتُ معه أن آخذ مكانه شهرين فقط حتى يجدوا مدرسًا جديدًا للمدرسة النظامية ببغداد، وحتى تهدأ النفوس ناحيته.

خابت كل ظنونها، ضاع منها الدليل الوحيد على أن هناك من يُلام على ما حدث. ترددت وخافت من نفسها. أظَلَمَتْ أحمد يا ثُرى؟ ولكنها لم تحبه منذ البدء، لا يعجبها انطلاقه في الدنيا كأنه ليس من بني الإنسان، ولا صراحته وتلقائيته وبراءته وملائكيته. كيف لمثله أن يحيا بيننا ولا يُذبح؟ لو كان للملائكة أن تحيا مطمئنة على الأرض، ما اختارت السماء بيتًا. لا بد أنه يضمر شيئًا داخل نفسه. أم أنها فقدت الثقة في الجميع؟ ألم يقتل زوجُ أختها والديها؟ ألم يخن العزيز والصديق؟

أشار أحمد إلى زوجته ثم قال: هي أختك ومعك من اليوم لن تتركك وحدك. كلنا معك.

وخز الضمير يزعج حتى ولو كانت معركتها مع نفسها. وطيبة أحمد تجرح كما السيف المسنون. فكرت ثريا أن تعتذر له عن كلمات خرجت في الماضي وقت الحيرة ولم تفعل. مثل أحمد لا غل يستقر في قلبه ولا مكان في ذاكرته إلا للحب.

احتضن طفلَي أخيه، أعطاهما الحلوى ثم رحل. كل يوم تأتي زوجته إليها محملة بالطعام، كل يوم. أحيانًا كانت تستاء من الزيارة المتوقعة، ولكنها أيضًا كلما نظرت إلى وجه زوجته أدركت معنى الصبر والثبات، وتضاءل حجم غمها أمام قدرة هذه المرأة

على العيش بهذا الرضا مع ابتلاء كهذا. فتحت لها قلبها في حذر وأصبحت تنتظر زيارتها. حتى عزيزة مع كل مرارة قلبها أحبت زوجة أحمد، كأن الله وضع المحبة في قلب كل من يعرفها.

***

نظرت إلى عمر ابن عزيزة وهو يكبر كل يوم. ترى عندما يصبح رجلًا ماذا ستخبره عزيزة عن والده؟ هل ستحجب عنه الحقيقة أم تواجهه بها؟ هل الكذب واجب حينها يا شيخ؟ تمنت لو سألت زوجها. كل يوم تلملم الحكايات والأسئلة، وتنتظر يوم عودته لتخبره بها. كان معها حتى وهو ليس معها بالجسد. تلتقي الأرواح، يخفق القلب ويتسع الكون فترى صورته منقوشة على قلبها كأنه بين ذراعيها.

لاحظت الحلوى في يد عمر، قالت: من جاء لك بهذه الحلوى الشامية؟

قال بلا تفكير: أبي.

ابتسمت وقالت: أعرف أنك تفتقده.

فقال من جديد: أبي جاء لي بها واحتضنني وأخبرني أني أشبهه.

هوى القلب أو كاد. أمسكت به في رفق ثم قالت: عمر، أين قابلتَ والدك؟ في الحلم؟

قال وهو يأكل الحلوى ولا ينظر إليها: في البيت.

-أي بيت؟

-بيتنا.

-هنا تقصد؟ متى؟

-قال إنه يشبهني.

-عمر، متى جاء والدك؟

رفع يده بأصابعه العشر. ثم قال: احتفظت بالحلوى منذ زمن. أمي تقول: لا أحد يرى الحلوى..أمي..

هبت واقفة، نزعت من يده الحلوى، هرولت إلى أختها التي تطهو الطعام ثم قالت والدنيا كلها بلون أسود أمامها: عزيزة، أنت قابلت صالح هنا في بيتي؟

فتحت عينيها ثم قالت بعد برهة: هذا هراء، صالح ربما يكون قد مات. لا نعرف عنه شيئًا.

استرجعت أوقات تركها البيت في الأسابيع الماضية. حدث أن باتت عند أحمد وزوجته بطفليها وتركت عزيزة وحدها، نعم حدث ذلك. لم تنتظر لتسمع أكثر، جرت إلى جناح أختها في البيت، بدأت تفتح الخزانات تبحث داخل الثياب، تزيح الملاءة، تدور بعينيها في رعب داخل وخارج كل الجدران. دخلت عليها عزيزة ثم قالت: هل فقدت عقلك؟ كيف أقابله هنا؟ أنا لا أعرف عنه أي شيء.

قالت في عدوانية: بل قابلتِه. هذه الحلوى من الشام. لا أحد يعرفها هنا.

-لا أتذكر من أين، ربما أعطاها له أحد في الشارع. كيف تفقدين الثقة في أختك؟!

صاحت بأعلى صوتها: لأنك كاذبة. قابلتِ قاتل أمك وأبيك في بيتي هنا وأنا خارج البيت مع أولادي نزور عمهم. أليس كذلك؟ وأنت تعرفين أنه يريد قتل زوجي. تعرفين..

ثم أمسكت بإزار وجدته في خزانة عزيزة لرجل.

صاحت عزيزة: كُفي عن هذا الهراء. تركك زوجك بلا داع لأنه لم يعد يطيقك، يبحث عن حب جديد ربما. واليوم تريدين أن تخرجي كل حنقك على العالم، عليّ أنا.

اخترقت الكلمات الحشا ولكن ثريا قالت في ثبات: قابلتِ صالح. هذا أعرفه. كل هذا الحقد بداخلك!..أنت مثله تمامًا.

صاحت عزيزة كأنها فقدت عقلها: أنت الكاذبة، أنت وزوجك. صالح لم يقتل والديّ.. أصدقه. هو زوجك من لا يريد أحدًا ناجحًا على الكون غيره. هو زوجك الذي يعذب كل من حوله حتى زوجته وأولاده. يريد أن يفرق بيني وبين الرجل الوحيد الذي أحببته. أصدق زوجي يا ثريا، أتعرفين لماذا؟ لأنه تركني رغمًا عنه ولم يلفظني كالتمر الفاسد كما فعل زوجك بك.

رفعت ثريا يدها وصفعتها بقوة وهي تقول: خائنة مثله. لا ولاء لأهلك، لأمك، لوالدك. ماذا أخبرته؟ قلت له أين يذهب محمد؟ أليس كذلك؟

ما إن شعرت عزيزة بوطأة الصفعة حتى أمسكت بتلابيب ثريا ودفعت بها على الأرض وقالت: هو أفضل من محمد. هو لا يؤذي أحدًا. كفاك افتراء أنت وزوجك. كنتما تريدان قتله، منعتماه من رؤية

أولاده ومن زوجته ولكنه لم ينس ولم يسلُ؛ لأنه إنسان يعرف كيف يحب. لو ضربتني مرة أخرى فسوف أضربك يا ثريا، ولو عاديتني عاديتك.

قامت ثريا في بطء ثم قالت وهي تزعم الهدوء: خذي أولادك وارحلي الآن.

-تطردينني بعد أن ضحيت بكل شيء لأبقى معك؟! تطردينني من أجل رجل لم يفكر إلا في نفسه؟! تركك هنا عامًا وراء عام، على الأقل زوجي أرادني، بحث عني، لم يتركني باختياره.

-وزوجك قاتل والديك! أفيقي.

-ثريا تعرف كل شيء بالطبع. اتركيني أجهز أغراضي وأرحل.

لملمت عزيزة أغراضها، أمسك الأطفال بردائها، ونظروا إلى ثريا في خوف. التقت عيناها بعيني عمر، اقترب منها ثم أمسك بطرف ردائها قائلًا: أنت تحبينني؟

طبقت شفتيها وتحجرت الدموع في عينيها ولم تجب. خرجت عزيزة من البيت وهي تجر أولادها الثلاثة بلا كلمة.

أغلقت الباب، فتساقطت الدموع لحظة ولكنها ارتدت خمارها وخرجت إلى بيت أحمد. اليوم اللجوء إليه واجب والخطر أكبر من أن يقف أمامه عتاب. فتحت لها زوجته ورحبت بها. لم تنطق، طلبت مقابلته.

جلس أمامها ونظر إلى وجهها ثم قال: أنتِ لستِ بخير يا أختاه.

فتحت فمها ونطقت بكل ما حدث، لم تجرؤ على النظر إليه، قالت

في النهاية: صالح يريد محمد. سيحاول قتله، يعرف كل شيء. كنت أحكي لها عن مكان محمد، كلما أرسل إليّ رسالة أخبر بها أختي، وهي كل ما تبقى لي من أبوي. ربما يقتله، من يدري؟! جئت إليك لأني لا أعرف ماذا أفعل.

صمت برهة ثم قال: وأين هي أختك؟

-لا أعرف ولا يهم. كيف نتأكد أنه لم يقتله؟

قال في هدوء: الأعمار بيده هو. اهدئي. لم تذنبي.

-بل أذنبت. قتلته ربما. أريدك أن تبعث إليه الآن. تذهب إليه، لا أعرف ماذا أفعل. لم أعد أتحمل. لا بد أن يأتي الآن. أخبِزه أن يأتي. لا طاقة لي ولا قوة.

نظر إلى زوجته، فأمسكت بيدها في رفق ثم قالت: تعالي معي، تحتاجين إلى الراحة. قالت في عناء: أريده أن يأتي الآن. لم أعد أحتمل.

قال أحمد وهو يقوم: نكتب له أن يأتي الآن. ابقي اليوم هنا معنا، أنت وحامد وفاطمة.

خرج أحمد بعد حين، بحث عن عزيزة فوجدها تجلس قريبًا من البيت مع أولادها الثلاثة، لم يتحدث معها عن أي شيء، طلب منها أن تأتي معه واستأجر لها بيتًا وأعطاها بعض الأموال، أكد لها أن الأموال سوف تصلها كل شهر بلا سؤال. لم تتناقش معه ولم تشكره. كانت صامتة.

عندما عاد، طلب أن يقابل ثريا، طمأنها أن أختها وأولادها بخير،

فقالت في حدة: لا يهمني. من خانت دم والديها فقد ماتت بالنسبة لي.

لم يتناقش معها، قال بعد برهة: اكتبي الخطاب بيدك، لو طلبتِ أنتِ منه الرجوع فسيعود.

نظرت إليه في ريبة ثم قالت بلا تفكير: ولكنني طلبت منه البقاء فلم يبق. هو لا يسمع سوى كلامك أنت.

ندمت على حدتها ولكنه قال في لين: أخي أعرفه عمرًا قضيناه معًا. وأقول لكِ: إن ما بينكما لم أجد مثله يا أختاه، يُقدرك ويخاف عليك.

أغمضت عينيها ولم تنم. في الصباح كتبت له، أمرته أن يعود. كلمة واحدة: «أحتاج إليك».

عند التقاء الحروف غرقت في البكاء لأول مرة. عندئذ اعتدل العالم كله. احتضنت أولادها وبدأت تعد الأيام والساعات؛ كم يحتاج ليأتي؛ ثلاثة أشهر أم أكثر؟ متى تصل الرسالة؟ ومتى يقرؤها؟ وأين هو؟ أصبح أمل اللقاء يعطي الطاقة لتحمل القسوة والخيانة من القريب قبل البعيد. مر يوم واحد، وها هي تفكر في أختها، تعاتب بقلبها، وتزجر بلسان الحال. من خان هان، فلم لا تنسى أيام ضحكات الطفولة ومنغصات الصبا واكتمال البدر؟ لم لا تنسى أسى الفقد الذي شاركتها فيه ولا الخوف الذي احتضنتها حينه؟

***

عادت إلى بيتها وغفت بعد يومين بلا نوم. في الصباح بحثت عن

ابنها فلم تجده. شهقت وارتعدت. هرولت خارج البيت تبحث في الشوارع والأزقة، صاحت بأعلى صوتها. دقت على باب بيت أحمد. لم يكن بالبيت، قالت زوجته: إن الولد ربما ذهب إلى خالته.

-ولكنه لا يعرف أين هي. ربما خطفته، ربما قتلته.

قالت زوجة أحمد في هدوء: لن تفعل، اهدئي. هي جارتك، استأجرت بيتًا بجانبك. ربما رآها حامد وهو يلعب أمام البيت وذهب إليها.

ولكنها لم تهدأ. جرت وهي تحمل ابنتها إلى بيت أختها ودقت الباب.

فتحت لها عزيزة. التقت أعينهما فقالت بلا مقدمات: أين ابني؟

-هنا، جاء ليرى خالته.

قالت فجأة وهي تتحاشى النظر إليها: أتريدين قتله هو أيضًا كما تريدين قتل أبيه؟ هل طلب منك زوجك قتله؟

-هو ابني أنا أيضًا.

-زوجك من قتل والديك، يستطيع أن يقتل ابني أيضًا وابنه، أفيقي. مسح عقلك أم ماذا؟ ابتعدي عن ابني.

نادت ابنها، بدا كأنه يخاف من رد فعلها. عندما رأته ضربته على كتفه وقالت وهي تلهث: إياك أن تقترب من بيت خالتك، إياك. يقتلونك هناك. هل تفهم؟

ولكنه لم يفهم، بكى فاحتضنته ثم قالت: أنت رجل، أنت من

تحميني، أريدك أن تعدني ألا تقترب من بيتها، لا أريد أن أفقدك. لا تخرج دون إذني، أريدك أن تعدني. لو أردت أن تأتي هنا، نأتي معًا. اتفقنا؟

هز رأسه في فرح. أمسك عمر بيدها وقال: هل آتي معك أم أنك لا تحبينني يا خالتي؟

قالت بلا تفكير: يومًا آخر سآتي لآخذك معي، اليوم لا.

وقبل أن تلتقي العينان من جديد، أخذت ابنها وخرجت. طوال الطريق وهي تشرح له، وطوال الطريق وهو ينظر إلى الشارع يتأمل الناس، يغني، يلعب بالحصى. توقفت ونظرت إليه وقالت في استجداء: اتفقنا ألا تخرج وتتركني وحدي، أخاف من غيرك.

هز رأسه بالإيجاب.

عادت إلى بيت أحمد. هو العجز ما يقلقها. يظنون أنها تحتاج إلى الطعام والصحبة في البلد الغريب، وهي تحتاج إلى الأمان الذي ودعها مع سفره.

الصمت أفصح من الكلام، وما تشعر به صعب فهمه. بين يأس وأمل وتعب، الكثير من التعب، امتدت أوتار الأنين إلى كل النفس.

***

اطمأنت أن طفليها ينامان على مخدعها لتتأكد أنهما حولها، ثم خرجت من الحجرة إلى باب البيت. وضعت رأسها بين كفيها وتأزرت بماضٍ لا يتركها تستريح. دماء والديها برائحة طازجة لا تترك أنفها، وبكاء أختها، ثم عناق طويل بين الأختين، ثم ظلمة وفراق، خيانة

وهوان. لحظات كالجنة كلها قلوب ترفرف، وأرواح تستقر داخل الجسد، لحظات حب مكتمل وسط البغض والفرقة انتهت أسرع من ومضة البرق. ولم يتبق لها سوى الحذر من غدر جديد، وفقد ينتزع الأحشاء من الحي.

مسحت وجهها بكفيها كأنها تريد أن تغفو أو تفيق من كل الظلام الذي يحيط بها. انتصف الليل أو كاد. عم السكون ولم يتركها الخوف. ثُرى من سيقتل صالح هذه المرة؛ زوجها أم ابنها، أم أختها يا ترى؟ هل ستمكث أمام البيت كل ليلة تحرس أولادها؟ انطلقت ذرات الرذاذ ناحيتها كنهل السهام، هنا صقيع لم تعهده أم أنها لم تستعد له؟ لم تتساقط الدموع ولكنها استقرت.

امتدت اليد بعباءة من الصوف وأحاطت كتفها. سمعت الصوت قريبًا من أذنيها: هذا البرد شديد عليك.

جفلت ثم صرخت. لم تتحرك من مكانها. انحنى وحملَها بين ذراعيه ليرفعها من على الأرض، كادت تفقد توازنها وهي تنطق اسمه داخل القلب لا اللسان.

أحيانًا أحلام الصحو تكون أكثر قسوة من أحلام الغفلة، أغمضت عينيها لتزيح الحلم، فألحّ. تعرف هذه الريح وهذه القبضة.

التقى القلب بالقلب، عانقته كأنها أول مرة أو آخر مرة. قربها منه، تمزقت الضلوع غرامًا وارتوت العروق ماء عذبًا. غاص رأسها بين ساعديه. استمر العناق مدة لا تعرفها.

قالت والدموع تنهال بلا توقف: عدت يا محمد، متى عدت؟ بعثنا لك أمس. لم تصلك الرسالة. هل عدت؟

قبّل رأسها ومسح بيده على شعرها ولم ينطق. ابتعدت برهة، نظرت إليه كأنها تتأكد أنه هو ثم غاصت مرة أخرى داخل كتفه. قالت بلا تفكير: أنا متعبة جدًا يا محمد. كأنني غريبة في الدنيا.

فقال: أعرف؛ لذا عدت. سامحيني لو تأخرت، لم يكن بيدي.

أحاط ذراعها بكفه ثم قال: تعالي معي. أريد رؤية فاطمة وحامد، تعالي إلى الداخل.

كادت تهوي، لا تعرف من رهبة لقاء حلمت به أم من إعياء من فقد وتحير. أمسك بذراعها في صلابة فاقتربت لعل الوجد يخرج من البدن.

صاح حامد وألقى بنفسه في حضن أبيه، وصافح الأخ أخاه، وبدأت زوجة الأخ تُعد الطعام وتشعل نيران الفرن.

كادت تتوه في الزمان والمكان، ولكنه كان موجودًا، زوجها، محمد عاد.. وعاد معه الوطن والسكن.

لم يتغير، ربما تغير لونه بعض الشيء من ضوء الشمس، أو تناثرت لحيته قليلًا، ولكنّ عينيه لا تزالان تغدقان على الكون، وفمه يعطي السكينة، وذراعيه تطويان الأرض.

كيف وصل الخبر إلى كل هؤلاء؟ لا تدري. امتلأ البيت في ثوان، اجتمع الناس حوله يعانقونه، يصافحونه... وهي صامتة تنظر إليه من مكانها، تحفظ ملامحه وتستنشق رائحته. تغمض عينيها لترى صورته وتتنفس لينبض قلبه بداخلها. تلتقي أعينهما كل حين. ترى شوقًا كامنًا بعمق البحر وارتفاع الوتد. مرت ساعة أو أكثر لا

استطاعت أن تقترب منه كما تمنت، ولا أن تحيط كل بدنه كما حلمت.

خرج الزوار، فنشرت القبلات على وجهه، فأحاط رأسها بيديه وقبلها قبلة طويلة بعمق كل البحار التي خاضها وخطورتها. توقف الزمن ولم يعد للساعات قيمة، عرج اللقاء إلى أعلى النجوم. عند الصباح كانت تضع رأسها على ركبتيه، وهو يمر بيده على شعرها، قالت وهي تقبل يده: أريد أن أبقى هكذا للأبد.

ابتسم ولم ينطق.

تذكرت أختها لأول مرة، عبس وجهها. لو أخبرته، ترى هل يبتعد؟ لم تصله الرسالة، هذا أكيد. كان في طريق الرجوع منذ شهور. هناك الكثير الذي تريد أن تقوله، ولكنها الآن لا تريد إلا أن تبقى حوله.

خبأت رأسها لتنسى ما مضى وما سيكون. لا طلب منها أن تقوم ولا توقف عن المرور بيده على شعرها. قالت بعد برهة بصوت مكتوم: لِمَ عدت الآن؟

-وعدتك أن أعود. شعرت بندائك في باطني كأنكم تستغيثون. وافتقدتك وافتقدت الأطفال.

ازدادت قبضتها على يده وقالت فجأة ببعض العدوانية: عامين. تترك زوجتك عامين يا إمام! أقسم لك أنك لو فعلتها مرة أخرى، لو تركتني يومين فسأتركك للأبد. هل تسمعني؟

لم تر وجهه ولكنه أحاط رأسها بكفيه وقال: أسمعك.

نظرت إليه ثم قالت: أنا أقسم يا محمد...سأتركك. لا تظن أني لا

أستطيع.

ثم أمسكت بيده وضغطت عليها وقبلتها وهي تقول: أستطيع العيش بدونك. استطعت عامين. لا تظن أنك ستجدني كل مرة منتظرة...ولا..

قاطعها: أعرف غضبك وأفهمه.

قالت وهي تمسك بذراعه كأنها تريد أن تقيده حولها: والله لا تعرف غضبي، ولا عذاب وصبر أيامي. لا تدرك مدى يأسي وخوفي... ستعرف في الأيام القادمة.

قربها منه وقال: لم يزل قلبي معلقًا بكم والقلب يدرك ما لا يدركه غيره.

اجتمعت كل الأماني في قربه فقط. لم تكن تريد سوى قربه، قرب الجسد والروح معًا. غرقت في حبه بقية اليوم.

ليلًا رفعت رأسها ونظرت إليه ثم قالت: أريد أن أحكي لك.

حكت عن أختها في عصبية دون أن تنظر إليه ثم قالت: لم تعد أختي. لا تعاقبني بذنبها... ولكن صالح يريد قتلك. لم يستطع قتلك وأنت إمام بغداد، الآن يستطيع.

قاطعها: هو الله المؤمن يا ثريا، لا خوف في حضرته.

-صالح يريد قتلك. هل تسمعني؟

-ليست أول مرة.

-أختي... ربما أخطأت لأني لم..

أشار إليها أن تتوقف: لا خطأ منك. غدًا أذهب لزيارتها.

فتحت فمها في فزع فأكمل: لا يخرج عن قضائه وقدره شيء. انظري إليها بعين الرحمة لا بعين الازدراء، حينها فقط ستعرفينها وتعرفين نفسك.

أطالت نظرها إليه ثم وضعت رأسها على ركبتيه وقالت: وعَدتَ ألا تتركني مرة أخرى مع أنك كنت تقول دومًا إن هذا وعد مستحيل لأن الموت يفرق بين البشر.

-لم أكن أفهم الموت حينها.

-ماذا تقصد؟

-هو نشأة أخرى لا أكثر. أما الفراق بين الأحبة فمستحيل.

لثمت كفه ونامت بلا فزع. نامت على ركبتيه كما الطفل فحملها ووضعها على مخدعهما، ثم أحاط خصرها وهمس: سامحيني لم يكن بيدي.

***

كانت تشاهده من وراء الباب، كيف للعينين أن تشتاقا وحدهما كأنهما منفصلتان عن القلب؟ مجرد رؤيته نعيم وسعادة. عاد زوجها نعم، ولكنه عاد يحمل أوراقًا كالوتد الثقيل الغليظ، تحتاج قراءتها إلى عُمرٍ بل عمرين. كل يوم تتصفح أوراقه في هيبة كأنه لم يكتب، بل دفعه شوقه إلى السخاء، ولم يشرع بل ابتدأه ربه بالحب. عاد زوجها ولم يعد. لم يزل ذا همة كالدهر، وإصرار كالرياح، ولكنّ عينيه لا تحلقان إلى النجوم، بل تخترقان كل السحاب وتمتدان إلى الدارين

والعالمين لا تريد ملكًا في الأرض ولا منصبًا في الدنيا. عرفت أنه لن يعود إلى بغداد، لم يكن يحتاج إلى أن يخبرها. ثُرى هل يفتقد شهرته أم يختنق من غبارها؟ هل يتوق إلى الحرية أم يحارب هواه بلا رحمة ولا هدنة؟ لم تتأكد. يختلي لو استطاع، يسجد ليقترب. فتتصفح هي الأوراق باحثة عما وجد في رحلته وما فهم.

أذهلتها التفاصيل، لم تتوقعها. توقعت أن يكتب عن نفسه نعم، عن تجربته وعما وجد في المسلك، وما استعصى على الفهم، ولكنها ما إن فتحت (إحياء علوم الدين) حتى وجدت كتابًا عن آداب الطعام، ودخول الحمام، والنكاح، والبيع، والشراء، والصداقة، وكل التفاصيل الصغيرة في الدنيا التي نعيشها. كتابًا عن تربية الأولاد وتزكية الأخلاق. كتابًا عن المال الحلال والبعد عن الذنوب. يحكي عن البخيل ويزجر الغاضب، يصف الحسد وكيف يدمر صاحبه، ثم يحكي قصصًا عن الرياء والطمع. هل يحكي عن الدنيا التي تركها يا ثُرى، أم التي لم يتركها؟

قرأت ما كتب عن الدنيا.. يقول: «فإن من ترك الدنيا وظن أنه ترك شيئًا، فقد عظّم الدنيا؛ إذ الدنيا عند ذوي البصائر لا شيء».

كيف تكون لا شيء يا محمد وأنت تعطي في كتابك دليلًا لكيفية العيش فيها؟ لم تفهم بالضبط كيف لكتاب أن يعطي كل تفاصيل العيش مع الآخرين ثم يطلب منا أن نرى الدنيا لا شيء. لمن كتب الغزالي كتابه؟

أكملت قراءة: «اعلم أن لذة العارف في الدنيا من مطالعة الحضرة الربوبية أعظم من كل لذة، يتصور أن يكون في الدنيا سواها». وكما

أن أوفق الأشياء للأبدان الأغذية، فأوفق الأشياء للقلوب المعرفة. «وكلما كان المعلوم أشرف كان العلم به ألذ»، ولا يوجد لذة أكبر من لذة معرفة الله.

حارت بين كلماته؛ تارة يسبح في حروف تستعصي على الفهم، وتارة يكتب كما الفقيه عن تفاصيل الأحكام وطريقة العيش بلا ذنوب.

دخل عليها في بطء. نظر إليها بلا كلمة كأنه هو أيضًا يريد أن يملأ عينيه من وجودها. قالت وهي تتشبث بالصفحات: هذا الكتاب تكتبه لمن؟

قال بلا تفكير: شفاء لنفسي.

-وهل شُفيت؟

-أحاربها كل يوم، الدنيا جهاد مستمر.

-تكتبه لمن يا محمد؟

صمت برهة ثم قال: يختلف البشر كما تختلف الكتب داخل (إحياء علوم الدين). الاختلاف لازم وضروري، من يقرأ الكتاب ليعرف كيف يعيش في سلام موجود، ومن يقرأ الكتاب ليشهد على الغاية الكبرى والقرب موجود.

قالت: وكيف لمن يقرؤه ليهتم بأمور الدنيا وتفاصيلها أن يراها لا شيء؟!

-نحن في سفر، وللوصول لا بد من تهيئة الطريق والانتفاع بالزاد. الزاد في السفر ليس الغاية، بل الوسيلة للوصول. والدنيا سفر غايته

الوصول. من يعرف كيف يعيشها ويستمتع بنعيم تركها، يرتق إلى المنزل الأعلى. ومن لم يُدرك أي لذة فيها فكيف له أن يحلم بلذة في آخرة؟

تجمدت عيناها أمام الكلمات، لم تستطع أن تجيبه، كانت تقرأ بشراهة من افتقدت.

يكتب عن الرضا والحب والتوكل، وقعت عيناها على كتاب غير كل الكتب، قرأت بصوت عال كلماته:

«لذة البصر الظاهر في الصورة الجميلة، ولذة البصيرة في الصورة الباطنة الجميلة». فـ «الإدراك السادس محله القلب، ومن لا قلب له لا يدركها».. و«اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين». «وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل».

لم تفهم كل الكلمات. ولكنها كلمات جديدة عليها لم تقرأها في كتبه من قبل، ولا في أي كتاب. صفحة بها تفاصيل صغيرة مثل: كيف نأكل مع الضيوف؟ وكيف نمد أيدينا دون ضرر للغير؟ وصفحة بها كلمات لا يفهمها إلا ذوو البصائر لا البصر، كلها تضرع لله وحب يصعب شرحه أو فهم حدوده.

التقت أعينهما وهي تقرأ كلماته بصوت عالٍ، رأت في عينيه حزنًا ربما.. أو توقًا إلى لقاء.

***

كيف عاد محمد؟ عاد بالكراسات لأن مَنْ يمرض يعرف قدر الصحة،

وليس لمن لم يذق أن يحكي. عاد لأنه أدرك حجم عجزه وضعفه قبل الرحيل وبعد الرحيل. ذاق الحب وعرف أيضًا أن للقلب أمورًا يصعب شرحها، وأن القلب لينٌ رقيقٌ يحتاج إلى الرعاية الدائمة. عاد... وهو يعي أن ذكاءه في الماضي أوصله إلى السلطان، وقلبه اليوم هو المسلك الوحيد للملك. في الكتابة شفاء، وفي قلم الواحد الأحد قدرة لا يضاهيها قدرة. يكتب عن إبداع الخالق حتى وهو يحاول أن يقترب ويعرف، هو لا يحيط علمًا إلا بدائه وحده. يقولون: الغزالي هرب يا ترى أم استكان؟ ولكن إصراره أصبح أعتى وحربه أقسى. لا هرب ولا استكان.

يا أبا حامد.. أنت هنا من حيث بدأت، دارت الدائرة فالتقت النقطة بالنقطة. هل تحن إلى مجد قديم أم حارس يحوم حولك؟ هل تتذكر عندما كنت تسير فيتتبعك الخلق أجمعون يريدون نظرة على الإمام العارف الشاب؟ يا محمد.. من جرب عذابات الضلال وهوان علوٌ الأرض يخاف حطامها. لم يكن التّرك سهلًا. حتى اليوم يتذكر أحيانًا فتغفو النفس وتتوق، يزجرها، يغلق عليها الجدران، يحميها بالظلام من جموح لا قبل لها به. أعرض عن الدنيا عندما حركته الإرادة وكلفه القوي العزيز. فلِمَ تلوح الدنيا حتى ولو في رجفة بصر كل حين؟

غسل دمه بدمه، نعم فعل. فلم يتردد برهة ويقف أمام الغد مجبولًا بالأمس؟ لجأ إلى خلوته، أطفأ السراج فاتسعت الرؤية. ماذا تروم يا غزالي؟ نجوم الدنيا أم لقاء المحبوب؟ وكيف لك أن تقارن بين الفرث والطين وجلال وجهه وروعة لقائه؟ طموحك اليوم أعنف وشجاعتك تخر صعقةً أمام التلاقي ولكنها قدرته تحملك وتؤازرك.

غيّر وسائل الحرب واتجاه الرمح والسهم. فالعدو بالداخل وليس

بالخارج دومًا. في الماضي أراد أن يهدم الأفكار القبيحة ويواجه الإلحاد والضلال، اليوم يريد أن يبني المسلك للسائل وينشر النور ليتيسر الوصول. لم يعد مدافعًا اليوم، بل يهجم ويقتحم كل اللجج بقلب مجازف وروح جسور. في الماضي ظن أنه يريد الوصول إلى المنصب ليحمي البشر أجمعين، وضع على عاتقه حمل السفينة وهو يريد إرضاء غروره. كم وكم؟ كم رجلًا رآه ناقصًا أمامه مهزومًا قبيحًا؟ وكم مرة وجد لنفسه فضلًا على غيره؟ في الماضي قل صبره مع الحماقة والجهل. اليوم يكلم كل إنسان على قدر عقله. من يريد دليلًا على المعاملة وتفاصيل الحياة سيجد في (الإحياء) غايته. ومن يؤمن إيمان العوام المبني على تقليد الآباء والقرية والحكام سيجد في كتابه غايته. ومن يريد أن يُبحر ويغوص في معنى أعمق، وحرف يشتبك في آخر فيكوّن كلمة بمذاق يتعدى الجنة ولا يلتفت إلى النار، فليقرأ.

هي أربعون كتابًا وبعضها ليس للعامة، بل للراسخين في العلم. من يتصفح كتاب (عجائب القلب) لا بد أن يملك صفاء وزهدًا. لا بأس، سيتقبل البشر أجمعين، لن يُحملهم فوق طاقتهم. هنا كتاب لآداب الطعام، وهنا كتاب للرضا والمحبة والقلب. لا تلتفت إلى كتب القلب لو لم تستطع أن تفهم المعنى من وراء الكلمة. التداعيات تحير، حتى مثله يحتار أحيانًا ويهيم ويغيب ويستغرقه الوجد. تُرى أهو داء تملّكه أم شفاء؟

***

رحب به أئمة طوس في حذر، يعرفون قيمته وحكايته، بعضهم عاصر والده ويعرف الطفل الذكي، وبعضهم قرأ كتبه، ولكنه اليوم

ليس كما توقعوه أو قرءوه. توجسوا خيفة في البدء، هل جاء ينافسهم على منصب القضاء أم الوعظ؟ يقول إنه سيستقر في وطنه، ولو استقر هو في طوس فسيحجب عنهم كل العيون وسترنو إليه كل القلوب. طلب الوالي مقابلته فاعتذر في تواضع. خرج إلى الشوارع يسير باحثًا عن شيء على ما يبدو. تتتبعه العيون وتطارده النفوس المتحيرة. ولكنه يسير في يقين من يعرف إلى أين يذهب. دخل إلى الزاوية وجلس بعيدًا يستمع إلى درس. تأخرت الزيارة كثيرًا. أعوامًا وأحمد أخوه يُدرس في الزوايا والمدارس، يعظ الناس ويذكرهم. لا فكر يومًا في أن يحضر درسًا لأخيه ولا امتلك وقتًا للتفكير في كلماته إلا مؤخرًا. اليوم يريد أن يستمع ويتعلم من أحمد. ما إن دخل حتى التفت إليه كل الحضور، هذا يريد أن يرحب به، وهذا يريد أن يقبل يديه، ولكنه قام في هدوء وجلس أمام أخيه الذي توقف عن الكلام ونظر إلى محمد. نعم لم يتوقع الزيارة، ونعم لا يستطيع أن ينطق أمام أخيه الأكبر. سينعقد اللسان يا محمد! كما انعقد لسانك.

كأن محمد عرف ما يجول بخاطره، وضع يده على كتفه ثم قال: جئت أستمع إلى المُعلم أحمد الغزالي.. هلا أكملت درسك؟ كنت تتكلم عن التوحيد وعن القلب. أكمل.

فتح فمه في تردد ثم قال: لا أستطيع أن أُدرس والإمام هنا. أكمل أنت الدرس يا إمام، فلا كلمات مثل كلماتك.

نظر إلى أحمد في حسم ثم قال: أكمل درسك يا أحمد، جئت أستمع إليك، أم أنك لا ترحب بي هنا؟

أغمض أحمد عينيه برهة ثم قال: يا طالب العلم، «إذا قلت لا إله إلا الله؛ فإن كان مسكنها منك اللسان ولا ثمرة لها في القلب فأنت منافق، وإن كان مسكنها منك القلب فأنت مؤمن، وإن كان مسكنها منك الروح فأنت عاشق». القلب والروح لا عدم يقترب منهما ولا قيد. أما النفس فمقيدة بالأشياء حولها؛ لذا يمكن أن تشتري نفسك ولا يمكن أن تشتري قلبك. أتفهمون ما أعني؟ بالقلب نقترب من الله. ولا يغذي القلب سوى ذكره؛ «لأن القلب لا يستعبده شيء من المخلوقات، ولا يسترقه شيء من الموجودات؛ لأنه لا يأنس إلا بالحق، ولا يطمئن إلا بذكره»... الحر لا يُباع ولا يُشترى ولا أنس له إلا الله.

التقت أعينهما فأكمل أحمد: وليس مثل البعد عنه عذاب. هو أشد جحيمًا على الكبد من أي نار.

اقترب محمد ثم همس لأخيه بعد أن انتهى الدرس وخرج الناس: كيف فاتتني هذه الجواهر؟ أحسنت. سأبدأ في المواظبة على درسك.

قال أحمد وهو يخفي حنانًا اجتاحه ناحية أخيه العائد: محمد..لا تسخر مني..

-بل أتعلم منك.

-تغيرت..

-أحاول..

-ماذا ستفعل في طوس؟ ستنعزل عن الناس وتكتب؟

قال في يقين: سأفعل ما أتقنه يا أحمد. أُدرس وأُعلم.

-ستعود إلى التدريس؟

-سأبدأ التدريس. أنوي أن أشتري زاوية هنا وألحق بها خانقاه للصوفية وتصبح مدرسة للعلم.

قال أحمد: أنت تفتح النار عليك يا محمد. هل فكرت في هذا؟ تقول إنك كتبت كتابًا وضعت فيه الأحكام، واستشهدت بالكتاب والسنة، ثم بالصحابة والصوفيين. استشهدت بأشعار البسطامي، وكلمات جنيد، وابن معاذ، وكل الصوفية، حتى الحلاج استشهدت بأشعاره حتى وأنت تنتقده.

- نختار الحق من بين كل الكلمات.. هذا واجبي.

-هذا الكلام ربما يؤذيك، بل سيؤذيك. تعطي الشرعية لأهل التصوف اليوم يا أخي. هذا ربما لا يعجب الأشاعرة أنفسهم وأنت منهم.

-هو تكليف ليس بيدي. تساعدني؟

التفت أحمد حوله ثم قال: أئمة طوس ربما تضيق بوجودك. الحسد لا أمان له.

-لِمَ يضيقون برجل لا يريد منصبًا ولا قُربًا من الساسة؟

- أنا أخبرك.. لأن من لا يريد شيئًا سيمتلك كل شيء، وستتبعه القلوب حيثما نظر. توقع الأسوأ.

-أنت تقول هذا يا أحمد؟ كنت دومًا ترى الدنيا كلها ببراءة الطفل.

-في غيابك تألمت، كدت أغرق. الظلام حاصرني برهة ولكن حبك غمرني. لم أكن أدرك أن وجودك حولي حتى وقت الغضب يعطي كل هذا الأمان.

ساد الصمت برهة ثم قال محمد: أريدك أن تساعدني على شراء مكان يصلح لتحقيق الهدف.

***

ما حدث بين زوجها وأختها لا تعرفه بالضبط، ولكنه جرها وراءه بعد عدة أيام ومعها أولادها الثلاثة. خفضت عزيزة رأسها وهي تسير خلفه. فتحت ثريا الباب ولم تنطق، فقال هو في حسم: بادري بالسلام على أختك يا ثريا.

قالت: لن يحدث. وكيف تأتي بها إلى هنا؟

قال في حدة: افعلي ما طلبته منك وأحسني معاملتها. هذا بيتها وهي أمانة في رقبتي منذ وفاة والدها.

سلمت عليها في امتعاض ثم أمر عزيزة أن تدخل إلى حجرتها وتضع فيها أغراضها. نظر إلى زوجته وقال آمرًا إياها: اذهبي إلى أختك واسأليها لو أرادت أي شيء. ساعديها في وضع أغراضها في الخزانة وجهزي لها الطعام.

قالت: محمد أخبرتك..

قاطعها: نعم أخبرتني.

صاحت فجأة: بالطبع لا يهمك، تركتني أنا وسط الخوف، لا تعرف ما مر بي، ولا ما قاسيت. الآن تأتي بها هنا!

قال في حسم: اهدئي أولًا ثم نتكلم.

-لن أهدأ. غدًا سيأتي صالح ليقتلك ويقتل ابني. هي خانت أمها وأباها، هل تظن أنها لن تخونك؟ تتصرف في البيت كأنني لا وجود لي. لا تسألني عن رأيي.

نظر إليها.. فارتبكت وهابت. في الماضي كانت تخاف إغضابه واليوم تخاف حزنه. تهون الدنيا ولا تعود أيام الحزن. خفضت رأسها وعبس وجهها.

فقال آمرًا: أريدك أن تذهبي إليها وتجهزي لها ولأولادها الطعام.

انتفضت من مكانها ثم قالت: يا محمد، الغدر يقتل.

قال في رفق وهو يمسك بيدها: لا تشغلي بالك، صالح لن يأتي مرة أخرى وأختك تحتاج إلى الوقت لا أكثر.

-وكيف لك أن تعرف هذا؟

لم يُجب. نظر إليها منتظرًا أن تنفذ ما طلب. فعلت ما طلبه على مضض. لم يزل القلب يحمل وطأة الخيانة. عرفت بعد عدة أيام عندما بدأت عزيزة الكلام معها وكانت تبكي. تقول: إن الإمام عندما زارها أخبرها عن نفسه وعن رحلته؛ من تجاهل الحقيقة، إلى إدراكه أن النفس ضعيفة تحتاج إلى المواجهة. أخبرها أنه يفهم ما تعاني، ويعرف أنها في الأعماق تعرف من هو زوجها. هي من تعرف وليس أحد غيرها. أكدت له أنها تعرف أنه بريء. أعاد عليها في هدوء ما حدث وما عرف. ثم طلب منها أن تفكر في الأمر مرة أخرى، ولو أخبرته بعد يومين أنها تثق أن زوجها لم يفعل شيئًا فسوف يصدقها.

وبعد يومين عندما دق بابها وجدها تبكي وطلبت منه أن يُطلقها من زوجها.

***

ليلًا يأخذ ثريا بين ذراعيه ليضمر إحباط عامين.

زوجته تغيرت نعم. قل صبرها وازدادت عصبيتها. رأى قلبها وما تخفيه. كانت غاضبة حتى والعقل يعرف أنه كان مريضًا وعليه الرحيل. القلب ثار وتوعد. القلب مزج اليأس بالشوق والحنق بالألم. تنتفض من مكانها وتقول في عدم صبر: لم تكن معنا. هل تتذكر شكل طفليك؟ أين أنت؟ هل ما زلت معنا؟

يُهدئ من روعها. أحيانًا تُطلق كلمات قاسية، وأحيانًا تحتضنه وتقبله وهي تهدد وتتوعد. كانت في حيرته نفسها قبل الرحيل، وكان أكثر ثباتًا وعلمًا. يحتويها ويهدئ من خوفها. استمر الحال هكذا ستة أشهر، تدفع به وهي تحتضنه، تنام على ركبتيه وهي تصيح في وجهه. توبخه ثم تقبل يديه. كأن صراعها بين حب وعتاب، والتسامح لا يجد الطريق للنفس. يصبر ويفهم. كلما مر يوم يخطر الأمان على النفس ولا يستقر، وكلما مر شهر يبدأ في الاستقرار. أصبح هدفه هو أن يحصل على غفرانها ليس لإحساسه بالذنب فقط، ولا لأنه أربكها وآلمها؛ ولكن لأنه أحبها منذ البدء. ولم يكن ينوي أن يُعذبها حتى ولو فعل دون عمد.

بعد شهرين حملت من جديد.

هذه ثالث مرة تحمل منه، وأول مرة تلاحظ كل تفاصيل جسدها وتغيرات أحوالها. في المرة الأولى والثانية كانت تصارع ترفًا

وحكامًا وغيرة، وتتحمل مسئولية قصر به جواسيس وخدم وحُراس. لم تلتفت لنفسها بقدر ما كانت تحوم حوله لتحمي قلبها من أي ضرر يحدث له أو لها. استهلكت طاقة في غيرة من تركان خاتون ولم تشك لحظة أن الأميرة كانت تريده، بل ربما عرفت ثريا قبل أن تعرف الأميرة نفسها. حتى بعد أن ماتت تركان خاتون كانت ترى نظرات الشغف في عيون النساء حتى هنا في طوس، من قريباته، من امرأة سمعت عنه أو رأت وجهه. تكتم الغيرة ولكنها تتشتت وتبدد كل الأنفاس. هذه المرة يستقر الأمان لا تدري من أين. يتحمل نوبات الغضب في صبر، تعود فتندم على ما تفوهت به، ثم تعاود انفجارها، ولكنها لا تأمن ولا تنام إلا وهو حولها. هذا الصباح استلقت على ظهرها وأغمضت عينيها ووضعت يدها على بطنها وابتسمت وهي تنبض بالحياة مع جنينها، كلما تحرك انطلقت الدماء إلى مجراها، تحدثه وحدها وتقص عليه القصص.. تمر بيدها على بطنها لتتصل به بروحها، فهو ابن الغزالي، تشعر أنه ولد وتعرف ماذا سيسميه ولن تعترض، أحمد، على اسم أخيه.

الفصل الرابع عشر

«جميع الموجودات مرآة للوجود الحق المحض، فالظاهر بذاته هو الله سبحانه، وما سواه فآيات ظهوره ودلائل نوره».

الغزالي

عاد محمد لأخيه الصغير نعم، ولكنه عاد بحنو يغمر كل عمره الباقي. هكذا شعر أحمد. غضب في الماضي على ما يبدو؛ لأنه كان يبحث عن غطاء يحميه من الدنيا التي لا يفهمها، كان محمد أبًا، وأمًّا، وسقفًا، وأرضًا. ثم غاب عنه باحثًا عن منصب ومال. فتركه عاريًا في صحراء جدباء. لا أمان معها. غضب نعم لأن الأب والسند لا يغفل ولا يبتعد. اليوم عاد محمد إلى أخيه وعاد معه الزمن. لحظات يأس يتذكرها أحمد وهو في السابعة، أمواج تناجيه أن يتخلص من كل عذاب قادم دون والده. اقترب من البحر وهو لا يعرف هل أراد أن يوقف عذابه أم يجد الدواء داخل الأصداف؟ ولكن محمد أمسك به، ضمه إلى قلبه ووعده بأن النجاة ممكنة وأن السباحة بين أكناف السماء واجب عليه. ثم ظن أحمد أن محمدًا تخلى عنه أو كاد. واليوم عاد. نظر إليه نظرة كأنه يحتضنه واستمع إلى درسه كأنه يدثر صدره من الصقيع. يا محمد، لِمَ تأخرت؟ بل أشكرك على أنك عدت. لا أنوي تركك من الآن. من عاد كان الأخ الذي عرفه وهو في السابعة. هل أخبرتك يا محمد أني كنت أحبك أكثر من أبي وأمي، وأن كلماتك السحرية كانت تطفو بقلبي فيسلو كل هم؟ وأن اللعب معك كما سنا البرق من بين الظلمات؟ آه يا محمد..! لو تدري تأخرت زيارتك ولكنها عندما جاءت محت كل مرارة وكل تيه.

أحمد لم يتوقف عن قراءة كتاب أخيه، لم ينم ليلتين، كلما قرأ ابتسم وبريق السعادة يستقر. بعد عدة أيام ذهب إلى محمد وجلس أمامه ثم قال: أريد أن أتعلم منك.

لم يتوقع ذلك محمد. ابتسم ثم قال: هل تجاملني لأني طلبت حضور درسك؟ لا بد أنك افتقدتني؛ لذا تريد أن تصحبني بعض الوقت.

-للحق افتقدت رحلات الصحراء والجبال ولكني أريد أن أتعلم منك.

-كنت تعرف أكثر مني.

-هذا كان والآن أنت تعرف أكثر مني.

-كيف تعلمت أنا في عامين ما لم تتعلمه أنت؟

-القلوب بيد الله. أرادك أن تتبوأ هذه المنزلة.

-أي منزلة؟

-التي ستتبوؤها.

-لا أريد أي منزلة.

-هذه منزلة أعلى مما تبوأت من قبل.

-أحمد..ماذا تبغي؟

-أحضر درسك وأدرس كتابك بقية عمري.

نظر إليه في عدم تصديق ثم قال: ولكنك أنت أصفى مني وأكثر

طيبة طوال عمرك...من يتعلم ممّنْ؟

-لم تدخل كتبك الكلامية قلبي، والفقهية لم أفهمها لأصدقك القول، تهت في التفاصيل والمعاني والتأويلات، ثم جاء كتابك هذا فاخترق الخافقين. تكتب عنا جميعًا يا إمام. أدركت في غربتك أنني لم أفهم حتى وأنا أظن أني أعرف. أدركت الكثير. أول ما أدركت أني شقيق الإمام، لو أراد أن يذهله فقد فعل.

أكمل أحمد وهو مستمتع بإرباك أخيه: أنا شقيق الإمام، أفتخر بهذا اللقب، لا أريد لأحد أن يعرف إلا أني أحمد شقيق أبي حامد الغزالي. شرف لأي رجل في العالم. هل تصاحبني يا شيخ؟

-كأنك فقدت عقلك.

-أو عاد إليّ. على كل حال هناك دَيْنٌ عليك لي. هنا عند بيتنا نذهب معًا إلى النهر وحدنا.

***

شرع في بناء الخانقاه منذ وصوله، وقبل أن ينتهي البناء كان يُدرس في بيته، في ضيعته، في المسجد، في كل الأماكن. أصبح لديه أصحاب لا يتركونه، أحمد والطالب الذي قابله في دمشق إبراهيم السباك. بعد حين انضم بعض أئمة طوس لدروسه، ثم الطلاب من كل مكان، ولكنه لم يتوقع الزائر الذي جاء اليوم، أرسلان حارسه السلجوقي الذي خانه في الماضي.

عندما فتح باب بيته ووجده رحب به وعرض عليه الطعام، ثم قال بعد حين: أشكرك على الزيارة، أنا لا أحتاج إلى الحراس ولكن يمكنك

أن تبقى.

فقال أرسلان: هل تسمح لي بالكلام معك؟

هز رأسه ينتظر ما سيقول أرسلان.

قال أرسلان: ماذا أفعل في حياتي الآن؟

-تسألني أنا؟

-لم يعد لي شيء. أنت تعرف، أليس كذلك؟ كنت أعشق الأميرة ماهي، ثم ماذا؟ خطفها قاطع الطريق الذي أرهب القلوب؛ المعصري. ذهبت وراءه أريد إنقاذها، ولكنه هزمني بالسيف مرة وبالكلمات مرة أخرى. قال: إن ماهي لا تريدني. ظننته يكذب. بعد حين حرر الأميرة وتركها تختار. هل تعرف ماذا اختارت؟ العودة إلى زوجها. تعرف أني أهيم بها وتُفضل عليّ ابن قبيلتها وعشيرتها. تقبلها وأعادها إليه. لا أحد يريد أرسلان فهو لا يملك أي شيء منذ البدء. أنت تعرف، أعوام وأنا أغير على البيوت والدكاكين مع الجنود، أعيش مما أقتنص. بعد موت تركان خاتون التحقت بجيش بركياروك، أي جيش، لم أعد أعرف ماذا أفعل.

قال الغزالي بعد برهة: ما الذي أتى بك؟

-ليس لي أحد؛ لا عائلة ولا زوجة، لجأت إليك. أقسم إني أندم على ما حدث، لم يكن بيدي. هل ستسمح لي بالبقاء حولك؟ أصبحت الدنيا بلا معنًى؛ لا مغامرة تُهدئ القلب، ولا سطو ولا قتل يُشعرانني بالفوز. لو تركتني أموت.

-ماذا تبغي من قربك؟

-السكينة.

-ليست مع البشر، مع الله فقط.

-أرشدني كما أرشدت طلابك. سمعت ما حدث. قالوا: الغزالي ترك كل شيء ووزع أمواله، لم أصدق. كنت أعرفك، عاشرتك عامًا وراء عام. كنت أرى عينيك وهما تتوقان إلى الرياسة والسلطة. أرى النصر ينير وجهك مع مصاحبة السلاطين أكثر من مصاحبة الزاهدين. كنت أظن أني أعرفك. رأيتك أمامي أميرًا لا شيخًا. ثم قالوا: الغزالي ترك كل شيء. قلت في نفسي: لو استطاع هو أستطيع أنا ويستطيع أي رجل. لا تؤاخذني يا شيخ. كل منا يرى لنفسه مقامًا، قارنت نفسي بك، حركتني شهوتي، هكذا ستقول، ولكنك كنت تقول في دروسك: إن شهوة الزهو أعتى وأقسى من شهوة النكاح والطعام.

-لم أعهدك تتكلم بهذه الحكمة.

-استمعت إليك سنوات.

-تبحث عن عمل وتبقى في الخانقاه وتقرأ معنا وتستمع وتفهم.

انحنى ليقبل يده فأبعدها ثم قال: كنت تقول: إنني مثلك، تذكر.

-كأنك لم تعد مثلي.

-أو كأنك ستصبح مثلي.

***

ظن حين استقر في بلدته مرة أخرى أن حروب الخارج ستهدأ، وسيكتفي بالحرب مع نفسه التي لا تخمد إلا لتعاود ضربها وثورتها،

ولكنه لم يستطع أن يقف شاهدًا على الظلم حوله. عم الفقر وأغارت الجنود الترك الغز على الضياع. ضعف الوالي والوزير أمام أسلحة جنود بلا جيش. بعث بالرسائل لكل الأمراء والوزراء ولكل من يعرف، طلب منهم إغاثة طوس، ثم جمع حوله الرجال لحراسة الأرض ليلًا ونهارًا. الترك الغز يتركون الأغنام تأكل كل ما زرع الفلاحون. لا رادع لهم من سلطان أو وزير.

بدا أن وجود الإمام سيصبح هو العائق أمام الثراء والسعادة للجنود. لم يجرؤ أي منهم على التطاول عليه أو مهاجمته. ولكنهم استغاثوا بأعدائه. لا بد للغزالي أن يصمت ويبتعد. ألم يكن يريد أن يختلي وحده، فلِمَ يُدرس ويجمع الطلاب حوله؟ ولِمَ يكتب كل يوم كتابًا؟ ولِمَ يتدخل في شئون العامة؟ يريد أن يدفع الظلم وحده، ماذا يظن نفسه يا ترى؟ حتى الملائكة لا تستطيع أن تفعل هذا. أليس هناك رجل واحد يستطيع أن يتخلص من الإمام؟ لو قتلوه فسيمزقهم الناس إربًا، ولكن لو كفّروه فهذا جائز وممكن وحينها يتم قتله من الحكام.

ولكن الحكام تحترمه، وكلما بعث برسالة ازداد عدد رجال الشرطة في طوس وبدءوا يضيقون الخناق على الجنود الترك الغز. في الماضي كانت الشرطة تحت سيطرتهم، اليوم كل أمير يبعث بالرجال لحربهم. يذعن السلاطين والأمراء لكلمات الإمام الغزالي حتى بعد أن ترك منصبه. لا بد من نهاية يختفي فيها أثره وتكرهه العامة. للإمام أعداء جُدد من اليوم.

***

قبل مرور شهر على التحاق أرسلان بدرس الغزالي، جاء طلابه يستغيثون، أرسلان الجندي السلجوقي أخرج من جبه السيف وهم بغرزه في بطن أحد الطلاب، ولكن إبراهيم منعه. قالوا لشيخهم إن أرسلان لا يصلح لحضور الدرس، يغضب ويقتل، تعود أن يُغير على الأبرياء. سمعوا عنه وعن علاقته بأميرةٍ من قبل. كيف لمثله أن يختلي في زاوية مع الصوفية؟! استمع إليهم الغزالي ثم قال: إذا كنتم أنتم تصدرون الأحكام فالعيب مني، لم أعلمكم أي شيء. الغيبة ذنب لو تعلمون، ورؤية الفضل من أحدكم على غيره ذنب أيضًا. تدّعون أنكم تعرفون ماضيه فهل تعرفون مستقبله يا ترى؟ أليس من الجائز أن يكون عند الله أفضل منا جميعًا؟

أمسك بأرسلان وطلب منه أن يحكي ما حدث. حكى بصدق ثم قال في حسم: ربما هم على صواب.

-كنت تنوي قتله حينها؟

-كنت أتمنى قتله ولا أتذكر لو نويت أم لا.

-تملكك الغضب؟

-لم أكن أرى سوى الدماء. أحن إليها كمن تعود أن يشربها.

-لا يعنيني ما قاله ليجعلك تغضب كل هذا الغضب. ما يعنيني هو كيف نعالج الداء. تتكلف بالحلم فيصبح من طباعك. عندما ترى الدماء أمام عينيك تخرج من الزاوية وتغسل وجهك وتتوضأ، الوضوء يخمد النار، ثم تصلي ركعتين وتتبعهما بالجري حول المكان عدة مرات حتى لا تكاد تلتقط أنفاسك. التعب أيضًا يخمد النار. ثم تنام ليلتك وأنت تُسبّح باسمه وتُذكّر نفسك بالحِلم والهدوء

اللذين تجاهد من أجلهما. وفي الصباح تواجه نفسك بسبب الغضب الحقيقي.

-وما هو يا شيخ؟ في كل مرة سبب مختلف.

-هو السبب نفسه دومًا. إحساسك بعلو قدرك. تجد لنفسك مقامًا فتغضب لتجرُّؤ غيرك عليك سواء بالكلمة أو باليد أو حتى بالسرقة. تقول كيف يجرءون على التعدي على أرسلان؟ تذكر أنك عبد للملك لا فرق بينك وبينهم.

-هم من يرون لأنفسهم شأنًا.

-قلت: لا فرق بينكم، كلكم عبيد، لا ملك لأي منكم. تتكلف الحلم وتجاهد معي مرة وراء مرة، يصبح طبعك الحلم والصبر، ولكن الجندي لا يترك الحرب ويهرب يا أرسلان. تجاهد نفسك وتنتصر. إذا كنت ترى اللون الأحمر عند الغضب فسوف نطوع العين على رؤية الأبيض. أنا معك.. نحاول.

***

عودة أبي حامد الغزالي إلى طوس وبناؤه خانقاه يُدرِّس فيها لطلابه، لهما وقع الموت لتارك الصلاة على الكثيرين. انتشرت الأخبار، الإمام عاد ومعه كتابان كتبهما في دمشق وبيت المقدس، أحد الكتب يزيد على ألف صفحة. كيف كتب كل هذا؟ بدأ ينسخ الكتب هو وأخوه وطالبه الجديد الذي صاحبه في العودة، إبراهيم السباك. يريد لإحياء علوم الدين أن يصل إلى كل بقاع الأرض، وهذه المرة لا يريد للناس أن تعرف الكاتب، بل الكتاب. كل يوم يستغفر ويتمنى أن يتقبل الله منه. كتب حينها: «نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به

قدم، أو طغى به قلم في كتابنا هذا، وفي سائر كتبنا، ونستغفره من أقوالنا التي لا توافقها أعمالنا. ونستغفره مما ادعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه، ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره».

ولكنّ منصور ومعه شيخه المسماري لم يريا في عودة الإمام إلا خطرًا وكربًا وحزنًا. ظنّا أنهما تخلصا من وجوده. ووجود مثل الغزالي ليس فقط وجوده في منصب، بل الأثر الذي ينتشر بين الناس. هذه المرة الكتاب مختلف. يقولون إنه مزج الصوفية بالفقه، كأنه يعطي الشرعية لأهل التصوف بعد أن كانوا يختبئون في الكهوف ويهربون من الولاة. هل انحرف الإمام يا ترى؟ رددها منصور ورددها حتى أصحاب الغزالي. أين المذهب الأشعري من كتابه؟ ألم يكن شافعيًا أشعريًا؟ لِمَ يتكلم عن الحب؟ ما دخل الحب بالعبادة؟ وكيف لنا أن نتصور حبًا يربط بين رب ليس كمثله شيء وعبد لا يقدر على شيء؟ ليس في الكلام عن الحب سلامة. هكذا تعلم الغزالي نفسه من مُدرسيه الأشاعرة وهكذا يعرف، ولكنه لم يعد يكتب ما يعرف ولا يلتزم بمذهب الآباء والأجداد. ها هو يكتب كتابًا ويطلق عليه إحياء علوم الدين، أي رجل يفعل هذا؟ وهل مات الدين ليحييه الغزالي؟ أي حياة يقصد؟ وأي عمر يدعي أنه يذهب هباء؟ تهامس العلماء. كل واحد يتلهف للحصول على الكتاب وقراءته. بعين المنتقد الكاره تارة، وبعين الفضولي تارة. بعد عدة أشهر جاءه طالب سافر من الأندلس خصيصًا لمقابلة الغزالي. الرحلة كانت طويلة، تغير فيها وتعلم. دخل عليه فوجده بعينين ثابتتين وملابس متواضعة ووجه جميل. سمع عن الغزالي، ووصلت سيرته إلى أقصى الأندلس،

يقولون يرتدي أغلى الملابس ويسكن في قصر مزخرف. أخبره في الطريق أحد طلاب الغزالي أنهم قوّموا في بغداد رداء الغزالي ومركوبه بخمسمائة دينار، ولكن الرجل الذي أمامه الآن لو كان هو الغزالي فرداؤه لا يقوّم أصلًا. نظيف، نعم ولكنه بسيط، لا عمامة مزينة ولا خاتم في إصبعه من الأحجار الكريمة.

جاءه طالب الأندلس يلهث إلى العلم، لم يكن يتعدى العشرين، جلس أمامه يستمع إلى كتابه الجديد، كان الشاب من الأندلس يُدعى أبا بكر بن العربي، قال في تردد: يا إمام، هذا كلام يشبه كلام الفلاسفة، وهذا تفكير يشبه قياس المنطق.

قال الغزالي: جئت تطلب العلم أم تريد أن تقلد غيرك؟ لو جئت تطلب العلم فابحث عنه في كل مكان وكل كتاب، واعرف أن ليس معنى أن الفلاسفة أخطئوا الرأي في بعض المسائل أن كل كلامهم خطأ. الجهل هو أن تظن أن من نطق خطأ مرة سينطق خطأ دائمًا، وأن تظن أن من لا يتفق معك في المذهب هو الجاهل الغافل دون أن تعرف فكره أصلًا. يقول علي بن أبي طالب: لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله. كتبت كتابي عن الفلاسفة لأنتقد تقليدهم وجمودهم وظنهم أن العقل المحدود قادر على كل شيء. والعقل لا يسبر كل الأغوار. الحقيقة عند أهل البصيرة، وهؤلاء لا مذهب يحجم حريتهم ولا تقليد يلجم خيالهم.

ولكن كلمات الغزالي لم تكن ما توقع ابن العربي. جاء من الأندلس ليتكلم مع الفقيه، فلم يجد سوى الصوفي. عاد إلى بغداد وهو يردد على الشيوخ: «شيخنا الغزالي بلع الفلسفة، وأراد أن يتقيأها فما استطاع».

ارتبك العلماء، كانوا منقادين وراء الإمام في الماضي، يتكلم فيتبعونه. اليوم الإمام يدعو للتفكير وعدم التقليد، يخفي رأيه ولا يتفوه به لكل من يطلبه. اليوم الإمام عاد من دمشق كأنه رجل آخر.

همس منصور لأحد معلمي الغزالي في الماضي، من يضمر له كل كره الشيخ المسماري: الغزالي يكاد يكون قد كفر.

أصابت الشيخ المسماري نوبة سعال ثم مسح اللعاب من على لحيته المخضبة، ثم قال: الغزالي المجوسي الملحد. لا يعرف حقيقته غيري.

قال منصور: نخبر الناس بها.

-ننتظر اللحظة المناسبة، فحد الكفر إراقة الدماء.

قال: وأنت لا تريد له أن يُقتل؟

-بل ننتظر لنثبت كفره، فيُذبح مثل غيره من المجاذيب. الذبح نوعان؛ ذبح الجسد وهذا هين، وذبح النفس وهذا عظيم. ويا حبذا لو حدث الذبحان معًا يكون ذلك نصرًا كبيرًا.

كلمات المسماري أراحت منصور، والصبر المصاحب للأمل ممكن.

***

قبل مرور عامين من عودته تداول الناس كتاب إحياء علوم الدين في كل أنحاء الأمة. نسخه العلماء في الشام والإسكندرية، أخذ علماء المغرب نسخًا معهم في رحلاتهم، وصل بخارى واليمن والحجاز، مر بإفريقية والأندلس. في غضون سنتين كان هناك مائة

وعشرون نسخة من كتاب يبدو في ظاهره منقسمًا ككتب الفقه، وفي داخله كلام عن النفس والأخلاق والصوفية، يستشهد بالشعر ويحكي الحكايات. الأئمة في بغداد عضوا على أناملهم من الغيظ. في غمرة الفزع بدأ الشيخ المسماري في مساعدة منصور في كتابة كتاب جديد، وأطلق عليه «الشامل في علوم الدين». اقتبس بعض كلمات الغزالي، وزاد عليها وابتعد عن الصوفية، ولم يتكلم عن الأخلاق. نشر الكتاب بين الأئمة في نيسابور، وطلب من أصحابه في بغداد أيضًا نشره. تكلم عنه أصحابه، وذموا كتاب الغزالي. قالوا هذا هو الكلام الحق القريب من الدين والشرع. صاحوا حماسًا وضربوا به المثل ثم نسوا أمره بعد شهر. لم ينسخه سوى أصدقائه، وبعد حين نسي الناس أيضًا كل شيء عنه. عضوا الأنامل من الغيظ.. نعم؛ فقد كان وجود الإمام في بغداد في حماية الخليفة والسلطان يحيل بينهم وبينه. ثم عاد إلى طوس بلا منصب ولا سلطة، فأصبح أشد قوة وسلطة. كأن كتاباته من إلهام، وليست من عقله فقط. المدرسة في بغداد تُدرس كتبه واليوم بدأت تدرس أجزاء من كتابه الجديد. يكتب كتابًا كل شهرين، وفي كل مرة يقول شيئًا مختلفًا، يغوص ويُخرج الزبرجد. ألم يتوقعوا أنه سيبقى في زاويته وينعزل بها حتى الموت؟ ظنوا حينها أن صوته سينعقد كما انعقد من قبل، ولكن لسانه انطلق كما النجم الثاقب. وشهرته تعدت أمواج البحار، وسافرت إلى أقصى الجنوب وأقاصي الغرب. قال منصور: في كتاباته انحرافات ومخالفات، يشطح مثل أهل الصوفية. يضع في كتابه أشعار أبي يزيد البسطامي والحلاج، لا بد من انتهاء مصيره مثلهم. حتى الشافعية الأشاعرة سيجدون أنه حاد عن مذهبهم. الصبر يولد النصر، ولكن أيامه معدودة والقتل فيه رحمة.

***

أما محمد فظن في البدء أن النشأة الجديدة تعني إزاحة كل الماضي، ولكن الماضي كامن في الأعماق بجموعه وعلائقه. يتذكر حتى وهو يريد أن ينسى. تقترب منه الدنيا فيبتعد ويفر خوفًا. كلما ابتعد رأى، وكلما أفاق من غفلته أبصر. «جميع الموجودات مرآة للوجود الحق المحض، فالظاهر بذاته هو الله سبحانه، وما سواه فآيات ظهوره ودلائل نوره». أصبح كل الخلق في رباط واحد، المخلوقات والنباتات والحيوانات، وها هو الإنسان جامع لكل الملكوت، بداخله روح تتوق إلى الواحد الحق فقط، غريب في هذه الدنيا حتى وهي مستقرة في نفسه. تصفو له الخلوة كل حين فيردد اسمه بقلبه قبل لسانه لبرهة، لا يشغله سواه، ولا تتوق خلجاته إلا لرضاه. يخضع ويخفض جناحه، يستقر ويطمئن، ترتعد حناياه بلذة الوصل، يفيض النور على قلبه ويشفي الداء أو يكاد. في الظلام لا يتبدى إلا نوره وحده. وفي الظلام تحوم الروح حول خالقها. يستغرقه الحب فيكاد يسهو ويغفل عن كل الدنيا. يقهر الحب كل ما دونه، يتدرج في المقام دون وعي وإرادة منه، ثم يفيض كرمه، يتسع للعالمين. يتمنى لو تطول فترة الخلوة والصحبة ولكنها لا تطول. يتمنى أن يغيب في عشقه ولكنها لحظات من عمر الزمان يقتنصها بقوة كلما تيسر له. يكتب كتابًا جديدًا «ميزان العمل»، كتاب عن نفسه وعن شكه وبحثه، ثم هدوء النفس، ثم جهادها المستمر. يسأله الطلاب عن مذهبه؛ أهو سني شافعي أشعري أم هو صوفي؟ وهل لا بد أن يكون شيئًا واحدًا؟ في نصف عمره الأول تعلم أن ينسخ نفسه بلون واحد، ويحمل علمًا واحدًا يدافع عنه حتى الموت، وفي نصف

عمره الثاني احتوى العالم بقلب واحد وولى وجهه شطر الواحد الأحد، يبغي قربه، وسط الضوضاء ،وتشويش الحروب والمحن.

هو أبو حامد، يستعمل عقله ويبحث عن الدليل ويتبع الشرع والقرآن، هكذا يجيب لو سألوه. وعندما يجتمع بأئمة طوس يشرح لهم أن هناك ثلاثة مذاهب للإنسان. المذهب الذي نشأ فيه، وهو مذهب الأهل والبلد الذي درس فيه. وهناك المذهب الذي يُعلمه لطلابه على حسب قدرتهم، فلو وجد أن طالبًا يتحير في الأفكار المجردة فلا بد أن يعطيه مثالًا يفهمه، ولو وجده لا يقدر على فهم صفات الله فليتوقف عن الحديث عنها، ولو وجد في طالب القدرة على استيعاب الأفكار وصفاء الذهن فربما يعطيه بعض الأسرار التي تتعسر على غيره. فهذا مذهب ثانٍ للمُعلم يعطيه لطلابه على حسب الطالب وقدرته. أما المذهب الثالث فهو ما يعتقده الشيخ في نفسه وما تبدى له من حقائق. «فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يُبصر، ومن لم يُبصر بقي في العمى والضلال».. هكذا يقول الشيخ لطلابه المقربين: فلو جعلتك كلماتي تشك في اعتقادك الموروث، وتبدأ في طلب الحقيقة والبحث المنطقي عنها فقد نفعتك كلماتي. «إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق»، «فلا خلاص إلا في الاستقلال في الفكر».

يقول كلمات جديدة عليهم، يدعو للفكر والدليل ولكنه يدعو أولًا لصفاء النفس ومحاربة الصفات الذميمة. يقول إن العالم كله ينعكس على قلب المؤمن. وإن النفس بها صفات الحيوانات كلها. بها الصفات السبعية فتميل إلى التمزيق والقطع، هذا يمزق شرف الخصوم، ويُقطع أطرافهم من الاتهامات الباطلة. وبها صفات الذئب فتميل إلى

الغضب، وبها صفات الطمع والبخل، وكلها في الكائنات حولنا. وبها الصفات الشيطانية فتميل إلى الغرور والخيانة، ولكن القلب أيضًا به صفات الملائكة تكمن في الأعماق. وبعض الملائكة تحوم حول ربها لا تريد غيره ولا تبغي سواه. نقطة بيضاء داخل القلب تُصلح العالم. صارحهم وأفضى إليهم، قال إنه في الماضي كان ببراءة الأطفال وطمع الأمراء، أراد أن يتأكد أن الأمة بخير يُصلح حالها بأن يجمع شمل الساسة والسلاطين، ويُصلح بين خليفة وملك، يمنع حربًا هنا وإراقة دماء هناك، ولكنه أدرك بعد حين أن هذا ليس هو الطريق. فكل سلطان وكل أمير وكل حاجب وكل وزير تحت وطأة شهوته وأغراضه يريد حماية نفسه أولًا. الطريق إخلاص لله فقط، تصفية وعمل. قال إبراهيم السباك حينها: ولكن يا شيخ لو أصلحت عشرة هنا في طوس فلن تمنع حرب الفرنجة ولا إراقة الدماء. احتلوا بيت المقدس الآن. ماذا ينفع علمنا هنا دون حربهم؟!

-بل لو أصلحت نفسًا واحدة أكون قد منعت حربًا وأنقذت بلدًا. الطريق من الداخل وليس من الخارج، من لا يعرف نفسه لا يعرف ربه.

-ولكن الحرب تذبح بلا هوادة.

-المستقبل ليس في عام أو عامين بل في ألف عام وألفين، أنت الزمن...فأصلح نفسك يصلح زمانك.

ولكن إبراهيم السباك اختلف بداخله مع معلمه. منذ أيام يطلبه والي طوس يريد الاستماع إلى درسه. يئس من لقاء الغزالي فأراد لقاء طالب الغزالي إبراهيم. أضمر إبراهيم الأمر في نفسه ولكنه أراد

إصلاح الأمة بأكثر من إصلاح قلوب من حوله. ذهب إلى مُعلمه اليوم يحاول من جديد، قال: يا شيخ...لو تركنا الولاة لأنفسهم دون أن نعلمهم نكون قد تركنا الأمة في يد من لا يعرف ربه. أليس في بقائنا بعيدًا عن السياسة هروب؟

ابتسم وهو ينظر إلى عينيه ثم قال: للسياسة من يتقنها، وللحروب جنودٌ، ولأهل العلم عمل غير هذا. العلم خادم وكل ما دونه مخدوم. اليوم تذهب إلى والي طوس ثم ماذا؟ هل ستعارضه لو أخطأ؟ أم ستدعو له وتمدحه؟ ولو عارضته وأغلظت عليه القول ثم أعطاك هدية، فهل سيلين قلبك؟ ابحث داخل نفسك عن فسادها يا إبراهيم. فساد الدين هو القرب من أهل السياسة. لا مفر من نار تصيبك. أتكلم معك لأني مرضت بالداء نفسه وليس لأني أفضل منك. لا تخلط عمل العالم بعمل الجندي. لكل إنسان همة ومقام، وقيمتك على قدر همتك.

-واجبنا أن نحث العامة على مواجهة الفرنجة.

-واجبنا أن نحث العامة على مواجهة أنفسهم أولًا. أما الحروب فهذه من مهام الحكام والجنود. للعلم رجال وللسياسة رجال، لا يمكن الخلط بينهما أبدًا. لو اقتربت من السياسة فستخرب قلبك بعد كل ما تعلمته. عند والي طوس لا بد من المجادلة.

قال إبراهيم وهو يتحاشى عيني معلمه: ولكن لو كان في الجدال إظهار الحق فما المشكلة فيه؟

نظر إليه الغزالي مليًا ثم قال: إظهار الحق لازم وضروري، ولكن لو كنت تريد الحق للحق فلا بد أن تفرح لو أظهره غيرك أيضًا، ولا بد أن

تقتنع أنك ربما تكون على باطل أحيانًا، ولا بد أن تجادل في الخفاء لا العلن. الجدال يُزين النفس ويلوثها بالزهو والغرور. لا فائدة من الجدال على العلن. ستجادل وستمدح وستشهد على الظلم وتصمت. ستفقد قلبك وأنت تريد أن تغير الناس للأفضل.

ولكن إبراهيم لم يقتنع، يريد تغيير العالم بطريقته هو. عند الفجر خرج ليقابل والي طوس ولم يعد لدرس الغزالي. عامًا وراء عام وهو لا يعود.

كانت أول هزيمة للغزالي منذ عودته، ضاع منه الطالب، غرق ولم ينقذه. أربعة أعوام وهو يُدرس لإبراهيم، يعطيه من روحه ثم يأتي الوالي يخرج على الناس بزينته فيهوي قلب الطالب. أربعة أعوام وهو يرى في إبراهيم روحًا طاهرة، يرى فيه نفسه، وها هو يهوي كما هوى، ويغفو كما غفا. قل الأصحاب والرفقاء حتى وطلابه يزدادون يومًا وراء يوم. فليس كل طالب يصلح لكل علم.

فتح فمه وحرك شفتيه وهو ينشد أشعار الشافعي والمرارة لا تترك حلقه:

«أأنثر درًّا بين سارحة البهم

وأنظم منثورًا لراعية الغنم

ومن منح الجهال علمًا أضاعه

ومن منع المستوجبين فقد ظلم»

الفصل الخامس عشر

«أعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقربين».

الغزالي

من هو محمد زوجها؟ هل تغير؟ هل لم تزل تعرفه؟ اقترن في البدء محمد بالثراء الذي لا ينتهي والبهاء والسلطة. ذهب الثراء وذهبت السلطة وبقي بهاؤه. تغير؟ نعم، ولكن الجوهر لم يزل موجودًا، الروح نفسها التي أحبتها منذ أول لقاء. تغير؟ نعم، لم يعد يستشيط من كلمات الأعداء والحاسدين، ولا يقلق باله برأي السلاطين ولا يجادل، حتى لو جاء رجلٌ إلى بيته وتحداه، يستمع في صمت ثم يربت على كتفه ويتركه. منذ البدء كانت ترى غروره بعقله ومعرفته. منذ أول يوم تلمع عيناه عند المدح. اليوم تلمع عيناه عند الكتابة أو الفهم. كان مستغرقًا في الماضي في مستقبل الأمة، ولم يزل مستغرقًا في مستقبل الأمة، ولكنه لا يتكلم عن الحكام، يتكلم عن الرعية والفقر والظلم، يتكلم عن المال الحلال وعن تصفية القلوب. يقول إن المسلك من هنا، من القلب، وكلما صفا قلب واحد عم الأمان وثبتت العقيدة. تغير؟ نعم، يستمع إلى الإطراء فلا يتوقف عنده، لا يمنع المتكلم ولا يشكره كأنه لا يسمع الكلمات من البداية.

أصبح قلبه حصنًا لا يستطيع كل عابر أن يخترقه. يختلي في الخانقاه كل يوم على قدر استطاعته.

محمد كان يسارع الأزمنة ويسابق الأسود ليصل إلى السماء، وعندما وصل أصبح يلهث وراء وصول أعظم ونصر أتم. هدأ.. لم يعد

يصارع ولا ينافس. أصبح يختلي ويحب.

ولكنه لم يزل يُغدق عليها بكرم حبه واهتمامه. أنجبت له أحمد وزينب وعائشة. أصبح لديهما خمسة أبناء. يصطحب معه حامد إلى الخانقاه، وليلًا يُعلم فاطمة وحامد معًا لا يفرق بينهما. ولكنه المال الذي تغير تعامله معه تمامًا. في الماضي يختار لابنه أفضل الملابس وأغلى الأطعمة، اليوم يأكلون مما يُرزقون من ضيعته. ضاقت في البداية فقد اعتادت حياة غير الحياة، تترك نصف الطعام للتلف، تختار بين جميع الأصناف، ترتدي الثوب شهرًا ثم تتخلص منه، اليوم لو تركت أي شيء من الطعام يعطيه الفقراء في الساعة نفسها. يشتري لهم الملبس على قدر احتياجهم فقط. لا يأخذ إلا من مال ضيعته، يكفيهم بالضبط. كانت تحيا مع إمام بغداد في رخاء وبذخ وإسراف، والآن تحيا مع أبي حامد الغزالي في تواضع وحرص. حتى أموال الأوقاف لا يأخذ منها ولا أموال العلماء. عرض عليه سلطان وخليفة ووزير ووالٍ الهدايا والأراضي فرفض. أحيانًا لا تفهم زهده ولا تستسيغه. ثارت يومًا وقالت إنها لم تختر هذه الحياة. فأعطاها الأموال في يدها وطلب منها أن تشتري هي ما تريد وتأكل ما تريد ولكن سيبقى هو على حاله. تحدته وفعلت عشرة أيام، تأتي بالطعام الذي تحبه ولكنها تأكله وحدها. ترتدي أفضل الثياب فتجد أنه لا ينظر إلى الزخرف في ردائها. كأنها تحيا وحيدة مع الأموال. أعادت إليه الأموال وأخبرته أنها لا تريد أن تنفرد بالدنيا، بل تشاركه كل شيء. ومع مرور عام وراء عام اعتادت طريقته، لم تملك جلَده ولا قوة عزيمته، ولكنها لم تعد تفتقد الإسراف. أحيانًا يأتي إليها هي بالذات بثوب جديد أو نوع طعام باهظ الثمن.

***

خمسة أطفال استطاعوا أن يشغلوها عن كل شيء، حتى إنها تتركه لقلمه وخلوته. وما دام يبيت معها زوجها ولا يبرح طوس يعتدل العمر كله. كل حين تخرج من خزانتها القلادة الثمينة. تضعها على عنقها وتنظر إلى نفسها في المرآة ثم تطويها مكانها في الخزانة. أحيانًا تنسى وجودها وكثيرًا ما تدرك أن العيش دونها جائز أيضًا. لم تعد تتذكر أنه رحل ولا أنه عاد كأنه لم يبرح مكانه. أما عزيزة فقد تحطم حبل الوصل حين عادت إلى زوجها صالح سرًّا، حتى ولو كانت قد عادت يومًا أو يومين، وحتى اليوم بعد مرور أربعة أعوام على طلاقها من صالح لم تزل تخفي ثريا بعض الحنق والريبة. حاولت أن تسمو على حقدها الدفين وترى أختها بعين الرأفة كما طلب منها. أحيانًا تتطهر من العلائق ويمحى الوسخ، فترى عزيزة وهي تضحك ضحكة الطفولة حولها، وتشاركها الطعام وتحكي معها، ولكنها تهتم أكثر بأبناء عزيزة عن عزيزة. لا لم يعد العمر كما كان.

***

عند الفجر شعرت بدوار وبألم شديد في رأسها كاد يفتك بها. كان في الخانقاه يُدرس درسه. أمسكت بحامد ثم طلبت منه أن ينادي على والده. قبل أن تكمل جملتها تقيأت واختنقت الأنفاس كأن العمر انقضى على حين غرة. لم تستطع أن تمسح القيء من على الأرض ولا أن تتحرك. جلست على الأرض تُمسك برأسها وهي شبه غائبة عن الوعي. يبدو أنه أمسك بها؛ حملها إلى حجرتها.

وقبل أن تفتح فمها كانت تتقيأ من جديد. خرج من البيت مسرعًا

ينادي على طبيب، ثم عاد ومعه الطبيب. قال في وجوم: هو الوباء يا شيخ.

تسمر مكانه هنيهة والقلب يسقط إلى قدميه. ظن يومًا أن الدنيا أصبحت بالنسبة إليه لا شيء، وها هو يجزع من فراق محتمل وابتلاء مؤكد.

قال الطبيب: لو كانت تريد أن توصي بشيء فاجعلها تفعل الآن. أنت تعرف ما أقصد، لو مر عليها أسبوع تعيش إن شاء الله، ولكن هذا بيد الله.

هوى بجانبها، نظر إليها، جسدها يهتز وعيناها زائغتان، مسح رأسها بالمياه الباردة، تنتفض مرة وتئن أخرى.

***

انتشر الوباء في كل الأنحاء، وصل إلى بغداد وأصفهان. يقولون يموت الألف في اليوم الواحد. توقف الناس عن البيع والشراء، لا أحد يعد الآخر بالغد. فلم يعد هناك غد. ظن البعض أنها نهاية العالم، وظن آخرون أنه غضب من الله. أزاح الوباء عائلات بأكملها، وأبقى الأراضي بلا مزارعين، والخزائن بلا أصحاب، والبيوت بلا أنفاس. أول من مات من عائلته كانت زوجة أخيه، مرضت يومين ثم صمتت عن الأنين. جاءه يبكي. هدأه وربت على كتفه، وزفيره ونزاعه مع نفسه لا يتوقفان. يحدث نفسه: يا رب تعرف ضعف النفس، ها هي تهون أمام أول ابتلاء وفقد. كل شيء بيديك فأنت الرحيم. لم أزل أرتجف من مستقبل ليس بيدي. وفراق محتوم اليوم أو غدًا. مرض كل أبنائه مع زوجته وأختها وأولادها. لم يصبه هو المرض. كان

يراعيهم. يغرقهم بالمياه الباردة، يستمع لحشرجة الأنفاس والسعال الذي لا يتوقف. حتى ابنته التي لم تتم عامها الأول كانت ترتعد من الحرارة.

يسجد ويترك القلب بين يديه، يقول: ها هي علائق الدنيا تجذبني، وها هو التعلق يجد طريقه إلى القلب. تعاودني الدنيا فأقاومها، ولكنك زرعت الحب لهم في قلبي لأعرف حبك، وأتذوق لذة الشوق والوجد. يتشوش بصري وبصيرتي بين خوف ورجاء. أتمنى بقاءهم معي للأبد، وأعرف أن الفراق محتوم. «يجوز أن يغلب الحب، بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه، لا لمعنًى آخر وراءه. فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبًا عنده ومطلوبًا». يا الله يا هو يا واحد، تركت نفسي بين يديك، وتركت قلبي عند عتبة بيتك، افعل ما شئت فأنت القادر، فأنت المحبوب الدائم، ولكن أعطني الصبر حتى لا أغفل، اشغلني بحبك حتى أرضى، وألق بي على بحر معرفتك حتى أغوص فأسلو. تقيدني الدنيا كما يقيدني الجسد. الفراق مجبول بألم، وكل ألم يهون أمام لذة الوقوف عند حضرتك.

***

تحتار عيناه، تارة تنظر إلى حامد، وتارة إلى فاطمة، وتارة إلى الطفلة التي لم تتم العام بين يديه. يأتي أحمد كل حين وهو تائه يسأل أخاه ماذا يفعل؟ فيقول: اذغه وتوكل عليه.

يحمل أحمد طفلته، يضعها بين ذراعي محمد وعيناه تستغيثان فيهدئه محمد. تستعدُّ الهمةُ وتتأهب لكل ما سيحدث.

تئن ثريا في هدوء بينما تصرخ أختها بلا توقف، فيضع يديه على

أذنيه. لم تعد تعي ما يحدث حولها، عيناها زائغتان ويداها في سخونة النار مهما أغرقها بالثلج. ثرى من سيفقد في الوباء؟ وهل هو مستعد للقائه؟ هل نظف الداخل وأزاح كل طمع وحقد؟ حاول ربما في السنوات الست الماضية منذ بداية محنته، وحتى اليوم وهو يحاول، ولكن الدخول على الملك يجمع بين الرهبة والشوق والحسرة على ما فات. كل حين يدور بعينيه حول الغرفة ليتأكد مَنْ مِنْ أولاده سيعيش يا ثرى، ومن سيموت.

بتلقائية احتضن حامد، أول جزء من نفسه يمشي على الأرض، امتداد للقلب ورحمة وسط القسوة والهوان. يعرف الطفل مكانه في قلب الأب. يتمتم وينادي عليه. «أبي». هنا عيناه، وهنا لسانه، وهنا كل بريق الدنيا.

يا رب، أعرف حتى والحشا يتمزق، «ذو البصيرة علم أن الموت يعتقه، والحياة تسرقه، وأن الإنسان وإن طال في الدنيا مكثه فهو كخطفة برق لمعت في أكناف السماء، ثم عادت للاختفاء». ولكن الإدراك غير الشعور. أن تعرف أنك ستقابل الملك شيء، وأن تدخل عليه شيء آخر. أن تدرك أن الفراق مكتوب لا محالة شيء، وأن تفارق شيء آخر. المعرفة لا تأتي إلا بعد وقوع الفعل. من يعرف الموت من مات وليس من يحيا. ومن يعرف ما يحدث بعد الموت هو من جرب الموت وليس من يتكلم عنه وهو سجين البدن والصور. يتشتت فكره ولكن الدعاء لله يكون من أجل بقاء كل ما يحب في دنيا يراها لا شيء.. الزوجة والأطفال، شعور جديد عليه أن يعرف أن الموت قادم لهم، ولكنه لا يعرف بالضبط من سيرحل في البدء، ومن سيكمل الرحلة معه. نظر إلى أولاده في فزع.. نظرة ربما يعرفها.

كان يعرف حتى وهو لا يجرؤ على الاعتراف لنفسه، رأى عينيه المطمئنتين فأدرك أنه ليس معهم. حامد. أول أبنائه، من يرى فيه انعكاس بصره. أغمض جفنه وخرجت الدموع في رفق، حتى الدموع ترفقت عليه، ردد: «إلهي، متعتني بهما ما شئت أنت، وسلبتني ما شئت أنت، وأبقيت لي فيك الأمل، يا بر يا وصول». حمل ابنه بين يديه إلى خارج البيت، احتضنه ساعة أو يزيد. في لحظات الحزن أنانية مختلفة كأنه يوم الميعاد، كل يفتدي نفسه، ويهرب داخل جرحه. وضع خده حيث دفن ابنه تحت الثرى وأغمض عينيه. تمتم: يا وصول، لا تتركني لنفسي طرفة عين، عجزت فأنجدني من مرارة لا أتحملها وحدي. ليس لي سواك. أتيتك بكل همتي وكل همي، طهرني قبل لقائك حتى لا تشتتني المحن وتنغص مرارة الأيام على خلوتي بك.

قام متجهًا إلى بيته، فأمسك أحمد بذراعه وهو يقول: هل أنت بخير؟

لم يُجب. فقال أحمد في استغاثة: هذه ليست نهاية العالم، أليس كذلك؟ محمد...طمئني..

قال: كخطفة برق لمعت في أكناف السماء ثم عادت للاختفاء.

قال أحمد: أي عذاب هذا!

-إرادته خير. وسر القدر بيديه كما هو سر الروح.

***

ليلًا أبقى عينيه بيقظة قلبه، ينتظر ويتمنى بقاء باقي الأحبة. دار

بعينيه على أطفاله وزوجته ثريا، لم يدرك كم تعلق بها، ولا كيف يكون هذا الفراق غير فراقهم من قبل. ثرى أموتها رحمة اليوم أم عيشها؟ هو الله القادر على كل شيء. همس في أذنيها: حاولي أن تقاومي...ثريا...هل تتذكرين؟ كنت تكتبين حكاية لم تكمليها بعد. قرأتها منذ أعوام.. «الأسد والغواص»...تكلمي معي...استمعي إليّ.

ولكنها كانت مغمضة العينين، تتنفس بصوت عالٍ، ولا تفهم كلماته. قبل الفجر سمع تأوهات ابنه أحمد. تأوه مرة واحدة ثم صمت. هدأ واستقر في العالم الذي لا ينتهي.

بكى واستغرقه الحزن لبرهة، لم يفكر إلا فيمن سيبقى ومن سيرحل. كان استغراقه من قبل في الله، واليوم انتصر عليه الموت وجذبه لحزن ودنيا حاول أن يراها صغيرة، فعظمت أمامه وجذبته بسلاسلها، ها هي تدفع به إلى كل ضعف النفس.

عندما علت صرخات عزيزة، لم تكن تصرخ من أجل موت حامد وأحمد، بل من أجل موت ابنتيها، انتشر الموت في كل انحناءات البدن. أصبح متوقعًا ومعروفًا.

جلس وأمسك بقلمه ودواته وكراساته. ارتجفت أصابعه وهو يحاول الكتابة. غمرت الدموع عينيه، فلم يكن يرى الورقة ولا القلم. إلهي، اسكب عليّ رحمتك سكبًا، أفرغ الصبر على صدري، وارزقني حق معرفتك، لا جنة أريدها ولا نار تخيفني أمام قربك. لم يعد لي مسلك إلا قربك، دونه العدم، دونه الهلاك. تستعصي عليّ المعاني والكلمات، اليوم أجد نفسي في حيرة من الصفات والنعوت. أغرقني بمعرفتك ومعانيك حتى لا أهلك وأنا أبحث بين دفاتري عن معنى

ضيق، يا واسع، يا من تفيض على الكافر والمؤمن بكرمك ورحمتك. كما أعدت لي لساني، أعد لي نفسي فقد انسحقت أمام هذا الهم والابتلاء. أغرقني بحبك حتى أغيب عن الفقد وعن الصبر نفسه.

فتحت ثريا عينيها بعد عدة أيام وطلبت شربة ماء. ثم عندما وضع في فمها الخبز، مضغته في بطء وابتلعته. نطق اسمها وضرب على خدها كأنه يوقظها. هزت رأسها كأنها تسمعه. مكث بجانبها لا يتركها وهو يكتب كأن في الحروف نجاته.

كتب: «إن الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله تعالى والبدن مركب، فمن ذهل عن تدبير المنزل والمركب لم يتم سفره»... «وهذا هو السفر إلى الله، وليس في هذا السفر حركة، لا من جانب المسافر، ولا من جانب المسافَر إليه، فإنهما معًا».

في الكلمات شفاء للصدر عند من يتقن المعاني. ولكن وجه أحمد يطارده في أحلامه، وضحكته تنتقش على مقلتيه كالمهج. أحمد وحامد، ولداه. تعلق بنفسه يا ترى أم بخالق الولد والنفس؟ هو تعلق به وحده، بالملك فمخلوقاته التي من صنعه، ورغبتنا في بقاء صنعه لأننا نحبه هو بالحقيقة وحده، وهو الباقي وكل شيء فانٍ. يذكر نفسه وسط الهوان. كل شيء لا وجود له. هو...قائم والكل قائم به. هدأ برهة، والألم لا يبرح الصدر. كأنه اكتشف معنًى جديدًا للوجود. لا موجود غيره في الأساس. هو أعطى وهو يأخذ. عند ذوي البصائر تستوي لذة الجنة بلذة الدنيا، عند ذوي البصائر لذة المعرفة تفيض وتعم. القرب منه هو الغاية، وليست الغاية نكاحًا وفاكهة وأرائك في الجنة فقط. عند من تألم وأدرك، النفس لا تموت ثم تحيا، هي خالدة، تتألم في بعده وتتذوق لذة قربه فتصبح كل لذة دونها لا شيء.

كتب بقلمه والأصابع ثابتة: اليوم كتبنا هذا الكتاب عن جواهر القرآن «مع قِصَر العمر، وكثرة الشواغل والآفات، وقلة الأعوان والرفقاء». آه من الآفات وقلة الرفقاء!

***

بعد أسبوع، قالت ثريا وهي تنظر حولها والنظر مشوش: محمد، أين حامد وأحمد؟ أين ولداي؟

همس: هل ترينني؟

هزت رأسها بالنفي، كانت ترى ضوءًا يطغى على كل المكان. بعد عدة أيام سألته من جديد، وعرفت من صرخات عزيزة وكلماتها. علت الصرخات، فسدت أذنيها. الموت أسرع من سنا البرق وارتداد الطرف.

بدأت بالبكاء المصحوب بأنين، فقال في حسم وهو يكتم فمها داخل صدره: إرادة الله. تماسكي، لدينا ثلاث بنات يحتجن إليك. اسلكي الطريق إليه بالحب، لا بالخوف يسكن كل ألم. «وكل ما يفعل المحبوب محبوب».

لم تتوقف عن الأنين. تشبثت به وغرزت أظافرها في كتفه، كأنها تحاول أن تنزع الخنجر الذي استقر في الصدر ولا يتزحزح. لم يتكلم، دفن رأسها داخل صدره وربت على ظهرها.

انتفضت من مكانها، نظرت حولها كأنها في حلم لا بد أن تستيقظ منه، ثم قالت: لم يعد للإمام ولد. سيقولون لم يعد للإمام ولد. هل أخبرك الطبيب أنني أستطيع الإنجاب؟ محمد... ماذا قال عني؟ هل أستطيع إنجاب حامد مرة أخرى؟

قال في صوت حاسم: هناك حامد واحد، سميت أنا باسمه، متعنا الله به بعض الوقت.

نظرت حولها وهي ترتجف، فأمسك بيدها وشدها إليه، قبل رأسها ثم خدها وقال: اتركي نفسك له.

شهقت وهي تبتلع دموعًا لا تتساقط، ثم قالت: لا أستطيع التنفس.

فقال: هو يحملك ويرفق بك. هو فقط.

بدأ يهزها ويربت على كتفها حتى نامت بعد وقت طويل.

***

أغلق القلب على الألم، تركه يرتع بالداخل دون رادع ولا عقاب. فقد كان لا بد أن يشد عضد أخيه ويراعي زوجته وأطفاله. الألم يستطيع أن ينبت في الأعماق، ولكن الحب يقتضي الرضا، والحب استغرقه منذ زمن. فأعانه ونشر الدواء على الجروح يهدئها. أما أحمد فبدا كأنه تاه، لحظة يحاول استيعاب ما فقد، الزوجة والبنت، لم يعد له أحد سوى محمد كما حدث في الماضي بالضبط. لم تصفُ له أوقات الخلوة، كان يقضي يومه بين مواساة أخيه، والرفق بأهله هو. ثم عاد إلى التدريس. في الكتابة شفاء منذ البدء، وفي الكتابة بإخلاص كل الشفاء.

وسط الآفات كتب (جواهر القرآن)، ومنع العامة من قراءته حتى الفقهاء والمتكلمين. قال عن كلماته إنها لا تصلح إلا لمن صفا قلبه ورسخ في العلم بعد أن تعلم الشريعة والفقه. «لا يصلح إظهاره إلا على من أتقن علم الظاهر، وسلك في قمع الصفات المذمومة من

النفس وطرق المجاهدة، حتى ارتاضت نفسه واستقامت على سواء السبيل، فلم يبق له حظ في الدنيا، ولم يبق له طلب إلا الحق، ورزق مع ذلك فطنة وقّادة، وقريحة منقادة، وذكاء بليغًا، وفهمًا صافيًا. وحرام على من يقع ذلك الكتاب بيده أن يظهره إلا على من استجمع هذه الصفات، فهذه هي مجامع العلم التي تتشعب من القرآن ومراتبها».

***

كتب أبو حامد عن النفس بعدما ذاق مرارة موت الأبناء، قال كلام الفلاسفة ربما في كتبه المضنون بها على غير أهلها، التي منع الناس من قراءتها إلا الراسخين في العلم. قال إن النفس تتعذب، وإن عذاب الجسد بعد الموت ليس هو كل العذاب. فهناك عذاب يقتصر على النفس أشد وطأة وحسرة مثل عذاب الفراق مثلًا. فها هو يشعر بأنه تعلق بحبل من رقبته، انشق قلبه نصفين. حتى وهو راضٍ يدرك أن الألم موجود. ولكنها الروح التي ترتقي من منزل إلى منزل. خلق ربه الرحمة في قلبه فلا بأس بالألم إذا كان من غير سخط. فالعذاب المتمكن من صميم الفؤاد أقوى من عذاب البدن.

ليتهم يعرفون أن الحسرة على فوات العمر بعد الموت ستكون أقسى من الحرق بالنار. كلما استغرقه الحب سلا، وكلما انغمس في علائق الدنيا هوى وبكى. لمثله فراق الدنيا دواء منذ البدء. كتب وفي كل كلمة بلسم يهدئ الوجع، ويخمد تسعر النيران: الموت معناه تغير حال فقط. والإنسان في الحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام واللذات، وذلك لا يموت. الإنسان معنًى يا غواص. وأنت تغوص في المعاني منذ البدء. تجمع الحروف وتفرقها، تعيد ترتيبها، ثم تشكل بها

بنيانًا مرصوصًا. الفقد كلمة يصحبها معنًى، فإن المؤلم هو الفراق... فراق المال أو السلطة أو الزوجة أو الابن...فلو ارتقيت تدرك أن الفراق مجبول علينا منذ البدء لأننا في موطن غير موطننا، ولو غصت تفهم أن «لقاء الله أفضل الأقدار».

«ومن لم يكن يفرح إلا بذكر الله، ولم يأنس إلا به عظم نعيمه، وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه، وقُطعت عنه العوائق والشواغل؛ إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله». يقول: «لا يعرف الموت مَنْ لم يعرف الحياة، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك ماهية ذاتها».

قرأ كتابه على أخيه، فطلب منه أن يشرحه في بطء. وكلما شرح عاد أحمد لمسلكه رويدًا رويدًا. أدرك المدخل لقلب أخيه، فأصبح يشرح له كل يوم ساعتين.

***

ثريا حزنها بلا صراخ يئن شغاف القلب بلا توقف، وتثبت أمامه حتى وهو يقرأ عينيها. أما عزيزة فلم تتوقف عن الصراخ، تنظر إلى ابنها عمر وتندب حظها، وتقول: فقدت الأب والإخوة يا بُني. فقدت كل شيء.

فتنزع ثريا عمر من بين يد أمه، وتحتضنه وتهدئ فزعه، تخمد نيران أختها وقلبها يتسعر. تنهمل النفس ولكنها تسيطر عليها. تبكي عزيزة بلا توقف فتحتضنها، ولوهلة يتلاشى الحاضر، ويحضر الماضي بكل مغامراته وبراءته وضحكاته، كأن القتل لم يحدث ولا حدثت الخيانة. يصفو القلب ناحية عزيزة، وتلتحم الأجنحة

المجروحة لتحلق من جديد. ولكن ثريا تنازع نفسًا لا أمان لها وفقدًا شرسًا.

لأول وهلة التبس الفزع بالحزن، فتمنت ثريا أن تنجب له ولدًا آخر. تنتظر وتترقب أن تحمل مرة أخرى، وبعد مرور عام بدأت تقلق من عدم تحقق الحلم، ظنت ربما أن في الولد القادم ترياقًا للسم الذي أصاب نصف جسدها، وعندما لم تحمل من جديد همست لها أختها: الإمام لن يرث علمه ولد يا ثريا. من حقه أن يتزوج.

قالت في غضب: هو لا يفكر مثلك. ولا يأبه بهذه التفاصيل.

قالت عزيزة في حدة: ماتت لي بنتان يا ثريا. أنا أتكلم معك بصدق، تخلي عن أنانيتك. كيف يموت الغزالي بلا ولد يرث علمه؟ يقولون طالبه الذي علمه تركه، والتحق بوالي طوس. اليوم لو مات يموت وحيدًا. وأخوه أيضًا سيموت وحيدًا، فقد ابنته وزوجته.

أطبقت ثريا شفتيها ثم قالت: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. لا تتدخلي فيما لا يعنيك.

ولكن ليلًا خطر الخوف، كلمات أعداء الإمام تصل إلى طوس. منصور يمشي في الطرقات يقول لطلابه: عاقب الله الغزالي على ضلاله. أخذ منه قرة عينه، أخذ ولديه الاثنين حامد وأحمد. هذه علامة من الله أن الغزالي على ضلال. فلو أراد الله لعلمه أن ينتشر لترك له ولدًا ليدرس كتب أبيه. أنا لدي الولد والعلم. اليوم يوم الحساب. هذا جزاء من يتطاول ويكتب كلمات الكفر. اسمعوا لي، هذا عقاب من الله يطول كل رجل يتبع الغزالي. كل من يتبع الغزالي سيفقد قرة عينه مثله. هو يستحق وأكثر.

تغضبها الكلمات أكثر مما تغضبه. تمنت لو صفعت كل رجل، وسبّت كل من تطاول. لم تواجه زوجها ولا تريد أن تعيد عليه الكلمات مع أنها تعرف أنه سمعها.

ويبدو أنه عرف ما يجول بخاطرها دون أن تخبره، قال في حسم: هناك حامد واحد شميت باسمه، وهو الآن عند الرحيم به، لو كنت أريد ولدًا ومالًا وهيبة ما كنت رحلت أصلًا. ظننتك تعرفينني. لدينا ثلاث بنات وولدان. البنات معنا الآن فلا بد أن نرعاهن، والولدان مع الرحيم، فالاطمئنان عليهما واجب. وعن قريب نلتقي جميعًا. هي أنفاس تنتهي على حين غرة دومًا. لا أحتاج إلى البنين، أحتاج إليك أنت بخاطر مطمئن.

هزت رأسها ثم قالت: عزيزة تقول...كلام..

قاطعها: تزوجت من ثريا لأنها مختلفة عن كل النساء، تصدق قلبها دومًا.

التقت أعينهما فقالت: تنغمس، وتغرق بين قلمك ودواتك. أتشفيك الكتابة يا أبا حامد؟

-أول مرة تنادينني بهذا اللقب؟

-لأنك تحبه.

أرخى جفنيه كما لو كان تأثر، أو مر الحزن على أحداقه، فلم يعقب. نظر إليها بعد برهة ثم قال: القلم يشفي دومًا. في الماضي عندما جئت لزيارتي قبل زواجنا، هل تتذكرين ما عرضت علي؟

قالت وعيناها لا تتركان عينيه: أنا لا أنسى كلمة دارت بيننا.

-عرضت علي حينها أن تنسخي لي بعض الكتب. أحتاج إليك اليوم أن تنسخي لي.

قالت: أهذا لأنك تكتب كتابًا كل يوم؛ أم لأنك تريد أن تساعدني؟

ابتسم قائلًا: ربما لسبب ثالث.

هزت رأسها بالإيجاب. ثم أمسكت بيده تتشبث بحياة كانت تنوي أن تتركها بقلبها، حتى لو بقي الجسد.

أمسكت بورقة ثم كتبت بحروف كبيرة وهي تتفوه بالكلمات: يقول الإمام أبو حامد: «فإن العاشق لا يستثقل السعي في هوى محبوبه».. «فإن كل حب صار غالبًا قهرَ لا محالة ما هو دونه».

لم ينطق ولم يتوقف عن النظر إليها وهي تنسخ وكانت تعرف. قالت وهي تحرك القلم لتكتب حرفًا في إتقان وبطء: ماذا يجول بخاطرك يا شيخ؟

فقال: إنك تعرفينني ربما أكثر من أي إنسان.

تركت القلم ونظرت إليه ثم قالت والكلمات ترتبك: لا أظن أن أحدًا يعرفك، ولا أحد يستطيع أن يحيط بمثلك علمًا. أستمع نعم، ولكني لا أفهم في معظم الأحوال.

قال في حسم: تعرفين أكثر مما تدركين أنت نفسك، ولا يتفوه فمك بقدر علمك لأن علمك أكبر من الكلمات. يومًا ما سأخبرك كيف أثبت هذا، ولكن ليس اليوم، اليوم أريد أن أنظر إليك.

***

لم يكن يراجع ما تكتب في الحقيقة لأنها كانت أكثر حرصًا منه على أن تدقق في كل كلمة. ولكنه كان يشتاق إلى قراءة الهوامش لذا طلب منها أن تنسخ له. عادت إلى الكتابة من الجديد لتكمل حكايتها التي تكتبها منذ زمن، «الأسد والغواص». وربما لم يكن النسخ ما جعلها في حال أفضل، بل الكتابة. مثله تمامًا، ثريا تجد الشفاء في القلم والكراسات. كانت تقرؤه، وتنتقده في الماضي في حكاية الغواص، واليوم تسطر نهاية الحكاية أو نصفها لا يدري. كتبت على الهوامش لنفسها وليس له: «بعد أن اقترب الغواص من الأسد، وأصبح يعطيه النصيحة، ويعلمه من علمه، حذره صاحبه من حسد المقربين من الملك الأسد. وكما توقع صاحب الغواص. اجتمع الحاسدون ودبروا الخطة للوقيعة بين الأسد والغواص. وانتهى أمر الغواص إلى السجن إلى حين، وفي السجن تعلم، واستمع إلى الحكايات، وفي سجنه خلا الغواص، وفهم معنى الدنيا، أدرك أن «تعب كل أحد بقدر حرصه، وفقره بقدر طمعه، وراحته بحسب تسليمه، وغناه نظير قناعته». وعرف أيضًا «أن صاحب السلطان كراكب الأسد يهابه من يراه وهو لمركبه أهيب». نصحه صديقه في الماضي قائلًا: «خدمة السلطان ما أطيبها لولا ما فيها من التعرض للتلف». ندم الغواص على مصاحبة الأسد الملك. عرف أن نفسه قد تلفت من هذا المنصب، وهذه الرفاهية. فقال الغواص لنفسه: «إن على قدر العلو الهُوِيّ، وإن على قدر موضع النعمة موقع زوالها». مكث الغواص يذم الدنيا قائلًا: «قبحًا للدنيا الغرارة، ما أعجب أمرها! يأتي فيها الخوف من جهة الأمن...لا يصلح لصحبة الدنيا إلا أهل الدنيا».

تخرج كلمات ثريا كأنها من مارد بداخلها بعمق البحر المحيط الذي لا يظهر له شاطئ ولا تحده أمواج. اخترقت الكلمات شغاف القلب، كأنها لا تداوي فقط، بل تحرق لتطهر وتستأصل لتنقذ من التلف. تنفس في بطء وهو يقرئها: «طال بقاء الغواص في سجن الملك حتى قال: «وقد نذرت لله إن وهب لي نفسي أن أهبها له وأخلو بعبادته».

***

منذ بدأت في النسخ وهي في حال أفضل، تعيد على نفسها كل كلمة تكتبها، وأحيانًا تسأله ليلًا عن معنى كلمة أو جملة فيشرح لها في صبر. ربما كان على صواب، لا أحد يعرفه مثلها، هي من عاشرته، وهي من تألمت، وهي من فقدت. هي من تراقبه من بعيد. ولكن وهي تنسخ كانت الكلمات تخرج من قلبها إلى هامش الكتاب. منذ زمن، منذ أحبته دون بوح وهي تكتب كتابًا دون إرادة ولا معرفة بالبداية ولا النهاية. كان كتابًا عن الغواص، عنه هو. كتبت على هامش الكتب التي طلب منها والدها نسخها. اختفت الكتب، واختفى ما كتبت.

كيف للنساء أن تكتب هذا النوع من الكتب؟ وكيف لثريا أن تتكلم عن الأسد وهي لا تبرح بيتها إلا قليلًا حتى ولو عاشرت السلاطين زمنًا ليس ببعيد عن طريق زوجها، والأخطر هي أنها تتكلم عن الغواص أيضًا، ومن في هذا البلد وهذا العالم يعرف الغواص؟ كل من يقترب يتحير. عمقه بعمق البحار، والتناقض في أعماقه كما الماء والنار. يقول: إن صدور الأحرار قبور الأسرار. قال: إن العلم درجات، وهناك علم لا يستطيع العامي فهمه. هناك كتب يكتبها فقط لأهلها، لمن رسخوا في العلم، وتركوا من خلفهم الدنيا. حاولت أن

تفهم بعضها. أحيانًا تظن أنها أفلحت، وكثيرًا لا تفهم شيئًا. يسميها: المضنون بها على غير أهلها. ها هو كتاب بين يديها. كتاب (الأربعين في أصول الدين). ولكنها دون إرادة بدأت تكتب على الهامش: «لا يصلح لصحبة الدنيا إلا أهل الدنيا». هكذا اكتشف الغواص بعد محنته أن بعده عن الأسد ملك الغابة واجب عليه لو أراد القرب من الملك الحقيقي.

قالت وهي تراه يدخل عليها: كتاب الأربعين يا أبا حامد...يدخل القلب، ويُصلح النفس. أحبه أكثر من إحياء علوم الدين كأنك تلخص فيه كل علمك.

بدأت تقرأ منه بصوت عالٍ: «الكامل من يحب الله لجلاله وجماله ومحامد صفاته».. و«العارف لا يحب إلا الله تعالى، فإن أحب غيره، فيحبه لله عز وجل، إذ قد يحب المحب عبد المحبوب وأقاربه وبلده وثيابه وضيعته وتصنيفه، وكل ما هو منه وإليه نسبته». كأنك تصالحت مع كل العالم يا إمام، تصالحت مع كل ما صنع الخالق.

قال وهو ينظر إليها: «وقد نذرت لله إن وهب لي نفسي أن أهبها له».

تجمد القلم في يدها. كانت كلماتها هي من حكايتها التي تكتبها على الهوامش. كلماتها أم لا؟ تعرفها، لا تتذكر بالضبط ما كتبت. قالت مسرعة: أين قرأت هذه الكلمات؟

فقال: ينطقها قلبي لأنها الحقيقة.

نظرت إليه في فزع، ستتوقف عن كتابة الهوامش من اليوم. لا تريد لأحد أن يقرأ ما تكتب وخاصة هو. كيف تكتب هي عن

الغواص؟ ماذا تعلمت ومن تكون؟ هي لا تستطيع أن تواجهه بما كتبت أبدًا؛ لذا ستتوقف عن الكتابة من اليوم. كأنه قرأ أفكارها.

فقال مسرعًا: كنت أقول لنفسي هذه الكلمات. أرددها لنفسي يا ثريا؛ لأنه وهب لي نفسي.

نظرت إليه في ريبة، فقال في تأكيد: كل يوم أرددها منذ كنت في دمشق.لِمَ تسألين؟

قالت في ارتياح: لا شيء.

قال كأنه يتكلم مع نفسه ولكنها سمعته: كاد القيد يتلفها. إمام بغداد مقيد حبيس، يضيق سجنه كلما ارتفع شأنه في الدنيا، عند التخلي تحررت، حاولت أن أصلح ما تلف. ولكنه جهاد مستمر وإغلاق كل أبواب الشيطان مستحيل في الدنيا. نسعى.

نظرت إليه ثم قالت في وهل: أن تتخلى عن كل شيء؛ الأموال، الحماية، الهيبة، القصور والفوارات، النهر، الفاكهة، هو تخلٍّ عزيز، ليس كل إنسان قادرًا عليه يا أبا حامد.

-لم أتحرك ولكنه حركني، ولم أشرع ولكنه دفع بي.

الفصل السادس عشر

«إلى كم تطوف في ساحل البحر مغمضًا عينيك عن غرائبه، أوَما كان لك أن تغوص في عمقه، فتستغني بنيل جواهره؟! أوَما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط وها أنا أرشدك إلى كيفية سياحته وغوصه وسباحته؟!».

الغزالي

في الخانقاه يختلي في الظلام، في الظلام يتسع الأفق، وتذوب حدود الدنيا وسماء العالمين. اليوم يناجيه وحده، عز اللقاء في الأيام الماضية، يشغله نداء طفل أو قلق على طالب علم، ولكنه عندما يخلو يصفو، يمزق أستار بدن يقف عائقًا دون السباحة في ملكوته، آه يا محمد! هل تركت فلم تعاودك الدنيا، وتذكرك بما مضى؟ هل تفرح أحيانًا بالإطراء أم تعز نفسك عندما تخرج من القلب كلمات غير كل ما كتب غيرك؟ يا محمد... سلكت طريق الأرواح فأفق. ها أنت تقف بين أبواب ملكوته وأبواب دنياك. لا تصفو الأرواح إلا بالتّرك يا محمد. فاستيقظ من غفوتك. سجد وترك خده على الأرض برهة، يخضع ليرتفع، يعجز ليملك. تمتم: افتح لي أبوابك، فقد زاد الاشتياق وعز اللقا بلا حجاب. كنت أظن أني أدرك الحقيقة، ولكنني أدركت حقيقة من الحقائق، لم تزل المعرفة تجذبني وتناديني، يثور القلب بعد شفائه على الجسد، يريد الحرية، يتجمد النظر إلى ما يسمح به الخيال، يصبح لكل شيء حيز وجسم، ولكن الروح لا حيز لها ولا جسم، لا تدخل من جهة ولا تخرج من أخرى. كأني لا أدرك إلا قالبي وجسمي، ومع هذا يتوق القلب إلى لقاء بلا حجاب، ويقظة لا

يعقبها غفلة أبدًا، وحياة لا نوم فيها، ولا حدود لمعانيها. أنت وضعت هذا الطموح في قلبي يا ملك، أعنّي على نفسي وظلامها، ففي ظلامك كل النور، وفي ظلامي هلاك. لجأت إليك لأني أحب، يشغلني حبك عمّا سواك، حتى والمرارة تمر على النفس فلا يستقر بداخلها إلا الشوق.

***

في درسه اليوم جاء إبراهيم السباك بملابس ثمينة وعمامة مُزينة، جلس بلا كلمة. التقت أعينهما، فأكمل الغزالي درسه قائلًا: لا بد أولًا من الاستعداد للفهم، وهذا لا يحدث إلا «بالرياضة، والمجاهدة، واطّراح الدنيا بالكُلّية، والانحياز عن غمار الخلق، والاستغراق في محبة الخالق، وطلب الحق». فكيف ستفهم حقيقة الروح وأنت لا تفهم حقيقة الحال؟ تظن أن النطق فقط باللسان مع أن الكون كله يسبح لله. لا بد أن تفهم ما وراء المعنى ولا تقف عند القشور. ماذا تريدون من الجنة؟

ساد الصمت فأكمل: لو كنتم تريدون أن تشبعوا شهوة الفرج والبطن فقط، فما الفرق بينكم وبين البهيمة؟ هيهات أن تكون جنة الله لا تخلو من المعرفة وهي أصل السعادات. كل باب من أبواب الجنة وراءه بستان معرفة «بل لا ينكر أن يكون فى العارفين مَن رغبته في فتح أبواب المعارف؛ لينظر إلى ملكوت السماء والأرض وجلال خالقها ومدبرها، أكثر من رغبته في المنكوح والمأكول والملبوس». العارف البصير يريد مشاركة الملائكة في القرب من الحضرة الإلهية في الفردوس الأعلى. فماذا تروم أنت؟ مشاركة الملائكة في القرب منه ومن معرفته أم التوقف عند الملموسات

والمأكولات والمنكوح؟ ماذا تتمنى في الجنة؟

التفت كل طالب لزميله، ولم يُجب أحد. فأكمل: «واعلم: أنه لو خلق فيك شوق إلى لقاء الله، وشهوة إلى معرفة جلاله أصدق وأقوى من شهوتك للأكل والنكاح، لكنت تؤثر جنة المعارف ورياضها وبساتينها على الجنة التي فيها قضاء الشهوات المحسوسة». شهوة لقائه خُلقت للعارفين فهل أصبحت منهم؟ وكيف نصبح منهم؟ «والعارف يتعجب منك في عكوفك على لذة الجاه والرئاسة، فإن الدنيا بحذافيرها عند العارف لهو ولعب». فالعارف لا يبغي إلا القرب منه ومعرفته، ولكن معرفته لا ساحل لها ولا انتهاء منها. فحتى لو خلد في الجنة لا تنتهي المعرفة. فلذة النظر إلى جلال الله للعارفين.

ساد صمت رهيب، فهم البعض كلماته، واستعصت على البعض. اقترب منه إبراهيم وألقى عليه السلام ثم قال: أنت غاضب مني يا إمام؟ هل ترضى عني؟

-الأهم هو أن تكون أنت راضيًا عن نفسك.

-اسمح لي بحضور درسك فقد افتقدته.

-لا أمنع درسي عن الطالب أبدًا.

انحنى ليقبل يده فأبعدها ثم قال: جئت لطلب عندك.

أسمعك..

قال كأنه يشرح لنفسه: كان لا بد من الجدال؛ أعني هو لتصحيح العقيدة، وأؤكد لك أني أغلظ على والي طوس وأنصحه، ولا أغتر بمعرفتي ولا بما تعلمت. أريد أن..

صمت، لم يلتفت إليه الغزالي. فقال كأنه طفل يريد العودة إلى والده، ويكره أن يعترف بحاجته: تخليت عني يا إمام. مع أنني تركت وطني من أجلك.

-لو تركت وطنك من أجلي فعد إليه، ولو تركته من أجله هو فما ضحيت بشيء. ماذا تريد..

-كرمك يخجلنا دومًا. كنت أريد أن أحضر دروسك، ولكني أعرف أن الوقت ربما لا يتسع لو تكرم عليّ الإمام برسالة، بكتاب قصير به نصائح لي أقرؤها كل يوم لأذكر نفسي لو نسيت. قرأت إحياء علوم الدين، وتعلمت منك، ولكني أريد الخلاصة، عشر صفحات لا أكثر بها ترياق لدائي.

فقال الغزالي: وهل تقوى على نصائحي؟

-يا شيخ... لدي زوجة وأبناء..وأحتاج إلى أن أؤمن معيشتهم.

أكمل الغزالي: أيها الولد، «عِش ما شئتَ فإنّك ميّتٌ، وأحبِبْ من شئتَ فإنّك مفارقُه، واعمَلْ ما شئتَ فإنك مجزي به».

بلع إبراهيم ريقه في خجل ثم قال: متى أستطيع أن آخذ منك الرسالة بالنصائح؟

-في الغد أعطيها لك. ولكنك لن تحب ما أكتب.

-أقسم إني لم أفهم نفسي إلا على يديك.

في اليوم التالي جاءه إبراهيم فأعطاه الكراسة وقال باللغة العربية: «أيها الولد... اجعل الهمة في الروح والهزيمة في النفس والموت في البدن». لا تجعل روحك هي ما تموت، بل جسدك الفاني،

ولو كان عليك أن تهزم شيئًا فاهزم هوى نفسك، واترك روحك حرة قوية».

نظر إليه إبراهيم كأنه لا يفهم، فشرح قائلًا: احم روحك يا إبراهيم. أحزن عليك لو رأيتك تموت من غفلتك.

أمسك بالكراسة ونظر إلى الكلمات. فتح عينيه في دهشة ونظر إلى الشيخ، وقال: هذه الكراسة باللسان الفارسي يا سيدي، أنا لا أقرأ إلا العربية، أنت تعرف.

هز رأسه ثم قال: بل تعلم أن العلم لا يأتي إلا لمن يطلب ويجتهد. أردتني أن ألخص لك العلم في صفحات قليلة حتى لا تتعب. افهم اللسان الفارسي لتقرأها.

-كأنك تعاقبني.

-بل أُعلمك، التعب مطلوب لمن يرغب في المعرفة. لا معرفة بلا طلب. احتفظ بها، وبعد أن تتعلم الفارسية تعال إليّ اسألني عن المعنى الذي يستعصي عليك.

قال في يأس: يا سيدي أبا حامد الغزالي، لِمَ تغضب مني كل هذا الغضب؟ أقسم لك..

-لا تنطق اسم الله هباء.

-لو تركنا الحكام لوزرائهم لقضينا على الأمة. مهمة رجل الدين..

قاطعه: الله. مهمة رجل الدين هي القرب من الله، الملك الوحيد، وليس القرب من وزير وسلطان يتعفن جسده بين التراب عاجلًا أو آجلًا. نصيحة الملوك تكون في كتاب تُعطيه لهم وليس في

مصاحبتهم ولا في طمع في سلطة ومنصب. أريد أن أخبرك خلاصة تجربتي مع الدين والدنيا لأني أهتم بأمرك. «إن الدنيا التي تطلبها بالدين لا تسلم لك، والآخرة تسلب منك. فمن طلب الدنيا بالدين خسرهما جميعًا، ومن ترك الدنيا للدين ربحهما جميعًا». مع الأسد لا أمان يا إبراهيم. يومًا يقربك ويومًا يبعدك. وغدًا تدرك أن الأمان معه وحده. تعلم وتعال، أنا أنتظرك. ستعود.

ولكن النفس حزنت على نبتة حميدة تتلوث أمامه وتذبل، حزن وهو يرى إبراهيم يهوي أمامه بعد أن صاحبه من الشام، وامتص الكلمات والكراسات، ثم تعثر عند أول فتنة. يرأف به، فقد كان مثله. ومن لا يهوي عند هوى النفس؟ ومن لا يسبح مع النجوم عندما يمتلك السلطة ويلتف حوله العامة والعلماء؟

حزن نعم، لأن ما يضعه في كتبه ربما يبقى داخل خزانته، فليس كل عالم يصلح لهذا العلم، ولا كل فقيه يفقه هذه المعاني. اليوم جاءه أرسلان، كأنه قرأ أفكاره.

قال وهو يجلس أمامه: كأنني تعلمت بين يديك عشرة أعوام ولم أفقه شيئًا. أنت تقول يا شيخ إن «جميع محاسن الدنيا في العقل، وسائر العلوم والأعمال مرجعها إلى العقل». وعقلي لا يفقه معظم ما تشرح.

وضع يده على قلب أرسلان ثم قال: فقه القلب أبلغ وأهم. الوصول بالعقل أشق من الوصول بالقلب. لو كنت لم تفهم فهذا لخلل فيّ وليس فيك. لا بد أن أشرح من جديد. ولكن العلم بلا عمل جنون، تذكر هذا، والعمل بلا علم لا يكون. أنت تعرف ما يكفي. تعرف اليوم

معنى القوة، أليس كذلك؟

قال أرسلان: أنت تقول: «القوي الشجاع من قهر نفسه، لا من صرع غيره».

-عند صفاء القلب تنعكس الحقائق وليس إدراك العقل هو كل الإدراك. خلقنا الله مختلفين، هذا تعلمته أنا في الكبر، وأدركته مع مرور العمر. أنت جاهدت نفسك أعوامًا. نشأت نشأة أخرى. أنت... جوهر ثمين لو تعلم.

***

لم يمنع أحدًا من حضور درسه قط، حتى ولو لم يكن من أهل الخانقاه التي بناها. اليوم جاء شيخ من نيسابور خصيصًا هو وأصحابه الثلاثة لحضور درس الإمام المجدد. بعد انتهاء الدرس طلبوا منه الحديث وحدهم. فصرف الحضور وجلسوا معًا، قال الشيخ النيسابوري في هدوء وحتمية: جئنا نعطيك النصيحة، يعز علينا أن يصبح زين الدين الشيخ المجدد كافرًا.

لم يتوقع الكلمة حتى وهو يتوقع السوء من البدء. كان يردد منذ الصغر أن:

كل العداوات قد ترجى سلامتها

إلا عداوة من عاداك من حسد

يعرف من يحسده ولم يعد يبالي. لو كان لديه تكليف وهدف فليس عليه إلا السعي، ولكن هذا الشيخ لم يأت هنا لأنه حاسد، حتى ولو كان قد استمع لكلام الحاسدين. جاء ولديه اعتقاد أكيد أن الغزالي

أصبح يحيد عن الدين.

أكمل الشيخ دون أن ينتظر إجابة الغزالي: تركتَ مذهب معلميك. كنت شافعيًا أشعريًا تكتب في الفقه، واليوم تتكلم كلامًا مثل كلام الصوفيين والفلاسفة.

رد في هدوء: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [النجم: 30]. أخبرني يا شيخ، ألا يُكفِّر الأشعريُّ الحنبليّ، ويكفر الحنبليُّ الأشعريّ، ويكفر الأشعريُّ المعتزلة؟

-ولكن فرقة واحدة على صواب يا أبا حامد، أنت تعرف، هناك فرقة واحدة ناجية.

ساد الصمت برهة، فأكمل الشيخ: ألن تجيب؟ ألن تدافع عن نفسك؟ كنت في الماضي من الفرقة الناجية، اليوم لم نعد متأكدين أنك أشعري. جئت أنصحك..

ابتسم الغزالي ثم قال: لو تأذن لي بكتابة كتاب أشرح فيه معنى الكفر في الشرع، وسوف أبعث إليك بنسخة. أشكرك على النصيحة.

-ألن تجادلني؟

-لا يفيد الجدال، أنا لا أجادل. ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53]. سأبعث لك الكتاب في أقرب وقت. ابق معنا لنأكل معًا.

ولكن الشيخ لم يبق، غادر في غيظ وهو يتمتم: لا حول ولا قوة إلا بالله. كفر الغزالي ولا أمل في إصلاحه.

بعد مرور أسبوعين انتهى الغزالي من كتابه «فيصل التفرقة بين

الإسلام والزندقة» بدأه بهذه الكلمات «أما بعد، فإني رأيتك أيها الأخ المشفق، والصديق المتعصب موغر الصدر، منقسم الفكر لما فرغ سمعك من طعن طائفة من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين، والمشايخ المتكلمين، وأن العدول عن المذهب الأشعري ولو في قيد شبر كفر...فهون أيها الأخ المشفق المتعصب على ما يقولون، واهجرهم هجرًا جميلًا».

ثم كتب في كتابه: «المبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل...فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده أولًا، وجعلوا الجنة وقفًا على شرذمة يسيرة من المتكلمين... بل الإيمان نور يقذفه الله في قلوب عبيده عطية وهدية من عنده...فاستوسع رحمة الله تعالى، ولا تزن الأمور الإلهية بالموازين المختصرة الرسمية».

بعث بالكتاب إلى الشيخ، ولم يقرأه الشيخ، ولا تغيرت نظرته. ولكنه بعث بنسخة أخرى إلى مكتبة مدرسة النظامية في نيسابور، لعل أحد الطلاب يقرؤه.

بعض مدرسي المدرسة في نيسابور، والمدرسة في بغداد أصبحوا يستاءون من كتابات الغزالي، هل تغير الرجل أم حاد عن الدين؟ تأججت النيران حوله وهو لا يكترث. يكتب بشغف من يدرك أن العمر قصير، والباع أقصر. كتبه يقرؤها الحاسد قبل الصديق، كل الناس تقرأ كتبه، بها كلمات ليست كالكلمات، ومعانٍ ليست كالمعاني، وصفات تعجز الألسنة عن نطقها.

الحسد لا يهدأ كنيران جهنم، لا سلا عنه الشيخ المسماري، ولا نسيه منصور. يبقى هناك في طوس، ويصل صوته إلى الأندلس ومصر. يقولون لو لم يمت هذا الرجل فلا سبيل إلى السعادة. ألم يحن الوقت للتخلص منه؟

***

لا يرتاح الغزالي ولا ينزوي ليتعبد. حكام طوس تضيق به. لِمَ لا يلتزم باب زاويته ويشغل نفسه بالعلم والخلوة؟ لِمَ يقف أمام الجنود الأتراك الغز كأنه سيمنع الظلم والطغيان؟ يسير وقد اقترب من الخمسين إلى بيوت الفقراء، يجلس معهم ويستمع إلى شكواهم. يبعث بالرسائل إلى وزراء الدولة يحذرهم من فوات حظوظ الآخرة، والظلم الواقع على أهل طوس. جاءه الوالي مغاضبًا، أغلظ عليه القول أمام طلابه، قال في سخرية: لِمَ تهتم بأهل طوس، وتترك بيت المقدس بين يدي الفرنجة؟ تقعد في زاويتك، والدنيا تحترق من حولك، ثم تأتي لتؤنبني أنا؟ هل تعرف مسئولياتي وأشغالي؟

نظر إليه الغزالي ثم أدار وجهه لإبراهيم الذي يصاحب والي طوس. لم يترك عينيه حتى أزاح إبراهيم عينيه، ثم قال في رفق للوالي: يا مولاي هذا أبو حامد الغزالي...الشيخ المجدد...لو شاع بين الناس أنك توبخ الشيخ...ربما يسيء العامة فهمك، وأنت دومًا مثال للعدل والرحمة.

رفع الغزالي حاجبيه، وهو يستمع إلى إبراهيم. ابتسم في سخرية فهمها تلميذه، فأدار وجهه. وطأطأ رأسه. قال الوالي وهو يرفع سبابته تهديدًا: ابتعد عن طريقي، لا تشكني للوزراء، ولا تؤلِّب الناس

علي.

قال الغزالي: واجبك حماية الرعية من الأذى. لو لم تستطع أن تمنع غارات الغز فاترك منصبك. نردع الظلم حولنا رويدًا رويدًا، لا بحروب فقط، ولكن برحمة وكرم. كيف لمن لا يحمي بيته أن يحمي بيت جاره يا والي؟

-كيف تجرؤ؟

قال إبراهيم في رجاء: مولاي...تعال نعود..

-الغزالي يتجرأ على الحكام، ولا بد من عقابه. يسجن اليوم.

قال إبراهيم مرة أخرى: مولاي.. لو عرف الناس..

التقت الأعين. تمنى الوالي أن يرى الخوف أو الرجاء، ولم ير سوى الثبات. أشار بيديه إلى الحراس، يريدون سجن الغزالي وضربه، يؤرقهم حضوره المفاجئ إلى كل الأماكن، وزجر الظالم بلا تردد. هموا بالقبض عليه، ثم توقفوا. أشار إليهم الوالي مرة أخرى بالتوقف، ثم خرج من زاوية الغزالي أكثر حنقًا وكرهًا.

في الطريق سأل الوالي إبراهيم سؤالًا مباشرًا: أنت عاشرتني سنوات. أخبرني برأيك فيّ؟

ارتبك إبراهيم وصمت.

فقال الوالي: ألا أرهق نفسي من أجل الرعية؟ ألا أضحي بمالي ووقتي لإرضائكم؟ ألا أضرب على يد الظالم وأنصر المظلوم؟

لم يستطع إبراهيم أن ينطق.

فقال الوالي في حدة: أجبني.

استحكمت الخيوط حول اللسان. أيكذب كذبًا صريحًا، أم يخبر الوالي بالحقيقة؟ ولو أخبره فسيقتله بالتأكيد. قال الوالي في تحدٍّ: الغزالي منافق كاذب.

ثبت إبراهيم نظره على الأرض وأطبق شفتيه. فقال الوالي: أنت تعرفه، أليس كاذبًا؟

قال في صوت خافت: هو ليس كاذبًا.

نظر إليه الوالي في غيظ ثم قال: مع من أكلت؟ من جعلك تسكن القصور؟ من جعل شهرتك تصل إلى العراق؟ تخونني اليوم من أجل شيخك؟ أي جحود لديكم يا من تدعون الدين؟

لم يُجب. أخرج الوالي كل ضغينة عنده ناحية الغزالي على إبراهيم. أمر بسجنه في الحال ثم تجريسه بعد حين في كل طوس. سيكون عبرة لكل طلاب الغزالي.

في سجنه غمرت إبراهيم دهشة لم يكن منبعها مصيره المحتوم بقدر ما كان منبعها ضآلة الوالي بحاشيته وقصوره. ظن أن الوالي سيعاقب أستاذه. رأى الوالي قادرًا، وبدا الآن أنه عاجز. ارتبك عالمه أو كاد أمام شجاعة شيخه وجُبن الظلم.. انهزم إبراهيم. في سجنه طلب من الحارس أن يُعلِّمه الفارسية ووعده بالمال، تردد الحارس ولكن مع طول الساعات والملل الطويل في السجن وافق. بعد ثلاثة أيام بكى، وبعد أربعة بدأ يتطهر.

***

خبر سجن إبراهيم السباك وصل إلى أبي حامد الغزالي وهو يصلي في خلوته. يعرف مَن السبب. لم يستطع الوالي أن يسجن الغزالي، ولكنه يستطيع أن يرد إليه الضربة. لا بد أن يعرف طلاب الغزالي أنهم دومًا في خطر، وأن من يقف للظلم ويظن أنه قادر سيتعلم أنه عاجز اليوم أو غدًا. ذهب إلى الوالي بنفسه يطلب منه خروج السجناء المظلومين، لم يبالِ الوالي. طلب من الغزالي التوقف عن بعث خطاباته للوزراء. ألم يدعِ أنه ترك المناصب؟ لِمَ يبعث بالخطابات إلى الوزراء ويشكو ويذم في الوالي؟ عندما عاد الغزالي، بعث بخطاب جديد إلى وزير السلطان السلجوقي، «فخر الملك» ابن الوزير«نظام الملك»، يدعو للعدل ومراقبة الولاة. وجاءه رد الخطاب، وكان ردًا لا يتوقعه. دق باب مدرسته بعد أقل من شهر الوزير «فخر الملك» نفسه.

جلس أمام الوزير بلا كلمة. رأى فيه ريح والده نظام الملك. يعرف هذه الإيماءات وهذه الخطوة. كم مر من العمر؟ ولكن لا هذا نظام الملك، ولا هو محمد الغزالي. بعد التحية والسلام، قال الوزير بلا مقدمات: جئتك بتكليف.

-كنت أريد منك أن ترفق بأهل طوس. يستحقون ما هو أفضل...لو طفت معي على الأزقة لشاهدت عجب العجاب. الفقر يعم، والمرض يأتي مع القهر والخيبة. بعثت لك بالكثير من الرسائل وأردت..

قاطعه الوزير: جئتك بتكليف يا إمام. تعود إلى التدريس بالمدرسة النظامية في نيسابور حيث بدأت. تصبح مدرس المدرسة النظامية هناك كما كنت.

تجمد مكانه ولم ينطق. فأكمل فخر الملك: اليوم أُطلق سراح كل المظلومين، واليوم أعزل والي طوس، وأرفق بحال كل سكانها.

قال الغزالي متجاهلًا طلب الوزير: «إن الدنيا عمرت بالعدل فكذلك تخرب بالجور؛ لأن العدل يصفو نوره وتلوح تباشيره. فإذا كان الملك عاجزًا عن إصلاح خواصه ومنعهم عن الظلم فكيف يقدر على رد العوام إلى الصلاح؟».

التفت الوزير حوله ثم قال: يا إمام هذا كلام يجز الرقاب. ارفق بحالي...وحال كل البلاد.

-في النصيحة رفق وحب.

-ولكن بقاءك هنا وترك العلم في يد من لا يعلم ظلم أيضًا.

-أنا أدرس هنا وأكتب.

-يا حجة الإسلام جئتك بتكليف. أريدك أن تعود لتدريس الفقه. لا أحد يعرف أصوله مثلك في كل البلاد. المسلمون يحتاجون إليك، بل كل البشر يحتاجون إليك. تقول في كتبك إن الإنسان خُلق ليعيش وسط الناس، وإن الأحكام تنظم هذه الحياة. واليوم التبست الأحكام على الفقهاء في شتى البلاد. هل ترك العلم للجهلاء من الإنصاف؟

لم يجب.

فقال فخر الملك: أجبني يا إمام.

-ليس من الإنصاف، ولكن أستطيع أن أكتب كتابًا عن أصول الفقه يدرسه غيري.

أكمل فخر الملك: تعرف أن المعاني تلتبس على الكثيرين. أنا لم آت لأخذ رأيك يا إمام. هذا أمر من ملك الشرق «سنجر». عدم امتثالك للأمر يؤدي إلى قطيعة وعقاب. أعرف أنك عاهدت نفسك بالبعد عن السلاطين والسياسة، ولكن نيسابور ليست بغداد. تُدرس فقط، لن تقابل سلاطين ولا ساسة. ولا حتى ستقابلني أنا. نتمنى أن تكتب كتابًا عن أصول الفقه بعد أن التبس الأمر على العلماء قبل العامة، ولكننا نتمنى أيضًا أن تُدرسه بنفسك، وتشرحه لطلاب العلم. هذا أمر من الملك سنجر.

قال بعد برهة: يا وزير أنت ابن الشهيد نظام الملك، والدك كان عزيزًا عليّ، يعرفني. أريدك أن تعرف شيئًا عن هذا الزمن الذي نعيشه وهذه الأيام. «إن هذه الأيام لا تتحمل كلامي، فإن كل من ينطق بكلمة حق في هذه الأيام تعاديه حتى الأبواب والجدران، وأنا سلمت الدنيا لأهلها». إذا بدأت التدريس في نيسابور فسآتي لك بالمشاكل قبل أي شيء. تلتبس المعاني على الناس نعم، ويفضلون من يرهبهم من نار وعقاب، ويمنيهم بجنة وفاكهة فقط. الواعظون كثيرون في نيسابور، لا تحتاج إلى الغزالي.

قال فخر الملك: أنا لا أحتاج إلى واعظ ولا فقيه يا إمام. أنا أحتاج إلى الغزالي. هذا إلزام يا حجة الإسلام.

-سأفكر في الأمر، وأستخير الله.

ابتسم فخر الملك وتركه.

ولكنه لم يعد إلى بيته. جلس في زاويته وحده. أطفأ القناديل واتسعت انحناءات الوجود بين مقلتيه.

***

هنا يقف وحده وسط الصحراء يناجيه ويطلب النجاة فقط. يأتي بكل همته وضعفه، يا رب، يا ألله، يا مالك الملك، أترك نفسي بين يديك. لا أعرف الغيب، ولا كيف لي أن أسير. شفيتني بإلهامك لي، بتكليفك كتبت ما كتبت، ولولا ما كتبت لتهت في غيابات البحر المغرق. كدت أفقد عقلي وسط الجنون حولي، فانتشلتني كما فعلت بموسى وهو في اليم. الآن عليّ أن أعود من حيث رحلت، وأدنو في حين ابتعدت. لا تُحملني ما لا أطيق، كنت أعرض بوجهي عن آدم وذريته، وألتفت لك وحدك. لا تشغلني بدنيا تتلاشى قبل أن تبدأ. وكيف لمن ذاق لذة معرفتك أن يستلذ سواها؟ لا تترك الحياة تسرقني، أعتقني من الأسر والرق لسواك. تركت نفسي بين يديك وروحي في حماك. الكلمات هي كل ما أعرف، أغوص يومًا أو بعض يوم في المعاني، تتصل الجمل أمامي، برضاك يتضح بعضها، ويومض بنور المعرفة قلمي، وبقدرتك تشفي القلب من وساوس الزهو والكبر. أحبك حبًا يستغرق القلب بكل حناياه. لا ألم ولا خوف في قربك. فالخوف منك، والأمن منك، وأنت خالق «سبب الأمن والخوف جميعًا». لا تزل قدمي بعد أن ثبتت أيامًا أو بعض أيام. كان النزاع لا ينتهي والجهاد مستمرًا لآخر نفس ما دامت الروح حبيسة الجسد. فسبحان من احتجب عن الخلق بنوره، وخفي عليهم لشدة ظهوره! كلما ناجيتك اتسعت الرؤية، وانعكس النور على القلب المكلوم.

عندما عاد ليأكل العشاء مع عائلته، قالت زوجته بلا مقدمات: أتريدنا أن نجهز للسفر لنيسابور؟

نظر إليها برهة ولم ينطق.

فقال أحمد: هو تكليف أيضًا يا محمد، أنت تعرف.

ساد الصمت برهة ثم قال: مثل الدنيا مثل ظل إذا رأيته حسبته ساكنًا، وهو يمر دائمًا.

فقال أحمد: هي تمر يا أخي وتتغير، أنت لست محمد الذي تركها منذ أعوام. هذه المرة سأصاحبك ولن أتركك.

الباب السادس

العودة

«وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم..فما رجعت، فإن الرجوع عود إلى ما كان، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه للجاه، وأنا الآن أدعو إلى نشر العلم الذي به يترك الجاه، وإنما أبغي أن أصلح نفسي وغيري».

الغزالي

الفصل السابع عشر

نيسابور 1106م - 500 هـ

بعض الرجال حلمهم جارية وقصر، وآخرون يحلمون بسلطة ورياسة، ولكن الشاب عبد الملك كان يحلم بشيء واحد، مقابلة الغزالي. ترك الإسكندرية وهو في العشرين من عمره، ولم يصل إلى نيسابور إلا وهو في الواحدة والعشرين. قرأ إحياء علوم الدين، فهم بعضه ولم يفهم بعضه. صاحبه الكاتب في كل أيامه حتى ولو لم يقابله. يقرأ الشيخ في مسجد العطارين في الإسكندرية بعض كلمات كتاب «ميزان العمل» بعد صلاة الجمعة. ثم يحضر درس الشيخ نفسه، فيجده يتحدث عن كتاب الوسيط في الفقه الشافعي للغزالي. في البدء لم يكن متأكدًا هل شيخه لم يقرأ لأحد سوى الغزالي أم أن الغزالي كتب ما لم يكتبه غيره. بعد بضعة أشهر أحب الكاتب. يتصور نفسه يناقشه ويحاوره. يستمع إليه ويمتص كلماته داخل القلب. استوقفته ثلاث كلمات «الراسخون في العلم» ذكرها الغزالي في إحياء علوم الدين، ثم ذكرها في بعض كتبه عن الصوفية. يقول إن بعض الكتب التي يكتبها لا تصلح إلا للراسخين في العلم ويمنع الناس من قراءتها. يقول إن الراسخين في العلم هم مَنْ عملوا بما تعلموا، مَنْ تركوا التقليد والتعصب، ومَنْ تركوا معهما الدنيا وزيفها. ردد عبد الملك الآية من سورة آل عمران ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾. يفهم معنى﴿ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾، وهم أصحاب العقول. ولكن كيف يصبح من الراسخين في العلم؟ وأي درجة هذه؟ ترك

عتبة بيته العالية ووالده التاجر الثري واتجه نحو نيسابور. كلما توقف في مدينة سأل أهلها لو قرءوا للغزالي. يستمع إلى الشيوخ ويفهم. بعضهم ينتقد كلمات الغزالي وبعضهم يبجله. العالم الأوحد، حجة الإسلام، والشيخ المجدد، كأنه جمع بداخله ألف رجل، يتكلم عن الفلسفة والفقه والصوفية وعلم الكلام والمنطق. يفهم في الطب والرياضة وعلم التشريح. أي رجل هذا؟ كلما اقترب اللقاء رفرف القلب. وعند وصوله إلى نيسابور لم يتوقف ليأكل أو يشرب، هرول إلى المدرسة ليقابل الكاتب. دخل باب مدرسة النظامية في نيسابور فوجد ما يبحث عنه، الغزالي نفسه، كان جالسًا وسط طلابه بملابس متواضعة، صوته يدوي في المكان حتى وهو لا يتكلف بسجع أو كلمات صعبة. جلس ووضع أمتعته بجانبه وهو يلهث، ونظر إلى حجة الإسلام. جميل الوجه حتى وهو في الخمسين، عيناه تبرقان كالسيف المصقول بعناية، وحاجباه المستقيمان يشيان بثبات وإصرار لا يتزعزع. لحيته مهندمة وشعره الأسود ممتزج بالقليل من البياض. تجمد أمامه لا يبرح النظر إلى وجهه يلاحظ فمه وهو ينطق، وعبوس وجهه وهو يخرج الكلمات من القلب، يلحظ يديه وهما تتحركان في حذر وبلا اندفاع. لم يستمع إلى الكثير من الكلمات. كان يلاحظ الكاتب الذي أحبه منذ عامين أو ثلاثة. التقت أعينهما على ما يبدو. خرجت ابتسامة من الغزالي فارتجف القلب وهوى. ثم قال الغزالي: أنت غريب هنا؟

قال عبد الملك في تلعثم: من الإسكندرية.

رفع حاجبيه ثم قال: سفر طويل ومعرفة لا يستهان بها.

فقال كأنه يدافع عن نفسه: نحن هناك شافعية لسنا من الباطنية

يا شيخ. أهل الإسكندرية من السنة الشافعية حتى لو كان يحكمهم الفاطميون.

ابتسم ثم قال: لم أسألك عن مذهب يا بني، لا يعنيني. عند انتهاء الدرس أريد لقاءك.

علت دقات قلبه وأغمض عينيه. بدأ يقرأ القرآن ليطمئن. عند انتهاء الدرس كان الغزالي هو من اقترب منه وجلس أمامه. فهب واقفًا وقال: عفوًا سيدي..

-لست سيدك، هناك سيد واحد. مرحبًا بك في المدرسة. لديك سؤال يُلح عليك؟

قال مسرعًا: الراسخون في العلم..

-هذا أصعب سؤال يا عبد الملك.

-كيف عرفت اسمي؟

-كلنا عباد الملك. لا أملك سبر القلوب ولا معرفة الغيب. هذا أول شيء تتعلمه. أما الراسخون في العلم فصعب عليّ أن أشرح حالهم بالكلمات. لا بد أن تتدرج في المعرفة لتتذوق حالهم. فما تذوقنا نستطيع شرحه وتخيله أما ما لم نتذوق فصعب تخيله. العقل محدود دومًا يضع حيزًا لكل شيء. تركت وراءك بيتًا أو أولادًا؟

هز رأسه بالنفي. فقال الغزالي: تركت وراءك مالًا؟

هز رأسه بالإيجاب. ثم قال بلا مقدمات: ولكني أريد بيتًا هنا بجانبك، وزوجة هنا بجانبك. لو كان للشيخ بنت..

ابتسم ثم قال: طلبت منك أن تصاحبني في علم لا في الدنيا، فصداقة الدنيا تتغير بتغير الأحوال. أعطيك أول نصيحة: «أيها الولد، ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقًا للشرع؛ إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة، وينبغي لك ألا تغتر بالشطح وطامات الصوفية؛ لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس وقتل هواها بسيف الرياضة». أخبرني ماذا قرأت؟ وما أسئلتك الأخرى؟ نأكل معًا هنا وتبقى في المدرسة.

-يا شيخ.. لا أريد أن أرهقك... كان يومًا طويلًا..

-جئت بهمتك إليّ فجئت بهمتي إليك. احك لي..

***

لم يستطع عبد الملك أن يستوعب في البدء أن مَنْ يصاحبه ويتكلم معه هو أبو حامد الغزالي. هذا رجل يعرفه كل البشر بالتأكيد. يعرفون حكايته ومحنته، يقرءون كتبه، يحبونه أو يكرهونه، ولكنهم يعرفونه. كلما تبسط معه الشيخ تردد. يومًا سأل عمر ابن أخت زوجة الإمام الذي يحضر درسه دومًا: أنت تعيش مع أبي حامد الغزالي في بيت واحد. هل تدرك حظك في الدنيا؟ احك لي عنه. كيف هو؟

رفع عمر كتفيه ثم قال: إنسان.

-مثلنا؟

-ليس مثلنا. ولكنه إنسان.

فقال عبد الملك في تأكيد: أنت تعرف أنه ليس مثلنا. تصور نفسك إمام بغداد، هل تترك المنصب؟ تعرض نفسك للذل والهوان في الدنيا

بعد العز والقصور؟ من يستطيع أن يفعل هذا؟

قال عمر: أنا لا أستطيع ولا أنت. ولكن الشيخ يقول إن الله هو من حركه عندما فقد القدرة على الكلام. هي قصة طويلة. هل تعرفها؟

-أعرفها، ولكني أريد أن أسمعها منك.

بعد شهرين سأل عبد الملك الغزالي بتلقائية وبلا مقدمات: يا شيخ لِمَ رجعت إلى التدريس في نيسابور؟ ألم تترك مدارس الوزراء لتدرس في طوس، في مدرستك أنت حتى لا يتحكم فيك حاكم؟

- أنا لم أرجع .. «فإن الرجوع عودٌ إلى ما كان، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه للجاه، (...) وأنا الآن أدعو إلى نشر العلم الذي به يُترك الجاه». هل تفهم ما أعني؟

-كأنك تذم ماضيك، وأنت حجة الإسلام الإمام الأوحد. لا أرضى منك أن تفعل هذا؟

-كأنني أبغي من وراء وجودي أن أصلح نفسي وغيري. فكيف لمن لا يصلح نفسه أن يصلح غيره؟! الدنيا مجاهدة مستمرة.

-كيف استطعت أن تترك؟ أي شجاعة لديك!

-بل عجزت ولجأت إليه. ما تحركت ولكنه حركني، وما بدأت إلا لأنه دفعني. كنت في ضلال الدنيا فعرف حالي وانتشلني من نفسي.

-يا شيخ...هذا كلام لا يجوز في حقك.

قال الغزالي وهو ينظر إليه مليًا: جئت تطلب العلم أليس كذلك؟ «ومن نبض فيه عرق من عروق التقليد فلا يصلح لصحبتي ولا

أصلح لصحبته». لا بأس بالشك المؤدي إلى اليقين، ولا بالغوص في العلوم إذا كنت قادرًا على السباحة، أما لو كنت ما زلت تتعلم السباحة فالحذر أولى.

بلع عبد الملك ريقه ثم قال: أتمنى الغوص مثلك. أريد العلم.

فقال الغزالي: «ولو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب، فلا تكون مستعدًا لرحمة الله تعالى إلا بالعمل».

-تركت ورائي كل شيء لأعرف وأعمل بما عرفت. هلا كتبت لي كتابًا به خلاصة علمك؟ البعض يتهمك يا إمام أنك تأثرت بالفلسفة. نعرف أن الإمام اتخذ المسلك الصوفي، ولكن لِمَ عدت إلى التدريس في نيسابور؟ أصدق معك يا إمام كما علمتنا. أخبرنا عن خلاصة علمك.

بعد أيام أعطى الغزالي كتابه لعبد الملك، فهرول الطالب إلى حجرته في لهفة. هذا كتاب عن خلاصة علم أستاذه وعن عقيدته وعن أساتذته ومنهجه. سيفتح الكتاب ليجد شرحًا لكل ما قرأه ولم يفهمه، وكل ما أراد أن يعرفه ولم يجده في كتبه في الإسكندرية. قرب السراج من الكلمات وقرأ:

«ولم أزل في عنفوان شبابي- منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين، إلى الآن، وقد أنافت السن على الخمسين- أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وأتفحص عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة؛ لأميز بين محق ومبطل».

قطب عبد الملك حاجبيه، تحير وفزع. هذا كتاب بعنوان «المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال». ولكنه ليس كأي شيء قرأه في كل حياته. أين الأساتذة الذين اتبعهم الغزالي؟ أين الدفاع عن مذهبه؟ أين تعريفه لمذهبه؟ أين شرحه؟ عمّ يكتب الغزالي؟ وكيف امتلك جسارة تجعله يقول عن نفسه إنه في بداية شبابه شك في كل شيء وكان في حالة سفسطة؟! كيف للفقيه وللشيخ أن ينطق بهذا؟ يخط عذابه على الأوراق، ويفصح عن أحواله وتغيرها. من شك لنور يقين، ثم شك في جدوى العلم وبحث عن الحقيقة. ثم محنة وانشقاق القلب من الصدر. يتكلم عن تهتك القلب ومرضه، وعن علة في لسانه منعته من الكلام. يتكلم عن ضعفه وقوته.. عن الإنسان. يسكب من الأعماق صدق الأعوام بلا تردد ولا اكتراث. كأنه يتكلم عن عبد الملك وعن إبراهيم وعن كل البشر. عمن هوى ومن وجد المسلك، عمن غرق ومن نجا، عمن غاص في بحر لجي، ومن غاص في النور فوجد اللؤلؤ والمرجان. آهٍ يا شيخ! لِمَ تلمس كلماتك العروق وتمر حروفك على شغاف القلب؟! ألم يكن آمَنَ لك أن تكتب مثل غيرك عن تعليمك ومعلميك؟ لِمَ أخلصت فشققت النفس نصفين؟

أعاد عبد الملك قراءة الكلمات والدموع تبرق وتستقر.

«ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير صالحة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جُرُفٍ هارٍ».

أغمض عينيه برهة. كيف سيواجه شيخه غدًا؟ ماذا سيقول؟ ها هو رجل يعترف بأنه مرض، ثم يصف الدواء في كلمات تبدو في

الظاهر سهلة وهي بصعوبة دخول «الجمل في سم الخياط». وما الدواء يا شيخ؟ يصفه قائلًا: «تطهير القلب بالكُلِّية عما سوى الله تعالى». هنا المسلك وهنا الدواء.

هذه كلمات توجب الصمت، وهذا جمال وبهاء ونور من لدنه يعطيه من يشاء.

الفصل الثامن عشر

«ليس كل سر يكشف ويفشى، ولا كل حقيقة تعرض وتجلى.بل صدور الأحرار قبور الأسرار».

الغزالي

خرجت فاطمة وهي تمسك بيد أختها الوسطى، وأختها الوسطى تمسك بيد أختها الصغيرة التي لم تتعد الخامسة، حاولن السير في خط مستقيم، وهدفهن استكشاف هذه المدينة الجديدة. وفاطمة وإن كانت قد ولدت في بغداد فهي لا تتذكر عنها أي شيء حتى حكايات والدتها ثريا عن القصر والفوارة، وعن جريها وإلقاء نفسها في المياه كل صباح، حكايات لا تجد مكانًا في الذاكرة مع أنها تصدقها وتحفظها. لا تحكي الأم بحنين إلى القصر بقدر ما تحكي بحنين إلى ابنها حامد ووجوده حولها. اليوم ثريا سمحت للبنات بالخروج على ألا يبتعدن عن البيت.

لنيسابور رائحة المدن القديمة الغنية كأنها صُنعت من العنب المُصفى، والمسك الممزوج بالزعفران. اختل الخط المستقيم وجرت عائشة بأقصى سرعة، تنطلق من بستان إلى بستان، وجرت وراءها فاطمة وهي تجر زينب وتوبخ عائشة. ولكنْ لعائشة هدف بعينه، حديقة العنب الذي تشم رائحته. لأول مرة تدرك فاطمة لِمَ سمي العنب بالكَرم، فقطفه سهل لأنه قريب، وجوده وكرمه واضحان للناظرين لأن الشوك لا يحاصره، يفيض بكثرته ويدعو كل مار إليه في سلاسة ودون أن يطلب مقابلًا. امتدت يد عائشة، بل امتدت يداها الاثنتان، وأمسكت بعشر حبات في الوقت نفسه، ثم بعنقود

كامل، دست الحبات داخل فمهابلا تفكير، وعندما وصلت إليها فاطمة وجدت أختها الصغيرة بفم ملطخ بالعنب الأحمر، تنظر إليها في حذر، فوبختها فاطمة، وأمسكت العنقود من يدها وهي تقول: هذه ليست حديقتنا.

انهمرت عائشة في البكاء بلا توقف، فأمسكت بها لتسير خارج الحديقة، ولكنها ثبتت قدميها بالأرض واعترضت وثارت. فقالت فاطمة في حسم: لن أعطيه لك. ولو لم تأتي فسأخبر والدنا. هيا..

لم تلاحظ فاطمة أثناء معركتها مع الطفلة أن العينين تتابعانها حتى سمعت صوتًا من ورائها: أعطيها العنقود وستكف عن البكاء.

قالت دون النظر إلى من تكلم: لن أفعل لا بد أن تتعلم أن..

ثم التفتت.. التقت العينان وهوى القلب. كان شابًا جميلًا بقامة مستقيمة وملابس فاخرة. ابتسم ثم قال: أنا صاحب الحديقة، وأريد أن أعطيها العنقود بنفسي.

انحنى وقطف عنقودًا آخر وأعطاه عائشة، فتوقفت عن البكاء. لم تلاحظ فاطمة حينها أن خمارها لم يكن يغطي وجهها، وأن وجنتيها كانتا بلون العنب الأحمر. أمسكت بيد عائشة ثم قالت وهي تطأطئ رأسها: أنا آسفة لم أقصد أن أدخل إلى هنا ولا أن نسرق من حديقتك.

ضحك حينها قائلًا: تسرقين؟ لا، لم تسرقي. من أنت؟

بلعت ريقها ولم تتأكد هل عليها أن تجيب أم لا. أعاد السؤال مرة أخرى: ما اسمك واسم والدك؟

فقالت هذه المرة وهي تجري لتهرب من مشاعر جديدة عليها: فاطمة بنت أبي حامد الغزالي.

تركته واقفًا مكانه في حيرة. عاد إلى والده وأخبره أنه يريد الزواج من ابنة الغزالي. فقال الأب في تأكيد: لن يوافق يا بني، لا تُعلق الآمال، إذا كان تخلى عن كل أمواله للفقراء، فكيف سيزوج ابنته من رجل يملك الضِّياع والقصور؟

ولكنه قال في حسم: لا أريد غيرها.

-انس أمرها يا حاتم. هذه صعبة المنال، أصعب من ابنة الخليفة نفسه. هؤلاء قوم تخلوا عن الأموال، لم يعد لهم شغلٌ غير الله. سيزوجها من رجل مثله، أحد طلابه.

لم ينس أمرها.. ذهب إلى درس الغزالي واستمع. لم يفهم كل الدرس، ولكنّ عينيه كانتا على الشيخ، أصابته الرهبة ولأول مرة يتسرب الخوف إلى الأعماق. ربما كان والده على صواب. قوّم ملبسه بأقل من نصف درهم، تفحّصه وهو يتكلم مع طلابه في تواضع تام وعيناه لا ترتفعان عنهم، ونظرته لا اختيال فيها ولا معرفة. اقترب وانتظر حتى ينتهي، ثم أخبره أنه يريد الكلام معه في أمر مهم.

جلس أمامه وتردد، والغزالي ينظر إليه بلا توقف منتظرًا ما سيقول، ثم قال: جئت أطلب ابنتك للزواج.

لم يُجب. نظر إلى ملبسه وهيئته. فقال حاتم مسرعًا: أبي قال إنك لن توافق. ولكني أعرف أنك ستوافق.

-تعرف؟

-ومتأكد أنك ستوافق. يقولون إنك تقرأ القلوب.

اعتدل الغزالي في جلسته ثم قال: أستمع إليك.

فقال حاتم في ذهول: عفوًا؟

-جئت تتكلم وجهزت الكلمات، وها أنا أستمع..

-رأيتها لأصدقك القول. أنت تقول إن الرؤية تؤلف القلوب. والدي تاجر ويملك ضِياعًا هنا وأنا أعمل معه. لا أملك جَواريَ ولن أتزوج غيرها. والدي قال إنك لن توافق لأني أملك المال. أنا أملك المال ولكنه حلال. أحاول أن أتقيَ الله دومًا. وأتصدق وأدفع الزكاة.

ساد الصمت برهة ثم قال الغزالي: ولِمَ اخترت ابنتي؟

تردد في الكلام ثم قال: أنت تقول إن مفاتيح القلوب بيد الله يفتحها كيفما شاء. أنا لا أحضر درسك، ولكن بعض كلماتك يحفظها كل أهل نيسابور. هل توافق أم هل تقف أموالي عائقًا للوصول؟ أفتني يا شيخ.

-تريد الفتوى أم الزواج؟ جئتَ مستعدًا للمجادلة والمناظرة. أخاف أن تهبط الهمة بعد الوصول إلى الهدف. ما الزواج بالنسبة إليك؟

-به مذاق الجنة لو كان من امرأة صالحة. فما ندركه من سعادة في الدنيا يشجعنا على العمل من أجل الآخرة.

-تعجبني كلماتك.

-هل توافق؟

-أعطني فرصة للتفكير واستشارتها.

أمسك بيده ليقبلها، فأبعد الغزالي يده. في البيت جمع زوجته وابنته، وأخبرهما بما حدث، وعيناه لا تتركان عيني فاطمة. قالت ثريا في حذر: لا أثق بأصحاب الأراضي والتجار يا محمد. كنت أفضل أن تتزوج من رجل مثلك.

فنظر إلى فاطمة ينتظر كلماتها ولكنها لم تنطق، كانت تنظر إلى الأرض وتفرك يدها. فقال لزوجته: أنت لا توافقين يا ثريا؟

قالت: لا أوافق يا محمد. المال فتنة وحائل للسعادة خاصة عند الرجال.

ابتسم ثم قال بعد برهة: المال فتنة على أصحاب القلوب الضعيفة، ولكنه وسيلة للجنة لأصحاب البصيرة.

-هذا شاب يا محمد، ربما أراد الحصول على بنت مختلفة، ولكنه بعد حين يسأم وجودها ويعتاده ويتركها معلقة ويتجه لغيرها. لا أوافق.

نظرت إليها فاطمة في عتاب. ثم نظرت إلى والدها في استغاثة. كأنه فهم نظرتها، قال في رفق: ثريا نعطي الشاب فرصة ولا نحكم عليه.

-أنت من تقول هذا يا محمد؟

-ما يصلح لي لا يصلح لغيري. تخلّيت لأني أفضل التخلي، وليس لأن التخلي فرض على كل البشر، لو أعانه ماله على الصلاح في الدنيا فلا غبار عليه. الشاب لديه عقل يفكر ويتأمل ولَدَيه دين، أعجبني. ولكن إن لم توافقي فسوف أخبره غدًا.

طبقت شفتيها ثم نظرت إلى فاطمة، بدأت الدموع تلمع في عيني البنت. ولكن ثريا قالت في حسم: لا أوافق.

استغاثت البنت بأبيها دون كلمات، بنظرات عينيها، وهز هو رأسه كأنه يفهم. ولم تجرؤ فاطمة على أن تخبر أمها بما يجول في خاطرها، ولا باحت لها عن شوق بدأ من نظرة واحدة. ثريا كانت أمًّا حنونًا، ولكنها أيضًا صارمة، لديها أنظمة تُتبع وقواعد لا يحيد عنها أحد. تحدث معها يومًا واثنين وثلاثة، قال في رفق: البنت تريده.

فقالت في حسم: لا تعرف مصلحتها. الشغف لا يولد زواجًا يا محمد.

نظر إليها وابتسم. فهمت ابتسامته فقالت في تردد: أعني لا تَقِس الناس عليّ أنا وأنت.

هز رأسه ثم قال: أريدك أن تتكلمي معها بنفسك.

فقالت: تدلل البنات أكثر من اللازم.

وفي اليوم الرابع دخلت لتطلب من ابنتها شيئًا، فوجدتها تبكي وحدها، قالت في عصبية: لِمَ تبكين؟ كيف لابنة الشيخ أن تكون بهذا الضعف؟ متى أحببتِه؟

قالت في بعض الخجل: لا أحبه.

ولكنها لم تتوقف عن البكاء. عبس وجه الأم ثم قالت في حدة: أريد مصلحتك لا أكثر. زواجك منه مغامرة ربما تدفعين ثمنها لاحقًا.

استجمعت شجاعتها ثم قالت وهي تتحاشى النظر إلى عيني أمها: والدي يقول: المنازل الرفيعة لا تُنال إلا باقتحام الأخطار.

نفخت في ضيق ثم قالت: هو يتكلم عن منازل السائرين لطريق الله، وأنت تريدين الوصول لغرض قلبك. تتفقان عليّ أنتِ وهو. حسنًا. سأوافق ولكني أحذرك من هذا القلب الهش.

ابتسمت فاطمة وسط الدموع.

***

يوم زواج فاطمة انهالت الأم عليها بالوصايا، وانطلقت الخالة بالزغاريد. ثم جففت ثريا دمعة بردائها، ولكن فاطمة لاحظتها فأمسكت بيد أمها وقالت فجأة: لا أريد أن أتركك.

قالت وهي تخفي ضعفًا: كنت تلهثين وراء الزواج منه. تحبينه، هكذا قلت.

خفضت رأسها ثم قالت: يقولون لا حب مثل حب زوجة الإمام، أمي؛ خالتي عزيزة تحكي لي.

لم تكن تحكي عن نفسها أمام أطفالها قط، تترك مسافة آمنة لتستطيع أن تأمر وتنهى؛ لأن الأب يدلل ويعطي، يحتضن ويحتوي فقط، أصبحت هي يد الجندي في البيت. ثم نظرت إلى أختها في لوم، فرفعت يديها وقالت وهي تخرج من الحجرة: لم أقل كلمة واحدة.

قالت فاطمة مداعبة والإحراج يبدو على الأم: خالتي تقول إنك أحببته أعوامًا في صمت، وإنك عندما تزوجته كنت تهيمين أسابيع، لا ترين غيره حولك. تقول إنك تدورين حوله، ما زلتِ لا ترين غيره أيضًا.

قالت وهي تفرد بأصابعها رداء ابنتها: هو الغزالي يا بنت.. يستحق الحب، أي رجل غيره لا بد من المعاملة معه في حرص. هل تفهمين؟ الحذر والحرص مع الرجال. الرجل تتعاملين معه كالصبي، توضحين ما تريدين وتعاقبين وتمدحين.

لم تلاحظ أنه دخل عليها حتى سمعته وهو يقول: كالصبي؟

شهقت في فزع وكتمت فاطمة ضحكتها، قالت مسرعة: لو جئتَ من البدء كنتَ سمعتَ أني قلت إن كل الرجال غير الغزالي.

بدا أنه ضحك، فهدأت بعض الشيء ثم قال: تذكرينني بالوزير الشهيد نظام الملك، كان ينصحني بالنصيحة نفسها ولكن مع السلاطين.

قالت وهي تنظر إلى عينيه: كل رجل يظن أنه السلطان في بيته.

-يظن نعم. من يتأكد ويخطئ يعاقب، ومن ظن ثم أخطأ ربما يعاقب وربما لا.

-تدافع عنهم يا إمام!

-بل أؤكد كلماتك يا زوجة الإمام.

نظر إلى فاطمة برهة، بدا كأنه لا يرى غيرها، ثم احتضنها، فبكت وهي تقول: غيرتُ رأيي لا أريد الزواج.

قبّل وجنتها ثم التفت إلى ثريا وقال: هذا أيضًا ظن وليس يقينًا. هيا.. زوجك ينتظرك بالخارج.

***

يوم زواج ابنة الغزالي لم يمر كأي يوم مع أنه تحاشى الإعلان عنه، لم يتوقع من سيأتي خصيصًا من بغداد ليبارك له. رجل يعرفه حق معرفة. الوزير ابن جهير وزير الخليفة.

بعد التحية قدم للوزير الطعام، وجلس أمامه كأنه يتذكر حوادث الدهر التي يتمنى أن ينساها.

جاء الوزير ليتأكد. حتى الخليفة لا يصدق. تخلى الغزالي عن المنصب ثم بعث برسالة للخليفة يطلب فيها أن يعفيه من الخروج لبغداد؛ لأنه وعد عند قبر إبراهيم الخليل ألا يقابل ملوك الأرض، ولا يجادل ولا يتعصب لمذهب. تحير الخليفة والوزراء. قالوا إنها حالة لا تدوم. ولكنها دامت عام وراء عام وابن جهير ينتظر عودة الغزالي لاهثًا طالبًا لما ترك. ولم يعد.

قال الوزير بعد حين: أنا لا أنساك يا أبا حامد. مَنْ يعرفك لا يستطيع أن ينساك. الإمام الأوحد زين الدين وحجة الإسلام، يا مجدد المائة، كُتبك كلها في مكتبتي الخاصة. حتى كلام الوشاة لا يؤثر فيك كأن قلمك سحري يخترق القلب قبل العقل يا أبا حامد..

قال في رفق: يا وزير لطالما اخترقت كلماتك الفؤاد في الماضي، ولكن الماضي لا يعود..

تفحصه بعينيه ثم قال: الإنسان جوهر لا يتغير يا أبا حامد، هكذا قلت.

-بل قلت إن للإنسان جوهرًا يتطور، وينشأ نشآت كثيرة بتغير أطواره وعمره، يبقى الجوهر نعم، ولكن تختلف النشأة كاختلاف الموت والحياة. أريد أن أعطيك نصيحة، خلاصة ما تعلمته في

الرحلة يا وزير، «زمانك محسوب عليك، وأنت كالمستأجر، فشغلك بأيامك الباقية وتحسين حالك مع الله أولى من زيارتي».

عندما خرج الوزير ابن جهير كان يضرب كفًا على كف، يقول بصوت عالٍ: «لا إله إلا الله، هذا الذي كان في أول عمره يستزيدني فضل لقب من ألقابه، كان يلبس الذهب والحرير، فآل أمره إلى هذا الحال!».

***

أحيانًا خروج الفريسة للشمس وسط الغاب يسهل عملية الصيد. بقدر ما حنق منصور والمسماري على عودة الغزالي للتدريس بقدر ما عرفا أن الهدف يقترب. بعثا بالرجال يتجسسون عليه، يستمعون إلى كلماته ويبحثون داخل كتبه. كلامه صعب وغامض في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى غريب عليهم.

أمسك منصور بكتابه الجديد «المنقذ من الضلال»، قرأه باستخفاف يبحث عن موضع يمسك به ليتمكن من الغزالي. خرج على طلابه في زينته وقال في يقين: تكتبون كلكم تسبون الغزالي وكتابه. الشافعي الأشعري يقول إنه درس علم الكلام أعوامًا ولم يجد فيه غايته، بل وجدها في الصوفية. ومن ينحرف عن علم الكلام بعد أن أتقنه يكفر. كيف لم يجد في العقل غايته والدليل؟

قال طالب على استحياء: ولكنه لم يسب العلم يا شيخ، قال فقط إنه لم يجد فيه ما يبحث عنه.

نظر إليه منصور في غضب فتراجع الطالب واتفق معه.

قال منصور في حنق: بالطبع كل العلماء والعامة تقرأ كتابه؛ لأنه صادم غريب. أيُّ فقيه يكتب هذا الكلام ويدعو للشك والتفكير، يتهم نفسه ويقلل من شأنها أمام العامة فيضل الناس! هذا الرجل كافر ولا بد أن يفتضح أمره.

ولكن حتى منصور لم يستطع أن يصم أذنيه عن شهقات الإعجاب، ومقاطع كتاب الغزالي التي يقرؤها الناس في كل مكان. انتشر الكتاب، وسافر مع التجار والرحالة، وصل إلى كل البحور، ووجد موضعًا في قلب كل من يركب البحر أو يلجأ إلى البر. يقول الغزالي في كتابه إن الصوفية أنقذته، وجد فيها اليقين والحقيقة. الغزالي يقول عن الصوفيين إنهم أرباب أحوال لا أقوال، يعملون بما يقولون. استخف منصور بكلماته، فهذا حال يصعب شرحه. منصور في الحقيقة لم يشك يومًا أنه على صواب، وأن الغزالي اليتيم الغريب جاء طامعًا منذ البدء. وجد منصور في نفسه ما يدعو للإعجاب. هو يحارب من أجل العقيدة. هو من يعرف الفرقة الناجية. هو من لم يشك يومًا في أي شيء. جاءه يقين منذ البدء أن الغزالي لا يستحق كل هذا. وشعر أن واجبه محاربة الغزالي لأن الغزالي في كثير من الأحيان يتكلم كلمات لا يفهمها منصور، ويحكي عن أحوال لم يشهد عليها منصور. ولأنه لو كان في الدنيا عدل لكان منصور سيأخذ هو إمامة بغداد ولن يتركها مهما حدث.

***

اليوم جاء أحد طلاب منصور مهرولًا وقال في حماس: وجدت لك ما تبحث عنه يا شيخ.

فقال منصور في لهفة: ماذا وجدت؟

-الغزالي مُلحد ومجوسي يتكلم كما عبدة النار، يحكي عن النور في كتاب «مشكاة الأنوار» ويحاكي الفلاسفة، ولكنّ هناك كتابًا يدرسه لطلابه الآن، فيه ما تريد بالضبط.

- هل كتب كتابًا جديدًا؟ هذا مستحيل.

قال الطالب: نعم يُدرس منه أصول الفقه.

-ألم يقل إن الصوفية هم السالكون؟ فلِمَ يعود للكتابة في الفقه؟

قال الطالب: يقول: الفقه يُصلح أحوال الدنيا، والصوفية تُصلح القلوب. الفقه العلم الظاهر، والصوفية باطن القلب، والإنسان يحتاجهما معًا.

قال منصور: هذا علمه وما تدرب عليه. لا يوجد في أصول الفقه ما يؤخذ عليه. الناس تنتقد ما يكتب عن الصوفية وليس عن الفقه.

قال الطالب في حماس وهو يخرج الأوراق من حقيبته: ولكن الغزالي يشترط شرطًا غريبًا في بداية كتابه يا شيخ.

أمسك منصور بالأوراق في لهفة، فقال الطالب: «المستصفى في أصول الفقه»، كتبه في نيسابور، يبدؤه الغزالي بأن يطلب من كل الفقهاء تعلم المنطق من كتابه «معيار العلم»، يدعي أن المنطق ضروريٌ لفهم أصول الفقه.

قال منصور: يريد للفقهاء إتقان المنطق قبل أن يكتبوا عن أصول الفقه؟

هز الطالب رأسه في حماس. فقال منصور: يريدهم أن يستعينوا بالكفار الملاحدة من الإغريق لفهم أصول الفقه؟! فقد عقله وشطح شطحة ستقضي عليه. أنت خير طالب في كل الأزمنة.

فقال الطالب في حذر: أريد أن أخبرك بشيء، ولكن لا تغضب مني.

نظر إليه منصور ينتظر، فقال الطالب: كتابه عن أصول الفقه كتبه بشغف وخبرة كأنه لم يبتعد عن الفقه، بل تبحر وغاص أعوامًا. الناس ظنت أن الصوفية ستفقده قدرته على التحليل والقياس، ولكنه عاد عودة الفرس الذي استجم ليطعن. «المستصفى في أصول الفقه» تعدى كل الأمصار، الناس تبتلعه نهمًا.

-كنت أقول إنك أفضل طلابي، وكأنك أسوؤهم على الإطلاق!

فقال الطالب مسرعًا: يا شيخ اصبر، لدي أكثر من خبر سيفرح قلبك. في الأندلس السلطان المرابطي علي بن يوسف سمع عن كتاب «إحياء علوم الدين»، قالوا له إن به ضلال الفلاسفة وكلام الصوفية، ظنه كتابًا في الشريعة ولكن العلماء أخبروه أنه كتاب في التصوف. أمر بإحراق الكتاب ومنع تداوله في الأندلس والمغرب. جاءوا بالكتاب أمام السلطان الأندلسي في رحبة مسجد قرطبة، فأشبع الحراس الزيت في جلود الكتاب، ثم أشعلوا فيه النار، شهد الحرق فقهاء الأندلس وأعيان الناس وأعلنوا أن الغزالي قد كفر بكتابته الصوفية الفلسفية.

تنفس منصور الصعداء ثم قال: جاء موعد الحساب. ندبر الأمر في إتقان. فالفرصة لا تأتي مرتين.

اجتمع بشيخه المسماري وجمع الشيوخ من شتى الأقطار، قال:

أمر الغزالي وزندقته لا يمكن السكوت عنهما. لا بد من قطع لسانه. لو قُتل يصبح شهيدًا، ولكن لو جرّسه الملك وأعلن كفره يتلاشى اسمه من الوجود. لا بد من أن يعرف ملك الشرق حقيقته. «سنجر» ابن ملك شاه لم يقابل الغزالي ولا يعرف عنه إلا ما يسمعه من وزرائه. لم يعد للغزالي سند من وزير أو خليفة، أصبح فردًا وحيدًا في زاويته وبين طلابه الفقراء في طوس ونيسابور. لو حاكمه الملك وسجنه أو قطع لسانه ننتهي منه إلى الأبد، وننقذ الإسلام من أمثاله. هكذا قال منصور.

الباب السابع

الغواص

العلماء المتجردون لتعلم السباحة في بحار المعرفة، القاصرون أعمارهم عليه، الصارفون وجوههم عن الدنيا والشهوات، المعرضون عن المال والجاه والخلق وسائر اللذات، المخلصون لله تعالى في العلوم والأعمال، العاملون بجميع حدود الشريعة وآدابها في القيام بالطاعات وترك المنكرات، المُفَرِّغون قلوبهم بالجملة عن غير الله تعالى.. لله، المستحقرون للدنيا، بل الآخرة والفردوس الأعلى في جنب محبة الله تعالى- فهؤلاء هم أهل الغوص في بحر المعرفة.

الغزالي

الفصل التاسع عشر

منذ بداية مسلكه الجديد وهو يتعامل بصبر مع المِحن. فقد وجد قلبه والتقطه من غمرة الغفلة، فكل محنة تهون أمام قُربه ولقائه. هذا عالم يأتي ليُكفره، وهذا آخر يتكلم عليه بسوء. هنا طالب يصيح في وجهه أنه ضلّ، وآخر يخبره أنه أصبح مثل الفلاسفة. هذا وهذا، يتحمل ويعرف. هذه المرة لا يضع النجوم نصب عينيه، ولكنه يضع اللقاء نصب عينيه. يقول: «اعلم أن أسعد الخلق حالًا في الآخرة أقواهم حبًا لله تعالى. وما أعظم نعيم المُحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه!».

ولكن هذه المحنة غير ما قبلها. فقد تصيب القلب نفسه، وقد تؤدي إلى أن يحنث في القسم. أدرك منذ جاء إلى نيسابور أن العيون تنظر إليه، والأذن تسجل كل كلماته.

خبأ بعض كتبه عن العامة وحتى العلماء، فبعضها لا يصلح إلا للعارفين، وهؤلاء قليلون في هذا الزمان. واستحكمت خطة منصور والمسماري، دبراها لسنوات. بدآ يثيران ضده العلماء والقضاة والشيوخ. ثم الطلاب. ولكن الخطة تحتاج إلى دليل حتى يصدقها أولو الأمر. فهذه المرة تكفير الشيخ الغزالي لن تكون إجابته كتابًا يكتبه يوضح فيه حد الكفر، لا يُتقن حدود الشرع أي شيخ مثل الغزالي، يتفوق على الجميع وينتصر في أي مسألة فقهية. ويستطيع بسطر يخطه أن يدحض أي دعوى. هذه المرة تكفيره سيكون من السلطان نفسه، من الملك «سنجر»، وحينها لا مجال للكتابة. سينعقد اللسان وتُجز الرقبة وينتهي أمر هذا الرجل. ثم بعد موته تُحرق كل

كتبه ولا يبقى أثر له. ربما يكتب المؤرخون: كان مدرس المدرسة النظامية في بغداد إلى حين، ثم انتهى أمره. سطر في الكتب لا أكثر، جملة من أربع كلمات ربما. ومن يدري؟! ربما تُمحى كل ذكرى له. فمن يعرف مُدرسي مدرسة بغداد؟ يتغيرون ولا يُسجل الزمان كل أسمائهم، ومن يعرف كل القضاة وكل الشيوخ؟ الأمل هو محو الاسم عن عمد بعد أن يضيع الأثر. ولكنهم يحتاجون إلى رجل قريب من الغزالي أو امرأة. يحتاجون إلى من يستطيع أن يَزيد على كلماته ويُحرفها في كتبه ثم يختم بختمه، وبعد ذلك يذهبون بالأوراق إلى السلطان نفسه يقرءونها عليه، ولو رضي بوجود صاحب هذه الكلمات في البلاد فهذا أمر آخر، ولكنه لن يرضى.

فعلتها تركان خاتون منذ زمن، ولكنها كانت امرأة، ومهما حاولت لم تكن تعرف بالضبط ماذا تضيف لكتاباته لثوقع به. أما منصور فقد قضى عمره الماضي يدرس الإمام. يعرف بالضبط ماذا يضيف، وكيف يقضي عليه. سيختار ثلاثة كتب: «مشكاة الأنوار» لأنه يشبه كتب الفلاسفة، و«المنقذ من الضلال» لأنه سيرة الإمام نفسه، كتبها لأحد طلابه، حكى فيها رحلته مع العلم واستقراره على الصوفية. لو زدنا عليها سطرين تَفِي بالغرض. وكتابٌ كتبَه وهو شاب منذ ثلاثين عامًا أو أكثر في الفقه الشافعي؛ كتابه «المنخول»، كان يجادل فيه ويوضح تفوق مذهب معلميه - المذهب الشافعي -على المذهب الحنفي والمالكي. إضافة كلمات قليلة تَفِي بالغرض. فالملك «سنجر» حنفي المذهب، ولو أضفنا كلمتين على نقد الغزالي للمذهب الحنفي ينتهي أمره. المطلوب هو من يستطيع الدخول إلى مكتبة الإمام، ومن يستطيع أن يجد ختمه. نفذ منصور خطته بنجاح أبهره هو

نفسه. غضب ملك الشرق ويقول المقربون منه إنه أقسم على قتل الغزالي بنفسه لو كان ما قرأ وسمع صحيحًا.

الفصل العشرون

«اعلم أن أسعد الخلق حالًا في الآخرة أقواهم حبًا لله تعالى. وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه!».

الغزالي

وصل الخبر المغرب ومصر والعراق. ملك الشرق «سنجر» أمر الإمام الغزالي بالحضور إلى المعسكر في أصفهان ليعاقبه على كلامه. سيترك له الفرصة ليدافع عن نفسه أو ربما لا. تهامس العلماء: الغزالي اعتزل المناظرات والجدال. يقولون: أقسم عند قبر إبراهيم ألا يجادل أحدًا. واليوم لو لم يجادل يقتله الملك. بل الغزالي أقسم ألا يقابل سلطانًا أو خليفة طوال عمره الباقي، واليوم لو لم يحضر أمام الملك يُقتل ويُمحى أثره. من يدري؟ ربما يحرقون كل كتبه ويتهمونه بالزندقة. هذا زمن يتوه فيه الحق وتضطرب الأفئدة. غضب بعض الفقهاء على الإمام وبعضهم لامه على جرأته، وآخرون لاموه على تركه منصبه. تكاثرت الأقوال ووضعوا الحلول والأجوبة. الغزالي سيجادل ويحضر أمام الملك، ولكنه سيُقتل على كل حال. بل لن يحضر أمام الملك وسيُصلب ويقطعون لسانه. بل سيحضر ويُنقذ نفسه ويناظر ويأخذ منصبًا جديدًا. الغزالي دومًا يفاجئنا بأفعاله، لا أحد يعرف ما يدور بخلده. عالم أوحد لأنه أبدًا لا يسير على الطريق المألوف.

التفت الطلاب بعضهم إلى بعض، كل يضمر بداخله الشك. من يا تُرى دخل مكتبة الغزالي وسرق ختمه وزوّر كتاباته؟ همس إبراهيم لعبد الملك: أخشى ما أخشى أن يكون أرسلان فعلها مرة أخرى.

فقال عبد الملك والشك يتسرب إلى قلبه: إن بعض الظن إثم.

توقع الطلاب ألا يأتي الغزالي اليوم ليدرّس، ولكنه حضر وجلس كأن شيئًا لم يكن، أعطى درسه في هدوء ثم نظر إلى أعين طلابه وقال في حسم: لو كنت درّست لكم أعوامًا ثم جاءت أول محنة، فخوّن بعضكم بعضًا فربما ما درّست شيئًا، وما فعلت شيئًا طوال أعوامي الماضية.

بلع إبراهيم ريقه وطأطأ رأسه ثم قال عبد الملك في رفق: يا شيخ نقلق أن يكون بيننا خائن.

ثبت أرسلان نظرته على الأرض ولم ينطق، لا بدا عليه غضب ولا أسف. قال الغزالي: الخائن يزوّر ولا يبقى، من يبقى هو المخلص كما لا يبقى إلا الإخلاص. أما من استقر ومن استمر فلا يخون.

ثم نظر إلى أرسلان وقال في يقين: أرسلان لم يفعلها. ولا أريد أن أسمع أي همس وغيبة. هذا مكان عبادة وقرب وليس غيبة ونميمة.

كيف قرأ أفكارهم؟ لا يعرفون. ولكنهم خرجوا بعد الدرس في خجل ومكث أرسلان مكانه.

نظر إليه أرسلان ثم قال في ترجٍّ: أقسم إني لم أخنك هذه المرة. لن تصدقني فقد فعلتها في الماضي ولكن ليس هذه المرة.

-أصدقك.

-كيف؟...توقعت أن تلومني.

-أصدقك وأعتذر لك عن أي سوء مر على قلب الطلاب، ما زالوا سالكين لم يصلوا بعد.

-يا شيخ..

-صفاء قلبك يسطع كما شعاع الشمس أمام عيني.

-ولكنك لا تعرف من فعلها.

-لا يهم لن أبحث. من فعلها جاء زائرًا ولن يستقر. لا يستقر سوى المخلص.

-هذه المرة السلطان لا يعرفك. ملك الشرق «سنجر» ربما يقتلك فلا منصب لديك ولا سلطة.

قال في حسم: اذهب لتستريح؛ عناء الظلم يهتك شغاف القلوب.

***

ذكره في خلوته ولجأ إليه لجوء العاجز. قال في صوت قوي: «فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره، واحتجب عنهم لإشراق نوره!».

كان قد أقسم ووعد عند قبر إبراهيم ألا يقابل سلطانًا بقية عمره ولا يجادل ولا يطمع في دنيا. اليوم لا يعرف كيف يحقق وعده؟ حار لأول مرة منذ زمن. لو كان هذا ابتلاء فهو شديد. دومًا يحلل بعقل وهدوء. ماذا بيده أن يفعل؟ وما دوره الحقيقي؟ ماذا حقق في السنوات العشر الأخيرة من عمره؟ يريد أن يحمل السفينة إلى الشاطئ فالموج أعلى من قدرتها، وخشب السفينة نخره السوس فلم يبق منه إلا هيكل ضعيف. آه يا محمد! هل نجحت؟ أقسم إني أخلصت يا رب حتى ونفسي تهوي كلّ حين، كلما تسرب الرضا عن النفس زجرتها، وكلما لم توافق أعمالي قولي استغفرت. أبقيت

أملي فيك وفي رحمتك يا ألله يا هو، أيقظت بداخلي القلب الغافل فأصبحت أراقبك في كل أنفاسي. لا قِبَل لي بالمجادلة والمناظرة ولا أريد أن أقف أمام سلطان أثني عليه وأدعو له باسمك يا عظيم. ففي حضرتك كل سلاطين الأرض إلى التراب، لا باقي غيرك، ولا عالم قائمًا إلا بك. لو أثنيت عليه أكون قد كذبت، ولو دعوت له أقول اسمك في غير موضعه. لا شأن لي بالسياسة ولا يجتمع صاحب القلب مع الأمراء. أردت إصلاح نفسي وغيري. ربما حملت ما لا أستطيع حمله، وربما حملت ما أقدر على حمله، ولكنني ضئيل على كل الأحوال، كالنملة الوحيدة لو استطاعت أن تحمل أضعاف وزنها فبقدرتك وقوتك، ولو لم تستطع فبرحمتك وعلمك. أنت تعرف. أخاف أن تكون حروفي منتشرة على أوراق لا يقرؤها أحد، تذهب الكلمات وتفنى، فلا أقوِّم نفسي ولا غيري. أعطني إشارة أنك راضٍ عني. ها أنا أرتبك قليلًا قليلًا، تساورني الحسرة ولا تخطر ولا تستقر. يا كريم أعرف «أن من ترك الدنيا وظن أنه ترك شيئًا، فقد عظم الدنيا؛ إذ الدنيا عند ذوي البصائر لا شيء». لو أردتَ لكلماتي البقاء فستبقى، ولو أردتَ لها المحو فستمحى. سامحني على ما زلّ به القلم، واغفر ليما لم أبصر. ألوذ بقربك وعظمتك. ربما غفلت بعض الشيء، وربما انغمست في غمرة آفات الدنيا، ولكنني هرولت إليك بإخلاص. أعطني علامة أن كل ما كتبته لن يكون هباء، علامة أنك راضٍ عني. ها أنا أضعف وأرتبك عند المحنة. ألوم نفسي على الهوان، وأمنّي نفسي بنفحات قوتك وعزتك. أغمض عيني وأدعوك. أنت حللت عقدة اللسان وأنت جمعت الحروف، وأخرجت من قلبي سيلًا من الكلمات. كيف لي أن أرتاب في غايتي؟ اصفح عني فقد حاولت، لو أصابني الصواب فأعنّي، ولو أصابني الخطأ فاغفر لي. ها هو

الحنق يلوح في الخاطر ولكنني أحزن كلما لمحت ناره المظلمة.

أروم إلى لذة واحدة في الدنيا وهي القرب منك، وفيض نورك على قلبي ليتسع للعالمين، وتنطبع عليه كل الصور والكلمات، فتغمره المعرفة وتحضر معه لذة القرب. فقد أحرقتني شبحات وجهك الكريم، فكدت أنمحق عن نفسي بالكُلّية، وأنشغل بك أنت فقط. فلا وجود لغيرك، ولا معرفة إلا بك ولك. لقد غشيني سلطان جلالك فلم أعد ألاحظ سِواكَ. فنيت عن نفسي، ولم يبق إلا الواحد الحق.

انشغلت بتقويم نفسي أعوامًا لأدرك اليوم اندثار نفسي أمام بهائك ونورك. أريدك أنت فقط، أموت في حبك ثم أحيا، وكم أحيا فيك وكم أموت!

كانت أول مرة تقطع عليه خلوته. دخلت وهي تحمل شمعة في يدها، وجلست في صمت، لم يلاحظها في البدء ثم التفت إليها، فقالت: حجة الإسلام والشيخ المجدد أبو حامد الغزالي.

نظر إليها بلا كلمة. لاحظت الدموع التي تبرق ثم تختفي. عبس وجهها ثم قالت: هل يتوقع المجدد ألا يواجه الأخطار؟ من يركب البحر يواجه أمواجه يا محمد.

هز رأسه ولم ينظر إليها، كأنه يخفي الحزن الذي يكمن في معترك الأحداق. قالت كأنها تقرؤه: ما يحزنك كل هذا الحزن هو قَسَمك، أعرف، ولكن لو كنت قد أقسمت ألا تحارب، ثم شهَرَ أحدهم السيف وهمّ بجز رقبتك، فلا بد أن تحارب.

قال في إصرار: لن أناظر أحدًا ولن أجادل ولن أثني على سلطان ولا أتفوه باسم الله لأجامل وأماريَ.

-تدافع عن نفسك يا محمد، هذا واجب عليك، تدافع عن كل ما كتبتَ.

-أقسمت ألا أقابل السلاطين. ليس خوفًا على بدني يا ثريا ولكن على روحي.

-وأنا أخاف على بدنك وروحكَ. كلماتكَ لا تتحملها عقول هذا الزمان. ولكنها ليست لهذا الزمان وحده يا محمد، بل لكل الأزمنة وكل البشر. هل تريدهم أن يحرقوا كتبك هنا أيضًا؟

أصابت الكلمات القلب. قال بلا تردد: لا.

اقتربت منه أمسكت بذراعه ثم قبلت خده وقالت:

كل العداوات قد ترجى سلامتها

إلا عداوة من عاداك من حسدِ

كنت تقول هذا دومًا. كنت تقول: الورع صعب أن يجتمع مع المنصب والرياسة. اترك قلبك يتكلم عنك. لا شك لدي أنك ستنجو ولكن استعمل سيفك.

طوق رأسها بذراعه ولم ينطق.

***

جمع أحمد أغراضه وهمّ بالسفر إلى أصفهان حيث معسكر ملك الشرق سنجر بن ملك شاه. لم يستأذن أخاه ولا تكلم معه. طوال عمره الذي يتذكره لم يتملكه أي غضب، كان يغفر وينسى حتى عندما تركته زوجته غدرًا. اليوم غضب لأول مرة. حاول أن يتذكر

كلمات محمد عن السيطرة على الغضب، ولكنه تذكر أيضًا أن نهاية أخيه ربما تكون بعد أيام. هذا ابتلاء غير كل ابتلاء. وهذه جرأة من الأعداء أكبر مما توقع. من يدري؟ ربما يحكم القاضي على حجة الإسلام بالقتل. من يدري؟ ربما يشهد هو على موت أخيه. وعلى يد من؟ يعرف. اليوم لا بد أن يواجه نفسه بالقبح الذي تجاهله. منصور. أمسك بقلبه وهو يشعر بوخزة طفيفة، كيف آمن له بعد كل ما فعل؟ وكيف سامحه؟ تردد وتحير، ها هو قلبه يسامح وها هو عقله يؤنبه. اليوم الغضب قد تمكن. عند وصوله إلى المعسكر وجد طلاب الغزالي يجادلون طلاب المسماري ومنصور. ذهب بنفسه إلى معسكر الملك سنجر، طلب مقابلته ورفض الحراس. جلس أمام الباب لا يتحرك، حتى سمع صوت منصور من ورائه: يا أحمد لِمَ جئت؟ اترك أنت مسائل الفقه والدين لغيرك، واستغرق نفسك في شعر الحب والشوق. لا مكان لك هنا بين الرجال.

قطب أحمد حاجبيه واستغفر.

فقال منصور بصوت عالٍ: يقولون: ملك الشرق سيقطع لسان أبي حامد الغزالي ثم يقتله بعدها. ولكن الله قطع لسانه منذ زمن عندما جعله يشهد على موت ولديه بين يديه. أي انتقام أكبر من هذا؟! يموت الغزالي بلا ولد يرث علمه لأنه بلا علم.

قام أحمد من مكانه، ضم كفه ثم لكم منصور بكل قوته. أصاب الوجه. خرجت شهقات الحاضرين، أمسك به الشيوخ. فقد منصور توازنه، وقع على الأرض فحمله تلاميذه، قام وهو يتوعد ويسب. أمسك الشيوخ بذراعَي أحمد، بدا أنه أراد أن يعطي منصور ضربة أخرى.

ثم قال أحمد في صوت كله حنق: اعذرني فقد تأخرت في ضربك أعوامًا، مثل الغزالي لا يموت يا منصور، ومثلك يموت كل يوم حتى ولو امتلك جيوشًا من الأبناء.

-ستدفع الثمن. ستشهد أولًا على صَلب أخيك ثم جَلدك كما جُلِدتَ من قبل.

قال في ثبات: أبو حامد الغزالي هو العالم الأوحد، وسيبقى واحدًا لا مثيل له، أما أنت فلا نعرف عنك سوى أنك زورت كتبه وحاولت تقليده وفشلت. ستعيش بحسرتك.

-وأنت ستموت بحسرتك يا أحمد.

-الحياة مع الحسرة أصعب لو تعرف. ستلملم أشلاء هزيمتك، ثم تجرها وراءك بقية عمرك لأنك منهزم منذ البدء.

كلمات أحمد أقسى من ضربته، لا بد أن يصمت إلى الأبد، ندم منصور على عدم قتله.

همّ أحد طلاب منصور بضرب أحمد، ولكن حراس المعسكر تدخلوا. طلبوا تفريق الجموع وانتظار حضور أبي حامد الغزالي.

فقال علماء طوس: نحن هنا نجادل بدلًا من شيخنا الغزالي. نعرف كلماته ونود شرحها أمام ملك الشرق. شيخنا توقف عن المجادلة منذ سنوات.

فقال الحارس في حدة: ملك الشرق طلب أبا حامد الغزالي لمحاكمته، لم يطلب طلابًا ولا شيوخًا من طوس. لو لم يأتِ نأتي نحن به.

ابتسم منصور حينها ونظر إلى أحمد في انتصار.

***

بدا أن أبا حامد الغزالي لا ينوي المجادلة مهما كلفه الأمر، ولا ينوي مقابلة ملك أو سلطان.

كتب الرسالة إلى ملك الشرق سنجر بن ملك شاه:

«بسم الله الرحمن الرحيم قد جرت عادة علماء المسلمين أن يلقوا في مجلس ملوك الإسلام مقالًا يشتمل على أربعة: الدعاء والثناء والنصيحة ورفع الحاجة».

«أما الدعاء: فمذهبي أن رفع الأيدي والمناجاة سرًا مع الحق تعالى في ليلة ظلماء وخلوة خالية أولَى، فإن كل ما كان على الملأ اختلط بالرياء. وعند حضرة الحق سبحانه وتعالى كل ما لم يكن خالصًا وفيه رياء غير مقبول.

وأما الثناء فالمقصود منه رفع الشأن، وكيف يمكن ارتفاع شأن (ملك على الأرض)، وكل من في العالم من علو أو تفوق أو رفعة فهي خلعة مأخوذة من رب كل الملوك، ونحن جميعًا عبيد حضرته.

أما النصيحة وعرض الحاجة فهما الأهم فقط. فالنصيحة ولاية لا يكتب منشورها إلا من حضرة المصطفى وهو القائل: تركت فيكم واعظين: صامتًا وناطقًا، الصامت الموت والناطق القرآن.

(يا ملك الشرق)، أين أجدادك ووالدك؟ (كأنهم يقولون لك الآن): لو تعلم ما حل بنا، وأي الأهوال رأينا، فلن تنام ليلة شبعان وفي رعيتك جائع وتسأل عنه يوم القيامة، ولن تلبس برغبتك ثوبًا وفي رعيتك

عريان، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾ [الزلزلة: 8،7] (بعد الموت) سترى جميع أعمالك ذرة ذرة .

يا أيها الملك، هيأت لهذه الدنيا كثيرًا من الجيوش والخزائن، فاعمل للآخرة أيضًا على قدر مقامها ومدتها، فالدنيا مقدارها معلوم وقد لا يبقى منها غير أيام وأنفاس قليلة، ولكن الآخرة لا نهاية لها.

وفي الخبر: إن شجرة الإيمان تُروى من الطاعة وأصلها من العدل، ورسوخها بدوام ذكر الحق تعالى. اقبل مني وصية واحدة: اجعل كلمة (لا إله إلا الله) وِردَ لسانك بحيث لا يسمعها غيرك، واذكرها وإن كنت في الصيد أو على العرش أو في الخلوة، فلا تنقطع عنك ساعة واحدة، فإن الإيمان يرسخ بها، فإنك وإن تخلصت من عذاب الآخرة فلن تتخلص من سؤال يـوم القيامة «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، فإذا أوقفوك في مقام المؤاخذة والسؤال وقالوا لك: ماذا فعلت بعبادنا؟ فماذا ستقول؟

ولو سألوك عن المواشي التي تملكها أعطاها لك الله فاهتممت بها حتى خصصت لها كل حدائق خصبة، وغفلت عن عبادنا، ولماذا قدمت حُرمة مواشيك على أعزّتنا؟ وقد قلنا إن حرمة المؤمن عندنا أعظم من الكعبة، فما عندك من الجواب على هذا السؤال؟

أيها الأمراء القائمون على الدولة الجديدة؛ إذا أردتم أن تستمر الدولة وتبقى مباركة فلا بد أن تميزوا الدولة من عدمها، وتعلموا بأنه ليس لكم ملك واحد، بل الملك اثنان: الأول ملك خراسان، والثاني ملك السماء والأرض الذي هو له ولكم، فغدًا يوم القيامة تقفون معًا للحساب، فيقال لكم: كيف أديتم حق النعمة؛ فإن قلوب الملوك خزائن

الله تعالى؛ لأن كل ما يستحدثه في عالم الثرى من الرحمة والعقوبة هو بواسطة قلوب الملوك، ويقولون: سلمنا المال لكم وجعلنــا لسانكم مفتاحًا فهل أديتم أمانة الخزانة أم خُنتم الأمانة؟

فكل من حجب على الملك حال مظلوم واحد فقد خان الخزانة، فأصغوا واعتبروا أن الدولة فانية، وعار الخيانة ليوم القيامة باقٍ.

يا ملك خراسان..

إنَّ الرسول ﷺ يقول: «يوم يعدل فيه سلطان عادل أفضل من عبادة ستين سنة». وفيما أعطاك الله هذه الوسيلة والآلة التي تقدر أن تفعل في يوم واحد ما لا يفعله غيرك في ستين سنة. فأي إقبال ودولة أكثر من هذه؟

واليوم وصل إلى حد بأن عدل ساعة يعادل عبادة مائة سنة.

فجئنا إلى عرض الحاجة. والحاجة اثنتان: عامة وخاصة. فالحاجة العامة أن أهل طوس في أزمة شديدة، مشردون ومصابون في الظلم والقصمة وكل ما كان من الزرع والقمح ذهب هباء من الجفاف والبرد، كما يبست كل الأشجار المثمرة منذ مائة سنة، فارحمهم يرحمك الله تعالى، فقد انقصمت ظهور المؤمنين وانحنت أعناقهم من البلاء ومحنة الجوع، فماذا يكون إذا خففت من ثقل أطواق الذهب التي في أعناق مواشيك؟

وأما الحاجة الخاصة فهي أنني أعرضت عن الخلق وجلست في زاويتي اثنتي عشرة سنة، ثم ألزمني «فخر الملك» -رحمة الله عليه- للمجيء إلى نيسابور، فقلت له: إن هذه الأيام لا تتحمل كلامي، فإن كل من ينطق بكلمة حق في هذه الأيام تعاديه حتى الأبواب

والجدران، وأنا سلمت الدنيا لأهلها.

والمقصود أن يوضح الحال، وأن تعفيني من التدريس في نيسابور حتى أعود إلى زاويتي الآمنة، فإن الأيام لا تتحمل كلامي (والسلام)».

***

قرأت ثريا الرسالة، نسخت منها نسخة تبقيها في الخزانة. أصبح همها جمع كل كُتبه وعلمه. وجدت في غايتها استغراقًا يزيح ألم الفقد الذي يحاصرها. وصلت الرسالة إلى الملك سنجر وقرأها عليه حاجبه، ثم نسخها الحاجب وأعطى نسخة لمنصور، فأعطاه منصور طوقًا من الذهب. همس الحاجب في أذن الملك: هذا رجل يتطاول على حضرة الملك، يقول: «فماذا يكون إذا خففت من ثقل أطواق الذهب التي في أعناق مواشيك؟» من يجرؤ على هذا القول لملك الشرق؟

طبق الملك سنجر شفتيه ولم ينطق. فأكمل الحاجب: هذا كلام رجل يرى نفسه أفضل من الملك، ويرى في مذهبه الشافعي فضلًا على المذهب الحنفي. كلامه به ضلال يا ملك. ألم يحرق كتابه ملك المغرب؟ سيقولون إن ملك الشرق يسمح بالزندقة ولا يحمي دين الله، بينما ملك المغرب يتقي الله ويحمي الرعية. يا ملك الشرق الغزالي خطر على حكمك.

نظر إليه الملك الشاب في غضب، فتراجع الحاجب ثم قال: اعف عني يا مولاي. أعرف أني تجرأت ولكنه حبي لك وشفقتي عليك. هل يجوز أن يأمر ملك أحد رعاياه بالحضور فيعترض؟ هل يحدث هذا

في أي بلد؟ يقول له إنه أقسم ألا يقابل الملوك؟ أي جرأة هذه؟!

قال الملك سنجر موجهًا كلامه للوزير: مُر الحراس بإلزام الغزالي بالحضور إلى هنا. ولو لم يفعل تقبضون عليه ويأتي عنوة.

***

نظرت إليه اليوم ليس كزوج قضت معه ما يقرب من عشرين عامًا، ولكن باعتباره الغزالي الشيخ المجدد. رجل استطاع أن يطوع الأنفاس بهمته، ويوحد راحتيه في جمع أشلاء قلبه وإعادة الحياة والنبض له. غمرتها الهيبة. هنا رجل لم تتملكه الدنيا. تهون كل قوة أمام عزيمته وتخضع كل نفس أمام إصراره وجهاده.

دون مقدمات احتضنته عائشة وأمسكت زينب بكتفه. التفت لابنتيه، فتح ذراعيه واحتضنهما الاثنتين بلا كلمة. تطمئنهما لمسته، فوجوده وتد وذراعاه تدفعان لمواصلة الأيام. قالتا معًا: نأتي معك. أبي لن تتركنا.

جاءته فاطمة وهي تبكي، كانت حاملًا، أمسكت بيده وقبلتها ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه. ربت على كتفها.

قالت أمها في حسم: لا داعي للبكاء سيعود بعد عدة أيام.

ولكن البنات الثلاث لم يتركنه، ولم يحاول أن يدفع بهن ليرحل. أمسكت هي بالواحدة تلو الأخرى تبعدهن وهي تقول: اتركن والدكن يذهب وسيعود، لا تبكين، لا أريد بكاء. سيعود.

ابتسم من ثباتها ثم أمسك بيدها وقبلها، تلفتت حولها ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه وقالت: نحتاج إليك دومًا.. لن تتأخر.

ثم شرع في الطريق إلى المعسكر في أصفهان والقلب مُثقل بالهم على قسم لا بد من الحنث فيه غدًا أو بعد غد. ها هو يقابل سلطانًا جديدًا! تُرى أي قسم آخر سيحنث فيه يا تُرى؟ وهل كان لا بد أن يذعن أو يتمرد فيُحكم عليه بالموت؟! لا يأبه بالموت ولكنه يخاف على كتبه وعلمه.

لم تصاحبه ثريا ولكن لم يتركه ثلاثة؛ عبد الملك وإبراهيم السباك وأرسلان، أما بقية طلابه فقد ذهبوا قبله إلى المعسكر في أصفهان وجادلوا خصومه ساعات.

***

السير في المسلك نفسه بعد مرور العمر يدعو إلى التفكر والنظر. الجوهر لم يتغير ولكن النشأة اختلفت والمرآة صُقِلت والسيف جَزَّ وقطع. تذكر رفرفة القلب عند الاقتراب من معسكر السلطان أول مرة. كأن الدنيا بين راحتيه بل كانت الدنيا بين راحتيه ولكنها دنيا لا قيمة لها، آهٍ من الدنيا عندما تتحكم! لم يعد يذمها ولا يجافيها، أصبح كما النبات الذي يمر أمامه الأسد فلا يبالي، لا شأن له بالوحوش؛ لا تفترسه ولا تأكل من طعامه. منذ ثلاثين عامًا فرح بمقابلة الوزير دون أن يعرف فرحة القُرب من الملك! فتح عينيه حينها واتسع طموحه ليُمسك بمجد ورياسة. سيقول إنه صاحب السلطان وإنه العالم الأوحد. سيعيد على نفسه ألقابه كل ساعة، ستُفتح كل الأبواب وتنهار كل العوائق. فقد صاحب السلطان. ابتسم لنفسه. يا مُقلِّب القلوب كيف جعلت القرب من المعسكر لحظات انقباض، وكل رياسة وسلطة تبعدني عنك دنس وتراب! يا من قلبت قلبي بين إصبعيك فأصبحت لا أرى إلا ما يسرك ولا أسمع إلا ما

يُرضيك ولا أجد في عيشي سوى مسلكي إليك. كيف تضاءل حجم السلطان أمام ذرة واحدة من المعرفة بك؟ وانهدمت كل حوائط القصور مع دنو نورك؟

لم يسمح الحارس بالراحة. اجتمع أمام المعسكر الأئمة، رأى من بعيد منصور والشيخ المسماري، ما إن ظهر لهم الغزالي حتى صاح المسماري: الملحد المجوسي..

لم يأبه به ولم يُجب، كأن الكلمات لا تصل إلى القلب. أما الأئمة والطلاب الذين جاءوا للدفاع عنه فصاحوا في الشيخ المسماري، وحاول أحدهم أن يدفع به بعيدًا وهو يقول: كيف تجرؤ؟ هذا حجة الإسلام الإمام الأوحد، ابتعد..

رفع يده إليهم ليصمتوا. ها هو ينتظر أمام باب ملك من ملوك الأرض بلا رغبة في دنيا أو مال. أمره الملك سنجر بالدخول في التو واللحظة دون أن يستريح أو يغير ملابسه.

ما إن دخل على الملك حتى نظر كل منهما إلى الآخر. يشبه سنجر والده السلطان «ملك شاه»، يلعب الزمن بالبصر كأنه لا تحرك ولا محي، الملك الشاب تجتمع حوله الحاشية كأنها تحمي نظره من أي قبح. ابتسم لنفسه، يعرف حاشية الملوك ويعرف أنهم يحمون أنفسهم فقط وشهواتهم هي ما تتحكم. فلو أثنوا يكون لعطاء ولو أحبوا يكون لغرض. آه يا محمد...مرت الأعوام وها أنت تقف هنا من جديد بلا أن تروم النجوم أو تصاحب القمر! ها أنت تقف أمام السلطان بلا رهبة من حاشية ورغبة في حراس! ها أنت تزجر النفس على الذاكرة وتمسك بالقلب حتى لا يهرب مرة أخرى!

بعد السلام قال السلطان وهو لا يدعو الغزالي للجلوس: أبو حامد الغزالي...هنا في المعسكر، أكان لا بد أن آتي بك رغمًا عنك؟

لم يُجب الغزالي قال لنفسه: أليس الله بكافٍ عبده؟

فقال سنجر: كنت تقول في رسالتك إنك أقسمت ألا تقابل السلاطين. هل ترى نفسك خيرًا منهم يا شيخ؟

قال الغزالي: بل أرى نفسي أضعف من هذا اللقاء فالظاهر والباطن في حرب لا تنتهي.

للغزالي رهبة تصيب قلوب الرعية والملوك على حد السواء. تسللت إلى قلب سنجر منذ البدء. يسمع عنه حكايات منذ كان طفلًا. كأنه اليوم سلطان على كل الأرض ما عدا هذا القلب وهذه العينين. تُرى ما الذي يتلهف له رجل مثل الغزالي؟ حتى وهو شاب يدرك سنجر حجم سطوة المُلك على كل القلوب، فيحيره هذا القلب ويؤرقه. وما يثير أعصابه أكثر شيء هو إحساسه أن الغزالي لا يراه. كأن المُلك لا يشجي والجاه لا يتمكن. لبرهة شعر سنجر أنه أسد كبير يجلس أمام ثعلب يزأر وأذن الثعلب في صَمَم، يُكشر عن أنيابه وعينا الثعلب لا ترى. أي مادة سحرية تقيك من النار اليوم يا أبا حامد؟ وأي أمن تتوقع مني؟!

رفع سنجر حاجبه ثم قال: لن تُثني عليّ ولن تدعو لي! هكذا كتبت كأنك لا تخاف الموت.

-بل دعوتك يا ملك الشرق للدعاء لمن ينفع ويضر أما أنا فعبد عاجز. الدعاء في الخفاء صادق لا رغبة في دنيا حينها ولا رياء. فكل ما يختلط بالرياء لا يصلح لحضرة الملك.

-والثناء؟

-لا يستحقه أحد سواه. فكل ما نملك منه وله.

قال سنجر في عدم صبر: والنصيحة؟ هل أعيد عليك كلماتك؟ كنت تقول لي: «فماذا يكون إذا خففت من ثقل أطواق الذهب التي في أعناق مواشيك؟» كيف تجرؤ؟

ساد الصمت برهة ثم قال: طلبت مني النصيحة بصدق، ولكن لو كنت أكذب فأنا أستحق العقاب. قلت: إن مواشيك في أعناقها الذهب، وإن أهل طوس جياع، لو لم يكن في أعناق مواشيك الذهب فأنا كاذب، ولو لم يكن أهل طوس جياعًا فأنا أستحق الموت. ولكن الصدق مع السلطان هو قمة الاحترام له، من يكذب يهن عليه من يكذب عليه، ومن يصدق يحترم من يتكلم معه.

فتح سنجر فمه ثم أغلقه مرة أخرى وقال: سمعت عنك منذ زمن ولكنك غير ما سمعت. في عينيك سحر كملوك الفرس القدماء، وفي نظرتك ثبات كما الملائكة ولكن هذا لن يشفع لك. ربما تُقتل اليوم. لم أحدد بعد.

بدأ الهمس حوله، لم تصل كلمات الإطراء إلى قلب الغزالي ولم يسمعها ولا أصابه التهديد. بقي صامتًا، فقال الملك: لا بأس. هل ستناظر من يتهمونك باتهامات تؤدي إلى القتل يا شيخ؟

لم يُجب.

-ألن تدافع عن نفسك؟

-لو كان في المناظرة منفعة كنت ناظرت، ولكن العِلّة لها أسباب؛

إما حسد وفي هذه الحالة لا علاج له، وإما جهل مُتعمد وفي هذه الحالة لا علاج له، فإن عيسى عليه السلام قد أحيا الميت وعجز عن معالجة الأحمق. من يصلح للدواء هو من يعتبر العلم دواء، ويستطيع أن يتخلى عن اعتقاده الموروث لو وجد في اعتقاد آخر دليلًا وحجةً.

-إذا لم تكن تريد الجدال فدافع عن نفسك قبل أن أحكم عليك. يقولون لي: الغزالي سبّ أبا حنيفة في كتابه «المنخول».

-كتبت المنخول منذ ثلاثين عامًا يا ملك الشرق، وحرّف البعض كلماتي وزادوا عليها. هو من خير الأئمة وقدوة لنا جميعًا. هكذا كتبت في «إحياء علوم الدين» وفي «المستصفى».

قال سنجر ساخرًا: هل تغير رأيك في كل كتاب؛ تُكفر الفلاسفة في ثلاث مسائل، ثم تكتب كلامهم؟

-كل كتاب كتبته لا أندم عليه ولا أغير كلامي عنه.

-تكذب إذن.

-بل لكل كتاب من يقرؤه. الناس ليسوا سواسية في المعرفة والفهم. «تهافت الفلاسفة» للعامة ولتثبيت العقائد. أما بعض كتبي فليست للعامة وقد أوضحت هذا وكتبته.

-ويا تُرى يرى الغزالي أن سنجر ملك الشرق من العامة أم العلماء؟

نظر إلى الأفق ثم قال: لا يهم ما يرى الغزالي، الله أعلم بالقلوب.

-يتهمونك بأنك تعتقد مُعتقد الفلاسفة والملحدين. يقولون إنك مزجت جميع كتبهم وأقوالهم. ومن يتهمك ليس العامة بل بعض القضاة والعلماء أنفسهم. يقولون مثلًا إنك في «مشكاة الأنوار» قلت

إن الله نور، وهذا كلام المجوس!

-بل هذا كلام القرآن. قال في كتابه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: 35]، ولكن فهم معنى نور هنا يحتاج إلى عقل صافٍ. فالنور هو ما تراه، وما ترى به الأشياء. والله يلهم مَنْ يشاء من عباده بحقائق الأشياء، فينيرون الطريق لغيرهم. هكذا هو نور الأنبياء إلهام من الله ومن نوره. صديق للإسلام جاهل أو متعصب يضر به أكثر من عدو.

- أنت تربكني بالكلمات، لا أفهمك. تحل ثم تربط، تنتقد ثم تثني، لِمَ تكتب ما لا يتحمله عقل العلماء؟

- أكتب ما أعتقده بإخلاص ولكل كتاب قارئ. ليس كل دواء يصلح لكل مرض. قسمت كتبي إلى ما يُصلح عقيدة العوام، وما يتحمله الخواص.

-العلماء خواص ومع ذلك لا يفهمون كلامك.

-ليس كل شيخ وفقيه من الخواص بل من ترك الدنيا بالكُلِّية، واتجه بكل همته إلى الله بإخلاص هو من يصل إلى هذه المرتبة دون غيره وهذا عسير.

-وأنت من الخواص؟

-أنا أجاهد نفسي، لم أزل أحيانًا تداهمني الدنيا فأتشتت فيها ثم أعاود خلوتي وأتركها. لم أزل في حربي مع نفسي.

-تقول كلام الفلاسفة، تدعي أن روح الإنسان في هذا العالم غريبة وشوقه إلى العالم العلوي.

-نعم فعلت.

-مع أنك تعرف أن هذا رأي الفلاسفة.

-وهو رأي صحيح. قالها علي بن أبي طالب: اعرف الحق تعرف أهله. لو اختلفنا مع الفلاسفة في أمور فنحن نتفق معهم في غيرها. أول ما يجب تعلمه هو أن نبحث عن الحق بالدليل والتجربة، ولا نقول لمن نطق خطأ مرة إنه في كل مرة سيتكلم سيكون على خطأ. وأرد: أن من تكلم بخطأ مرة يصيب مرات، والعكس صحيح. نبحث عن الحق وليس عن الرجال. في «تهافت الفلاسفة» انتقدت تقليدهم واعتمادهم الكلّي على عقلهم في المسائل الإلهية، وهي مسائل لا تخضع إلى أدلة مثل أدلة المنطق والحساب. هذا لا يعني أن كل ما نطقوا به خطأ، وفي العشرين مسألة انتقدت ولم أكفر سوى في ثلاث مسائل تُخل بالشرع. وحتى الكفر له معان مختلفة كتبت عنها في «فيصل التفرقة» وفي «قانون التأويل». أما بالنسبة للروح «فكل من عرف حقيقة الروح علم أن خاصته معرفة الحضرة الإلهية...وكل ما يخص هذا العالم فغريب عن ذاته وعارض عليه». الروح من أمر الله تتوق إلى الحرية واللقاء.

-تكتب مثلهم.

-«مشكاة الأنوار» مُحرم على من لم يصبح راسخًا في العلم. هو كتاب للخواص وليس للعوام.

- أنت تربكني من جديد. كأنك تتكلم بلسان لا أفهمه. يدّعون أن في كلامك عن التوحيد غموضًا. أليس التوحيد واحدًا؟ لِمَ تعطي درجات للتوحيد وتقسمه؟

-لأن الإيمان ليس كله متساويًا بين البشر ولا التوحيد. هناك فرق بين مَنْ يعرف ربه ويعرف كل شيء حوله، وبين من يعرف أن لا شيء حوله ولا موجود غير الله. هذه درجة مختلفة. من ذهب بكل همته إلى الله وفي الله، غير مَن يهتم بكل تفاصيل الحياة الدنيا. «فكمال التوحيد هو ألا يكون موجود إلا واحدًا كما أنه صحيح أيضًا بأن لا معبود إلا واحد».

-ولكني موجود وأنت موجود ...إلى حين حتى أحكم عليك...وكل هؤلاء موجودون..

-ولو أراد لأماتنا جميعًا في التو واللحظة. كل شيء قائم به هو أقامه وهو يهلكه في موعد. كل شيء هالك إلا وجهه.

-لديك إجابة لكل سؤال.

-لأني لا أكتب إلا ما أقتنع به. أحيانًا ما لا تحتمله العقول تظن أنه باطل. الناس أعداء ما جهلوا.

ساد صمت ثم قال سنجر: أبو حامد الغزالي...ثرى ماذا سأفعل بك؟

التقت أعينهما فقال في هدوء: ما ستفعله هو مشيئة الله وأنا راضٍ بها.

أمسك الحاجب بطرف سيفه كأنه ينتظر أمر سنجر، ولكن سنجر أشار إلى الغزالي وجلس وقال: تعال هنا.. اجلس على عباءتي بجانبي..

تردد برهة ثم جلس بجانبه، فقال سنجر: ماذا بك؟ ممَّ تخاف؟

-من نفسي..

-تغويك السلطة؟

-آخر ما يترك قلب الرجل هي السلطة. من يدرك ضعف نفسه يبتعد.

نظر إليه سنجر وقال: من يُدرك ضعف نفسه يبتعد أم يهرب؟

قال الغزالي: الهروب ضروري عند الشعور بالخطر.

قال سنجر في رفق: لديك رهبة لم أعرفها في رجل قط. هل ألهمك الله من نوره؟

-هذا لا أعرفه. أتمنى أن تكون كتاباتي إلهامًا منه، أبغي بها إصلاح نفسي وغيري، هو تكليف. ولكن نور الأنبياء نور من لدنه لا نستطيع نحن الوصول إليه.

-ولكنه نور على كل حال.

-كرمه يفيض ونوره يُدفئ كل القلوب.

اقترب الحاجب وهمس وهو ينحني أمام سنجر: مولاي...العلماء ينتظرون..

نظر إليه في غضب ثم قال: ماذا ينتظرون؟

ارتجف الحاجب وصمت. فقال سنجر: أبو حامد قال إنه لن يناظر أحدًا. استمعنا إليه وقررنا أن نتركه يفعل ما يشاء، يبقى هنا في المعسكر بيننا ينصحنا أو يعود إلى نيسابور لو أراد.

أشار إليه ثم قال: هل تبقى معي؟ تنصحني؟

ابتسم ثم قال: لقد حنثت في قسمي مرة وملك الشرق لن يرضى

أن أحنث فيه مرة أخرى.

قال الملك: لك ما تريد ولكن لي رجاء، تكتب ما دار بيننا في رسالة وسأحتفظ بها ويقرؤها عليّ الحاجب كل يوم. وشيء آخر أتمنى أن تفعله..

نظر إليه الغزالي فأكمل الملك: اكتب لي كتابًا يقرؤه عليّ الحاجب، نصيحة لي ولأخي محمد طوبار. نصيحة للحكام كلهم يقرءونها من بعدنا.

قال وهو يقوم: يا ملك الشرق بأذنك بعض الغبار نظفه حتى يصفو سمعك، ولك مني ما تريد.

عندما خرج الغزالي قال الملك للحاجب: أبو حامد يقول إن في أذني غبارًا، تُرى ماذا يقصد؟

بلع الحاجب ريقه ثم قال: لا أحد يفهم كلماته.

-كأنني فهمت ما يعني يا رجل. اذهب إلى بيتك ولا أريد أن أراك من اليوم. من يقرأ عليّ كُتب الغزالي يكن صافي القلب وليس ممتلئًا بالغل مثلك.

ثم أمر حارسه قائلًا: قبل أن يعود الغزالي إلى نيسابور أريد أن أذهب إلى الصيد، وآتي له بصيد كبير يحمله معه هدية مني إليه.

***

في الطريق إلى نيسابور أحاطه طلابه كأنهم يخافون عليه من حبات المطر قبل رياح الغور. من يدري؟ ربما يحاول أحد قتل الإمام أو إيذاءه. لم ينطق أيٌّ منهم ولكنه أحمد من قال: «فلما أخلصوا النية

أثر كلامهم في القلوب القاسية فلينها وأزال قسوتها».

لم يُجب محمد يعرف هذه الكلمات فقد كتبها هو بنفسه.

فقال أحمد: أريد أن أخبرك بشيء ولكن لا تغضب مني. لقد لكمت منصور.

كتم ابتسامته ثم قال: لم أتوقعها منك.

-تخبرنا ألا نغضب يا أبا حامد ولكن لا بد من الغضب أحيانًا.

-الغضب مطلوب لدفع الظلم لا أكثر. والمغفرة خير وأبقى. هل تندم؟

-لا هذه ضربة تأخرت كثيرًا.

ضحك محمد فضحك أحمد وعاد الزمن كأنه لم يمض.

***

عندما حضر الليل تذكر نصيحة سمعها منذ أكثر من ثلاثين عامًا.. «لا تأمن طريقك!»

ابتسم وريح المعصري لا تتركه. توقف قاطع الطريق عن إهدائه خنجرًا على مخدعه منذ رآه في بداية رحلته إلى دمشق. أين أنت يا معصري؟ ماذا فعل بك الزمان يا لص؟ هل تبت وذهبت إلى الحج من جديد، أم أنك لم تزل تسرق الحجاج في الطريق وترغمهم على دفع الإتاوات والذهب؟ يا لص، ثرى هل بدأت حياتك طالب علم يا ثرى ثم سئمت كل نفاق، أم نشأت بين الجبال ترحل من وطن إلى وطن ولا تجد مكانًا في الوطنين؟

في غمرة الظلام همس عبد الملك لإبراهيم: لصوص..

فقال إبراهيم: أو رجال جاءوا لإيذاء الإمام.

اجتمع الرجال الملثمون حولهم، نظروا إلى الصيد الكبير الذي يحملونه من الملك سنجر، فأعطى عبد الملك الصيد لأحدهم قائلًا: لا حاجة لنا به.

فقال الرجل: نحن لا نريد الصيد أو المال...نريد الشيخ نفسه.

قام الطلاب أحاطوا شيخهم وأشهروا السيوف قائلين: تقتلوننا أولًا.

ولكن الغزالي أزاحهم وقال: لا داعي لهذا. أعرف ما يريدون. أين هو؟

نظر إليه اللص الملثم في دهشة ثم قال: هو من؟

-سآتي معكم، هيا بنا.

صاح الطلاب في رعب: يا شيخ..

-لا تقلقوا سأعود ابقوا حيثما ترکتكم.

سار مع اللصوص وهو يعرف من يريده، يتوق إلى اللقاء كأنه يلتقي بصاحب قديم أو دليل في المسلك.

سمع الصوت من ورائه: كأنك تفكر فيّ يا طوسي.

التفت إليه. هو المعصري محاطًا برجاله. هذه المرة كان محمولًا على خشبة، ابيضت لحيته وذبل بريق عينيه، رفع يده للرجال لينزلوه. فاستقرت الخشبة على الأرض ثم قال آمرًا: أنت لا تخاف

اللصوص أبدًا. الفتى الطوسي كبر أيضًا.

مد الغزالي يده يصافحه ثم قال: عزت الرؤية ومر العمر.

-ولكنك لم تتغير يا محمد إلا في قلبك. لم تزل عيناك ترومان النجوم. أعد عليّ أبيات الشعر التي عرفتني بك...هل تتذكرها؟

قال محمد وصورة الفتى المغامر تنطبع على روحه الآن وريح الشباب تلوح في الأفق:

إذا غـامـرت في شــــرف مروم

فلا تقنع بما دون النجوم

ثم أكملًا معًا:

فطعم الموت في أمر صغير

كطعم الموت في أمر عظيم

وكل شجاعة في المرء تغني

ولا مثل الشجاعة في الحكيم

اقترب منه المعصري ثم قال في صوت أجش ولكنه متقطع: أريد الكلام معك وحدك.

ثم أشار بيديه فتركوه مع الغزالي. اتسعت الصحراء وضاقت، أصبحت لا تتسع لسواهم ولا تعرف غيرهم. ثم بدوا تحت السماء بضآلة الزيتونة وبرهافة ضوء الرذاذ إذا ما لمس النار ثم احترق.

قال المعصري كأنه يتكلم مع نفسه: كل يوم أشاهدك كأنك خارج

الزمان والمكان، تقابل الملك ولا تلتصق به، تصاحب الخطر ولا تفنى، يلقون بك في النار ولا تحترق، تجتمع مع الأسد في القفص ولا يقترب منك، تجمع كل زاد الدنيا بين كفيك ثم تتركه للذئاب، كأنك ما جمعت ولا اشتهيت.

-احترقت ونجوت مرة، اللبيب يفهم.

-وماذا عمن احترق ولم ينج يا محمد؟ الأيام تتدافع لتصل، لا سبيل إلى اللحاق بها. انقضى العمر.

قال محمد كأنه يفهم ما يعني: «الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض».

التفت المعصري حوله ثم قال: حتى شهوة النساء هجرتني. والخمر لم يعد بطني يتحملها. هل يتوب من لا يقدر أيها الفتى الطوسي؟ أتوب كيف وأنا تائب شئت أم أبيت؟ هل تفهمني؟

-قلت: إن الكرم عميم يا معصري والرحمة واسعة، «فإن صفة الرحمة لا تتغير باختلاف أحوالها، وإنما الدنيا والآخرة عبارتان عن اختلاف أحوالك». فلو اختلف حالك الآن فرحمته ثابتة.

-حتى السرقة لا أقوى عليها. لو تبت أكون تائبًا لأني لا أستطيع غير ذلك.

-والجود على أصناف الخلائق فائض. لا تُضيِّق رحمته ولا تحسبها بحساب الآدمي. انوِ التوبة وصاحبني اليوم.

-أصاحبك كيف؟ اللص والصوفي؟ أي صداقة هذه؟

-الخلق بين فتن ومحن كلنا سواء. بيننا عشرة وعدد لا يستهان به

من الخناجر والسيوف.

ضحك المعصري وهو يسعل سعالًا قويًا ثم قال: أصاحبك لأنك تعجبني ولكن ليس قبل أن نلعب لعبة..

قال الغزالي: اقتنص لحظة الصحو ولا تبددها. تعال معي صاحبني بعض الوقت ونلعب على مهل.

-أخبرني أولًا يا فتى ماذا تعلمت في رحلتك الطويلة يا محمد؟

- انكشف لي...

-ماذا انكشف لك؟

نظر إليه الغزالي ثم قال في يقين : «سبق الرحمة وشمولها». رحمة الله تسبق كل شيء وتشمل كل شيء.

-تطمئنني..

-من يقترب يطمئن.

-تريدني أن أترك بيتي هنا؟

-أي بيت لديك يا لص؟ كلنا نبيع الثلج يا معصري، هي أشياء نقتنصها كل حين ثم تذوب بين يديك قبل أن يرتد إليك طرفك.

-يقتلونني لو رحلت.

-الموت لا ينتظر قرارهم يا معصري.

مد يده ثم قال للمعصري: أنت طلبتني يا رجل، لا تتردد تعال معي..

قام فأسند الغزالي ذراعه لينهض ثم قال: لدينا متسع من الوقت

لكل الألعاب. ماذا حل بك يا لص؟ أين قوتك؟ كأنني أستطيع أن أعيد لك سهمك الذي اخترق كتفي. أهذا المعصري الذي كان يخيف كل الأمة؟ ...انهض هيا...أمامنا سفر طويل..

انتفض من مكانه بصعوبة ولكنه قال في غضب: لا تخاطر معي يا فتى.. ولا تأمن طريقك يا غزالي، حتى لو لم يعد المعصري شابًا فهو لم يزل يمتلك القدرة على قتلك.

قال الغزالي وعيناه تلمعان كما الفتى الطوسي الذي لم يتعد الرابعة عشرة: ما دمت أنت معي فلا أمان ولا نوم. هيا يا رجل...لو أردت اللعب نلعب ولو أردت المبارزة نبارز.

-استعددت لي هذه المرة؟

قال الغزالي وهو يمسك بذراعه ويسنده طوال الطريق: كنت دومًا مستعدًا لك.

-بل هزمتك مرة ومرتين..

-بل لم تهزمني قط.

-أنقذت حياتك.

-لم تُصب في سهمك لا أكثر.

-يا فتى لا تغضبني.

ضحِكَا في تلقائية وصفاء.

اقترب إبراهيم السباك من أستاذه وهو لا يفهم شيئًا، لِمَ يصاحبهم اللص في الرحلة؟ يبدو كأنه سيستقر مع الإمام، يصاحبه في كل

سفر. ثم قال: هذا نفس اللص الذي ظهر لنا يا شيخ منذ عشرة أعوام؟

ابتسم وهو يجلس على الأرض ثم قال: المعصري لا بد أن يظهر كل حين. لا طريق يخلو منه.

-ما الذي بينك وبينه؟

-قلت لك من قبل. لا تسألني قبل الوقت وتيقن أنك لا تصل إلا بالسّير.

ولكن المعصري أجاب قائلًا: ما الذي بيني وبين الفتى الطوسي؟ سأخبرك. هو عمل واحد، مثقال ذرة من خير فعلتها في الماضي وعادت تطاردني وتحملني وتنتشلني حتى وأنا أريد الغرق. تركت الفتى الطوسي يعيش وأنا لا أعرف حينها أنه سيعيش ألف عام أو ألفين أو حتى قيام الساعة. مثل الغزالي لا يموت.

التفتوا إلى شيخهم، كان يُثبت نظره على الأرض.. مثل الغزالي لا يموت. جاء المعصري ليقول ذلك له اليوم وقد تساءل أمس عن جدوى ما يكتب وما يجمع. جاء بالإجابة أو كاد.

***

عندما عاد الغزالي إلى نيسابور استقبلته بناته بالأحضان والبكاء، واستقبلته زوجته بابتسامة معرفة ويقين، تكلّما دون نطق. قالت قبل أن يفتح فمه: سنجمع أغراضنا للعودة إلى طوس. وفاطمة لا بد أن تأتي معنا تحتاج إليّ معها وقت الولادة، وزوجها يزورها حتى يشتد عضدها وتعود إليه.

رفع حاجبيه ثم قال: وكيف عرفت أننا سنعود إلى طوس؟

-عرفتك منذ عشرين عامًا يا شيخ أم أكثر؟

فتح فمه ليشرح لها فقالت: كنت أعرف أيضًا أن بقاءك في نيسابور لن يدوم.

-وماذا تعرفين أيضًا يا ثريا يا ثرى؟ أخاف أن تكوني تعرفينني أكثر مما أعرف نفسي.

بدأت في جمع الكتب وهي تكتم ابتسامتها.

وجدها قد نسخت «كتاب الأربعين في أصول الدين»، فأمسك به يبحث عن كلماتها على الهوامش في شغف. وقرأ في حكاية الأسد والغواص: «بعد أن تأكد الأسد من براءة الغواص، أخرجه من السجن ثم ذهب إليه وطلب صفحه، ثم طلب منه أن يُصاحبه بقية العمر، يعطيه النصيحة، ويُذكره بما نسي، ولكن الغواص رفض طلب الملك في رفق. ألح الملك وصمم الغواص على الرفض. وقرر الغواص أن يبتعد عن الملك وأتباعه وكل ما أتلف نفسه. فقال الغواص لنفسه عن الدنيا وغرورها:

«يا نفس، لذة الدنيا كزهر الربيع يعود بعد قليل شوكًا.

يا نفس، الدنيا كالقصاب الذي يسمن ليذبح لا ليمنح.

وكالصياد الذي يطرح الحب ليصيد لا ليجود».

«ثم انقطع إلى بيت من بيوت العبادة في بعض الجبال، فخلا برياضة نفسه وعبادة ربه، وإصلاح ما أفسدته المخالطة من عادته. وكان الملك يزوره من وقت إلى وقت، إلى أن فرق الدهر بينهما».

قرأ الغزالي نهاية حكاية الأسد والغواص. وأعاد على نفسه ما كتبت ثريا «الدنيا كالصياد يطرح الحب ليصيد لا ليجود». أي حكمة تمتلك هذه المرأة وأي معرفة؟ وقف لحظة متجمدًا مكانه. وقف رهبة من صدقها. العاشق يَصدُق. مِحن الدنيا ربما حفرت الآبار داخل الجسد، وفِتن الدنيا لوثت الكبد أحيانًا، ولكن عطاء الله لا حدود له. كأن الإشارة قد أصابت القلب. يا محمد...ألا تعرف؟ ستبقى كلماتك يا رجل، الصدق دومًا يبقى. وستبقى كلماتها، ترى ماذا سيقولون عنك؟ هل سيُكفرك البعض أم سيتمسك بك المتعصبون ويشوهون كلماتك؟ ربما يقتنص كل رجل في كل زمان بعض الكلمات، ربما ستنتشر كتبك وتوقظ العقول من الخمول؟ مَنْ يدري؟! تمنى أن تُوَحد كلماته بين الناس، أن تضيء الحقيقة كما المشكاة، أن تفيض الرحمة المؤكدة وتضيء من غير أن تمسسها نار، ولكنها ثريا من أحكمت سيطرتها على الكلمات.

عند العودة إلى طوس اجتمع مع بناته على العشاء، ثم ذهب في الصباح إلى الخانقاه، وعاد إلى دروسه. بدأ يُملي على عبد الملك كتابًا جديدًا أطلق عليه «منهاج العابدين».

أما ملك الشرق سنجر فقد أُغرم بالغزالي. أصبح يفكر في حديثه ويطلب من حاجبه أن يعيد عليه الرسالة كل يوم. ويقرأ له كتاب «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» كل يوم جمعة. بلغه أن الغزالي وزع الهدية التي بعثها له على فقراء طوس. ابتسم في معرفة: مثل هذا الرجل لا بد أن يُحترم، فقد قضى الملك حياته منذ كان في العاشرة والرءوس تنحني واليد تمتد والأنياب تفترس. ثم جاء الغزالي فعلمه كيف يعرج البشر إلى سابع السماوات، وكيف تكمن

الشجاعة في التخلي. وكلما تمكن المجد أصبح التخلي فعل الملائكة والأرواح الحرة. ولكنها كلمات الغزالي عن العدل التي تستوقفه فيعيد قراءتها في حيرة. هل يستطيع؟ هل يجرؤ؟ هل يملك القوة على إصلاح خواصه؟ يا غزالي ربما تقسو في كلماتك على الملوك فلا قُدرة لهم على السيطرة! مقيدون بقيود من الذهب الخالص والزخرف المتمكن من العروق!

أشار سنجر للحاجب فقرأ: «إذا كان الملك عاجزًا عن إصلاح خواصه ومنعهم عن الظلم، فكيف يقدر على رد العوام إلى الصلاح؟ إن الدنيا عمرت بالعدل فكذلك تخرب بالجور؛ لأن العدل يصفو نوره وتلوح تباشيره من مسيرة ألف فرسخ».

قال سنجر في صوت خافت مصحوب بعجز يخطر ولا يستقر كأنه يتكلم مع الغزالي: العدل يصفو نوره يا شيخ.

ثم أمر الحاجب قائلًا: احكِ لي الحكايات التي كتبها في الكتاب عن قصص عدل الملوك في الماضي.

استمر الحاجب في القراءة.

الفصل الواحد والعشرون

«مثل الدنيا مثل ظل إذا رأيته حسبته ساكنًا وهو يمر دائمًا».

الغزالي

ترك الغزالي بغداد منذ خمسة عشر عامًا، استأذن وخرج وقد أقسم ألا يعود أبدًا. ولكن اليوم جاءت له بغداد. تاق إليها في الماضي وسعى لها، واليوم سعت بغداد إليه. جاءه وزير خراسان في زيارة، قال إن معه رسالة من وزير بغداد. جلس وقدم له الغزالي الفاكهة. بدأ الوزير كلامه قائلًا: يا قدوة العالم ووحيد العصر، جئتك اليوم بتكليف لا يمكن رفضه أو التأخر فيه لأنه من أمير المؤمنين الخليفة المستظهر، ومن الوزير أحمد بن الشهيد نظام الملك، هو تكليف بأن تكون أنت مدرس مدرسة النظامية ببغداد. فقد توفي الشيخ الهراسي ولم يعد للمدرسة أستاذ. عليك أن تعود إمام بغداد يا حجة الإسلام.

قال الإمام كأنه يعيد الكلمات ليعيد معها عمرًا مر: أعود إمام بغداد!

-نعم.. هذا أمر كما تعرف ومن الصعب أن تعصي أوامر الخليفة. إنها بغداد يا شيخ، بلد الخليفة القريبة من الحرم النبوي.

ساد الصمت برهة ثم قال الغزالي: «إن مفارقة الوطن تكون لطلب زيادة الدين أو زيادة الدنيا. أما زيادة الدنيا والإقبال لطلبها بحمد الله تعالى فقد تخلص القلب منهما، فلو أتوا ببغداد إلى طوس بدون أتعاب وهيئ للغزالي المُلك والمملكة صافية مسلمة لم يكن مني أي حركة ولا التفات قلب إليها، فلا رغبة لي في زيادة الدنيا، والدين

حولي أينما أكون».

-يا شيخ...إن بغداد أقرب إلى الحرم النبوي..

-«الطريق إلى الله تعالى من طوس وبغداد وكل البلاد سواء، ليس بعضها بأقرب من بعض».

-الخليفة لن يتقبل عذرك.

-لدي مائة وخمسون طالبًا هنا، هل أتركهم من أجل ثلاثمائة فأكون مثل من يرمي مائة يتيم في الطريق لينقذ ثلاثمائة؟

-نتدبر أمرهم.

-أقسمت عند قبر إبراهيم ألا أجادل أحدًا وألا أخالط سلاطين ولا أقف ببابهم. كيف أرحل إلى العراق ولا بد هناك من المجادلة؟ وكيف أكون المدرس ولا أقابل الخليفة؟ أنا لم أعد شابًا، شارفت على الرابعة والخمسين..

-الشيوخ في الثمانين يا إمام وتُدرس وتعظ.

-اعتبر أن الأجل جاء، بل هب أن الأجل جاء عند وصولي، ماذا ستفعلون حينها؟ ستبحثون عن غيري؟ ابحثوا من الآن.

-يا إمام..

-اتركها على الله وتوكل عليه، اعتبر أن الغزالي جاء أجله وابحث عن غيره.

-هذا كلام يُغضب الخليفة..

-من يتوكل على الله فهو حسبه.

-تكتب رسالة بهذا الكلام بنفسك للخليفة والوزير.

-أكتبها وأعطيها لك قبل نهاية النهار.

***

استمعت من وراء حجاب، رأته وهو يفرد ظهره ويسند على الحائط ويغمض عينيه، اقتربت ثم قالت: كيف أصبحت هكذا؟ أي قوة تملك؟

- لا أمتلك أي قوة، نحن في جهاد مستمر. نفسي تتمرد فأجمحها أحيانًا وأتجاهلها أحيانًا. تطل على رأسي بالوساوس، تُنكر عليّ الانزواء والإعراض ولكني أوبخها وألجأ إليه، فالله خير وأبقى. أروم إلى منصب أكبر من منصب الإمام، «أتمنى المُقام في مقعد صدق عند مليك مقتدر».

نظرت إليه نظرة إعجاب وانبهار، خفق القلب ليس فقط حبًا بل رهبة من هذا التخلي وهذه القوة. أمسكت بيده وقبلتها ووضعتها على صدرها ثم قالت: لم أستحق أن أصاحب مثلك.. من أنا لأُصاحب مثلك؟

-كأنه قدرك يا ثريا تتحملين مثلي. تعيشين في فقر وتتحملين غيابي عامين ثم غيابي ساعات في الكتابة والتدريس والخلوة. أي شقاء تحملت؟!

-لا شقاء يساوي الاستماع لكلمة من كلماتك، ولا قراءة جملة من كتبك. الغواص.. هكذا أريد أن أطلق عليك.

نظر إليها وابتسم.

***

انتشرت رسالة الغزالي التي كتبها للوزير باللغة العربية ورفض فيها منصب إمام بغداد. قرأها الناس في البيوت والوعاظ في المساجد. الشيخ المجدد رفض مرة أخرى منصب إمام بغداد. هذه شجاعة من لا يأبه بالأخطار. كل قاضٍ قرأ الرسالة وتحسر، أحدهم ندم على رشوة وأقسم ألا يأخذها مرة ثانية، وآخر ندم وأخذها. هذا يعيد النظر فيما فات، وهذا لا يأبه بما هو آت، ولكن منصور لم يصدق. يرى الغزالي بصورة واحدة؛ صورة قبيحة في مخيلته منذ أعوام، أربعين عامًا أو يزيد. يهدد الرجل وجوده وكيانه، يزعجه ويحيره. لو مات تنتهي كل أزماته. قالها منصور: لا بد أن يموت الغزالي اليوم.

فقد ظن منصور أن الغزالي انتهى عندما ترك منصبه، ولكنه كأنه قد بدأ حينها، اخترقت كلماته كل الصدور، أصبح يرددها الناس من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. امتلك العالم في قبضة يده وجاءه الملوك دون سعي منه ولا حتى طلب. لا يعرف رجلًا وصل لهذه المكانة في هذا الكون. هل لو مات تنتهي كل معاناته يا ترى؟ كلما ردد الناس اسم الغزالي أمامه كان كمن لدغته عقرب أو ثعبان. والاسم أصبح كما أسماء النجوم يحفظها الناس عن ظهر قلب، كأنهم يسترشدون بها في الليالي الظلماء.

نعم، يُدوي اسمه في كل بيت وتذكره القلوب بالخير والبركة. هنا «المنقذ من الضلال» لا يترك يد شيخ أو شاب. وهنا «ميزان العمل» يعطي الضال خطوات للهداية ويمحو من قلب الحيران حيرته، يدعو للتفكير والبذل، للشك واليقين. يكتب ما لم يكتبه أحد مثله. هذا

ليس إمامًا وأستاذًا وقاضيًا، لا هو رجل دولة ولا دين، بل هو رجل يصل إلى القلوب.

ما يشق نفس منصور هو عدم اكتراث الغزالي نفسه. كأنه لا يترع بالثناء والإطراء. هل لم يعد يسمع ولا يرى، أم أصابه داء لا يفهمه منصور يا ترى؟ أي رجل هذا؟ صلب كما الحديد أم رهيف كما الملائكة؟

لا بد من قتله والانتهاء من تأثيره. فبالنسبة لمنصور حكاياته هراء وكلامه المعسول يُضل ويهز الثقة في كل المذاهب. منصور الأشعري لا يرى الغزالي مثله، لم يعد الغزالي أشعريًا كما كان، وأحيانًا يتكلم بكلام يخرج عن كل المدارس. يدعو للرحمة والود. يتهم الشيوخ بتضييق رحمة الله. يتورع ويتردد في التكفير، ينتقد من يرهب العامة ومن يُثقل عليهم بكلمات لا يفهمونها. الغزالي لم يعد أحد يستطيع كتم كلماته فلا بد من أن يصمت. سهم يصيب قلبه عند الشريان فتتوقف الدماء عن الانفجار في وجوه العلماء قبل الخلفاء. تُرى لو مات اليوم أو قُتل فهل سينساه الناس؟ سأل منصور دون أن يسبر أغوار سؤاله.

الغزالي يجب أن يموت؛ قالها اليوم أكثر من رجل. قالها رجل جادله الغزالي في الصِّغر وقضى على كبريائه، انتظر عامًا وراء عام، وكلما هم بقتله أوقفته الأقدار، ينتصر انتصارًا يحفر الوجه، لا يمكن أن يتغاضى عنه ولا أن يسلوه. سيقتله لأنه خطر على الجميع، نعم، سيقتله لأنه ترَك. ترَك وتخلى وسط مجده فخلد الدهر اسمه، سيقتله لأنه استطاع أن يُثبت ما يقوله، أن يعمل بما علم. سيقتله لأنه ابتعد عن السياسة والسلطة وهرب من الجاه والرياء، لا دنيا تحكمت به ولا

طمع في جنة وحور عين.

ربما اليوم يكون مقتل الغزالي على يد صالح الذي انتزع منه الغزالي معرفته وزوجته وابنه الوحيد، أو على يد منصور، أو على يد هذا الشاب «الحشوي» الذي وقع نظره على كلمات للغزالي من كتابه عن أسماء الله الحسنى، كأنه يقول إن الله ليس على عرش كعروش الأرض وإن الله لا مسافة له ولا حدود. الغزالي يقول إن غضب الله ليس كغضبنا وحبه ليس كحبنا. الغزالي يقول إن الله أكبر من أن نصفه بصفات البشر وإن الله غني عن العالمين. يقول إن المعاني تستعصي على أصحاب العقول الضعيفة. هذا الحشوي لا يفهم كلمات الغزالي ولا تأويلاته، لا يفهم إلا المعنى الحرفي فقط. فلا بد من قتل الغزالي لأن لديه كتبًا يصعب فهمها مثله مثل الفلاسفة حرّم بعض كُتبه على أصحاب العقول الضعيفة مثل الفلاسفة أيضًا. ماذا يعني الغزالي بـ «صدور الأحرار قبور الأسرار»؟ ها هو يتكلم كلمات لها أكثر من معنى وليس كل من يقرأ غواصًا. ما نجهله نكرهه. هكذا يقول أيضًا. ليمُت اليوم.

أربعة يريدون قتله حتى الآن أو أكثر، لا أحد يدري. كلٌّ باقٍ في مكانه ولكن نفوسهم حول خانقاه الغزالي تتمنى يوم موته. كأن كلًّا منهم ينظر للآخر، أبرموا اتفاقًا غير مختوم. في موت الإمام نهاية لهذا الأرق والعذاب والحزن والغضب الذي يحاصرهم. ولم يجرؤ أي منهم على الضرب بالسهم أو الرمح. انتكست الرءوس وتآزروا بالعجز. لا يمكن قتله ليس خوفًا من سلطان بل من العامة، خوفًا من أهل طوس وأهل الجبال من أهل الشرق والغرب، مِن كل مَن استمع إليه وأصابت كلماته القلب.

قالها منصور أول واحد: ولكنه سيموت اليوم أو غدًا، وعندما يموت يختفي أثره فلا ولد لديه ليرث علمه.

ولكن حتى منصور مرت هزيمته أمامه فتركها تهرب من بين يديه حتى لا تذبحه. لا موت لمثل الغزالي. ترَك فخلّد اسمه، وضحى فتولى، ضعُف فتمكن، وأدرك فتحصن، وخفض جناحيه فحلّق عاليًا حيث لا وصول له ولا طريق لقنصه. لم يعد الإمام معهم ليحاربوه. هكذا واجهوا أنفسهم وهكذا سطع العجز فأعمى الأبصار.

***

الألم جاء على حين غفلة وهو وسط طلابه، زاغت العينان فجأة وانتابته رغبة في القيء، ضغط على موضع القلب بكفه وتوقف عن الكلام. انتفض أحمد من مكانه وقال وهو يمسك به: ماذا بك يا محمد؟

قال في صوت متقطع: أنا بخير.

ولكنه لم يكمل درسه.. طلب العودة إلى البيت.

توقع فزع ثريا وشهقات فاطمة وتشبث زينب وعائشة بيديه، أغمض عينيه ونام بعض الوقت. وثريا لا تكُف عن سؤال الطبيب وإعادة الإجابة. يطمئنهم.. سيصحو ويكون في حال أفضل، ربما أرهق نفسه لا أكثر. ولكن الدموع تساقطت من عيني أحمد الغزالي بلا توقف، ارتجف الجسد كأنه طفل فقد أبويه في اللحظة. تاه برهة، رأى والده أمامه بعينين مغمضتين، نخر الفقد قلبه حينها حتى تمنى أن يتفتت في أعماق البحور ولا يلملم أشلاءه أحد. ثم كان محمد.. كان كل شيء. عندما يغضب من الدنيا يلجأ إليه مغاضبًا، وعندما

يجد الحب يريد أن يشاركه متحمسًا؛ تارة يخرج ما بداخله من ضغائن، ويسكب اليأس بين راحتيه فيهدأ، وتارة يلجأ إليه كأنه أمه التي سترضى مهما اقترف، وستغفر مهما رأت قسوة وعنادًا. كان هو مَنْ يحتوي ويُعلم ويصبر. هو محمد، من انشقَّ من الرّحم نفسه فرَحم.

قالت ثريا كأنها تطمئن نفسها: هو بخير.

***

أحيانًا مشاهدة الدنيا من الخارج أسلم حتى لا تحاول أن تحاصر الحزن بداخلها. لا يحتاج الطبيب إلى أن يتكلم؛ فعيناه تكلمتا ودموع أحمد تنطق بكل الحروف. من يشكو من ألم في الصدر لا يعيش أكثر من أيام حتى ولو بدا أنه في خير صحة. ولكن زوجها لا يبدو عليه أي قلق ولا ضعف. تومض عيناه كما سراج لم تمسسه نار ولا زيت مطمئنًا وفرحًا. حاولت أن تبقى حوله لأن في نظرته أمانًا ويقينًا يخمدان أي فزع. ولكن أحمد هو من يئن حولها. يرتبك، يبكي بصوت عالٍ، يدفن وجهه بين راحتيه ثم يخرج ويغيب ويأتي من جديد كأنه طفل يهرع إلى أمه وقت الخطر. يدخل على أخيه فينظر إليه بلا كلمة حتى وهو نائم. أحيانًا يستيقظ محمد ويبتسم ثم يقول: اذهب إلى بيتك يا أحمد. أنا بخير.

وأحمد لا يتحرك.

عند الفجر استيقظ ثم نظر إلى أخيه وقال مداعبًا: هل يمكن أن تتركني دقيقتين.. أرتدي ملابسي وأخرج لدرسي معك؟

قال أحمد في حسم: لا.

نظر محمد إلى زوجته ثم قام ودفع بأخيه في رفق خارج الحجرة وقال: انتظرني دقائق سأخرج إليك.

وعندما خرج وجد كل طلابه ينتظرون داخل بهو منزله.

***

سلم عليهم واحدًا واحدًا ثم طلب من زوجته أن تحضر من وراء ستار وأخرج بعض الكتب وقرأ أسماءها: جواهر القرآن، كتاب الأربعين في أصول الدين، معارج القدس في معرفة النفس، مشكاة الأنوار..

هذه الكتب لا يقرؤها إلا الراسخون في العلم. التقت عيناه بعيني عبد الملك، فابتسم ثم قال: أتعرف اليوم مَن الراسخون في العلم؟

ابتسم في دفء ثم قال: أحاول.

-صدقت. لو كنت أجبت بأنك تعرف كنت سأحرم الكتب عليك أيضًا. هذه الكتب مضنون بها على غير أهلها. ومن لا يتبع هذه الوصية يكون قد خالف كلامي. أنت يا عبد الملك تعلمت وآن لك أن تُعلِّم. عد إلى ديارك.

فتح عبد الملك فمه ليعترض فقاطعه الغزالي: ومن منع المستوجبين من علمه فقد ظلم. عَلِّم غيرك ما تعلمت.

قال عبد الملك: يَعِزُّ عليّ فراقك، في كل نفس حولك أدرك ما لم أدركه طوال عمري الفائت.

قال الغزالي وهو يربت على كتفه: كتاب «منهاج العابدين» أمليته

عليك أنت يا عبد الملك، من يدري؟! ربما يكون آخر ما كتبت. أردتك أن تحمله في قلبك إلى الإسكندرية.

قال عبد الملك: هو في قلبي؛ الكتاب والكاتب. أوصني يا إمام قبل أن أعود إلى دياري.

قال بلا تفكير: عليك بالإخلاص وكفى.

رمشت بعينيها.. لم يعجبها أنه يوصي اليوم، لم يزل في العمر الكثير. هكذا تتمنى. لِمَ يوصي؟ ولِمَ يجمع؟ ولِمَ يريدها أن تشهد؟ أمسكت بقلبها كأنها تخاف من دنيا تغدر كل حين.

خرج الطلاب ثم قال أخوه: متى ستعود إلى درسك؟

قال في حسم: اليوم.

فقال وهو يمسك بذراعه: هيا إذن.. كنت تبدأ الدروس بعد صلاة الفجر..

أمسك بيده وأبعدها في رفق ثم قال: انتظرني بالخارج يا أحمد..

خرج أحمد وعيناه تطاردان أخاه كأنه ينقش الرسم على موضع القلب للأبد.

بقيت هي فقط معه ثم قال: هذه الكتب ستبقى هنا في بيتنا دومًا، معكِ أنتِ.

قالت: ربما لو احتفظ بها أحمد..

قاطعها، وهو يمسك بيدها: ثريا، الكتب هنا في بيتنا، معك أنت.

ارتجفت كأنها ترى بعين القلب الفقد القادم. بلعت دموعًا خافت من

تدفقها أمامه، لا تريد له الهم. حياتها كانت كلها منسوجة حوله وكأنها خلقت لتفرغ من خلقها خيوطًا تحدد بها الأيام والشهور بأسماء كتبه وهواء أنفاسه. عندما يستقر الحب في القاع يصعب التعبير عنه بالكلمات، وعندما يكتسب مكانة كهذه فالصمت واجب والسر محفوظ. آه يا محمد! هل تعرف ما فعلت بي.. وبغيري؟ ولكن بي أنا فقط، فهذا يكفي.

قال كأنه يقرأ أفكارها: «ليس في الموت إلا تبديل منزل».

قالت في غضب: لِمَ تذكر الموت الآن؟

التقت أعينهما ثم قال: معك حق. تعالي نتكلم عن كتاب نسخته بنفسي.

فقالت مسرعة وهي تبتلع الدموع: كنت تطلب مني أن أساعدك، لا أريدك أن ترهق نفسك.

قال: هذا الكتاب لا بد أن أنسخه بنفسي، أريد أن أقرأ عليك جزءًا منه، سيعجبك لأنه أعجبني. أتعرفين؟! أعوامًا أبحث عن دليل، عن اليقين، أسافر، وأُمتحن، أتخلى لأتحلى، ولكن تأتي الدمشقية زوجتي فتعرف الحقيقة بين ثنايا الحروف وانحناءات القلوب. كأنها كانت معي منذ البدء. استمعي إلى هذه الكلمات:

بدأ يقرأ:

«وجميع العالم مربوط بعضه ببعض كالزارع الذي لا يتم أمره إلا بالحداد، والحداد لا يقوم عيشه إلا بالزارع، وكالكتابة على حجم الدفتر فإنها لا يتبين معناها إلا عند ضم بعضها إلى بعض. وكذلك أمر

العالم، لا تُعلم الحكمة في أجزائه إلا عند إضافة بعضها إلى بعض، ولهذا يصعب على من لم ينظر في العالم نظرًا كليًا وجه الحكمة من أجزائه؛ لأنه يرى شيئًا ناقصًا تمامه في غيره».

ابتسم وهو يعيد القراءة، كلمات كما كلماته بها وضوح وإخلاص وفهم أعمق مما تصور. قال مرة أخرى: لأنه كان يرى شيئًا ناقصًا، هذا أنا في البدء، وهذا الشيء تمامه واكتماله في جمع جميع أجزائه، في وحدته وصحته كله؛ لأن الصانع واحدٌ والقلم الذي خطه هو قلمه هو. كتبت الكتب لأعبر عن معنى يستعصي على البعض، ولخصت أنت المعنى في جملتين. مَنْ يا تُرى الغواص الذي أتقن الحروف وجمعها اليوم؛ أنا أم أنت؟

شهقت وفتحت فمها في ذهول. لو كان هذا إطراء فلا تتحمله، ولو كانت كلمات عن معرفة فلا تدري لو كانت تتحمل وطء روعتها.

أمسك بيدها. أطال نظره إليها. فزعت، نعم.. وارتبكت. كانت كلماتها كتبتها على هوامش كتبه. كانت حكايتها.. «الأسد والغواص».

ازدادت قبضته على يدها كأنه يهدئها ثم قال: أتعلم كل يوم أن هناك حقائق لا بد أن أدركها. بعضها يؤكد ما في القلب والبعض يشعرني بنقص علمي. الحروف لا بد أن نضم بعضها إلى بعض، والكلمات لا بد أن تتصل لنفهم ثم ننظر إلى الأوراق كلها لنغوص داخل الحقائق. زوجتي تكتب أن الغواص لا بد أن يجيد السباحة وسط الحروف والمعاني والكلمات. زوجتي تعرف أكثر منا جميعًا.

قالت في صوت متقطع كأن الأنفاس تخرج في صعوبة الآن: كنت تعرف من البدء؟

ترك يدها ثم أمسك بالكراسة وأخرجها، وضعها بين يديها ثم قال: أعدت كتابة كل الهوامش، جمعتها في كتاب واحد، ولكنني أعرف أنك ستعيدين ترتيبها، فهي من قلبك ولا يعرف قلبك غيرك.

فتحت فمها، قالت: منذ متى عرفت؟ منذ متى قرأت؟

أمسك بيدها وقال: كتبت عني، قلت إن الغواص كان يحيا في رخاء، يرى لنفسه فضلًا على غيره. صاحب الأسد ولكنه أدرك أنه «لا يصلح لصحبة الدنيا إلا أهل الدنيا».

لم تستطع النطق. قرب كفها من فمه وقبلها قبلة طويلة.

قالت في ارتباك: اعذرني لو كنت سودت هوامش كتبك.

-بل ابيض الهامش بكتابك.

نظرت إليه بلا كلمة فأكمل: منذ زمن، منذ أعوامٍ، أقرأ كتابًا غير كل الكتب؛ لأن كاتبه مختلف. أحيانًا يعطي الله سراجًا للنور داخل النفس، فهو النور يضيء قلبك يا ثريا منذ زمن. ستسألينني: لِمَ لم أخبرك منذ عام أو عشرين عامًا؟ كنت أخاف أن أفزع الضوء أو أطفئه، فضوء مثل هذا رقيق يحتاج إلى عناية، انتظرت حتى تنتهي ولكنك انتهيت من الحكاية، أليس كذلك؟

لمعت الدموع المكتومة ثم انهمرت بلا توقف.

قال وهو يضغط على كفها: تساعدك الكلمات.. عندما تخرج الكلمة من القلب بلا حواجز تكون كالدواء للسقيم؛ لأنها تكون بإلهامه هو ومن نوره هو. أردت أن أكتب أنا الكتاب بخطي وأعطيه لك وأُخبرك أنني أحبه.

كتمت ابتسامة تخرج من بين الدموع ثم قالت: مع أنى تطاولت أحيانًا، أقصد..

قاطعها وهو يبتسم: تطاولت.. نعم، ماذا قلت عن الغواص في كتابك يا ثرى؟ إنه في البدء كان يرى لنفسه فضلًا على غيره، يتملكه الغرور، يفرح بعقله وعلمه...قلت هذا..

طأطأت رأسها فأكمل: وكنت على حق ولكن أن تقرئي عن نفسك غير أن تعرفي عنها. لم أعرف طوال عمري امرأة تكتب كتابًا كهذا عن السياسة والحكم والزُّهد والحب، كأنها تعرف الغواص حق معرفة. ترى من يعرف الغواص مثلها؟

-مَنْ يُحب يعرف.

-بل مَنْ يعرف يُحب.

قال في رقة وهو لا يترك كفها: تقولين في كتابك إن «الكلمات لا يَتبين معناها إلا عند ضم بعضها لبعض». لو أدرك الغواص هذا في البدء ما شَقي. تدركين أنت.

نظر إليها وقال دون أن يقرأ كأنه حفظ الكلمات عن ظهر قلب: «يصعب على من لم ينظر في العالم نظرًا كُليًا وجه الحكمة من أجزائه؛ لأنه يرى شيئًا ناقصًا تمامه في غيره».

ثم قال في يقين وهو يحيط وجهها بكفيه: الأسد والغواص..تكمل الجزء الناقص في الحكاية. أنت..تكملينه فتكتمل الحقيقة.

احتضنت نفسها خوفًا على الكلمات من الهروب كأنها تقبض على اللحظة والزمن، اقترب منها وأبعد ذراعيها ثم ضمها إلى صدره

وهمس وهو يقبل وجنتها: لا تخافي على الكلمات ولا تخافي من الزمن ما دُمت قد وضعت قلبك في كتابك فسيبقى.

ضغطت كل كتفيه بكل قوتها، تتشبث بكل روحها.

***

قال أحمد عندما خرج إليه محمد وهو يداري عنه وجهه: هيا إلى درسك.

وضع يده على كتف أخيه، فالتفت إليه والدموع تتساقط بلا توقف. ابتسم ثم قال: أتبكي عليّ وأنا أمامك؟

قال أحمد: أبكي لأنني لا أستطيع أن أتصور إلا أن أجدك أمامي دومًا.

ساد صمت به مذاق الصحبة والونس ثم قال محمد: متى كانت آخر مرة نسبح مع النجوم؟

مسح أحمد دمعة بظهر كفه ثم أجاب: منذ أعوام.

مد محمد يده ثم قال: لنرَ لو كان الأخ الأصغر أقوى أم الأكبر..

-والدرس؟

-سنعود إليه. الآن نذهب إلى الجبل.

جريا معًا إلى أعلى الجبل.. علت دقات القلب وتوقفت الساعات. جُمع الزمان في اللقاء.

استلقى الأخ بجانب أخيه على حافة الجبل، مد محمد كفه ثم قال في صوت بطيء: أعطني يدك وأغمض عينيك لنسبح مع النجوم

ونترك هذه الأرض. نتخطى كل ألم وكل هوًى.

برق خاطف، ومضة من النور أتت ولم تستقر، أصبح محمد يلهث وراءها... رجّت الجسد رجًا. انتشر دفء وعطر وأمان وحنان في كل الأنحاء.

قال أحمد: أنت لن تتركني أغرق أبدًا، أليس كذلك؟

فقال محمد: أين أنت؟

قال أحمد: أسبح... ولكن كلما اقترب الضوء ارتعدت.

وازدادت قبضته على يد محمد أخيه..

قال محمد في يقين: الضوء كله أمان.. به نحيا ووسطه نسبح. ترتعد لأنك تغوص فيه فلا تراه رؤية العين، ولكن أغمض عينيك واتركه يتخلل الروح فيضيء الجدران كلها.

ضغط أحمد على جفنيه ثم حدق بمقلتيه إلى الأفق ثم قال: نور من لدنه يعطيه لمن يشاء كيفما شاء. أعطاه لك... أنت... أخي... في الماضي غُصت تبحث عني في أعماق النهر، أتتذكر؟ أنا أتذكر. طمس الظلام عيني واختنقت ثم جئت أنت..

قال محمد في يقين: كنت أقول لك دومًا إنني أبدًا لن أتركك تغرق.

تمت بحمد الله

على هامش التاريخ

مات أبو حامد الغزالي في نفس اليوم في زاويته وهو يعطي درسه. كان في حوالي الرابعة والخمسين من عمره. أما آخر جملة قالها فكانت كما نقلها لنا أحمد الغزالي: «سمعًا وطاعة للدخول على الملك».

استمر أحمد الغزالي في تدريس كتب أخيه وشرح كتاب إحياء علوم الدين للطلاب بقية عمره، وعاش بعد أبي حامد أكثر من خمسة عشر عامًا. وكان من طلابه المشهورين أبو النجيب السهروردي.

لم يزل الغزالي يعد من أهم مفكري العالم ومن أكثر العلماء المسلمين تأثيرًا على الإطلاق، سواء في الغرب أو الشرق، بل أكاد أجزم أنه أكثر مفكر تمت الكتابة عنه في كل العالم حتى بعد موته بأكثر من ألف عام. تُرجمت الكثير من أعماله لكل لغات العالم.

كُتبه في الفقه الشافعي وعلم الكلام تُدرس كمرجع أساسي في مدارس الشافعية، وكُتبه عن الصوفية أسست لفكر صوفي مُنظم وشامل وأثرت في كل علماء الصوفية من بعده.

يُعد كتاب «المنقذ من الضلال» من أشهر كتب السير الذاتية في العالم. ورحلته من الشك إلى اليقين التي كتب عنها في «المنقذ من الضلال» في الغالب أثرت على الفيلسوف ديكارت الذي كتب عن رحلة مشابهة جدًا، مع أن ديكارت وُلد بعد الغزالي بحوالي 530 عامًا في فرنسا.

أما كتاب «إحياء علوم الدين» فيُعتبر من أهم كتب الفكر

الإسلامي، ومن أكثر كتب «الأخلاق» و«الصوفية» تأثيرًا في العالم. حاول الغزالي في كتاباته أن ينقذ الأمة من التيه والغرق ووضع على عاتقه تكليفًا بتبديد الحيرة وتصفية النفوس.

قال الزبيدي شارح الإحياء: «وأنا لا أعرف له نظيرًا في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر، والفكر والأثر».

وقال تاج الدين السبكي في كتابه طبقات الشافعية: «وهو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها، وإشاعتها ليهتدي بها كثير من الخَلق، وقل من ينظر فيه إلا ويتعظ به في الحال».

تعرض كتاب إحياء علوم الدين للانتقاد أيضًا من ابن تيمية وأبي الفرج بن الجوزي، وخاصة من أجل الفكر الصوفي الذي يؤسس له.

اتهمه بعض الفلاسفة أنه يناقض نفسه في كتاباته؛ منهم ابن رشد، ولكن ابن طفيل أدرك أن للغزالي كُتبًا لم تصل إلى الأندلس قد ذكرها الغزالي نفسه، وقال إنها مُحرمة على من لم يَرسخ في العلم، وأطلق عليها «المضنون بها على غير أهلها». وصلت إلينا بعض كتب الغزالي المضنون بها على العامة التي كتبها فقط للعلماء الراسخين في العلم، وأصبحت في متناول الناس؛ منها: مشكاة الأنوار، وجواهر القرآن، وكتاب الأربعين في أصول الدين، ومعارج القدس.

من يقرأ للغزالي يعرف أنه يكتب لأكثر من قارئ؛ لقارئ عام وقارئ خاص. وما يكتبه للقارئ العام غير ما يكتبه للخاص، والسبب في هذا هو أنه كان دومًا يحاول الحفاظ على عقيدة العامة، وعدم تشتيت فكرهم أو تلبيس اعتقادهم.

ترك الغزالي منصبه وسلك المسلك الصوفي، حتى قال عنه إسماعيل بن علي الموصلي الواعظ الذي عاصره: «دخل أبو حامد بغداد فقوّمنا ملبوسه ومركوبه خمسمائة دينار، فلما تزهد وسافر وعاد إلى بغداد قومنا ملبوسه خمسة عشر قيراطًا».

قال عنه القزويني: «لم تر العيون مثله لسانًا وبيانًا ومنطقًا وخاطرًا وذكاء وعلمًا وعملًا».

ذُكر للغزالي 228 مؤلفًا وقال القزويني أيضًا في آثار البلاد وأخبار العباد: «قيل: إن تصانيفه وُزعت على أيام عمره فأصاب كل يوم كراسًا».

معظم الدراسات عن الغزالي باللغة العربية تغفل رسائل الغزالي المُجمعة التي كتبها بالفارسية؛ لذا نجد أن العلماء العرب لم يذكروا رسالة الغزالي لملك الشرق سنجر، ولم يذكروا رسالة الغزالي للوزير التي رفض فيها منصب إمام بغداد مع أهمية الرسالتين. تم ترجمة رسائل الغزالي إلى اللغة العربية في منتصف القرن العشرين فملأت الكثير من الفراغات عن فترة عودته إلى طوس وتدريسه هناك وعلاقته بالعلماء والحكام والأصدقاء بعد محنته وترك منصبه.

وصلت لنا مخطوطة من حكاية الأسد والغواص دون ذكر اسم المؤلف، ولكن كلمات الغزالي وأفكاره وسيرته كانت تصاحب من ألفها كأنه أقرب إليه من أي إنسان.

في آخر أيامه طلب طلابه منه وصية في جملة واحدة فقال: «عليكم بالإخلاص».

ملحوظة:

معظم مجادلات الغزالي وكلامه مع طلابه في الرواية من كُتبه وآرائه المنشورة بتصرف الكاتب.

رسالة الغزالي إلى ملك الشرق سنجر تُرجمت من الفارسية للعربية في الستينيات من القرن العشرين موجودة في الرواية كما هي مع تصرف بسيط في الترجمة.

المقاطع الموجودة من الأسد والغواص مقاطع حقيقية بتصرف بسيط.

ذكرنا في بداية الرواية محرر كتاب الأسد والغواص، وذكرنا الربط الذي وجده العالم الألماني بين شخصية الغواص وشخصية الغزالي.

المصدران بالتفصيل هما: السيد رضوان. الأسد والغواص: حكاية رمزية عربية من القرن الخامس الهجري. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1978.

Griffel, Frank. Al-Ghazali's philosophical theology. Oxford: Oxford University Press, 2009.